



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

البحوث الفائزة
في

مسابقتك فضلك علمي

مجال الإعلام والحسين الجبتي

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

شعبة الدراسات والبحوث



العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
شعبة الدراسات والنشر

كربلاء المقدسة

ص.ب (٢٢٣)

هاتف: ٢٢٢٦٠٠، داخلي: ١٦٥-١٦٣

www.alkafeel.net

info@alkafeel.net

البحوث الفائزة في مسابقة افضل بحث علمي بحق الامام الحسن المجتبى عليه السلام.-
الطبعة الاولى.- كربلاء، العراق : العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة
الدراسات والنشر، 1437 هـ. = 2016.

509 صفحة : مشجرات، جداول ؛ 24 سم

المصادر.

1.الحسن بن علي المجتبى (ع) |الامام الثاني، |d3-50 هجرياً. الف. العنوان

BP193.12 B8 2016

الفهرسة والتصنيف في مكتبة العتبة العباسية المقدسة

الكتاب: البحوث الفائزة في مسابقة افضل بحث علمي الأول.

الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة.

مراجعة: شعبة الدراسات والنشر.

التدقيق اللغوي: مصطفى كامل محمود، عمار كريم السلامي.

الاخراج الطباعي والتصميم: علاء سعيد الأسدي-محمد قاسم النصاروي.

المطبعة: دار الكفيل للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة: الأولى.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

رجب الأصب ١٤٣٧هـ-أيار ٢٠١٦م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين باعث الانبياء والمرسلين هداية للبشر اجمعين،
والصلاة والسلام على خاتمهم النبي الاكرم محمد بن عبد الله وعلى آله الهداة
الميامين.

الامم التي تريد الرقي ومواكبة الحياة ومتطلباتها المعنوية والفكرية
تجتهد في دراسة تاريخ رجالها، لا سيما وان كانت لها صلة بالسما، هذه
الصلة التي تعطيهم جنبه روحية ومعنوية وخلقية وتربوية، يرتفعون بها الى
اعالي درجات الكمال، ويتنزهون عن درن التسافل، حتى يكونوا معالم الهية
وشواهد ربانية، تأخذ بنا الى بيوت النور ومحطات الامان، فان وظيفة النور
يجلي الظلمة ويطرد وحشتها، وان البحث في تاريخ هؤلاء العظام لا ريب انه
يصب في مصلحة الفرد والامة، وطبيعة البحث في تاريخ هذه الشخصيات
لا ينفك عن الجدية والقصد، اذ ان الرجال هم مصدر الهام ومصدر وعي
الامة، واذا كانت الامم تفتخر برجالها فيحق لامة الاسلام ان تفتخر
برجالها، واعز وانبل وافضل واشرف اولئك هم حماة الدين ونور الهداية

وعين الحق، اولهم خاتم الانبياء والمرسلين وآخرهم حفيده الامام الحجة بن الحسن (صلوات الله عليه)، حيث ان ائمة اهل البيت عليهم السلام هم اعظم أرث خلفه النبي صلى الله عليه وآله، فعند رحيل شمس رسول الله عن هذه الدنيا لا بد وان تسد هذا الرحيل كواكب واقمار تحل محل ذلك النور، فكانوا انواراً وائمة ابراراً، وضعوا المنهاج الصحيح والسليم لسير الامة نحو النجاة، والوصول الى الله تعالى، وتطهير النفوس من درن المساوىء، وبث الاخلاق الحميدة والصفات الجميلة، والسجايا الحسنة واقرار الحق والخير ودحض الباطل وانكار المنكر والشر، وبهم تعرف الامور فهو الحق والميزان، لذا كان من الضروري ان ندرس حياتهم ونأخذ العبر والدروس، وان نحیی ذكرهم فينا، وبذلك أخذت الامانة العامة للعتبة العباسية المقدسة المتمثلة بقسم الشؤون الفكرية الاهتمام الشديد هذا الجانب الهام، ودراسة احوال الائمة الكرام، واحياء ذكرهم، وتمثل هذا الاهتمام بصور مختلفة كانت في طليعتها انشاء المعاهد واصدار المجلات وفتح مراكز الابحاث المختلفة، وقد أخذت هذه المبادرة حيزاً مهماً في الشارع الثقافي اليوم.

والى جانب هذه الثقة والمكانة من قبل الباحثين انبثقت رؤية انشاء مسابقة ابحاث عن الامام الحسن بن علي عليهما السلام، حفظاً لتراث الامام الحسن عليه السلام وتعريفاً لأجيال امتنا الاسلامية ودراسة لآثاره والانتفاع من نوره، وها هي اليوم تواصل جني الثمار، حيث يتواصل كل عام مختلف الباحثين مع هذه المسابقة، رفداً للمكتبة الاسلامية بتاريخ وحياة وعلوم الامام الحسن بن

عليه السلام، وفي هذا الموسم (الثالث) تقدم اكثر من ثلاثين بحثاً ونيف للمنافسة العلمية، وعرضت هذه الابحاث على أكثر من لجنة وبعد التقييم قُبِلَ عددٌ من هذه الابحاث، وقد ضم هذا الكتاب اثني عشر بحثاً، تنوعت من حيث الاسلوب والطريقة، وحوث جوانب معرفية مهمة، فمنها ما يتناول الجانب الادبي في كلمات ووصايا الامام الحسن عليه السلام ومنها من دراسة الجنبه التفسيرية في احاديث ووصايا الامام عليه السلام ومنها ما ربط شخصيته ومائلها بالواقع الان، الى غير ذلك من الموضوعات، نسال الله تعالى ان يوفق كل من يهتم بإحياء امر أهل البيت عليه السلام وايصال كلماتهم ونورهم الى الناس، وان يحفظ القائمين على هذا العمل وكل من ساهم به، خدمة للدين ولرجالہ الابرار.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

في العتبة العباسية المقدسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أروع البلاغة في عبارة واحدة

للامام المجتبي عليه السلام

بقلم

عباس اسماعيل سيلان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾^(١)، وبعدُ

من نافلة القول أن نجد الدراسات تتوالى على كل ما هو وارف، لتكون تلك الدراسة غنية بغناه، ولا يشك المؤلف والمخالف في أن أهل البيت عليهم السلام هم الشجرة المثمرة الوارفة التي تجود على ملتسميها بأوسع عطاء، ولكن السلطات الخائنة للحقيقة وقفت على مر التاريخ في وجه من أراد أن يستظل بتلك الشجرة، وأساءت لكل من سعى إلى وميضها ونكلت به، ثم إنها لوحت بدنائيرها إلى الأقلام المأجورة حتى أسالت لعاب مدادها؛ فشوّت هذه الأقلام وجه التراث؛ وأنتجت داء الزمان؛ لتكون سيئاتٍ جاريةً لأصحابها بعد أن أوقعت كثيرا بمكرها، ومع أنها محسوبة على الإسلام إلا أنها لم تزد إلا إرهابا وتمزيقا، ولعل ما نجده اليوم من مساس بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله إنما جاء بسبب منها، بل إن ما أصابنا من افتراق وشحناء وتقسيم كان بتوجيه منها أيضا، ومن ثم أصبحنا اليوم لا نشكو من الإسرائيليات بالقدر الذي نشكو منه من الأمويّات.

بيد أن صوت الحق يصل حتى لو كان بعيدا، ومن ذلك ما جادت به وسائل الخير لنشر الحقيقة على النحو مما قامت به العتبات المقدسة في الآونة الأخيرة من نشر علوم أهل البيت عليهم السلام وتعليم الناس بهديهم أملا بغدٍ مشرق.

وقد جاء هذا العمل تلبية لنداء العتبة العباسية المقدسة في كتابة بحث عن جواد الأئمة السبط المجتبى عليه السلام، والدراسة في الإمام المجتبى أمر محثوث عليه؛ لـ (أن كثيراً من الحقائق لسيرة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وهدنته مع معاوية قد غُيِّبت عن مركز ومحطّ الأنظار، وقد حذفت من مصادر التاريخ وإلى يومنا هذا) ^(١). فلا بدّ من التنقيب الجاد لأجل رفع تلك الظلامه، ولابد من التحليل القويم لأجل إشهار السيرة المضيئة.

أقول: إذا كان من حق الأمم على عظمائها أن يقوموا أمهم ويبدلوا الغالي والنفيس لأجلها، وهذا ما فعله آل الرسول لأجل أمة الإسلام، فما واجب تلك الأمة تجاه آل المبارك؟

لقد سعت الأمم إلى أن تمجد عظماءها وتسابقت في ذلك وتبارت؛ فقد مات نابليون وكتبت عنه الدراسات حتى تجاوزت مئة وخمسين ألف دراسة، ومات غاندي وكتبت عنه موسوعة بثلاث مئة مجلد، ومات شكسبير وقيل لو خيّر الانجليز بين احتلال الهند وأدب شكسبير لاختارت أدب شكسبير، وها هي تنشره في كل مكان حتى أنه أصبح جزءاً من مناهجنا، ولم يصبح نهج أبناء الرسالة المحمدية مثلاً أصبح هو.

أقول: لو كان لديهم عظماء مثل عظمائنا فماذا كانوا يفعلون؟! وماذا كانوا يصنعون؟! سأقول افتراضاً -وليساحني القارئ- لو كان لديهم أهل البيت عليهم السلام لكان مجتمعنا عارفا بأهل البيت عليهم السلام أكثر مما هو عليه الآن؛ لأن مناهجنا المستوردة سوف تغنيها بذلك.

وربما لم نجد من مثقفينا -كما يرونهم- تهجماً على عظمائنا حتى أن بعضهم ممن هو في جامعاتنا يعيب من يقترب للدراسة في تراث أهل البيت، وبعد أن رأى أن الدراسات

(١) الإمام الحسن المجتبى، الشيخ السند: ٦٥.

تعددت في نهج البلاغة يقول: هل هو نفط كركوك؟! وتقول إحدى الدكتورات أن الدراسة في نهج البلاغة صارت موضوعة؟ هذا الاعتراض العريض إذا كان في الإمام علي عليه السلام فكيف إذا كان بالأئمة من ولده؟!

كم أولئك اليوم الذين يعرفون جيفارا وماركس وبارت وتشومسكي ولا يعرفون شيئاً عن مَنْ قضوا الحياة لكي نعرف معنى الحياة!

ان من يلومني على ذلك عليه أن يذهب إلى مناهجنا في الابتدائية أو المتوسطة أو الإعدادية أو الجامعية ليختار أية مرحلة ويعمل إحصائيات وموازنات؛ ليرى أي لم أكن مخطئاً أو متجاوزاً فيما تقولت.

ومما أراه في ذلك أني أجد أن الدراسات التي تجاوزت أربع مئة دراسة في أدب السياب لم أجد واحداً بالمتة منها في أدب الإمام الحسن عليه السلام، ومن هنا وبعد أن رأيت أن الدراسات لم تعر مكانةً إلى بلاغته عليه السلام، بل إن هناك من شكك فيها تقصّدتُ البحث في بلاغته، وفصّلتُ أن يكون البحث بعبارة واحدة تمثلت بما قاله بعد تسنم معاوية السلطة، وهي «أما بعد، فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، والدنيا دُول، وإنَّ الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾»^(١) ^(٢).

وأنما اكتفى البحث بعبارة واحدة للتدليل على عظمة البلاغة في عبارة روحية واحدة؛ ليقول هذا هو الشأن في هذه الخطبة القصيرة التي تمثل عبارة موجزة جسّدت

(١) سورة الأنبياء: ١١١.

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والامم، ابن الجوزي: ٥ / ١٨٣، وقد رويت هذه الرواية بروايات مقاربة مع بعض التغييرات، فقد جاءت عند الطبري: بزيادة جملة «وإن لهذا الامر مدة» وعلى النحو «وحقن دماءكم بآخرنا وإن لهذا الامر مدة والدنيا دول»: ٤ / ١٢٤، ومثله في: تاريخ مدينة دمشق: ١٣ / ٢٧٦، والدر المنثور: ٤ / ٣٤٢ ومع ذلك اعتمد الباحث الرواية المذكورة في المتن؛ لأن ما فيها متفق عليه بين جميع الروايات.

الحقيقة والبلاغة معا، فكيف إذا حُمِلَ الأمر على كل خطبه ووصاياه وحكمه؟! على أن هذه العبارة لم يشر إليها في الدراسات البلاغية مع كثرة هذه الدراسات إلا أننا وجدنا عبارات أخرى قد أخذت مكانها من تلك الدراسات، فنجد عبارة الحجاج «أرى رؤوسا قد أينعت»^(١) يانعة في طيات الكتب البلاغية كإيناع الخطبة البتراء^(٢) لزياد بن أبيه مع أنها خاليتان من الروح الإنسانية، وهناك الكثير مثلها قد راج وشاع أكثر من خطب الرسول الكريم ﷺ؟! أقول: وما الخير في بلاغة ليس لها من القلوب شيء حتى إذا تضافرت الأقلام في رسم وشيها.

والبحث في بلاغة العترة أمر فيه رغبة ورهبة، رغبة لكثرة ما في كلامهم ﷺ من معين لا ينضب، ورهبة لأن ما في كلامهم يصعب جنيه على الكبار فكيف بمن هو مثلي؟! إلا أن التحجج بأشباه هذا يعني الوقوف عند الصفر، وانطلاقا من أن ما لا يدرك كله لا يترك جله توكلت على الله في هذا البحث، أقول لا بأس أن يدرك أقله. وقد انقسم البحث على توطئة وخمسة مستويات تمثل الدعامات التي تقوم عليها البلاغة العربية، وهذه المستويات هي (المستوى الإيقاعي، والمستوى الصوري، والمستوى الدلالي، والمستوى الفكري، والمستوى البنائي).

وينطوي تحت تلك الجوانب موضوعات بلاغية واسعة تمثل الغنى البلاغي الذي اكتنفته العبارة الإمامية، وقد أبان البحث ذلك مع بيان الوظيفة التي تدلي بها تلك الفنون.

وختاماً نقول: ربنا اجعل هذا العمل خطوة في سبيل الوصول إلى طريق الذين ﴿آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) تاريخ مدينة دمشق: ١٢ / ١٣٤.

(٢) ينظر: تاريخ الطبري: ٤ / ١٦٥، وسميت بالبتراء لأنه ابتدأها من دون تحميد ولا تمجيد، فكانت براء أي مقطوعة مما تعوهد عليه.

(٣) سورة يونس: ١٠.

توطئة

حاول بعض أن يشكك في بلاغة الإمام الحسن عليه السلام، وذكر أنه قد طلب معاوية من الإمام الحسن أن يخطب، وظن انه سيحصر^(١).

ونحن نستبعد ذلك تمامًا ونرى أن ذلك الظن المزعوم إن هو إلا وهم؛ فيذكر أنه حين شكك بعض في قدرة المجتبي عليه السلام الخطابيَّة ورموه بالعي أمره أمير المؤمنين عليه السلام بأن يخطب في الناس، فخطب إلى أن أثر فيهم كل تأثير، وضجوا بالبكاء، «فقام أمير المؤمنين من أقصى الناس يسحب رداءه من خلفه حتى علا المنبر مع الحسن عليه السلام، فقبل بين عينيه، ثم قال: يا بن رسول الله أثبت على القوم حجتك وأوجب عليهم طاعتك، فويل لمن خالفك»^(٢).

وقوله: «أثبت على القوم حجتك» هي ليست كلمة اعتيادية، وإنما هي شهادة إمام البلاغة بحق إمامها القادم الإمام الحسن عليه السلام الذي أثبت أنه فارسها ومصدق لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في أهل البيت عليهم السلام: «وإننا لأمرأء الكلام، وفينا ننشبت عروقه، وعلينا تهدلت غصونه»^(٣).

(١) ينظر: مقاتل الطالبين: ٤٨.

(٢) الدر النظيم: ٥٠٥، والعدد القوية لدفع المخاوف اليومية: ٣٢، وينظر: بحار الأنوار: ٤٣ /

٣٥٨.

(٣) نهج البلاغة: ٣٥٤، وتنشبت العروق: علقت وثبتت، والمراد من العروق الأفكار العالية والعلوم السامية، وتهدلت: أي تدلت علينا فأظلمت [علما ان معاني الكلمات الغربية قد فسرت بالاعتماد على شرح المعاني في نهج البلاغة، للدكتور صبحي الصالح].

ويبدو أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) كان يميل للصمت بادئ الأمر؛ لأنّه كان في ظلّ وجود أبيه، فرأيه من رأي أبيه؛ غير أنّ سكوته جعل أصحاب الفتن يترأى لهم أنّ فيه عجزاً، فأرادوا سحب ذلك لأهوائهم فكان ما كان.

إنّ الذي تهدّلت عليه غصون بلاغة الكلام، وتنشّبت فيه عروقه يكفي أن يكون ذروة البلاغة، وفيها وصل إلينا من نصوص ما يغني عن البيان!

لقد غدت الدراسة في بلاغته أمراً لازماً بعد أن رأينا الدراسات المستفيضة فيمن ليسوا على قيد أنملة من بلاغته (عليه السلام)، فكيف إذا رأيناهم يشكّكون في بلاغته آنذاك، ومن تشكيكاتهم فيه الرواية التي ذكرت في المقدمة، وسببها أنّه قد «قال عمرو بن العاص لمعاوية: مَرَّ الحَسَنُ أَنْ يَقُومَ فَيُخَاطَبُ، فَكِرَ معاوية ذلك، وقال: ما تريد بهذا؟ قال: أُريد أن يبدو عِيَهُ في النَّاسِ، فخرج معاوية، فخطب، ثم قال: قُمْ يا حسن فتكلم، فقام فقال: أما بعد، فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، والدنيا دُول، وإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةَ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، فقال معاوية: اجلس»^(١).

لقد غدت هذه العبارة السماوية بمنزلة قارعة مزلزلة لعرش معاوية بنفيتها عنه السلطة الشرعية وما كانت لتكون كذلك لولا اتسامها بطائفة من المزايا المتنوعة، وواحدة من هذه المزايا هي عظمة بلاغتها وتتجلى هذه المزية بالآتي:

(١) المنتظم: ٥ / ١٨٣، وكان الطبري قد ذكر هذه الرواية، وذيلها بقوله: «قال معاوية: اجلس فلم يزل ضرماً على عمرو، وقال هذا من رأيك»، تاريخ الطبري: ٥ / ١٦٣، ويبدو لي أن عمرا كان يکید لمعاوية؛ لأنّه كان عالماً بمقدرة أهل البيت في كل ما هو حسن وعجيب، ولعله لما رأى تجمع كل الأمور لمعاوية أخذته الدهشة ثم الحسد، فقد رأى أنه السبب الرئيس في ذلك، ولكنه لم ينل عشر ما نال معاوية، أي أنه خسر الدنيا والآخرة معاً، وهذا ما جعله ينصحه بتلك النصيحة التي عادت وبالا على المنصوح؛ لذا عتب على عمرو، وأرى أن من فوائد الصلح التي لم يُشر إليها هو خلق الضغينة بين معاوية وعمرو فضلاً عن كشف القناع المزيف للأخيرين

المُسْتَوَى الإيقاعي:

يعرف الإيقاع بـ «تَرْدُّدِ ارْتِسَامَاتٍ سَمْعِيَّةٍ مُتَجَانِسَةٍ بَعْدَ فتراتٍ ذاتِ مَدَى مُتَشَابِهٍ، فيُمْكِنُ التَّحْصِيلُ عَلَى الإيقاعِ بوساطَةِ وسائلٍ جِدِّ مُخْتَلِفَةٍ»^(١).

والقارئ في العبارة الإمامية يجد انسيابية صوتية، تتدفق بلطف لا يعتريه خلل، وأبرز ما يراه الباحث فيها من الفنون الصوتية الجمالية:

التوازي:

وعرف في التراث بالتشطير: «وهو أن يتوازن المصراعان أو الجزآن، وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه واستغنائه عن صاحبه»^(٢).

ويعمل على تحقيق اتساق النص؛ إذ يبحث «في كَيْفِيَّةِ وُجُودِ روابطٍ من نوعٍ خاصٍّ بينَ الجُمْلِ، تتمثَّلُ في التَّشَابُهِ التَّركيبيِّ المُدْعَمِ بالتَّماثِلِ الصَّوْتِيِّ لنهايتها، وهذا التَّشَابُهُ بينَ مجموعةٍ من التَّراكيبِ المُتوازِيَةِ يَخْلُقُ نَوْعاً مِنَ التَّوَحُّدِ يَشِي بِتَراوِطِ النَّصِّ»^(٣).

والنص المذكور فيه توازٍ بين «هذاكم بأولنا» و«حقن دماءكم بأخرنا»، والتوازي على رأي ياكوبسن «يحتلُّ المنزلة الأولى بالنسبة للفنِّ الأدبي»^(٤)، و«إذا قامت الأنساقُ النَّحْوِيَّةُ على التَّوازي النَّحْوي... هيَّا هذا التَّوازي إلى تماثُلٍ صَوْتِيٍّ بالتَّتالياتِ»^(٥)، وقد يُظَنُّ أنَّ في ذا تَحْجِيجاً لِحُرِّيَّةِ المتكلم، وهذا إنْ صَدَقَ فلا يَصْدُقُ مع مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ اللُّغَةِ وَعَرَكَهَا على أنْ مُراعاةَ اللَّفْظِ معَ الحِفاظِ على المعنى أمرٌ يَزِيدُ المعنى عُذُوبَةً،

(١) دروس في علم أصوات العربية: ١٩٧.

(٢) كتاب الصناعتين: ٤٦٣.

(٣) نظرية علم النص: ١٠١، ويُنظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية: ٢٠٥.

(٤) قضايا الشعرية: ١٠٣.

(٥) أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية: ١٣٦.

وتلقانا رواية عن قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) تؤكد هذه القضية، يقول فيها: «وإنما يذهبون.... إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضاً، فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله ﷺ. وقد كان يتوخم في مثل ذلك، فمنه ما روي عنه ﷺ من أنه عوذ الحسن والحسين ﷺ، فقال: «أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامة»، وإنما أراد (ملمة)، فلا تبايع الكلمة أخواتها في الوزن قال: لامة»^(١).

ولكن مع ذلك فالباحث لا يرى أن تغيير الصوت من أجل تحقيق التوازي الصوتي كان على حساب المعنى أبداً بدليل ما جاء في نص الإمام الحسن ﷺ إذ لم يكن من التوازي التام، ف«هداكم بأولنا» تختلف عن «حقن دماءكم بآخرنا» بعض الشيء، وعلى النحو:

الفعل وفاعله المستتر (هو)	المفعول	وسيلة الهداية
هدى	الضمير (كم)	بأولنا
حقن	دماءكم	بآخرنا

فقد عدل بالمفعول الوارد ثانياً ولم يجعله ضمير مخاطب (كم)، بل خصصه بالاسم، فقال: حقن دماءكم «وَحَقَنْتُ دَمَهُ: إِذَا أَنْقَذْتَهُ مِنْ قَتْلِ أَحَلَّ بِهِ»^(٢)، ولو أنه أطلقه فقال: «حقنكم» لحقق التوازي التام مع «هداكم» لكنه يكون حينها لفظاً عاماً لا يفي بالغرض المباشر، فلفظ الاحتقان يصدق مع ألفاظ كثيرة، ففي الأساس: «وحقن بوله، ورجل حاقن، وحقن المريض: داواه بالحقنة، واحتقن المريض، واحتقن الدم في جوفه»^(٣)، أي إنه لو جاء في النص مطلقاً لكان قد يحتمل أحد هذه الألفاظ المذكورة،

(١) نقد الشعر: ٥٠، والحديث في: بحار الأنوار: ٣٩ / ٦٦.

(٢) العين: ٥٠ / ٣.

(٣) أساس البلاغة: ١٣٤.

ولكان متأرجحاً بين السلب والإيجاب، لكنه لما قيّده بالنصّ بالدماء دلّ على الإيجاب فقط.

وهذا يدلّ على أنّ التّوازي التّام وإن كان مهماً إلا أنّ مراعاة الواقع الحقيقيّ للمعنى هي الأولى، وهو الذي تحقّق بالنّصّ، أي إنّ المعنى هو الأصل من النصّ، وليس التّكلّف الذي يُغيّر باللفظ على حساب المعنى.

السّجع

يمكن تعريف السّجع بأنّه: توافق الفاصلتين من النّثر على حرف واحد في الآخر^(١)، ويشترط ألا يكون تكلّفاً وألا يكون على حساب المعنى مثلما كان الأمر مع التّوازي؛ لأنّه «إذا سلم من التّكلّف وبرئ من التعسّف لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه»^(٢) على النّحو ممّا في النّصّ في «أولنا وآخرنا»؛ إذ جاء على السّجّية، وأوحى بنغم موسيقيّ رائع.

ولعل في توحيد السّجّية (نا المتكلمين) ما يُدلي بتوحيد الوظيفة عندهم ﷺ وان تباينت الأدوار، وفي تكرار (نا المتكلمين) أنسٌ تأتي من النّون التي هي صوت جميل جدّاً وتولّد مع الألف الموحّي بالإطلاق جمال مطلق، فلو قرأ النصّ «هداكم بأولنا»، «وحقن دماءكم بآخرنا» مكررين مع الوقوف عند هذا الضمير (نا المتكلمين) نجد أنساً خفياً وإيقاعاً مؤثراً يبعث على جذب المتلقّي، ربّما كان متأثّياً من صوت النون الموحّي بالحزن؛ لأنّه يخرج بغنة من الخيشوم^(٣)، وقد خلق مع الألف امتداداً لذلك الحزن، وربما يؤكّد ذلك أنّها أكثر الحروف جاءت استعمالاً في النصّ؛ إذ وردت عشر مرات من دون

(١) ينظر: الطراز: ٥٦٢.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٨٦.

(٣) ينظر: دروس في علم أصوات العربية: ٣٦.

مراعاة التشديد والتنوين؛ لأننا إذا راعينا ذلك كان ورودها في أربعة عشر موضعاً.

ونرى أيضاً تصاعداً في الإيقاع، فمن لفظتين «هداكم بأولنا» إلى ثلاث «وحقن دماءكم بأخرنا».

وهذا التصاعد محثوث عليه عند الأذن فلو عكسنا الأمر، وأوردنا العكس لكان هناك نفور لتراجع الإيقاع الصوتي، ولكن لما جاء النص الإمامي بالذي عليه أحسننا بنفس متصاعداً نحو إثبات غاية كلامية.

المستوى الصوري

ويراد به التصوير أو «هو العنصر التخيلي أي: إيجاد علاقة بين شيئين لا علاقة حقيقية بينهما»^(١)، ومما يتأتى منه في العبارة الإمامية:

التعريض

وهو أن يُذكر كلامٌ يُراد بمجموعه شيء آخر، وكأنه تلميح إلى أمر خطير لا يمكن التصريح به مباشرة، وجاء فيه «التعريض خلاف التصريح، يقال عرضت لفلان أو بفلان إذا قلت قولاً وأنت تعنيه»^(٢).

والعبارة الإمامية كلها أو النص الإمامي القصير كله تعريض بمعاوية بأنه خليفة غير شرعي، فالنص مدح لأهل البيت عليهم السلام وبيان فضلهم الواسع؛ ليقول: إنهم الشرعيون فقط، ثم إشارة إلى تغير الأحوال ليعرض بأن حكم بني أمية وإن نهض الآن إلا أنه سيزول، ثم ذكر نص قرآني يدل على أن تسنم معاوية للسلطة إنما هو فتنة ومتاع زائل.

(١) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي: ١٦٥.

(٢) الطراز: ١٧٩.

الكناية

الكناية: لفظٌ أطلق وأريدَ به لازمٌ معناه مع جوازِ إرادة ذلك المعنى^(١)، وهي قريبة من التعريض ولهذا هناك من جمعها في مجال واحد^(٢)، وإن وجد من فرقَ بينهما إلا أنه يبدو على التفريق الخلط أو الغرابة بعض الشيء^(٣)، وأرى أن التعريض يكون في خصوص الحديث مع الخصوم والكناية لا تختص بذلك.

وفي النص كناية في «وحقن دماءكم» و (حقن): «أصل واحد، وهو جمع الشيء، يقال لكل شيء [جمع] وشُدَّ حقين، ولذلك سُمِّي حابسُ اللبن حاقناً»^(٤)، فحقن الدم: جمعه، وهو كناية عن حفظه من أن يسيل، أي كناية عن تجنب القتل والموت، فالناس كانت قبل عصر الرسول تتقاتل فيما بينها، هذا يغيرُ على هذا، ويقتل هذا ذاك، ولا ننسى ما كان بين الأوس والخزرج وغيرهم من قتال شديد انتهى بسبب من النور المحمدي.

وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك بقوله: «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ، وَفِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَاتٍ ضَمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنُصُوبَةٌ، وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ»^(٥).

وقد أدّت جملة «وحقن دماءكم» وظيفتها بتبيينها فضيلة أهل البيت في الحفاظ على

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤٠٧، والمطول: ٦٣٠.

(٢) ينظر: البديع لابن المعتز: ٦٤.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣٨٠-٣٨١.

(٤) مقاييس اللغة: ٢٧٦.

(٥) نهج البلاغة (خ ٢٦): ٦٨، ومنيخون: مقيمون، والخشن: جمع خشناء، ووصف الحيات بالصم لأنها أخبثها إذ لا تنزجر بالأصوات كأنها لا تسمع، والجشب: الطعام الغليظ، ومعصوبة: مشدودة [المعاني مأخوذة من هامش نهج البلاغة، للدكتور صبحي الصالح].

حياة الأمة وديمومتها، وكان يمكن القول: (حفظكم من الموت) أو (جنبكم القتاتل)... ونحو ذلك، ولكنها دون ما جاء في النصّ، وهو «حقن دماءكم»؛ لأنّ هذه الكناية أدلت بجمالية بلاغية واسعة يغور فيها ذهن المتلقي مع زيادة في التأمل ودفع إلى الامثال.

المستوى الدلالي

الدلالة: هي علم المعنى^(١)، وأبرز ما جاء منها في النصّ الإمامي:

الإيجاز

يتدخّل المقام في بناء النصّ، ففي مواقف سريعة يقصر النص في ظلّ المواقف الخاطفة، أما طوله فمترك لسعة الأحوال^(٢)، ورأينا قصر النص المذكور لما للأحوال المحيطة من توتر يستوجب قصر النص واختزاله.

والإيجاز: (هو الأداء بأقلّ من المتعارف أو ممّا يليق بالمقام من كلام أبسط من الكلام المذكور)^(٣)، وهو الذي نجده في العبارة المذكورة، فقد بينت وظيفة النبيّ والإمام معاً، وكشفت زيف القناع الأمويّ، وأدلت بالفضل العظيم الذي صاحب النبيّ وآله، فهم مصدر الهداية والحياة، وبدأ بتحقيق الهداية للأول إشارة للفضل العظيم الذي جاء به النبيّ، وهذه الغاية بقيت عند أهل البيت أيضاً من بعد النبيّ مع التأكيد على حفظ الأرواح.

وقد كانت هذه العبارة بمنزلة توبيخ حادّ للناس جميعاً على تفريطهم بالعرة مستبدلين الذي هو أدنى وأساء بالذي هو كلّ الخير، ولما قال: «والدُّنيا دُول» أوحى بالأمل في الحياة مهما كان الخطب؛ فلا مجال للقنوط من جهة، ومن جهة أخرى أوحى

(١) يُنظَر: الدلالة والنحو: ٩.

(٢) يُنظَر: النصّ والخطاب، شتيفان هابشايد: ٢٨.

(٣) مختصر المعاني: ١٧٠.

بالتأنيب والتحذير للدولة الباطلة إذا كُتِبَ لها النُّهوض، فإنها هو نهوض زائل زائف، والعاقل الحقيقي هو من لا يركن إلى ما لا يقَرّ.

لقد تنوعت دلالة الجملة المذكورة «والدُّنيا دُول» بما يجعلنا نقرر أنه لا يمكن أن نحملها على غرض بلاغي معين؛ لأنّها متباينة الغرض بحسب المتلقي وعلى النحو:

الأمل والرغبة في السَّعادة: عند من هم أهل الحق واتباعه، فهؤلاء عليهم أن يعيشوا باطمئنان، لأنهم أتباع حق، ولا بدّ للحقّ من صولة.

التحذير: عند من هم على الباطل، فإذا ما قامت دولتهم فهي دولة زائلة غير خالدة فلا بد من يوم وان تهتدم عروشها.

وهكذا مع تباين المتلقين وتنوع ميولهم.

إنّ من يعلم أنّ الدنيا متقلّبة فعليه ألا يركن إليها، ويقفَ منها دوماً على حذر ووجل، ومثل هذا الخطاب المدوّي لا شكّ يكون أكثر من صاعقة على رأس معاوية المنتشي بحُلُم الدنيا، لقد صالح الإمام لأمرٍ مستقبليّ يغيبُ على كثير من الناس؛ لأنّهم عادةً ما يركّزون على الأمر الآني الحاضر، ولكن الإمام أوسع مدى في رؤياه؛ لذا مع مرور الزّمن نجده قد فضح الازدواجيّة الأمويّة لتبدو حقيقتها للنّاس من جهة، وليرى النّاس الخطأ الوخيم الذي وقعوا فيه؛ لأنّهم لم يتمسّكوا بالعروة الوثقى.

وفي جميع الأحوال يفاد من النصّ الذمّ الوخيم للدّنيا، والزّهد فيها؛ لأنها دُول (جمع دولة)، أي متغيرة غير ثابتة لا يمكن المضيّ معها إلى آخر الطريق؛ إذ تتحول بين الحين والآخر، وما كان حاله التغيّر وعدم الثبات لا يمكن الاعتماد عليه أو الركون إليه.

وقد اختزل النصّ أيضاً كثيراً من المعاني في ذيله الذي كان إشارة إلى معنى واسع، وهو أنّه حديث على لسان رسول الله، و«هِيَ رُؤْيَاهُ بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزَوْنَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزَوَ الْقِرَدَةُ

فَاهْتَمَّ لِذَلِكَ وَمَا اسْتَجْمَعَ ضَاحِكًا مِنْ يَوْمٍ حَتَّى مَاتَ، فَتَزَلَّتِ الْآيَةُ^(١) مُحْبِرَةً أَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِمْ وَصُعُودِهِمُ الْمَنَابِرَ إِنَّمَا يَجْعَلُهَا اللَّهُ فِتْنَةً لِلنَّاسِ^(٢)، وكان الرسول قد أنبأ الناس بذلك في حينها فهم الفتنة المرتقبة، ولا شك أن الأمر هذا قد شاع في الناس، وبعد سنين وفي عهد الإمام الحسن عليه السلام ذكرهم بتلك الرؤيا وبآلية الجريمة المذكورة، فكانت الإشارة إلى أن معاوية هو أول تلك القردة التي رآها النبي في منامه من دون أن يكون هناك تصريح مباشر لما في التصريح المباشر من مخاطرة، فمن المعلوم: أن «النص البشري محكومٌ بانفعالات السلطة والقوة الحائلة، من دون التعبير عن المكنون بلغة مباشرة، فتلجئ هذه إلى الموارد خلف اللغة الموهمة»^(٣) اتكالا على المقام في الكشف عن المراد لمن أراد.

ولا شك أن معاوية أدرك مغزى الإمام^(٤)، وكيف لا وقد كانت حادثة اغتيال النبي

(١) الآية المقصودة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ (الاسراء: ٦٠)، فهم فتنة، وقد قصد الامام الحسن عليه السلام ذلك بقوله حين قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾.

(٢) البحر المحيط: ٦ / ٥٣، وذكر الطبري بذييل الرواية «وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فِي خُطْبَتِهِ فِي شَأْنِ يَبْعَتِهِ لُعَاوِيَةَ: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾».

(٣) منهج التأويل وعلم الدلالة: ٢ / ٢٢٨.

(٤) يعرف هذا في الدراسات اللسانية المعاصرة بالافتراض المسبق، ففي كل تواصل لغوي ينطلق المتكلم والمخاطب (المتلقي) من معطيات وفرضيات معروفة من قبل الطرفين ومتفق عليها، أي وجود قاسم موضوعي مشترك بين طرفي العملية اللغوية [ينظر: في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر: ٤٤] وقد وظف أهل البيت الافتراض المسبق كثيرا في أدائهم وتعاملهم، بل كان سببا لوصول التعليمات الى أتباعهم أو الى الناس، فمثلا في وصية الإمام الصادق عليه السلام أغمض على أبي جعفر المنصور: فقد روي عن أبي أيوب الجوزي بعد شهادة الإمام الصادق عليه السلام أن المنصور قال له: ((أكتب إن كان أوصى إلى رجل بعينه، فقدّمه واضرب عنقه، قال: فكتبت، وعاد الجواب: أنه قد أوصى إلى خمسة: أحدهم أبو جعفر المنصور، ومحمد بن سليمان، وعبد الله، وموسى، وحميدة... فقال المنصور: مالي إلى قتل هؤلاء سبيل. [ينظر: المناقب: ٤ / ٦٤٢، وأصول الكافي: ١ / ١٨٩].

ونزول نصّ قرآنيّ فيها من الأمور التي لقيت انتشارا بين الناس آنذاك، ومع علم معاوية إلّا أنه لم يستطع التعرض للإمام؛ بل لم يستطع أن يحاسبه أو يعاتبه بأنّه يعني المعنى المذكور؛ لأنّه إذا صرح بالمقصد الذي أراده الإمام الحسن (عليه السلام) يكون حينها أقرّ بحقيقة الحديث النبوي فيكون هو قردًا مهرجًا لا خليفة شرعيًا، بل يكون عديم الإنسانية، وهذا أسلوب تعجيز وإن لم يكن من أنماطه، وكيف لا يكون تعجيزًا، وقد أسكت معاوية على تشدّقه؟!

لعله تقبل ذلك التوبيخ الذي أثاره النصّ الإمامي، والتقمّ القرع الذي يحدثه فليس في اليد حيلة، وربّ تلميح أقوى من التصريح؛ لأنّ التلميح يجعل المتلقي يعيش في جوّ النصّ أكثر زمنًا، فإذا أدركه يكون متفاعلاً معه، فهنيئًا لمعاوية الذي يسمع الإمام يقول له بأنك وذريتك هم تلك القردة التي أحزنت الرسول من دون أن يجيب الإمام إلّا بـ (اجلس)، وهذا الجواب جوابٌ من لا يجد سبيلًا على المخاطب؛ لأنّه لو وجد لفظة تعينه على مراده لما توانى من التفوه بها، ولكنه عجزَ فعجزَ لسانه عن النطق.

التوكيد

التوكيد «تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإمالة الشبهات عمّا أنت بصدده»^(١)، وهو من الأساليب العربية المهمة؛ لأنّه يعمل على تعزيز الحجة والتأثير في المتلقي، «وإنّما يُحتاج إليه، ويحسن استعماله في الأمور المهمّة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها»^(٢).

والنصّ الإمامي فيه أكثر من مؤكّد، فقد جاء بعد التحميد تركيب «أما بعد، فإنّ الله...»، و (أما) هنا للتوكيد على النحو ممّا ذكر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) في قوله: «أما:

(١) الطراز: ٢٨٧.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - بيان إعجاز القرآن - ٢٨.

حرف فيه معنى الشرط، ولذلك يُجاب بالفاء، وفائدته في الكلام أن يُعطيه فضل توكيد تقول: (زيدٌ ذاهبٌ)، فإذا قصدت توكيد ذاك، وأنه لا محالة ذاهب، وأنه بصدد الذهاب، وأنه منه عزيمة قلت: (أما زيدٌ فذاهبٌ)، ولذلك قال سيبويه في تفسيره (مهما يكن من شيء فزيد ذاهب)، وهذا التفسير مُدِلٌّ لفائدتين: بيان كونه توكيداً، وأنه في معنى الشرط^(١).

وجاء أيضاً التوكيد بـ (إنّ) في «إنّ الله هداكم...»، ويقيد بها لتوكيد مضمون الكلام، (فلا فرق بين قولك: إنّ زيداً قائمٌ، وبين قولك: زيدٌ قائمٌ إلا معنى التأكيد)^(٢)، فالقيد (إنّ) يأتي (لتوكيد نسبة الجزء إلى المبتدأ، أو لنفي الشك عنها، أو إنكار لها)^(٣)، والمراد بالجزء الخبر إن لم يكن تحريفاً عنه^(٤)؛ لأنّه الجزء الذي يتمّم مع المبتدأ جملة^(٥) وتتأكّد نسبته إلى المبتدأ بدخول (إنّ) على هذه الجملة، ففي القول: (زيدٌ قائمٌ) أُسند القيام إلى زيد، لكن قد يظنّ السامع خلاف ذلك لعجز من زيد، أو نحوه، فيلجأ القائل إلى التوكيد بـ (ان) مثلاً؛ لإقناع السامع، فيقول: (إنّ زيداً قائمٌ).

أي إنّ النّصّ تأكّد مضمونه بسبب (إنّ) إذ جعلته مؤكداً؛ وقد استدعى الظرف إلى استعمالها؛ لأنّ الناس في حينها لم يدركوا القيمة الحقيقية لأهل البيت عليهم السلام، ولم يؤدّوا حقهم، فكان التوكيد لجهلهم الأثر الذي كان متمثلاً بفضلهم عليهم السلام الواسع على الأمة

(١) الكشف: ١/ ٥٣.

(٢) شرح المفصل: ٣/ ٥٥٤.

(٣) المشكاة الفتحية: ٩٠.

(٤) لعله بالأصل (الخبر إلى...) إلا أنّ الناشر توهم نقطة الحرف الثاني للأول، ثم أهمله، وأضاف نقطة الحرف الأول للثالث بالأصل، واجتلب همزة من الكلمة التي بعدها، فصار (الجزء) والله أعلم.

(٥) ينظر: البهجة المرضية: ١/ ٨٣.

الإسلامية.

وجاء التوكيد من تكرار لفظ الجلالة (الله) في «أما بعد، فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، والدنيا دُول، وإنَّ الله تعالى...»، وكان يمكن القول: (وإنه تعالى...)، إلا أنه دون الأول توكيدا وتأثيرا، يقول الفراء: «والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف»^(١).

وجاء التوكيد أيضا من استعمال نمط الجملة الاسمية في النص المؤلف من ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول	المقطع الثاني	المقطع الثالث
فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا	والدنيا دُول	وإنَّ الله تعالى قال لنبية ﷺ: ﴿وَأِنِّي أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾

والجملة الاسمية تفيدُ الثبوتَ على العكسِ من الفعلية التي تُدلي بالتجدد والتغير^(٢)، فمما جاء من ذلك «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾»^(٣)، فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بـ (إن) المشددة؛ لأنهم في مخاطبة إخوانهم، بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط، فكان ذلك متقبلا منهم ورائجا عند إخوانهم، وأما الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوا

(١) معاني القرآن، الفراء: ٢٨٧/٣، وينظر: شفرات النص: ١٣، والأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي: ١٣٢.

(٢) يُنظر: دلائل الإعجاز: ١٧٣، والوظائف الدلالية للجملة العربية: ٨٧.

(٣) سورة البقرة: ١٤.

تكلفاً وإظهاراً للإيمان خوفاً ومدحاً وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسده لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطنياً ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة؛ فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين (آمننا)، وفي خطاب إخوانهم (إنا معكم) ^(١).

وإذا حملنا ذلك على النص الإمامي نجد أنه قد أفادت الجملة الأولى أن فضل أهل البيت دائم على الناس لا ينقطع ولا يقل، والإخبار بالماضي «هداكم» وعطف ماض عليه أيضاً يدل على تحقق الفضل؛ لأن الماضي يدل على وقوع الحدث وتحقيقه ^(٢).

وأفادت جملة «الدنيا دول» ثبوت هذه الصفة للعالم بأتمها متغيرة الأحوال ومخادعة لأصحابها، وهذا الأمر ثابت لها منذ بدء الخليقة وحتى الآن وبعد الآن.

وجملة الأمر أفادت هذه التوكيدات بمجموعها الحث الشديد على التمسك بأهل البيت عليهم السلام، وأنه لا ينبغي صرف النظر عنهم في أي حال من الأحوال.

التضاد

وقد يسمى بالطباق ويُراد به: «الكلمة المُقابِلَة، أي كلمة تُعبرُ عن العكس من كلمة أخرى، وتُوجد بوجه خاص صفات متضادة وأفعال متضادة (حسن سيئ، يتكلم يصمت)» ^(٣)، ومن المألوف أن الضد يُذكر بضمه؛ لذا كان جهة جامعة تضم أجزاء النص، فمن تحليلات التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ) أن يكون (بين الجملة الأولى والثانية جهة جامعة، نحو ... يُعطي ويمنع) لما بين الإعطاء والمنع من التضاد بخلاف:

(١) المثل السائر: ٢/ ٢٣٤-٢٣٥.

(٢) ينظر: حقائق التأويل في مُتشابه التزيل: ٢٥١.

(٣) مدخل إلى علم النص، زتيسلاف: ١٣٣.

زَيْدٌ يَكْتُبُ وَيَمْنَعُ، أَوْ: يَشْعُرُ وَيُعْطِي»^(١)، فبالأخيرين انْتَهَى الانْسِجَامُ، لَكِنَّهُ تَحَقَّقَ فِي (يُعْطِي وَيَمْنَعُ)؛ إِذَا قَامَ التَّضَادُّ هُنَا بِعَمَلِيَّةِ الْمُعَاضِدَةِ النَّصِّيَّةِ^(٢).

وَتَتَسِمُ النَّصُوصُ الْحَاوِيَةُ لِلتَّضَادِّ بِالْمَقْبُولِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ بَيْنَ قَضَايَا يَسْتَدْعِي بَعْضُهَا بَعْضًا، وَفِي النَّصِّ طَبَاقٌ بَيْنَ (أَوْلْنَا وَآخَرْنَا)، وَقَدْ أَفَادَ هُنَا الْإِحَاطَةَ وَالشُّمُولَ^(٣)، لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ ﷺ كُلُّهُمْ مَصْدَرٌ خَيْرٍ وَعَطَاءٌ وَمَصْدَرٌ نُورٍ وَهَدًى، فَهَمَّ سِلْسِلَةٌ مُتَّصِلَةٌ لَا يُمْكِنُ الْاِكْتِفَاءُ بِجُزْءٍ مِنْهَا.

المُسْتَوَى الْفِكْرِيُّ:

المُسْتَوَى الْفِكْرِيُّ: هُوَ «الْفِكْرَةُ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا النَّصُّ الْأَدْبِيُّ، فَمَثَلًا لَوْ قَرَأْنَا سُورَةَ الْفِيلِ لَوَجَدْنَا أَنَّ هَدَفَهَا هُوَ أَنْ تَبَيِّنَ لَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقِفُ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ مَنْ يَرِيدُ التَّعَرُّضَ لِلْكَعْبَةِ بِسُوءٍ»^(٤)، وَيَعْرِفُ بِالِدَّرْسِ الْأَلْسَنِيِّ النَّصِّيِّ بِالْإِعْلَامِيَّةِ أَوْ الْإِحْبَارِيَّةِ، وَهِيَ مَعْيَارٌ مَهْمٌ مِنْ مَعَايِيرِ النَّصِّ؛ إِذَا لَا يَكُونُ النَّصُّ نَصًّا مَا لَمْ يُؤَحِّ بِالْفَائِدَةِ؛ لِذَا «تُفْهَمُ النَّصُوصُ عَلَى أَنَّهَا حِيزٌ لِنَقْلِ الْمَعَارِفِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الْمُتَعَدِّدَةِ»^(٥)، وَقَدْ جَعَلَ الْعَرَبُ مِنَ الْإِعْلَامِيَّةِ أَسَاسَ الْبَلَاغَةِ، فَعَنِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: «الْبَلَاغَةُ إِضْطِحَاحُ الْمُتَبَسَّاتِ، وَكَشْفُ عَوَازِرِ الْجَهَالَاتِ، بِأَسْهَلِ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِبَارَاتِ»^(٦)، فَالْعَرَضُ مِنْ إِضْطِحَاحِ الْمُشْكِْلِ هُوَ أَنْ تَتَحَقَّقَ الْفَائِدَةُ عِنْدَ الْمُتَلَقِّي، وَلِهَذَا يَصِفُونَ النَّصُوصَ الَّتِي لَا تُدْلِي بِفَائِدَةٍ إِعْلَامِيَّةٍ بـ

(١) الْمُطَوَّل: ٤٣٤.

(٢) يُنْتَظَرُ: عِلْمُ الْلُغَةِ النَّصِّيِّ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِ: ١ / ٢٤٨.

(٣) يُنْتَظَرُ: نَظَرِيَّةُ عِلْمِ النَّصِّ: ٩٤.

(٤) الْبَلَاغَةُ الْحَدِيثِيَّةُ فِي ضَوْءِ الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ: ٩١.

(٥) النَّصُّ وَالْخُطَابُ، شَتِيفَانْ هَابْشَايْد: ٢٢.

(٦) كِتَابُ الصَّنَاعَتَيْنِ: ٦٣.

(الباردة)، ولديهم من «البارد من الشعر قول عمرو بن معدي كرب^(١) :

قَدْ عَلِمْتَ سَلَمِي وَجَارَاتِهَا مَا قَطَّرَ الْفَارِسَ إِلَّا أَنَا
شَكَّكَتُ بِالرُّمَحِ سَرَابِيلَهُ وَالْخَيْلُ تَعْدُو زَيْمًا حَوْلَنَا
... وقول أبي العتاهية^(٢) :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبَكَيْتَ عَيْنِي يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي
والبارد في شعر أبي العتاهية كثير^(٣)، وعبر عنه بالردّيء، فقد جاء: «وما كان لفظه سهلاً، ومعناه مكشوفاً بيناً فهو من جملة الردّيء المردود^(٤)».

وإذا عدنا إلى النصّ وتأملنا الظرف الذي قيل فيه نجده أنه كان بعد تسليم الخلافة لمعاوية، ولعل معاوية ظن أن الإمام الحسن عليه السلام سيخبر الناس بضرورة الصلح وأن معاوية هو الخليفة الأوحّد، لكنّه يُفاجأ بمضمون نصّ لم يكن يتوقعه، وهو مضمون يُجرّد معاوية من كل خلافة شرعية.

وإذا كان المسلم للسلطة يجد أن المتكلمين بحضرته لا يتكلّمون بغير فضله وغير استمراره على كرسي السلطة، وأنّ يديم الله له ذلك برفاء وسعادة ونحو ذلك، فإنّ الإمام الحسن عليه السلام جاء بأروع ما كان من أدب المفاخرة، فلم يمدحه أبداً؛ لأنّ مثل معاوية لا يُمدّح إلّا كذباً، وهذا معدوم من الأئمة عليهم السلام لهذا جاء الإمام بما هو أصل الحقيقة وإنّ ضيعها الناس آنذاك، وهي الإخبار بأنهم عليهم السلام هم منجم الهداية للناس

(١) شعر عمرو بن معدي كرب: ١٦٧.

(٢) ديوان أبي العتاهية: ٦٧.

(٣) كتاب الصناعتين: ٧٤، ومعنى (زيم) : متفرقة.

(٤) المصدر نفسه: ٧٩.

والرعاية لهم، وإنّا أكّد ذلك؛ لأنّه رأى النّاس قد تنكّرت لفضلهم، فوظّف الفرصة المناسبة في حضور الملاء والنّاس ببلاط معاوية، لتكون النتيجة التي تترجم أنّ الحق أقوى من الباطل وأنّ الحقّ هو الذي فقط ينبغي أن ينهض، وأنّ يفصح به على الملاء الذين يجهلون أو يتجاهلون.

المستوى البنائي

المستوى البنائي: «هو العمارة التي يقوم النصّ الأدبيّ عليها بصفته مجموعة من الأفكار والموضوعات التي تخضع لتخطيط خاص في صياغتها من حيث ارتباط كل جزء منها بالآخر، أي ارتباط أول النصّ ووسطه ونهايته بعضها مع الآخر، وارتباط كل موضوع بما سبقه ولحقه من الموضوعات»^(١)، ويتجلّى بالآتي:

التناص

التناص: هو أن يتضمّن النصّ «مجموعة من النصوص السابقة عليه بشرط أن يحدث تفاعل وتعلّق في اللفظ والمعنى بين هذه النصوص المتداخلة»^(٢)، ويُعدّ من المفاهيم النقدية التي تنتمي إلى مرحلة ما بعد البنيوية^(٣)، وقد تطوّر على يد الشكلايين الروس، ولاسيما على يد باختين الذي أطلق عليه اسم الحوارية، أي حوار النصوص وصيغ تعالقتها^(٤).

ويؤتى به لأجل التّدليل على مسألة مهمة، وهو ما نجده في العبارة الإمامية المذكورة، التي بنيت على اقتباس للنص القرآني فأعطى النصّ المتضمّن له طابعاً إيحائياً

(١) البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي: ١٦٥.

(٢) نحو النصّ بين الأصالة والمعاصرة: ٩٢، ويُنظر: تحليل الخطاب التحليل النصّي في البحث الاجتماعي: ٩٠، ٤٠٠.

(٣) يُنظر: التناص في الخطاب النقديّ والبلاغي: ١٧.

(٤) يُنظر: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدالّ: ٢٥٣.

بالدلالة الروحية التي يكتنفها هذا النص المبارك مما يعزز مضمون النص المقتبس.

والنص المقتبس هو: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١)، وهو على لسان النبي بأمر من الله، وإذا كان المتكلم الله أم النبي فإنه عالم بأن المخاطبين كانوا قد وقعوا في فتنة، ولكن النص خرج بمعرض غير المتيقن؛ لأن من أسلوب الحجاج أن يعرض المحاجج حجته القويّة لا بصورة المتيقن، بل بصورة المتردد بين قضيتين؛ كي يدفع بالمتلقي إلى مراجعة نفسه والتأمل قليلا، وقد ذكر الزركشي ذلك في باب: «إخراج الكلام مخرج الشك في اللفظ دون الحقيقة لضرب من المسامحة وحسن العناد كقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾»^(٢)، وهو يعلم أنه على الهدى وأنهم على الضلال لكنه أخرج الكلام مخرج الشك تقاضيا ومسامحة ولا شك عنده ولا ارتياب... ونحوه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾^(٣) أوردته على طريق الاستفهام، والمعنى هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمروهم عليهم لما تبين لكم من المشاهد ولآح منكم في المخايل: ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ تهالكا على الدنيا؟

وإنما أورد الكلام في الآية على طريق سوق غير المعلوم سياق غيره ليؤدبهم التأمل في التوقع عمن يتصف بذلك إلى ما يجب أن يكون مسببا عنه من أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم فيلزمهم به على اللطف وجه إبقاء عليهم من أن يفاجئهم به وتأليفا لقلوبهم»^(٤).

(١) سورة الأنبياء: ١١١.

(٢) سورة سبأ: ٢٤.

(٣) سورة محمد: ٢٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٤٠٩، وينظر: الطراز: ٤٣٨-٤٣٩.

ولا شك أن أمية حين حكموا وقعوا بفتنة، وإن متاعهم زائل، ولكن النص خرج على هيئة التشكيك زيادة في إثبات الحجة.

وتوظيف الإمام الحسن عليه السلام للنص القرآني المذكور فيه التفاتة إلى أنه نهج النبي أيضا وأن معاوية كان في جنب أولئك الذين وقعوا في الفتنة وركسوا فيها.

وهناك فن ذكره البلاغيون وهو فن الإحالة، وهي (مصدر أحلته على كذا، وهي قسمان: خفية وجليّة، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾^(١)، إحالة على قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَجُودُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَجُودُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، وكقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾^(٣) والإحالة في الآية الأولى ظاهرة، وفي الثانية خفية لما قيل: إنها إحالة على قوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٤) لتضمنه تفضيل محمد عليه السلام ^(٥).

ومع عودة تأملية في «... وإن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِنْ أَدْرِي...﴾ نجد فيه تبيناً لأمر عظيم بإحالة على حديث نبوي وارد مسبقاً يدلي بأن الصلح الذي وقع كان بأمر من الله الذي أخبر نبيه بأن صعود بني أمية على منبر النبي أمر كائن وامتناله في عهد الإمام الحسن عليه السلام، وقد «رُوي أن النبي عليه السلام رأى بني أمية في منامه يُلَوْنُ النَّاسَ، فَخَرَجَ الْحُكْمُ مِنْ عِنْدِهِ، فَأَخْبَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بِذَلِكَ، فَقَالُوا لَهُ: ارْجِعْ فَسَلِّهُ مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾، ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّه فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ

(١) سورة النساء: ١٤٠.

(٢) سورة الأنعام: ٦٨.

(٣) سورة النساء: ١٦٣.

(٤) سورة الأنبياء: ١٠٥.

(٥) معجم المصطلحات البلاغية: ٣٥.

إِلَى حِينٍ ﴿١﴾﴾^(١)، وجاء أيضا «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَرَى بَنِي أُمَيَّةَ يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِهِ نَزْوَ الْقِرْدَةِ، فَاعْتَمَ لَذَلِكَ، وَمَا اسْتَجْمَعَ ضَاحِكًا مِنْ يَوْمٍ حَتَّى مَاتَ ﷺ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ مُحَرِّرَةً أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَمَلُّكِهِمْ وَصُعُودِهِمْ يَجْعَلُهَا اللَّهُ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَامْتِحَانًا، وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فِي خُطْبَتِهِ فِي شَأْنِ بَيْعَتِهِ لِمُعَاوِيَةَ: ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾»^(٢).

وهذا يعني ان الابتلاء الذي ابتلي به النبي المصطفى كان وقوعه على الإمام الحسن مما يدلي بالترابط الوثيق بين النبي والإمام الحسن أو بين خط النبوة وخط الإمامة، وإذا كان هذا التواشج متحققا كان الإذعان للإمام من باب الإذعان للنبي، والإذعان للنبي من باب الإذعان لله تعالى والعكس صحيح؛ لذا انسجم هذا مع قول النبي المصطفى المروي: «عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحسن والحسين ابناي من أحبهما أحبني ومن أحبني أحبه الله ومن أحبه الله أدخله الجنة ومن أبغضهما أبغضني، ومن أبغضني أبغضه الله ومن أبغضه الله أدخله النار»^(٣).

ونجد في النص حسن الختام، فـ«يجب على المتكلم شاعراً كان أو ناثراً أن يختم كلامه بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع»^(٤)، والخاتمة القرآنية كانت أروع خاتمة؛ لأنها أعطت إعلامية واسعة بحقيقة معاوية ودولته، والاحتجاج بالقرآن كان في محله؛ لأن معاوية كان يدّعي أنه من أهل القرآن، يكفي أنهم حملوه يوم صفين، فكان ردعه هنا بما ادّعاه قبل.

(١) سورة الأنبياء: ١١١.

(٢) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): ١١ / ٣٥١.

(٣) المصدر نفسه: ١٠ / ٢٨٣.

(٤) مستدرک الحاكم: ٣ / ١٦٦.

(٥) البرهان في إعجاز القرآن: ٤٣٩.

الاتساق

وهو نتائج ترابط العلاقات في شبكة تتمركز في الموضوعات الرئيسة^(١)، ويتحقق بمجموعة من الوسائل النصية وأبرز ما موجود فيها في النص الربط (الوصل)، ويقوم بوظيفة الجمع بين أجزاء النص^(٢)، فيحافظ على استمراريته، ومن هنا احتل (بوجه خاص بكل صوره موقعا متقدما في التحليلات النصية)^(٣)، فهو (يشير إلى العلاقات بين المساحات أو بين الأشياء في هذه المساحات)^(٤).

وقامت الواو في النص بهذه الوظيفة، فالربط بالواو فيه سلاسة وسهولة في جمع القضايا، ويوحي بترام مضامينها تتاليا، وقد عملت على تحقيق اتساق النص؛ لأننا لو أسقطناها، وتلفظنا النص لما وجدنا قبولاً بسبب ان النص سيتفكك.

وقد عمل على تحقيق هذه الوظيفة التكرار، فلما ذكر لفظ الجلالة الثاني «فان الله...» عاد بالذهن إلى لفظ الجلالة الواقع أولاً، فترابط النص بسبب ذلك التكرار.

ويبرز في تكرار لفظ الجلالة ولع الإمام في حب الذات الإلهية وهيمنة المعبود في كل حال.

الانسجام

الانسجام هو (تنظيم مضمون النص تنظيمًا دلاليًا منطقيًا)^(٥)، أو (انتظام النص في بنية متسلسلة تسلسلاً مؤثلاً ومنطقيًا، يجعل من النص المنجز نصاً قيادياً ومؤثراً

(١) يُنظر: الدلالة والنحو: ٢٨٦.

(٢) يُنظر: النص والخطاب، شتيان هابشايد: ٢٩، ومقومات الجملة العربية: ١٨٩.

(٣) علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات: ١٤٥.

(٤) النص والخطاب والإجراء: ٣٥.

(٥) النص والخطاب والاتصال: ٩٢.

وَمُوجَّهًا أَكْثَرَ^(١)؛ كَي يَدْفَعَ بِالْمُتَلَقِّي إِلَى مُتَابَعَةِ النَّصِّ، (فَلَوْ قُلْتَ: «خَرَجْتُ الْيَوْمَ مِنْ دَارِي». ثُمَّ قُلْتَ: «وَأَحْسَنَ الَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا»، قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ»^(٢)، وَمَنْ قَالَ: «زَيْدٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ، وَعَمَرُو شَاعِرٌ» كَانَ خَطَأً...، وَمَنْ هُنَا عَيَّبَ أَبُو تَمَامٍ فِي قَوْلِهِ:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبِرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ
إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ كَرَمِ أَبِي الْحُسَيْنِ وَمَرَارَةِ النَّوَى، وَلَيْسَ يَقْتَضِي الْحَدِيثُ هَذَا الْحَدِيثَ
بِالْآخِرِ^(٣)، فَمَعَ أَنَّ الْبَيْتَ مُتَّسِقٌ لِرَتَابِطِ الْقَضِيَّتَيْنِ بِوَائِ الْعَطْفِ إِلَّا أَنَّ دَامَ لَا يَشْفَعُ فِي
أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ مَقْبُولًا لَا لِنَتْفَاءِ التَّرَايُطِ الدَّلَالِيِّ، وَعَلَيْهِ يُسْتَبْعَدُ اعْتِمَادُ مَعْيَارِ الاتِّسَاقِ مِنْ
دُونِ الانْسِجَامِ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ لَا يَنْهَضُ وَحْدَهُ فِي الْكَشْفِ عَنِ الْحَقِيقَةِ؛ وَالْوَاوُ (لَا تَجِيءُ
حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى لَفَقًا لِمَعْنَى فِي الْأُخْرَى وَمُضَامًا لَهُ، مِثْلَ (زَيْدٌ وَعَمَرُو) إِذَا كَانَا أَخَوَيْنِ
أَوْ نَظِيرَيْنِ أَوْ مُسْتَبْكِي الْأَحْوَالِ عَلَى الْجُمْلَةِ بَأَنَّ كَانَتْ الْحَالُ الَّتِي يَكُونُ أَحَدُهُمَا مِنْ قِيَامٍ
أَوْ قُعُودٍ أَوْ مُشَاكِلٍ ذَلِكَ مَضْمُومَةً فِي النَّفْسِ إِلَى الْحَالِ الَّتِي عَلَيْهَا الْآخَرُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ
عَلَيْهَا)^(٤).

وَإِذَا جِئْنَا إِلَى النَّصِّ الْمَذْكُورِ نَجِدُهُ لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى أَنَّهُ قَدْ يَظُنُّ الْمُرء أَنَّهُ خَالَ مِنْ
الانْسِجَامِ فَمَا الرِّبْطُ الدَّلَالِي بَيْنَ الْمَقْطَعِ الْأَوَّلِ «فَإِنَّ اللَّهَ هَدَاكُمْ بِأَوَّلِنَا وَحَقَّنْ دِمَاءَكُمْ
بِآخِرِنَا» وَالْمَقْطَعِ الثَّانِي «وَالدُّنْيَا دُولٌ» وَمَا الرِّبْطُ الدَّلَالِي بَيْنَ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ «وَإِنَّ اللَّهَ
تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ...»؟

هَنَّاكَ حَلَقَاتٍ مَفْقُودَةً عَلَى الْمُتَلَقِّي أَنْ يَعِيَهَا كَي يَفْهَمَ النَّصَّ بِمَقْصَدِهِ، الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ

(١) عِلْمُ اللُّغَةِ النَّصِّيِّ بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ وَالتَّطْبِيقِ: ٧٦ / ٢.

(٢) دَلَالِلُ الْإِعْجَازِ: ٢٢٤-٢٢٥، وَيُنْظَرُ: الْبَرْهَانُ الْكَاشِفُ عَنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ: ٢٦٣.

(٣) الْبَرْهَانُ الْكَاشِفُ عَنْ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ: ٢٦٣-٢٦٤، وَالْبَيْتُ الشَّعْرِيُّ مِنْ بَحْرِ الْكَامِلِ، وَهُوَ

فِي دِيْوَانِ أَبِي تَمَامٍ: ٢٩٠ / ٣.

(٤) دَلَالِلُ الْإِعْجَازِ: ٢٢٥.

دل على فضلهم الذي عم الأمة طوال سنين خلت، ثم أن الأمر عاد الآن إلى غير محله إلى بني أمية، فكانت «الدنيا دول» تترجم عن ذلك مشيرةً إلى مرحلة انتقالية فرضتها الظروف الراهنة؛ لذا انسجم المقطع الأول بالثاني من طريق التعاضد بين مرحلتهم السالفة (مرحلة الخير والنماء) ومرحلة قادمة (مرحلة الشر والخناء).

وارتبط المقطع الثاني بالثالث؛ لأن الثالث يدلي بقدوم دولة بني أمية على النحو مما كان قد جسده كلام الرسول فيهم، أي قد ربط الإمام بين صلحه ورؤيا النبي الصادقة وما نزل من القرآن الكريم ينبئ بتلك الرؤيا، أي ثمة ربط في بادئ النص بين أوله وآخره وبين صلحه وما أثبتته جده المصطفى ﷺ.

يمكن القول: إن جملة الأمر كان المقطع الأول ينبئ بمرحلتهم والثاني ينبئ بأن الدنيا لا تثبت على مرحلة وجاء المقطع الثالث ليدل على قيام مرحلة بني أمية.

الخاتمة

الحمد لله في كل حين، فهو المعين وهو المسدد، وبعد هذه الرحلة الجميلة بتعبها أرجو أن أكون قد أصبت أمنيته التي ذكرتها عند الشروع بالعمل (إدراك أمله)، وأبرز ما وصلت إليه من نتائج تتضح بالآتي:

١. أنّ التشكيك الذي أثير حول الإمام المجتبي عليه السلام بأنه لم يكن بليغاً هو من العداءات التي وجهت لأهل البيت ليس غيراً، وقد كان الإمام الحسن عليه السلام قطب الرحي في البلاغة في عصره مما جعل معاوية يُكَمُّ بحجر من بلاغته عليه السلام بين الحين والآخر.

يكفي أن يعترف سيد البلاغة أمير المؤمنين عليه السلام بفضل بلاغة ابنه عليه السلام سيد البلاغة الموعود من بعد أبيه، وربما يكفي أن يكون هذا البحث الذي شارف على العشرين صفحة محاولة في استقصاء الجمالية البلاغية في عبارة واحدة لا تتجاوز السطر والنصف، وإذا أردنا إحصاء ما فيها من فنون نجدتها قد أربت على العشرين، أي بما يزيد على عدد كلمات العبارة نفسها، ويمكن تبين تلك الفنون بصرف النظر عن العناوين، أي ذكرها بحسب ما وردت في الشرح الداخلي، فتكون هي: التوازي، السجع، التعريض، الكناية، الإيجاز، التويخ، الأمل والرغبة في السعادة، التأنيب، التحذير، التعجيز، التلميح، الذمّ، الوخيم للدنيا والزهد فيها، التوكيد، الحثّ الشديد على التمسك بأهل البيت، التصادم، الإحاطة والشمول، الإعلامية، التناص، الاقتباس القرآني، الحجاج، الإحالة، حسن الخاتمة، الاتساق البليغ، الانسجام الدقيق.

بل يمكننا القول أن ما بدا من النص الإمامي كان من السهل الممتنع، و (السهل

الممتنع تراه يطمعك أن تأتي مثله، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب^(١).
والعبارة الإمامية مع قصرها وسهولة ظاهرها إلا أنها احتوت من العظمة البلاغية ما
احتوت.

٢. كشف البحث عن أن الفنون البلاغية في كلام الإمام المجتبي كانت تأتي خدمة
للمضمون، ولم يكن أي تعمد لتزويق لفظي أو تكلف لفن بلاغي معين.

٣. إن كلام الإمام المجتبي ينبغي أن يقرأ بأكثر من منظور من أجل الإحاطة بالمغزى
الغني الذي يتمتع به هذا الكلام الروحي.

٤. التوظيف البليغ للنص القرآني بما يجعل من النص الإمامي حجة وافية في ردع
الخصيم.

٥. بين النص الإمامي التواشج العظيم بين النبوة والإمامة، وأن الإمامة هي
الورثة الشرعية للنبوة وأن بها تبقى وظيفة النبوة قائمة (الهداية والحفاظ على الأمة).

٦. تحقق الاتساق والانسجام في النص الإمامي بقوة، وقد بدا أن الانسجام
صعب، وبعد تحليل النص ظهر أنه مترابط ومنسجم بصورة متلاحمة.

٧. النص الإمامي غني بالمعارف وكلما زيد التأمل فيه زيد جني الثمار منه، غير أن
تحديد الغرض منه لا يمكن البتّ فيه دائماً؛ لأنه ربما توقف على طبيعة المتلقي وميولاته.

٨. يمكن أن يتداخل الفن الواحد بين أكثر من مستوى، فالتكرار يوجد في المستوى
الدلالي والبنائي.

وأقترح أن تتعاضد الأقلام في إشراق المنهج التربوي والتعليمي بسنا العترة

(١) صبح الأعشى في صناعة الانشا: ٢ / ٢٣٣.

المحمدية، فلطالما غيّبت في السنين الخالية، وفي نشرها ما لا يُحصى من الفوائد، يقول الراوي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «رَحِمَ اللهُ عَبْدًا أَحْيَى أَمْرَنَا، قُلْتُ: كَيْفَ يُحْيِي أَمْرَكُمْ؟ قال: يتعلم علومنا، ويعلمها الناس، فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مُحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا»^(١)، فلغة النشر لما جاء عنهم هي السبيل الأنجع في تقريب الفوارق، بل فيها ما يبين المكانة التي يحظى بها أتباع أهل البيت، لأنهم أحسنوا الاختيار، بل فيها ما يردع الخصم وينكل بالحجج الواهية، وقول الامام الرضا عليه السلام: «محاسن كلامنا» لا يعني أن منه ما ليس بمحاسن، بل لأن فيه ما يراعي المقابل، فليس من البديهي أن يجابه المعاند بالروايات التي تنص على تخطئة رموزه من المرة الأولى.

إن كلامهم عليهم السلام منجم غني بالمعارف التي تجذب الآخر وعلينا التنقيب والنشر. وختاماً أقول عذراً سيدي أبا محمد إن كنت قصرت، راجياً التسديد ببركاتكم وبنصائح من اطلعوا على هذا العمل.

قائمة المصادر والمراجع

- أولاً: القرآن الكريم.
- ثانياً: الكتب المطبوعة.
- أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية (شعر جميل بشينة نموذجاً)، د. صباح عباس جودي عتّوز، دار الضياء للطباعة والتصميم، العراق-النجف الأشرف، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمّر الزخشي (ت ٥٢٨هـ)، دار الفكر، بيروت-لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د. ابتسام أحمد حمدان، دار القلم العربي، سورية-حلب، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- أصول الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٩هـ)، منشورات الفجر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- الإمام الحسن المجتبي، الشيخ محمد السند، بقلم إبراهيم حسين البغدادي، الأميرة، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- البحر المحيط، أبو حيّان أثير الدين محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تح: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود والشيخ علي محمد معوض ود. زكريا عبد المجيد النوتي ود. أحمد النجولي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، ط٣، ٢٠١٠م.
- البديع، عبدالله بن المعتز، طبعة كراتشكو فسكي، لندن، ١٩٣٥م.
- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصّية، د. جمال عبد المجيد، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦م.
- البرهان في إعجاز القرآن (أو بديع القرآن)، أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد المصري المعروف بابن أبي الإصبع العدواني (ت ٦٥٤هـ)، تح: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، منشورات

المَجْمَع العلمي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

• البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط ١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

• البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملاكي (ت ٦٥١هـ)، تح: د. خديجة الحديثي، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العاني بغداد، ط ١، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

• البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، دار الفقه للطباعة والنشر، مطبعة سليمان زاده قم، ط ١، ١٤٢٤هـ.

• البهجة المرضية على ألفية ابن مالك، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: مصطفى الحسيني الدشتي، قم، ط ١٣، ١٤٢٤هـ.

• تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، أبو جرير محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، تح: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري روائع التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ٣، ١٩٦٧م.

• تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تح: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥هـ.

• تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)، نورمان فاركلوف، تر: د. طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة بيروت، ط ١، ٢٠٠٩م.

• التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية تطبيقية، د. عبد القادر بقشي، أفريقيا الشرق المغرب، ٢٠٠٧م.

• ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٦هـ)، و أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت ٣٨٨هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ ٤٧٤هـ)، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، (د. ت).

• الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

• حقائق التأويل في مشابه التنزيل، السيد الشريف محمد بن الحسين الرضي (ت ٤٠٦هـ)، تح: محمد الرضا آل كاشف الغطاء، دار الأضواء، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، (د.ت).
- الدر النظيم، يوسف بن حاتم الشامي العاملي (ت ٦٦٤ هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، (د.ت).
- دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، صالح القرمادي، الجامعة التونسية، ١٩٦٦م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، تح: محمود محمد شاكر، شركة القدس، مطبعة المدني مصر، ط ٣، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- الدلالة والنحو، د. صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، ط ١، (د.ت).
- ديوان أبي تمام (حبيب بن أوس ت ٢٣١هـ) بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزّام، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ١٩٦٤م.
- ديوان أبي العتاهية (إسماعيل بن القاسم ت ٢١٠هـ)، ديوان بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
- شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت ٦٤٣هـ)، تح: أحمد السيد وإسماعيل عبد الجواد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).
- شعر عمرو بن معدى كرب الزبيدي (ت ٢١هـ)، تح: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق، ط ٢، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.
- شفرات النص دراسة سيميولوجية في شعرية القصّ والقصيد، د. صلاح فضل، دار الآداب القاهرة، ط ١، ١٩٩٩م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ)، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د.ت).
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعُلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥هـ)، تح: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، علي بن يوسف المطهر الحلي (نحو ت ٧٠٥هـ)، تح: السيد مهدي الرجائي، مكتبة آية الله المرعشي العامة، ط ١، ١٤٠٨هـ.
- علم لغة النصّ المفاهيم والاتجاهات، د. سعيد حسن بحيري، الشركة المصرية لونجهان،

ط ١٩٩٧، ١ م.

• علم اللغة النَّصِّي بين النَّظَرِيَّة والتَّطْبِيق (دراسة تطبيقية على السُّور المكيَّة)، د. صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنَّشر القاهرة، ط ١، ١٤٣١ هـ ٢٠١٠ م.

• العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ)، تح: د. مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط ٢، ١٤٠٩ هـ.

• قضايا الشعرية، رومان ياكوبسن، تر: مُحَمَّد الولي ومبارك حنوز، دار توبقال، الدار البيضاء المغرب، ط ١، ١٩٨٨ م.

• كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: د. مفيد قميحة، دار الكُتب العِلْمِيَّة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

• الكشف عن حقائق التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود أبو القاسم بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

• المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير (ت ٦٣٧ هـ)، تح: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنَّشر، الفجالة القاهرة، (د. ت).

• مختصر المعاني، سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ)، دار الفكر قم، ط ١، ١٤١١ هـ.

• مدخل إلى عِلْم النَّصِّ مُشكلات بناء النَّصِّ، زتسيسلاف واورزنيك، تر: د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المُختار القاهرة، ط ١، ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.

• المستدرک على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ)، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة بيروت - لبنان، (د. ت).

• المشكاة الفتحة على الشمعة المضيئة في علم العربية، محمد بن محمد الدمياطي (ت ١١٤٠ هـ)، تح: د. يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤.

• المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم)، العلامة سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٢ هـ)، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكُتب العِلْمِيَّة، بيروت، ط ١، ١٤٢٤ هـ.

• معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧ هـ)، تح: مُحَمَّد علي النَّجار، وأحمد يوسف نجاتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٩٨٠ م.

• معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،

ط٢٠٠٧، ٢٠٠٧م.

• مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، تح: السيّد احمد الصّقر، مؤسّسة النّبراس، النّجف الأشرف العراق، (د.ت).

• المقياس في اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (ت ٣٩٥هـ)، تح: شهاب الدّين أبو عمرو، دار الفکر، بيروت - لبنان، (د.ت).

• مقومات الجملة العربيّة، د. علي أبو المكارم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

• مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (ت ٥٨٨هـ)، مؤسّسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

• المتّظم في تاريخ الملوك والأئمّ، أبو الفرج عبدالرحمن بن عليّ الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تح: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، مراجعة حسن زرزور، دار الكُتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

• نحو النّصّ بين الأصالة والمعاصرة، د. أحمد محمّد عبد الرّاضي، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، ط١، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

• النّصّ والخطاب، شتيفان هابشايد، تر: أ.د. موفق محمّد جواد المصلح، دار المأمون للترجمة والنّشر بغداد، ٢٠٠٣م.

• النّصّ والخطاب والاتّصال، د. محمّد العبد الأكاديميّة الحديثة للكتاب الجامعيّ القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

• النّصّ والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، تر: د. تمام حسان، عالم الكُتب، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

• نظريّة علم النّصّ (رؤيّة منهجيّة في بناء النّصّ الشّري)، د. حسام أحمد الفرج، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

• نظرية النّصّ من بنية المعنى إلى سيميائية الدّالّ، د. حسين خيري، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

• نقد الشّعْر، قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

- نهج البلاغة، تح: د. ضبحي الصالح، مركز البحوث الإسلامية، قم، ١٣٩٥هـ.
- وسائل الشيعة، الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ)، تحق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، قم، ط ٢، ١٤١٤هـ.
- الوظائف الدلالية للجُملة العربيّة (دراسة لعلاقات العمل النحوي بين النظرية والتطبيق)، د. محمد رزق شُعر، مكتبة الآداب، بيروت، ط ١، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

ثالثاً: البحوث المنشورة في الدوريات

- في الجهاز المفاهيمي للدرس التداولي المعاصر، د. مسعود صحراوي، بحث منشور في ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: د. حافظ إسماعيل عليوي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ٢٠١١م.
- منهج التأويل وعلم الدلالة، د. حسن جابر، بحث منشور في ضمن: دراسات في تفسير النصّ القرآني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط ٢، ٢٠١٠م.

الخطاب الحسني الشريف

قراءة استنطاقية لتكامل الشخصية من خلال لغة التضاد البلاغية

الأستاذة الدكتور

عهود عبد الواحد العكيلي

المقدمة

أَرْسَلَ اللهُ تعالى رسوله المصطفى ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ، وأنزل إليه الكتاب لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وما الظلمات والنور إِلَّا مصطلحان مجازيان للشر والخير، ولقد ختم الله تعالى رسالاته السماوية بالإسلام الحنيف وكتبه الإلهية بالقرآن الكريم، وجعله دستوراً للأمة ينهل منه الناس حيث شاؤوا ومأدبة يأتونها كلما جاعوا روحياً ونفسياً وعاطفياً، ومن آياته أن خلق عدلاً لهذا القرآن مطبّقاً لأحكامه مُظهِراً لِإِعْظَامِهِ، وهم أهل البيت ﷺ أهل الفضائل والشيم والمناقب والقيم، فَرَضَ الصلاة عليهم على كل مسلم ومسلمة، وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وجعل الصلاح منهجهم ومحاربة الفساد ديدنهم، فلا يخافون في الله لومة لائم، وجعل الحق فيهم ومعهم فسخٌ منهم، لا يتَّبِعُهُمْ إِلَّا مؤمن ولا يعرض عنهم إِلَّا منافق، وهم ذرية بعضها من بعض في نقاء السريرة، وقوة الإيمان والتمسك بالقرآن يستقون منه حججهم وينيرون به منهجهم.

ولمَّا كان الشر في الأرض كثيراً والإنسان للشيطان وحبائله وإغوائه وتلبسه أسيراً، فقد ابتلوا صلوات الله وسلامه عليهم بكثرة الحساد ومحاربة ذوي الفساد، فحاولوا إقصاءهم عن مراتبهم التي رتبهم الله تعالى فيها، وجعلوا العراقيل في دروبهم والأباطيل في خلط الحقائق في أذهان شعوبهم، وحاولوا النيل منهم تارة بالسب واللعن، وأخرى بالكفير والطعن، وشنوا الحرب عليهم والتنكيل بمتبّعيهم، وإغواء ضعاف النفوس

من طلاب الدنيا وعبيدها في استسهال البهتان عليهم، فما كان من أهل البيت عليه السلام إلا الاجتهاد في بيان منهجهم السوي وجعل الناس على بينة من أمرهم وعلى محجة بيضاء وإظهار كيد الكائدين وبطلان سبلهم، وكان لكل من أئمة أهل البيت عليه السلام منهجه الذي يوافق عصره والظروف التي استطاع أن يهيئ لها ويستثمرها بما يظهر صحة منهجه الإصلاحية، بمقابل خطأ منهج أعدائه.

لقد عمل الإمام الحسن المجتبي عليه السلام بكل ما أوتي من سعة وقوة إلى إبراز ذلك وهذا ما ظهر من خلال خطبه ورسائله التي ناظر بها أعداءه أو رد عليهم بما أفحمهم وأبان صغرهم أمام عظمتهم وفساد منهجهم بمقابل حسن منهجه، وقد تجلّى ذلك في موروته جلّه إن لم يكن كُله، وقد ظهر أيضا في كلماته القصيرة التي أبانت رأيه في أمور ومعانٍ شتى كشفت عمق نظراته إلى بواطن الأمور في مناحي الحياة المتعددة؛ لذا أثرت استنطاق لغته لتُفصّل عن سمو شخصيته ووجدت أن من المناسب أن أدرس ذلك من خلال لغة التضاد التي أفاض النقاد المحدثون بالكلام عنها وقصدوا بها: تأصيل استعمال أساليب التضاد من طباق ومقابلة ومفارقة والنظر إليها نظرة أكثر شمولية وعمقا وإعارتها اهتماما أبلغ، فبحثوا في بيان آثارها العميقة في بنية النص، فلم تكن عندهم حلية وتزيينا، بل كانت أساسا في بناء الكثير من النصوص التي أراد مبدعوها التعبير عن مشاعرهم الجياشة ولاسيما في رثاء الأحبة، أو رثاء المدن أو عند تصوير حوادث جسيمة مرت بهم، وقد أطلقوا على ذلك (لغة التضاد)، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث الثاني من الفصل الأول.

لقد ظهرت هذه اللغة في خطاب الإمام الحسن عليه السلام سواء في ذلك السياسي، أو التعبدي عند ذكر خالقه سبحانه وتوحيده وحمده أو ذكر كتابه المبين، أو خطابه الوعظي الإرشادي عند تعامله مع الرعية، ووسمت البحث بـ (الخطاب الحسيني الشريف،

قراءة استنطاقية لتكامل الشخصية من خلال لغة التضاد البلاغية) ؛ لأنَّ أساليب التضاد شكَّلت ظاهرة في الخطاب الحسنی الشریف؛ ولتكون بلاغته التي برزت من خلال مواقفه سبيلا لإبراز معالم شخصيته التي استحق بها هذه المكانة العالية التي بَوَّأها له الله تعالى إذ جعله من أهل البيت عليه السلام، وبَوَّأه رسوله الكريم إذ جعله وأخاه الإمام الحسين عليه السلام سيدي شباب أهل الجنة وإمامين قاما أو قعدا؛ لذلك كانا محطَّ العناية الشديدة لأبيهما أمير المؤمنين وأمهما السيدة الزهراء صلوات الله وسلامه عليهما؛ ليُصْبِحَا كما قُدِّرَ لهما مثالا يحتذى وإمامين للورى.

واقضى البحث أن يكون في فصلين، كان الفصل الأول عن: بلاغة الإمام الحسن الزكي عليه السلام وملاءمة لغة التضاد لدراستها وجاء في مبحثين:

أحدهما: بلاغة الإمام الحسن الزكي عليه السلام ومنابع ثقافته، والآخر: أضواء على مصطلح التضاد قديما وحديثا وأهمية لغة التضاد.

أما الفصل الثاني فتناولت فيه: ملامح شخصية الإمام من خلال توظيف لغة التضاد وكان في ثلاثة مباحث:

تناول المبحث الأول: الإمام المستحق لمرتبة الإمامة من خلال إبراز ثنائية الخير والشر وكان في مطلبين: الأول: التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على الإمامة من خلال لغة التضاد، والآخر: التحليل البلاغي للنصوص الدالة على الإمامة من خلال لغة التضاد.

أما المبحث الثاني: فتناول الإمام العابد من خلال ثنائية العبد والرب والكمال والنقص؛ لأجل من التضاد سبيلا لإظهار أصالة تعبُّده الذي جاء عن دراية العارف بالله تعالى، وإبراز عظمة الخالق المستحق للعبادة وقوته بإزاء ضعف المخلوق واحتياجه

لمساندة ربه، وكان في مطلبين:

الأول: التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على العبادة من خلال لغة التضاد.
والآخر: فاخصص بالتحليل البلاغي للنصوص الدالة على العبادة من خلال لغة التضاد.

وخصصت المبحث الثالث لـ: الإمام صاحب الخلق الرفيع من خلال ثنائية الحلم والنزق والوعظ واقتراف الذنب؛ لإبراز تعامله مع الرعية، من شدة حلمه المستند إلى أصالة خلقه ومبلغ علمه أو وعظه لإصلاح خلل نجم عن اقتراف الخطأ، وكان في مطلبين أيضاً:

الأول: التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على الحث على حُسن الخلق من خلال لغة التضاد، أما الآخر فتناول: التحليل البلاغي للنصوص الدالة على الحث على حُسن الخلق من خلال لغة التضاد، وختمت البحث بخاتمة وتناولت أهم نتائجه، أتبعته بقائمة لهوامش البحث وأخرى لمصادره وكان أولها القرآن الكريم، ومصادر توزَّعت ما بين كنوز التراث الأدبية والبلاغية أو ما أبدعه البلاغيون والنقاد المحدثون، واستقيت أقواله الشريفة من المصادر التي روت تراث أهل البيت عليه السلام، كما أفدت من مصادر الحديث الشريف المعتمدة، عسى أن يوفَّقني الله تعالى لكشف النقاب عن شيء من الدرِّ المكنون لهذا التراث الثَّمر، وإبراز جمال التضاد وأثره في إثراء دلالة خطب الإمام الحسن الزكي عليه السلام ورسائله وكلماته القصيرة، بما يبيِّن دفاع الإمام عن أحقية أهل البيت عليه السلام ويرفعُ الظلم عن شخصية فريدة عاشت في ظروف عصيبة حاول المغرضون تشويه معالم قوتها، أو تقويض مسارات تأثيرها، والتعمية على عمق أصالتها، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً بفعل نصِّ الله لها، وبفعل ما قدَّمته من مواقف وتراث أصيل فأجُمَّت

أعداءها على كثرتهم وحساسية مراكزهم وكشفت زيف أباطيلهم وأسقطت أقنعتهم،
فمضت إلى ربها حميدة صابرة صامدة شهيدة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

بلاغة الإمام الحسن الزكي عليه السلام وملاءمة لغة التضاد لدراستها

المبحث الأول:

بلاغة الإمام الحسن الزكي عليه السلام ومنابع ثقافته

نشأ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام في بيت جده رسول الله صلى الله عليه وآله الذي حوى بيت أمير المؤمنين وزوجه السيدة الزهراء بنت رسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكان لتلك النشأة أكبر الأثر في منطق الإمام الحسن عليه السلام وقوة شخصيته وسديد حُجَجِهِ التي أفحمت خصومه، فلم يستطيعوا لها دفعا ولا ردًا إلا بما يظهر صغرهم أمام عظمتهم وانهمامهم أمام ثباته، فاتخذوا سُبُلَ المكر والخداع وسائلًا لإيذائه والتعقيم على شخصيته أو تشويه الحقائق والقراءة المغلوطة للأحداث من خلال التعقيم الإعلامي على تلك الشخصية أو تجنيد مَنْ يؤذيه علنا أو سِرًّا، فلمَّا لم تنفعهم الوسائل وأُعييتهم الحِيل لجؤوا إلى اغتياله بالسُّم كما أوردت ذلك الكتب التي ترجمت للأئمة المعصومين وكتب التاريخ^(١).

إنَّ من يتفحص شخصية الإمام الحسن الزكي عليه السلام يجد فيها ما يأتي:^(٢)

الصفات والمميزات التي امتاز بها الإمام وأخفق حاسدوه في الوصول إليها مثل: نسبه الكريم وحسبه الشريف فهو سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسيد شباب أهل الجنة وابن

أمیر المؤمنین وابن سيدة نساء العالمین عليه السلام وقد اعترف بذلك الأعداء قبل الأصدقاء.
شبهه الكبير خلقاً وخلقاً ومنطقاً بجده المصطفى عليه السلام ومن أظهر ذلك أدبه الجمّ
ونباهته وفطنته وخشيته من الله تعالى وقول الحق فلا تأخذه فيه لومة لائم، وتواضعه
وكرمه وكياسته.

إعداد الرسول الكريم عليه السلام له ولأخيه الإمام الحسين عليه السلام؛ (لتسلّم مقاليد الحركة
النبويّة العظيمة و الهداية الربّانية الخالدة بأمر من الله سبحانه وصيانة للرسالة الإلهية
التي كتب الله لها الخلود من تحريف الجاهلين وكيد الخائنين...) (٣).
منطقه وقوة حجّته المتأثّبان من علمه الذي كانت أهم منابعه:

العلم اللدني الإلهي ولا ريب في ذلك، فالإمام الحسن المجتبي الزكي ثاني أئمة أهل
البيت عليه السلام، وهم عدل القرآن، وكان علمهم علماً لدنياً إلهياً، وقد أورد الجاحظ في ذلك
نقلاً عن الإمام جعفر بن محمد الصادق، عن آبائه عن رسول الله عليه السلام: «إنّ أبرار عترتي
وأطايب أرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً ألا وإنّا من أهل بيت من علم الله
علمنا وبحكم الله حكمنا ومن قول صادق سمعنا وإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا وإن
لم تفعلوا يهلككم الله بأيدينا معنا راية الحق من تبعنا لحق ومن تأخر عنا غرق ألا وإن
بنا ترد دبرة كل مؤمن وبنا تحلح ربة الذل من أعناقكم وبنا فتح وبنا ختم لا بكم» (٤).

العلم المتوارث عن جده المصطفى وأبيه المرتضى وأمه فاطمة الزهراء ولا سيما
المعرفة الدقيقة بالقرآن الكريم نستشف ذلك مما ذكره سليم بن قيس الهلالي عند إشارته
إلى عناية أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالقرآن الكريم ومتابعته لكل صغيرة
وكبيرة فيه ابتداء من يوم نزول أول آية فيه ومراجعته مع رسول الله عليه السلام ومذاكرته معه كل
يوم ومعرفة دقائقه وخفائيه، فينقل سليم بن قيس الهلالي قول الإمام علي عليه السلام مجيباً عن

سؤال وجه له حول تلقفه القرآن من رسول الله ﷺ: «وكنت أدخل على رسول الله ﷺ في كل يوم دَخْلَةً وفي كل ليلة دخلة فيخيلني فيها أدور معه حيث دار وقد علم أصحاب رسول الله أنه لم يكن يصنع ذلك بأحد من الناس غيري، وربما كان ذلك في منزلي يأتيني رسول الله ﷺ.... فإذا كان في بيتي لم تقم من عندنا فاطمة ولا أحد من ابني»^(٥)، وهذا يدل على مقدار علم أمير المؤمنين ﷺ والسيدة فاطمة الزهراء ﷺ والحسين ﷺ بهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فمعلمهم رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علّمه شديد القوى، ولا ريب فهم أهل البيت ﷺ وحقّ لهم أن يكونوا عدل القرآن كما أشار إلى ذلك رسول الله في حديث الثقلين: «إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلي أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كهاتين - وجمع بين مسبحتيه - ولا أقول كهاتين - وجمع بين المسبحة والوسطى - فتسبق إحداها الأخرى، فتمسكوا بهما لا تنزلوا ولا تضلوا ولا تقدموهم فتضلوا»^(٦).

أما أهم ما ميّز خطاب الإمام الحسن ﷺ فهو الآتي:

أولاً: فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارات والدقة في استعمال كل أسلوب في موضعه بحسب ما يقتضي السياق على وفق مقتضى الحال.

ثانياً: كثرة حمد الله وبيان صفاته العظيمة وتفردّه بالربوبية والرضا بما قدّره سبحانه وتناول ذلك بتفصيل في خطبه؛ لتكون مقدمات إقناعية لمن آمن بذلك أن يُسلم بأحقية أهل البيت ﷺ لما أعطاهم الباري سبحانه من رفعة المكانة والتقديم بأحقية الإمام الحسن المجتبي بالإمامة امتثالاً لأمر الله تعالى وأمر رسوله الكريم ﷺ وضرورة استخلاف الأجدد والأفضل لقيادة الأمة.

استعمال الحجة والدليلين النقلي والعقلي لإقناع السامعين ولا سيما من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ والأقوال المأثورة والأبيات الشعرية السائرة والأمثال العربية.

الإيجاز والتكثيف في خطبه ورسائله وكلماته القصيرة؛ مما يدل على تمكنه من ناصية اللغة ومعرفته الدقيقة بأفانيتها ودقته في تناول أساليبها، وهذا ما سيظهر جليا في أثناء البحث بمباحثه الثلاثة إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني:

أضواء على مصطلح التضاد قديماً وحديثاً وأهمية لغة التضاد

أضواء على مصطلح التضاد قديماً وحديثاً:

من الموضوعات البديعية المهمة التي تثير الدلالة في النص الأدبي في مستوى السياق ما اصطلح عليه البلاغيون القدماء بـ (الطباق) والتكافؤ، والمقابلة وكلها تقوم على إبراز المعاني المتضادة.

إنَّ أول من أشار إلى أهميته الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٨٠هـ) في تعريف (المطابقة) أو (الطباق)، ونقل ذلك ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ)^(٧)، ويرى ثعلب (ت ٢٩١هـ) في الطباق الذي يسميه (مجاورة الأضداد) أنه (ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده)^(٨) وأفرد عبد الله بن المعتز لهذا الفن باباً ترتيبه الثالث سمّاه المطابقة في كتابه البديع^(٩) ورأى القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) للمطابقة شعباً خفية قد لا تتميز إلّا للنظر الثاقب والذهن اللطيف^(١٠)، وأشار ابن وهب الكاتب إلى صحة المقابلة والمساكلة في المطابقة ضمن ما يرفع من قيمة الشعر الفنية^(١١)، وتحدث قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ)، عن التكافؤ ويقصد به التقابل جاعلاً إياه من نعوت المعاني^(١٢)، أما ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) فسمّى التكافؤ (المطابقة)^(١٣)، وكان ابن أبي الأصبع المصري أكثر توضيحاً للمصطلح حيث عدّ الطباق المجازي تكافؤاً^(١٤).

أما (المقابلة) فقال عنها قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ): «وهو أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي بالموافق بما يوافق وفي المخالف بما

يخالف على الصحة، أو يشترط شروطاً ويعدد أحوالاً في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده، وفي ما يخالف بضد ذلك»^(١٥)، و تطرق إليه أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) فقال: «إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»^(١٦)، غير أن كثرة المصطلحات، والاهتمام بالتفريع الشكلي والتقسيم دون التركيز على الأثر الدلالي لهذا الفن وارتباطه ببنية النص العميقة لا يبرز أهمية التضاد كما أرادها المبدعون، وهي تشتت ذهن الدارس أو المتلقي حتى يستطيع أن يتبين الفروق بينها^(١٧)، والملاحظ أن مما ورد أن البلاغيين القدماء تذوقوا التضاد وبيّنوا آثاره الدلالية والنغمية والتصويرية.

أما البلاغيون المحدثون فهم ليسوا على رأي واحد إنما كانوا يمثلون مدارس نقدية مختلفة ولكل طريقتة، فمنهم من تابع القدماء في دراساتهم فكان اتجاههم تقليدياً أو اتباعياً للبلاغيين السابقين مثل أحمد مصطفى المراغي^(١٨)، و د. أحمد مطلوب^(١٩)، ود. فضل حسين عباس^(٢٠)، ومنهم من وقف بين التقليديين والمجددين مثل د. محمد عبد المطلب عند دراسته لمصطلحات التضاد مثل مصطلحي التطابق والتقابل اللذين جعلهما في حديثه مصطلحاً واحداً من خلال عطف إحداهما على الآخر^(٢١)، ومن البلاغيين العرب المحدثين من سلك طرق التجديد من خلال إطلاعه على المناهج النقدية الحديثة والمدارس النقدية الجديدة التي أثّرت في الفكر البلاغي والنقدي العربي، وكان موضوع التضاد من الموضوعات الأساسية التي أنصبَّ عليها الاهتمام من المناهج النقدية الحديثة كالبنوية والشعرية، والأسلوبية، والسيمائية، والقرائية، فالتضاد كان أساساً بنائياً للمنهج البنوي في تركيزه على الثنائية بشكل عام والثنائية الضدية بشكل خاص، وقد مثل ذلك د. كمال أبو ديب في الثنائيات^(٢٢)، ومن خلال الشعرية أكمل د. كمال أبو ديب رأيه في التضاد، كاشفاً أثره في تحقيقها حين يتحدث عن مسافة التوتر^(٢٣) وقصد بلغة التضاد جميع أنواع المغايرة والتمايز بين الأشياء في اللغة والوجود^(٢٤)،

ثم يوضح رأيه قائلاً: «وإننا إذا أحسنّا اكتناه التضاد وتحديد مختلف أنماطه ومناحي تجليه استطعنا في خاتمة المطاف أن نجعل أنفسنا في مكان هو الأكثر امتيازاً وقدرة على معاينة الشعرية وفهمها من الداخل وكشف أسرارها»^(٢٥)، ويستمر في بيان أهمية التضاد في حديثه عن أهمية الخلق الشعري، حيث يجعل التضاد هو المنبع الرئيس للفجوة: مسافة التوتر وبالتالي للشعرية^(٢٦)، وقد اعتمد د. محمد مفتاح الثنائية منطلقاً لدراسة السيميائية حيث يقول: «إن هذه النقطة تسلمنا إلى صلب الدراسات البنيوية للمعنى التي اتخذت منطلقاً لها ثنائية الظواهر فرعمت إنها اللغة/ والكلام، والدال/ المدلول»^(٢٧)، أما د. صلاح فضل فيتناول التضاد عند دراسته للأسلوبية ويجعل قيمته الأسلوبية تكمن في نظم العلاقات الذي يقيمه بين العنصرين المتقابلين^(٢٨)، وأشار د. مختار أبو غالي إلى أهمية لغة التضاد عند الحديث عن شمولية المفارقة التي قد تكون في الكلمة الواحدة أو العبارة الواحدة كما تكون بين العبارات والصور المتقابلة^(٢٩) ويقصد الأديب من إيرادها غايات اجتماعية وسياسية أو تحقيق دلالات نفسية، وهي الأكثر دوراناً وشيوعاً^(٣٠)، والملاحظ أنّ النقاد ركّزوا على الشعر ولم يلتفتوا كثيراً إلى أثر التضاد في النثر الفني كالخطب والرسائل على كثرة وروده فيهما، وقد وجدت الخطاب الحسني الشريف كثير التضاد؛ لأنّ في لغة التضاد ما يعبر بشكل مؤثر عما أراد الإمام إيصاله، فبرزت هذه اللغة في خطابه بشكل ملفت للنظر في عباراته التي أبرزت صوره المتقابلة فأدّت ما أراد إبلاغه والوصول إليه من الإصلاح الاجتماعي والسياسي، أو بيان موقفه من أهم القضايا التي أحاطت بالمجتمع سياسياً واجتماعياً، وإبراز ما حاول الأمويون إخفاءه أو تغيير صورته من قراءة الأحداث التاريخية والسياسية المتناقضة أو المتضادة، وإيضاح ما حاول أعداء الدين إيهامه أو خلط حقائقه بالشبهات، فكان التضاد بأساليبه المختلفة وإدخاله في سياقات متعددة أفضل الوسائل لإيصال أفكاره إلى الناس ولإثراء دلالة نصوصه الشريفة.

الفصل الثاني:

ملاح شخصية الإمام من خلال توظيف لغة التضاد

المبحث الأول:

الإمام المستحق لمرتبة الإمامة من خلال إبراز ثنائية الخير والشر

على الرغم من النصّ على إمامة الإمام الحسن المجتبي عليه السلام من رسول الله صلى الله عليه وآله الذي وصفه الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۖ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^(١)، إلّا أن ذلك كان مستندا مع الوحي إلى صفات فريدة تحلى بها هذا السبط المبارك، ومن يقرأ خطابه يدرك أهمية إبرازه جانب الخير المتمثل فيه عليه السلام وفي آل بيته الكرام، وقد أقصوا عن مراتبهم الشريفة التي كان يجب أن تسود بحسب المنطق السليم بمقابل جانب الشر المتمثل في أعدائه غير المستحقين للقيادة الذين استلموا مقاليد الأمور من خلال الترغيب بإغواء الناس الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة بالمغريات الدنيوية، أو بالترهيب والتنكيل لكل من خالفهم في نهجهم، أو ناصر أهل البيت عليهم السلام.

لذا برزت عناية الإمام الحسن الزكي بالخطاب السياسي المظهر لاستحقاقه المكانة السياسية والدينية عناية كبيرة؛ نظرا للظروف السياسية الصعبة التي أحاطت به فدخل

(١) سورة النجم: ٣-٥.

معتزكها، محاولاً إبراز الحقائق التي حاول الأمويون -بشكل متكرر- خلطها أو قراءتها بصورة مغلوطة وتشويه الصورة الناصعة لقوة شخصية سبط رسول الله ﷺ، من رُميه بعدم الحكمة؛ أحياناً وبالضعف أحياناً أخرى، فجاءت عنايته ﷺ بذلك الخطاب؛ لإيضاح الحقائق وتبرير المواقف التي مرّت به، ورفع الظلم الذي حاق بأبيه أمير المؤمنين من خلال سبّ الأمويين له على المنابر^(٣١)، عن طريق بيان سبقه في الإسلام وذّبّه عن حياض الدين الحنيف وجهاده المتفرّد، وثبّاته في كل المعارك مهما كانت شدّتها، وبرز استعمال التضاد في خطاب الإمام الحسن السياسي، وكانت أهم سياقاته وأساليبه سياق الموازنة بينه وبين خصمه بأسلوب المقابلة وهو التضاد بالجمل، فقد عمد الإمام الحسن ﷺ إلى الموازنة بينه وبين خصمه بأسلوب المقارنة: وهو إبراز أوجه التشابه والاختلاف بين موقفين، أو عبارتين، أو مفهومين، أو مثالين، أو واقعيتين... وله أثره البارز في الإقناع حيث يكون من الضروري الموازنة بين فكرتين أو أكثر؛ للانتصار لهذه الفكرة أو تلك، كما أنّ الموازنة مهمة من جهة حاجة المقارن إلى هذه الآلية؛ لإبراز أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين مخاطبه من حيث القيم، أو الأهداف المشتركة، وهذا ما ظهر في الموازنة التي عملها الإمام بينه وبين معاوية، فبرزت من خلال إيضاح مميزاته الكريمة سلبيات خصمه التي يعرفها السامعون؛ ليتضح بذلك علوّ مكانه بمقابل دنوّ مقام من أضمر له العداوة والبغضاء؛ وسأورد مثالين قائمين على التضاد ومختلفي جهة الموازنة:

المثال الأول: الذي وازن فيه الإمام الحسن بينه وبين معاوية:

وفيه بروز لانتصار الإمام الحسن لأبيه أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ وهو أحد المواطن الكثيرة التي نال الأمويون فيها منه: فقد «روى الشعبي أنّ معاوية قدم المدينة فقام خطيباً فنال من علي بن أبي طالب ﷺ، فقام الحسن بن علي ﷺ فخطب فحمد الله

وأثنى عليه ثم قال له: «إنَّه لم يُبعث نبي إلا جعل له وصي من أهل بيته، ولم يكن نبي إلا وله عدو من المجرمين، وإنَّ علياً عليه السلام كان وصي رسول الله ﷺ من بعده، وأنا ابن علي، وأنت ابن صخر، وجدك حرب وجدِّي رسول الله ﷺ، وأمك هند وأمِّي فاطمة، وجدتي خديجة وجدَّتكَ نثيلة، فلعن الله الأئمة حسباً وأقدمنا كفراً وأخلنا ذكراً وأشدنا نفاقاً، فقال عامَّة أهل المسجد: آمين، فنزل معاوية فقطع خطبته» (٣٢)

المثال الثاني: وهو الذي وازن فيه معاوية بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام

حيث يخاطب معاوية الإمام قائلاً: «أنا خير منك يا حسن، قال الإمام الحسن عليه السلام: وكيف ذاك يا بن هند؟!، قال: لأنَّ الناس أجمعوا عليّ ولم يجمعوا عليك، قال: هيهات هيهات لشراً ما علوت، يا بن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلان: بين مُطيع ومُكره، فالطائع لك عاصي لله، والمُكره معذورٌ بكتاب الله، وحاش لله أن أقول: أنا خيرٌ منك فلا خيرَ فيكَ، ولكنَّ الله بَرَّأني من الرذائلِ كما بَرَّأك من الفضائلِ». (٣٣)

المطلب الأول:

التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على الإمامة من خلال لغة التضاد

من خلال التأمل في النصين أجد أنَّ الإمام الحسن (عليه السلام) في الموضوعين لم يكن قاصدا إظهار فضائله لأجل إشهارها فهي معروفة، إنما لأجل تنفيذ إدعاء معاوية بالفضل ولا صحة له ودحضه بالحجج والأدلة وإبراز الصورة الحقيقية التي تخفى على من أضلهم الإعلام الأموي.

أراد الإمام الحسن في النص الأول عن طريق التضاد إبراز حقيقة حاول معاوية طمسها بالنيل من الإمام علي (عليه السلام) وهي: أنَّ لكل نبي وصياً وهذا الوصي يكون على منواله من الصلاح وحُسن الخلق والتقوى والورع وقوة الدين والمحافظة عليه والاستمرار في السير على هُديهِ، وهو يمثل هنا أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي عرفه بذلك الأعداء قبل الأصدقاء، ونصَّ الرسول على وصايته من بعده بأحاديث ذهبية في صحتها وتواترها ولاسيما حديث المنزلة حين قال في غزوة تبوك: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، وأنت ولي كل مؤمن بعدي»^(٣٤) وغدير خم^(٣٥)، وبالمقابل فإنَّ لكل نبي عدواً من المجرمين، وقد صرَّح الإمام الحسن بذلك في قوله: «وإنَّ عليّاً (عليه السلام) كان وصيَّ رسول الله ﷺ من بعده» ليرد على النيل من أبيه مذكراً بحديث المنزلة وخم، وليذكر بأن الطرف الآخر وهو عدو النبي هو مَنْ ينال من الوصي ليلمَّح بذلك إلى معاوية وهذا أبلغ في التأثير من التصريح، وأكثر لياقة بسبط النبي الذي يترفع عن سبِّ الأعداء أو النص على عداوتهم بالتصريح، ولكي لا يرد على معاوية بمثل طريقته السبابة اللعانة غير اللائقة؛

لأنَّ ذلك ليس من صفات المؤمن، قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلَا بِلَعَّانٍ وَلَا فَاحِشٍ الْبَذِيءِ»^(٣٦)، بل يتحدث السبب بطريقة الأئمة والصالحين التي تُصَرِّح بالفضائل وترفع عن ذكر الرذائل وتلمِّح لها تلميحا؛ ولكي ينضح كل إناء بما فيه، فالخير لا ينضح إلَّا خيرا والشر لا ينضح إلَّا شرا.

استعمل الإمام ﷺ المقارنة؛ لأنها أفضل وسيلة لإظهار الأطراف المتضادة، كما أنَّها من أقوى آليات الحجاج حتى يعلم الناس صفات الجهتين المتحاجتين ويرسموا صورة واضحة لكل منهما من خلال تلك المقارنة.

عندما ذكر الإمام الحسن ﷺ النص من النبي ﷺ على وصاية أمير المؤمنين ﷺ انتسب إليه مباشرة بقوله: «وأنا ابن علي»؛ ليذكر بأنَّ الصلاح فيه وفي أبيه الإمام علي ﷺ، وأنَّ معاوية منازع لها ومغتصب حقَّيها، وليوازن هذا الانتساب الذي يمثل الخير كله بانتساب معاوية لأبي سفيان (صخر) الذي جندَّ الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ وشهر الحراب بوجهه بقوله: «وأنت ابن صخر» مستعرضا ما في انتساب الإمام الحسن من شرف رفيع وفي انتساب معاوية من خزي وضعيع، علما بأنَّ الإمام اكتفى بذكر الأسماء من الطرفين؛ ليجعل ما علّق بأذهان الناس من معرفة حولها حاضرا بما تمثلها تلك الأسماء من جانبي الخير والشر دليلا على استحقاق اللعن لمن كان به جديرا بما كسبت يده.

جعل الإمام الحسن ﷺ الناس المخاطبين طرفا فعَّالاً في خطابه بوصفهم جهةً تحكيميةً متفاعلة، وصاحبة رأي وليست جهةً مستمعةً وحسب ولا أثر لها في توصيل الفكرة المعروضة؛ لأنَّ سبَّ معاوية أمير المؤمنين الإمام علياً ﷺ والنيل منه كان الناس طرفا استهدفه معاوية لإيصال فكرة السب له وجعلها سُنَّة لكل من أراد أن يُلقِيَ خطبة على رؤوس الأَشْهاد، فكان من الملائم أن يأخذ الإمام ﷺ رأي الناس في الجهة المستحقة

اللعن بعد أن عرض ما تحمله الجهتان من صفاتٍ وخصالٍ.

أنهى الإمام النص الأول بالدعاء على مستحق اللعن من دون أن يعيّن بقوله: «فَلَعَنَ اللَّهُ الْأَمَنَّا حَسْبًا وَأَقْدَمَنَا كُفْرًا وَأَخْمَلَنَا ذِكْرًا وَأَشَدَّنَا نِفَاقًا»؛ ليجعل أذهان الناس متفكّرة لا تقبل فكرة اللعن على علّاتها.

بعد أن ألقى الإمام هذا الدعاء تلقّفه الناس بالتمعّن في معناه والتفكّر في دلّالته والتأمّل في بلاغته، فتفاعلوا معه في تعيين مستحق اللعن بما هو عليه من صفات سلبية، ويتبيّن ذلك مما نقله راوي الخبر بقوله: «فقال عامّة أهل المسجد: آمين»، فعلى الرغم من أن الكثير من مستمعي الخطبة من مناصري معاوية إلّا أن ذكاء الإمام في عدم تحديد اسم المستحق للعن وتوجيه الأنظار للصفات جعل الناس تناصر الحق من دون تحيز؛ لأنّه دعاء على اللّئيم والكافر وخامل الذكر من المنافقين.

لما رأى معاوية ذلك التفاعل وشدّة تأثير خطبة الإمام الحسن بالجمهور، تيقّن أن استمراره في خطبته التي تفصح عن مكنون شخصه ولؤم طبعه ليست في صالحه، بل ستقلب الأمور عليه، أثر قطعها بنزوله من المنبر، وقد نقل الراوي ذلك بقوله: «فنزّل معاوية فقطع خطبته».

إنّ الناس يعرفون مكانة الإمام الحسن السبط عليه السلام، وقد عزّز ذلك أن معاوية قد ذكر ذات يوم ما أورده الإمام الحسن في بيان حسبه الطاهر ونسبه الذي لا يجارى في كلمة - في مناسبة غير هذه - عرّف فيها معاوية بالإمام الحسن عليه السلام، ونقلها ابن عبد ربه الأندلسي: «قال معاوية يوماً لجلسائه: مَنْ أكرمُ الناس أباً وأماً وجداً وجدةً وعمّاً وعمّةً وخالاً وخالةً؟ فقالوا: أميرُ المؤمنين أعلم، فأخذ بيد الحسن بن عليّ وقال: هذا، أبوه عليّ بن أبي طالب، وأمّه فاطمة بنتُ محمد، وجده رسولُ الله صلى الله عليه وآله، وجدته خديجة،

وعمّه جعفر، وعمّته هالة بنت أبي طالب، وخاله القاسم بن محمد، وخالته زينب بنت محمد ﷺ^(٣٧)، ومن المعروف أن ما كان يقوله معاوية ينقل ويشهر ليعلمه الناس وهذا الخبر بالتأكيد من ضمنه.

أما التحليل الموضوعي للنص الثاني: فكانت أبرز معالمه:

رأى الإمام ﷺ أن معاوية يفخر بها لا فخر فيه مستغرباً من استعلائه بما هو شر ليفخر على من لا مزيد للفخر عليه في النسب والخلق والحكمة والأدب بقوله ﷺ: «هيهات هيهات لشر ما علوت»؛ لأن معاوية سليل عائلة عرفت بمحاربتها رسول الله وأقرب مناصريه، وأبرز ذلك من خلال ندائه بلقب أمه في قوله: «يا بن آكلة الأكباد» فهي المحرّضة على قتل أسد الله وأسد رسوله حمزة عم رسول الله ﷺ غدرا والتمثيل به في معركة أحد ومحاولة أكل كبده^(٣٨).

أشار الإمام إلى أن معاوية يمثل الجهة العاصية لله؛ من خلال خطابه لمعاوية بقوله: «المجتمعون عليك رجلاً: بين مطيع ومكروه، فالطائع لك عاصي لله، والمكروه معذور بكتاب الله» فمن أطاعه عن قناعة فهو عاصي لله؛ لأن معاوية يأمر بالباطل وينهى عن الحق، والمكروه على طاعة معاوية معذور في كتاب الله؛ لأنه أكره على العصيان، فالإمام يحيل إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللّٰهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(١)، هذا يدل على استحضاره كتاب الله الكريم في حججه في الوقت المناسب.

رأى الإمام ﷺ أن القدر الذي يجعل اجتماع الحق والباطل متمثلاً بالإمام الحسن الزكي ﷺ ومعاوية في مكان واحد لا يعني التكافؤ والموازنة فلا قياس بينهما، نستشف ذلك من نهاية قول الإمام ﷺ: «وحاش لله أن أقول: أنا خير منك فلا خير فيك» رداً

على بدء قول معاوية: «أنا خير منك يا حسن»، فالإمام يأنف من المقارنة؛ لأنه يراها مستحيلة بعدم وجود المعيار الذي يجوز به القياس، وأستشف ذلك من قوله عليه السلام: «ولكن الله برّاني من الرذائل كما برّأك من الفضائل» فبقدر خلو الإمام عليه السلام من الرذائل كان خلو معاوية من الفضائل، فكان التناسب والتلاحم باديا يربط آخر الكلام في الردّ بأول مقارنة الخصم النّدّ.

المطلب الثاني :

التحليل البلاغي للنصوص الدالة على الإمامة من خلال لغة التضاد

أفاد الإمام الحسن (عليه السلام) من إمكانياته البلاغية المتفرّدة للرد على خصمه وتغيير نتائج الموقف إلى الضدّ لصالحه، وقد تأملت النص الأول كثيرا بعين الناقد المتفحّص فوجدت ما يأتي: وجود أنواع الأخبار الثلاثة التي صنّفها البلاغيون؛ وذلك بحسب نسبة الشك في أذهان السامعين، وسأذكرها بحسب ترتيب ورودها في نص الإمام:

أولا: الخبر الإنكاري: وهو الذي يحتوي على أكثر من مؤكّد واحد وقد جاء لتعزيز حقيقة وجود وصي لكل نبي، فاحتاج التأكيد لإزالة الإنكار الذي قد يعلق بأذهان العديد من السامعين المضلّلين بالإعلام المعادي لأهل البيت (عليهم السلام)؛ لذلك قال: «إنّه لم يُبعث نبي إلّا جعل له وصي من أهل بيته، ولم يكن نبي إلّا وله عدوّ من المجرمين»، فقد أكّد بـ (إنّ) و (الحصر بـ) (ما و إلّا) جاعلا ذلك داخلا في نسق التضاد، فالنبي له وصي يعاضده وهو من أهل بيته وفي طريقه عدو مجرم يكيد له وهو مخالف لنهج الحق الذي بُعث من أجله النبي ودعا الناس إليه، مبينا أنّ الوصي هو والده أمير المؤمنين؛ ليتضح للناس علو مقام الإمام الحسن (عليه السلام) بإزاء عدوه.

ثانيا: الخبر الطلبي: وهو الذي يحتوي مؤكدا واحدا لإزالة الشك الذي قد يعلق بذهن أحد السامعين، وقد ورد في هذا النص بقوله: «وإنّ عليّاً (عليه السلام) كان وصي رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بعده» إذ أكّد بـ (إنّ) خبر أنّ وصي الرسول (صلى الله عليه وآله) من بعده هو الإمام علي (عليه السلام) الذي عمد معاوية إلى النيل منه في ذلك الموقف مما استدعى تأكيد الإمام الحسن (عليه السلام)

على بيان سوء ما بدر من معاوية بما لا يختلف عليه المسلمون بحيث تتضح الجريمة التي ترتكب بحق أبيه.

ثالثاً: الخبر الابتدائي: وهو الخبر الخالي من المؤكدات، الذي لا يشك به أحد، وقد ذكر فيه الإمام عليه السلام حقائق لا ينكرها سامع شهد ذلك الموقف، مستفيداً من الموازنة بين شخصيتي الإمام الحسن عليه السلام ومعاوية رداً على ما بدر من معاوية بالنيل من الإمام علي عليه السلام ولَعْنِهِ شخصه على الملأ، حيث قال: «وأنا ابن علي، وأنت ابن صخر، وجدك حرب وجدّي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمك هند وأمّي فاطمة، وجدّي خديجة وجدّتك نثيلة، فلعن الله ألأمنا حسباً وأقدمنا كفراً وأخملنا ذكراً وأشدّنا نفاقاً» ولم يخالفه السامعون فيما قرره من حقائق معروفة لديهم مقترنة بذكر أسماء الأعلام الإيجابية والسلبية.

استعمل الإمام بعد ذلك أسلوب الدعاء على الأكثر لؤماً والأقدم كفراً والأخمل ذكراً والأشدّ نفاقاً من الرجلين؛ ليوضح أنّ اللعن يجب أن يكون لمن اتصف بالصفات سالفة الذكر، وليس لمن كمل إسلامه ورفع الرسول صلى الله عليه وآله مقامه؛ ليرد على بدعة معاوية في سب أمير المؤمنين عليه السلام على جلالة قدره، فكان جواب عامّة أهل المسجد لدعائه: (آمين) وهو اسم فعل أمر بمعنى (استجب) يطلقه المبتهلون إلى الله تعالى ولا يكون إلّا عن قناعة، وكان ذلك مؤثراً في الموقف بشكل كبير ودالاً على قدرة كبيرة على استثمار وسائل الحجاج الخبرية لدى الإمام الحسن عليه السلام أدت إلى إقناع الجميع فكانت النتيجة: (فتزل معاوية فقطع خطبته).

استعمل الإمام أسلوب الذكر وأحد طرفي المهيمنة الأسلوبية التركيبية (الحذف والذكر) فقد ورد في خطاب الإمام ذكر الضمير في الجملة الخبرية: «وأنا ابن علي، وأنت ابن صخر»؛ للدلالة على المتكلم وهو الإمام الحسن (أنا) والمخاطب (معاوية) على حين عبّر عمّن يُمْتُّ لهما بصلات القربى بالكلمات في: (جدك) و(جدّي)، و(أمك) و(أمّي)،

و (جدّتي) و (جدّتك) ؛ ليتمكن الناس من استحضار ما يتعلق بهم من خصال حسنة أو سيئة بحسب ما ارتبط دلاليا بكل اسم من هذه الأسماء، أما التحليل البلاغي للنص الثاني ففقراته كالآتي:-

غلبة المهيمنات البلاغية التركيبية والمهيمنات السياقية والصوتية على البيانية التي تلاشت في هذه الحادثة؛ حاجة الإمام إلى الإقناع الذي يتجلّى بأبرز مناحيه في التركيب والسياق، وضعفه في الوسائل البيانية.

أجاب الإمام خبر معاوية «أنا خير منك يا حسن» باستفهام إنكاري مع ندائه معاوية باسم أمه هند الذي يدّعي أفضليته على الإمام بما يبيّن حقد عائلته ومحاربتها الدين، مستعملا تقنية الحذف في (وكيف ذاك) إذ حذف كلمة (الأمر) فأصل الكلام (وكيف ذاك الأمر؟) لتقابل تقنية (الذكر) التي أفاد منها عند ذكره الضمير المنفصل الدال على المتكلم (أنا) ؛ لإظهار الأهمية؛ ولجعل طرفي الكلام الاستفهام والنداء مندمجين من خلال حذف ما يمكن تقديره.

أجاب الإمام الحسن عليه السلام تعليل معاوية مدّعي الفضل عليه بإجماع الناس على معاوية وعدم إجماعهم على الإمام الحسن عليه السلام بقول الإمام الذي سأورده كاملا لبيان تلاحم معانيه، ثم أفصله بتجزئته: «هيهات هيهات لشر ما علوت، يا بن آكلة الأكباد، المجتمعون عليك رجلا: بين مطيع ومُكره، فالطائع لك عاص لله، والمُكره معذور بكتاب الله، وحاش لله أن أقول: أنا خير منك فلا خير فيك، ولكن الله برأني من الرذائل كما برأك من الفضائل» ويبرز من خلاله الآتي:

استعمال اسم الفعل الماضي (هيهات) بمعنى (بُعَدَ) لتأكيد معنى بُعَدَ المفاخرة عن معاوية؛ في «هيهات هيهات لشر ما علوت»، حيث كرر (هيهات) مرتين؛ فمعاوية رَكَنَ إلى شرٍّ لا يمكن أن يعلو به أمثاله، فقد فخر بما يمكن أن يتخذه أعداؤه هجاء له.

استعمل الإمام بعد ذلك أسلوب الخبر في قوله: «المجتمعون عليك رجлан» ثم تناول أسلوب الإطناب وهو أسلوب إقناعي تركيبي، جاعلا إياه مفضيا إلى أسلوب الإجمال والتفصيل، وهو من أساليب الحجاج التفسيري لإيضاح المبهم في الكلمات المُجملة وقد تناوله البلاغيون القدماء ضمن أساليب البديع، إذ فصل الإمام ما أجمله في كلمة (رجلان) بقوله: «بين مطيع ومُكره، فالطائع لك عاص لله، والمُكره معذور بكتاب الله» في نسق من المقابلة؛ لبيّن الفئتين المتضادتين اللتين كان الناس عليهما.

استعمل تقنية التعجب في (حاش لله) ليعضد التعجب السابق في (هيهات هيهات) ؛ ليكون أكثر تأثيرا مع إظهار تقابل المعنيين المُتَعَجِّبِ منهما؛ لبيان علو مكانة الإمام بمقابل ضعة مكانة معاوية.

بروز أسلوب التكرار من خلال تكرار كلمتي (خير) و (برأ) بعد أن جعل (خير) داخلية في نفي التفاضل ونفي جنس الخير عن الخصم في: «أنا خير منك فلا خير فيك»، وبعدها أدخل الفعل (برأ) في أسلوب تضاد بالمقابلة على اختلاف الضمير الذي أسندت إليه، في: «ولكن الله برأني من الرذائل كما برأك من الفضائل» فالإمام بريء من الرذائل بمقابل خصمه البريء من الفضائل؛ ليتضح الفرق والتقابل بين الشخصيتين.

برز التقسيم الصوتي في جمليتي: «ولكن الله برأني من الرذائل / كما برأك من الفضائل» الذي ركّز التضاد بين الشخصيتين من خلال التكرار الصوتي المتأني من التكرار اللفظي مرتين في (من) والجناس الاشتقاقي -وهو نوع من التكرار- في (برأني)، و (برأك) فكلاهما برأه الله من أمر معين، فقد برأ الله الإمام من الرذائل؛ لحبه تعالى له وتقريبه منه؛ لما قدّم من خير وفير وعَمَلٍ بَرٍّ كثير، على حين برأ خصمه من الفضائل؛ بما اقترفت يده من سوء في الفعل والقول وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١).

المبحث الثانى :

الإمام العابد من خلال ثنائىة الرب والعبد والكمال والنقص

برز عمق تعبُّد الإمام الحسن (عليه السلام) من خلال ما ذكرته المصادر من شدة تبثُّله لله وكثرة صلواته ومناجاته، ولا ريبَ فى ذلك فهو سبط المصطفى وشبل المرتضى وابن فاطمة الزهراء صلوات الله وسلامه عليهم أعبد خلق الله، وهذا ما لا يشكُّ فىه عدو ولا صديق، ولكنى أثرت تناول النصوص التى برز فيها التضاد وهى تبين معرفته الواسعة بالله وصفاته العظيمة؛ لتتضح عبادته متفردةً متَّسمةً بمعرفة توضح مبلغ طاعته لله وشدة تعبُّده الذى جاء عن دراية وعلم بالله تعالى، وقد توضح ذلك من خلال خطبه كلها، إذ كانت افتتاحياتها أوصافاً لله تعالى وبياناً لاستحقاقه للحمد مع توضيح وحدانيته وتنزُّهه عن الشريك وأزليته وذكر صفاته وقدرته، كما تتضح معرفته بالله عند وصفه الدقيق لعظمة الله تعالى من خلال إجابته لمن طلب منه وصف الله تعالى؛ لتتضح ثنائىة (الرب والعبد) و (الكمال الإلهى والنقص البشرى)، فكان احتياج الإنسان للعبادة مطلباً روحياً للوصول إلى السمو البشرى من خلال الارتباط بالله وحسن عبادته عن وعى ودراية.

وقد برز تعبُّده أيضاً من خلال وصف كتاب الله القرآن الكريم، وبيان أهميته ووجوب العمل به وجعل أحكامه منهج حياة فى التعامل، وليس حفظاً لنصوصه من دون عمل وتطبيق، وكان أسلوب التضاد أساساً قام عليه بناء النصوص لغايات الإحاطة بجوانب الأوصاف التى بينها الله تعالى أو لمن تعامل مع القرآن التزاماً أو تركاً،

فكانت أساليب التضاد قد أبانت أوساط العقود في جواهر معاني كلمات هذا الإمام البليغ، وسأجعل الأمثلة نقاطاً بغيّة إبراز النماذج وكشف دُررها المكنونة:

أ. ما ورد من وصف لله في افتتاحيات خطبه، وهي كثيرة جداً سأضرب مثلاً واحداً لها، من ذلك قوله في إحداها بعد مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، حيث رقى المنبر، فأراد الكلام ولم يستطع لشدة تألمه على أبيه إذ خنقته العبرة، فقعد ساعة ثم قال: «الحمد لله الذي كان في أوليته وحدانيا، وفي أزليته متعظماً بإلهيته، متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتداءً ما ابتدئ، وأنشأ ما خلق على غير مثال كان سبَقَ مما خَلَقَ، ربنا اللطيف بلطفِ ربوبيته، وبعلم خبره فتق، وبإحكام قدرته خَلَقَ جميع ما خلق، فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه ولا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ، ولا رادّ لأمره، ولا مُسْتَرَاخَ عن دعوته، خَلَقَ جميع ما خلق، ولا زوال لملكه، ولا انقطاع لمدته، فوق كل شيء علا، ومن كل شيء دنأ، فتجلى لخلقه من غير أن يكون يُرى، وهو بالمنظر الأعلى احتجب بنوره، وسما في علوه، فاستتر عن خلقه، وبعث إليهم شهيدا عليهم وبعث فيهم النبيين مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروه، والحمد لله الذي أحسن الخلافة علينا أهل البيت، وعنده نحتسب عزانا في خير الآباء رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند الله نحتسب عزانا في أمير المؤمنين، ولقد أُصِيبَ به الشرُّ والغربُ...» (٣٩).

ب. إجابته عن أسئلة عن وصف الله تعالى:

لقد نقلت لنا المصادر أخباراً كثيرة تدل على تعبده وعرفانه بالله تعالى، ومن ذلك سؤال أحد الناس له بما يكشف عن مدى علمه وفلسفته: فقد نُقِلَ أَنَّهُ: «جاء رجل إلى الحسن بن علي عليه السلام فقال له: يا بن رسول الله صف لي ربك حتى كأني أنظر إليه، فأطرق الحسن بن علي عليه السلام ملياً، ثم رفع رأسه، فقال: الحمد لله الذي لم يكن له أولٌ معلوم

ولا آخر متناهٍ، ولا قبل مدركٌ، ولا بعد محدودٌ، ولا أمدٌ بحتى ولا شخصٌ فيتجزأ، ولا اختلافٌ صفةٍ فيتناهى فلا تدركُ العقول وأوهامُها، ولا الفكرُ وخطراتُها، ولا الألبابُ وأذهانُها صفتَه فتقول: متى؟ ولا بدئٌ مما، ولا ظاهرٌ على ما، ولا باطنٌ فيها، ولا تاركٌ فهلاً خلقَ الخلقَ فكانَ بديئاً بديعاً، ابتداءً ما ابتدَعَ، وابتدَعَ ما ابتداءً، وفعل ما أرادَ وأرادَ ما استزاد، ذلكم الله رب العالمين»^(٤٠).

ج. وصف القرآن الكريم:

وصف الإمام الحسن كتاب الله العزيز بأقوال متعددة منها: «إن هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور، فليجل جالٍ بصره، وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»^(٤١).

وقوله في وصف القرآن الكريم أيضاً: «ما بقي في هذه الدنيا بقية غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلکم على هداکم، وإن أحق الناس بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرأه»^(٤٢).

المطلب الأول:

التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على العبادة من خلال لغة التضاد

إنَّ المتأمل في النصوص الواردة يجد أبرز ما فيه من الناحية الموضوعية ما يأتي:
استعمال أساليب التضاد لترسيخ ثنائية الرب والعبد لتنبثق عنها ثنائية الكمال الإلهي والنقص البشري.

أبرزت النصوص حاجة الناس لمعرفة الله تعالى؛ ولما كان الأئمة هم أعلم الناس بذلك لذا فقد جعلوا مقدمات خطبهم أوصافاً لله وبياناً لعظمته واستجابته للعبادة، ومنهم الإمام الحسن الزكي (عليه السلام).

ففي النص أ. الذي ورد في بداية خطبته بعد مقتل أمير المؤمنين أجد الآتي:
شدة تديّنه وعظيم تعبّده، وقد ظهر ذلك من خلال صبره على نزول البلاء والرضا بقضاء الله فلا أحد يبقى، وكل الخلق إلى انتهاء يتضح ذلك في توحيده الله وبيان أزليته وعظمته وتفردّه في الخلق، وأوضح أن ما يريده الله لا بد حاصل، ويجب الرضا به مع استمرار الدعاء، في قوله: «فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مستراح عن دعوته».

أوضح صفات الخالق المتقابلة ليتضح صغرنا وزوالنا أمام كبر مقام وديمومة بقاءه وضرورة تبليغ أمره عن طريق أناس خلّص اصطفاهم وطهّرهم، فبعثهم أنبياء مبشرين ومنذرين لئلا تكون للناس حجة بعد الرسل، فمن اتبعهم فهو في أمان لحسن

أفعاله ومن خالفهم كان مستحقاً للعقاب لسوء ما جنى على نفسه مؤكداً أهمية العقل في العبادة في قوله: «وبعث إليهم شهيدا عليهم وبعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروه».

إنَّ صبر أهل البيت صبر عظيم على البلاء، وسيظهر الله أهمية وجودهم فلئن ذهب أمير المؤمنين عليه السلام إلى جوار ربه شهيدا، فسيحسن الله عليهم الخلافة وهم صابرون محتسبون بوجود من تقرُّ به الأعين وهما سبطا رسول الله الحسن والحسين صلوات الله عليهم جميعا، وإن كان المصاب جللا: «والحمد لله الذي أحسن الخلافة علينا أهل البيت، وعنده نحتسب عزانا في خير الآباء رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند الله نحتسب عزانا في أمير المؤمنين، ولقد أصيب به الشرق والغرب...».

أما النص الثاني (ب) :

فقد ابتدأه الإمام بوصف الله بعد حمده؛ لبيان استحقاقه تعالى ذلك الحمد فأوصافه العظمى لا تدانى؛ لتفرُّده بالربوبية والصفات المستوجبة لها.

تضمَّن الوصف فلسفة استوجبت ألفاظا دلَّت على تمكُّن وتمعُّن في معرفة الله تعالى في مثل قوله المتضمن ألفاظ التفصيل في: «ولا أمد بحتى ولا شخص فيتجزأ، ولا اختلاف صفة فيتناهى».

من يمعن النظر في النص يجد القدرة والتمكُّن في الاستقصاء والتساؤل في قوله: «فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها، ولا الأبواب وأذهانها صفته فتقول: متى؟ ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيها، ولا تارك فهلا»، وهذا ينمُّ عن علم ومعرفة بكنه الخالق العظيم الذي خص أهل البيت عليهم السلام بذلك، وقد بينت مقداره في

الفصل الأول.

أما النصان اللذان وردا في النقطة (ج) اللذان تناولوا القرآن الكريم فقد وجدت فيهما بعد التأمل ما يأتي:

مضى الإمام الحسن على خطى جدّه المصطفى وأبيه المرتضى في بيان أهمية القرآن الكريم وحث الناس على قراءته وتدبّر معانيه، وإبراز أثره في الفرد والمجتمع؛ لإيضاح ماهيته؛ مما يجعل الناس أكثر تعلّقاً به.

ففي النص الأول بيان لتأثير القرآن في صقل الشخصيات وتهذيب الأرواح، وفيه توضيح لأهمية علاجه الروحي، فقراءته تجلي الهمّ والحزن عن القلوب، كما أن فيه فتحة للأذهان وتوجيها للعقول نحو التفكير السليم.

أما في النص الثاني فقد حثّ الإمام الناس على التمسك بالقرآن الكريم فهو أهم ما بقي في هذه الدنيا، ولا بد من جعله دليلاً إلى الهدى، وعلى كل مؤمن الرجوع إلى تعاليمه والعمل بأوامره ونواهيه.

ذكر الإمام مسألة مهمة جداً لا بد أن نضعها نصب أعيننا في هذه الدنيا، وهي أن التدين والعبادة هما بالمعاملة مع الناس فالدين الحق بالعمل وليس بالقول أو بحفظ التعاليم، يتضح ذلك من خلال ذكر الإمام أن العمل بالقرآن أهم من حفظه فالعامل به أحق الناس به، وأبعدهم من القرآن من حفظه، ولم يعمل به.

المطلب الثانى :

التحليل البلاغى للنصوص الدالة على العبادة من خلال لغة التضاد

فى النص الأول (أ) وجدت الآتى :

لقد سيطرت لغة التضاد على النص بأسلوب المقابلة للتأكيد على وحدانية ف «الله كان فى أوليته وحدانيا، وفى أزليته متعظماً بإلهيته» فهو الأحد فى أوليته وأزليته، كما ظهر التضاد فى قوله: «فوق كل شىء علا/ ومن كل شىء دنا».

«فتجلى لخلقه/ من غير أن يكون يرى، وهو بالمنظر الأعلى».

وليتم صورة ذلك التجلى الذى ذكره أنفا فقد تقابل مع النص الذى بدا فيه التماثل واضحاً فى قوله: «احتجب بنوره، وسما فى علوه، فاستتر عن خلقه»، ولا يكون التجلى والاحتجاب فى وقت واحد مع السمو والعلو إلّا له سبحانه وحده؛ لأنّ ذلك من صفاته الإلهية المتفرّدة، كما بدا التضاد فى نهاية النص فى قوله مبينا مقدار مصيبة المجتمع الإسلامى بفقد أمير المؤمنين: «وعند الله نحتسب عزانا فى أمير المؤمنين، ولقد أصيب به الشرق والغرب» فالعزاء شديد أحاط بالناس من جهتي (الشرق والغرب) للدلالة على اتساع المصيبة فهو أمام المؤمنين الصادقين شرقاً وغرباً.

إن صفات الخالق العظيمة تستوجب تفرّده بالعبادة، وقد أوردها مزدانة بفنون البلاغة الصوتية والسياقية، فالصوتية برزت من خلال السجع فى فقراتها: «وأنشأ ما خلق على غير مثال كان سبق مما خلق، ربنا اللطيف بلطف ربوبيته، وبعلم خبره فتق،

وبإحكام قدرته خلق جميع ما خلق» فلقد سيطر صوت القاف من خلال تكرار كلمة (الخلق) ومشتقاتها، أو الكلمات الدالة على الابتداء به مثل (فتق) ليعزز صفة التفرد في الخلق، كما ظهر السجع أيضا في «فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره، ولا مستراح عن دعوته، خلق جميع ما خلق، ولا زوال لملكه، ولا انقطاع لمدته» فلقد انتهت الفقرات بالهاء المكسورة لتمثل نبرة الرضا الجميل بما حصل وقد شاب ذلك حزن عميق لفقد أمير المؤمنين، مع تضمُّنها العودة للحديث عن الخلق وبيان عدم القدرة على تبديله.

ورد في النص اقتباس من القرآن الكريم في «فلا مبدل لخلقه، ولا مغير لصنعه ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره»، فقد أفاد من الآيات الكريمة لبيان صفات الله تعالى الدالة على مضاء قضائه في خلقه، وهي كالآتي: قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣)، وقوله: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(٤)، وقد أخذ منها ما اختصر وكان أقرب لما أراد التعبير عنه من الفكر في تلاؤم عجيب لا يتأتى إلا لأمثاله من البلغاء الذين لا يُشَقُّ لهم غبار.

أفاد من الآيات القرآنية الكريمة التي حوت أسلوب التضاد في قوله المبين مهمة

(١) سورة الروم: ٣٠.

(٢) سورة النمل: ٨٨.

(٣) سورة الرعد: ٤١.

(٤) سورة هود: ٤٣.

الأنبياء ومحاسبة الله للناس بحسب استجابتهم لرسالات الأنبياء: «وبعث فيهم النبيين مبشرين ومنذرين، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة»، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾^(١)، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

أما التحليل البلاغى للنص الثانى (ب) فأهم ما بدا لى الآتى:

أبدع الإمام فى استعمال الفنون البلاغية وظهر فيه جمال التعاضد بين الفنون التركيبية والبديعية فبدا المزج العجيب بين الاستفهام واستعمال التضاد، فلم تبقى جهة إلا وتواجد الخالق فيها ولا زمن إلا حواه، فمنه الابتداء وفيه الاختتام وعنده تنتهى الجهات، فكان التوظيف موفقا والأسلوب مستقصيا.

أفاد الإمام من الفنون الصوتية فى وصف الخالق سبحانه، فبدا التكرار اللفظى واضحا فى «ابتدأ ما ابتدئ، وابتدع ما ابتدأ»، و«ما أراد وأراد»؛ لعزز فكرة ابتداء الخلق مع الإبداع فى الصنع، كما أفاد من الطاقات الصوتية للجناس الناقص فى (بديئا بديعا)، ومن التقسيم الصوتى فى «فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها»، الذى دخل فى أسجاع انتهت بصوت الألف فى: «فلا تدرك العقول وأوهامها، ولا الفكر وخطراتها ولا الأبواب وأذهانها صفته فتقول: متى؟ ولا بدئ مما، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيها» وهذا الصوت يكون الاستمرار فيه كأنه جزء من لفظ الجلالة، فيكون الصوت بذلك مؤثرا فى بيان صفة الله، والله تعالى أعلم.

جعل الإمام أوصاف الخالق سبحانه قائمة على التضاد من خلال أسلوب المقابلة فى: «الذى لم يكن له أول معلوم ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعد محدود» جاعلا

(١) سورة الكهف: ٥٦.

(٢) سورة الأنفال: ٤٢.

من التنكير أسلوباً لجلاء عدم إمكانية الإحاطة بصفات الخالق العظيمة الواردة في هذا النص.

أما التحليل البلاغي للنصين الواردين بحق القرآن الكريم في الفقرة (ج) فأهم ما فيه الآتي:

يبدو للناظر البلاغي أنَّ الإمام اهتم في النص الأول بطاقات البيان التعبيرية وإمكاناته التصويرية؛ لأثر القرآن الكريم في هداية الناس وإنارة دروبهم وقلوبهم.

عمد الإمام إلى الصور الحسية ولاسيما البصرية لبيان أثر القرآن الكريم في إيضاح سبل الهداية، وإنارة الطرق من خلال الصور البصرية التي جلت النور الذي يمحى الظلمات، ولم يورد الألفاظ اللونية، بل أورد ما يدل عليها كـ (الظلمات، والنور، والمصابيح، وضوئه)؛ لتعكس دلالاتها على أجواء النص وتثري دلالاته.

تعاقد في النص فنا الاستعارة والتشبيه هما: «إن هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور» حيث أظهر الإمام القرآن الكريم سماء تُعلّق فيها المصابيح ودواءً يقطع دابر أسقام القلوب على سبيل الاستعارة المكنية لما تفعله المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكّن المعنى في القلب إذا كان استنباطه من العيان^(٤٣)، وبين إنارة التفكير وإحياء القلوب البصيرة من خلال التشبيه في قوله: «فإن التفكير حياة القلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور» ففي النص تشبيهان متلازمان لإقناع السامعين، الأول في قوله: «فإن التفكير حياة القلب البصير» والثاني في «كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور» فإذا تفحصناهما وجدنا الأول (البليغ) أبرزته الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والثاني (المرسل) أبرزته الجملة الفعلية الدالة على التجدد والحدوث؛ ليحث الإمام الناس على دوام التفكير ويسير المؤمنون على هدى

وبصيرة، ولا يخفى أنَّ مهمّة الفنين البلاغيين الاستعارة والتشبيه هنا إقناعية تصويرية وقد أسهمت في تعزيد حجة الإمام في ضرورة التمسك بالقرآن الكريم والتزام ما جاء به من أحكام إلهية.

في النص الثاني ورد التشبيه البليغ في قول الإمام (عليه السلام) عن القرآن الكريم: «فاتخذوه إماما يدلکم على هداکم»؛ إذ شبه القرآن بالإمام الذي يدل على الهدى ليركّز على أهمية الحياة السليمة القائمة على العمل بتعاليم الله التي حفظها القرآن الكريم.

استعمل الإمام التضاد القائم على المقابلة التي بنيت على الموازنة بين حالتين هما:
إن أحق الناس بالقرآن / من عمل به / وإن لم يحفظه.

وأبعدهم منه / من لم يعمل به / وإن كان يقرأه

فكان التوازن بالصوت والمعنى اللذين بنيا على الموازنة بين حالين متعاكسين، ليؤكد أن العمل وحفظ المعاني أفضل من عدم العمل وحفظ الألفاظ من دون تأثير في السلوك.

المبحث الثالث:

الإمام صاحب الخلق الرفيع من خلال ثنائيه

الحلم والنزق والوعظ واقتراف الذنب

ازدان أهل البيت عليهم السلام بطيب أخلاقهم فهم شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء جعلهم الله تعالى آية في كل شيء من ذلك تحليهم بالحلم والصبر على سوء خلق مخاطبيهم ليشبوا أنهم يستحقون ما خصهم الباري سبحانه به بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١)، فلطالما قابلوا الإساءة بالإحسان، وسأجل الكلام عن النصوص التي ورد فيها الحث على حسن الخلق لدى الإمام الحسن وكان التضاد أساس بنائها في نقطتين:

النقطة الأولى: إظهار الحلم ومقابلة الإساءة بالإحسان:

وبشأن الإمام الحسن عليه السلام تذكر لنا المصادر مواقف كثيرة حصلت في حياته وبدا الإمام عليه السلام فيها متميزاً بخصاله الخلقية المتفردة، وسأذكر أحدها بغية الاختصار؛ لضيق العدد المخصص لصفحات البحث، وهي قوله للرجل الشامي الذي رآه راكباً فجعل يلعن والإمام الحسن لا يردّ، فلما فرغ أقبل الإمام عليه السلام فسلم عليه وضحك بمعنى ابتسم فقال: «أيها الشيخ أظنك غريباً ولعلك شبّهت، فلو استعبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحمّلناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان

(١) سورة الأحزاب: ٣٣.

لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك؛ لأنّ لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً». فلمّا سمع الرّجل كلامه بكى، ثمّ قال: «أشهد أنّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحب خلق الله إليّ، وحولّ رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل، وصار معتقداً لمحبتهم»^(٤٤).

النقطة الثانية: نصحه الناس وحثهم على حسن الخلق بأقوال مأثورة، أو عند إجابته أسئلة عن معاني لقيم اجتماعية إيجابية أو سلبية:

إنّ من يقرأ تراث الإمام الحسن عليه السلام يجد كلمات قصيرة وردت في تراثه وكان التضاد أساس بنائها وهي تحثُّ على النصيحة المفضية إلى حسن الخلق، أو كانت تعريفات لمصطلحات تدل على قيم اجتماعية أراد الإمام إيضاحها للمؤمنين عليهم السلام، أمثال أقواله وهو ناصح للمؤمنين: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فالفها في نحره»^(٤٥)، وقوله: «إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى»^(٤٦)، وأقواله عندما سأله أبوه أمير المؤمنين عليه السلام عن معاني لقيم اجتماعية فبيّنها ليوضحها للمؤمنين؛ لبيّن للناس مقدار علمه ولا ريب فهو غيظ من فيض علم أبيه وجده، وسأخذ منها ما كان التضاد أساساً له، فقد قال له أمير المؤمنين عليه السلام «ما الزهد؟ قال: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا... ما السداد؟ قال: دفع المنكر بالمعروف... فما السباح؟ قال: البذل في السراء والضراء. قيل: فما الشح؟ قال: أن ترى ما في يديك شرفاً وما أنفقته تلفاً... قيل: فما الجبن؟ قال: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو.... قيل: فما السناء؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح»^(٤٧).

المطلب الأول:

التحليل الموضوعي للنصوص الدالة على الإحت

على حسن الخلق من خلال لغة التضاد

إنَّ النظر المتفحّص للنص الوارد في النقطة الأولى يكشف في القراءة الموضوعية ما يأتي:

أولاً: عظمة أخلاق الإمام الحسن عليه السلام فلقد ظهر الأدب في خطابه الشريف في الرد على من أساء إليه، فبان حلمه بإزاء طيش مَنْ خاطبه، فلقد كان الشامي جاهلاً بقيمة مَنْ يكلمه، ولم يعبأ الإمام بما سمعه وبدت الكياسة في ابتدائه بالنداء مع تلمّس العذر على الرغم من أنَّ المخطئ لم يكن صغير السن ليعذر على جهله، فمع فضاضة الشامي تلطّف الإمام في خطابه معه قائلاً: «أيها الشيخ أظنك غريباً ولعلك شبّهت»، فلو كان من أهل المدينة ما تجرأ على الإمام، ولو عرفه حق معرفته ما تفوّه بما نطق به، مستعملاً ما يدل على عدم الجزم بالمعرفة في: «أظنك ولعلك» فكانت بداية موفقة تدل على شخص سبط رسول الله صلّى الله عليه وآله وما ينبغي له من الأدب الجم.

تخلّى الإمام الحسن بأصول التحاور من حسن الاستماع وعدم المقاطعة، وحسن استقبال الضيوف على فضاضة أخلاقهم يتّضح ذلك من وصف الراوي أنَّ الإمام كان يستمع للعن لاعنه من دون أن يردّ عليه حتى أكمل.

كان الإمام مبادراً للمجيء للشامي على الرغم من الإساءة التي استمع إليها الإمام منه، فلمّا فرغ أقبل الإمام الحسن عليه السلام فسلم عليه وضحك.

لم يكن الإمام مكتثراً بما يسمع بدليل أنه سلّم على الشامي مبتسماً؛ لأنّه واثق من نفسه ومن نصره الله تعالى له فهو على الحق وماذا بعد الحق إلّا الضلال؟!!

في قول الإمام: «ولعلك شبهت» التماس العذر من الإمام لهذا الغريب؛ لأنّه تسرّع في شتمه كمن يكون مغاظاً من أحد ويرى من يشبهه ويحسب أنه هو فيبدأ بالسبّ تفريغاً لغضبه.

استعرض الإمام ما يمكن أن يكون سبباً في غيظ هذا الرجل، حتى يقطع عليه الذرائع التي قد يركن إليها معلّلاً فعلته، فلو كان لديه عتبٌ معه لاستمع إليه وأرضاه، ولو سأله عطية لأعطاه وهو كريم أهل البيت عليهم السلام ولو كان طالباً للرشد لأرشده الإمام وديده هداية الناس ورشدهم، ولو طلب منه أن يحمل عنه حملاً لدَيْن أو فدية لأحمله الإمام بكل ما يقدر عليه وهذا مشهود للسبط الكريم بما سجّله التاريخ له من مآثر، وإن كان جائعاً أشبعه؛ فبيته بيت كرم ومطعم للضيوف سواء في ذلك الفقراء وأبناء السبيل، وإن كان عُريّاناً وجد عند الإمام خير ما يمكن أن يأمله الطالب من كسوة، وإن كان محتاجاً أغدق عليه الإمام ما يغيثه ويسدُّ حاجته ويزيد إلى درجة الإغناء، وإن كان طريداً خائفاً محتاجاً لمن ينجده ويؤمن روعه كان الإمام أول من يؤويه ويدافع عنه ويحميه، وإن كانت له حاجة خاصة قضاها الإمام له.

بعد هذا الاستعراض لموجبات محبي الشامي الذي أخطأ في تصرّفه إذ لم يتخذ من الإمام ملاذاً له، بل زاد على ذلك سبه والتعدي عليه، أشار الإمام عليه بنزوله عنده ضيفاً إلى وقت ارتحاله؛ لأنّ ذلك أعود عليه بالفائدة المرجوة؛ فهم أهل الخيرات ومن قصدهم لم يحتج إلى غيرهم؛ لأنّ لهم موضعاً رجباً عند الله وجاهاً عريضاً عند الناس ومالاً كثيراً.

الملاحظ أنَّ النَّاسَ مهما كان تضليلهم كبيراً فإنَّ جميلَ منطقِ أهلِ البيت عليهم السلام وصدقه يؤثر فيهم، يتضح ذلك مما نقله الراوي عن استجابة الشامي لما عرضه الإمام حيث تمثَّلت ببكائه وأسفه لما بدر منه وحصل أمام الناس، وتغيَّر موقفه إلى الضد تماماً والشهادة باستحقاق الإمام لما أعطاه الله تعالى من المنزلة الرفيعة، بقوله: «أشهد أنَّك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنتَ أنتَ وأبوك أبغضَ خلقِ الله إليَّ والآن أنت أحبُّ خلقِ الله إليَّ، وحولَ رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحلَ، وصارَ معتقداً لمحبتهم».

إنَّ طريقة أئمة أهل البيت في مواجهة المواقف إصلاحية، فغاياتهم ليست الانتصار لأنفسهم والانتقاص من المعتدين عليهم والرد على أفعالهم بمثلها، بل غاياتهم سامية، هدفها البناء الذي سعى إليه الأنبياء وهو عمارة الأرض وإصلاح المجتمع والتخلص من أمراضه غير العضوية كالكره والحقد والظلم والتسرع في التصرف السلبي أمام الجموع، ولا ريبَ في ذلك، فهم أبناء رسول الله صلَّى الله عليه وآله أحلم الناس وأعلمهم بعِللِ النفوس المريضة ومآربها، فهداية إنسان واحد إلى الحق خير عندهم من الدنيا وما فيها، وبهذه الطريقة أخذت الناس المضللة تكتشف الحقائق التي عميت بصائرهم عن النظر إليها نظراتٍ صائبة، وتعرف بالتالي أيَّ صنف من الناس اتبعوا وأيَّ سبيلٍ مُهلِكَةٍ رُجُّوا فيها.

أما القراءة الموضوعية للنصوص الواردة في النقطة الثانية فكانت أهم المؤشرات ما يأتي:

اتضح لي عناية أمير المؤمنين بابنه الإمام الحسن عليه السلام وتأديبه له من خلال مذاكرته له وسؤاله؛ ليكون خير خلف لخير سلف وليتضح للناس أنَّ أهل البيت عليهم السلام شجرة طيبة وذرية بعضها من بعض، غايتهم إيصال الدين الحق وتثبيت أركانه

ورسالتهم إصلاحية لبناء الإنسان المسلم بناء صحيحا يستحق أن يستخلفه الله فى الأرض لعمارتها، وليكون للناس بهم الأسوة الحسنة كما كان لهم برسول الله ﷺ.

كان الإمام ناصحا أميناً للناس فقد أراد رشدهم إلى ما فيه صلاحهم وهداهم، وبيان ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، متبعا للنصح المباشر أو غير المباشر عن طريق الإجابة عن أسئلة أبيه.

كانت أهم المعاني المستقاة من أقواله الناصحة التمسك بالدين وعدم بيعه بحطام الدنيا، وتهذيب النفس وترويضها وعدم اتباع الهوى.

برز التأكيد على الخصال الحميدة وتعزيزها فى الأنفس إجابات الإمام عن الأسئلة بما يفصح عن مكنون معانيها، ويقربها من النفس ويحببها لها كالزهد والسداد والسماح والسناء، وتقبيح الخصال الذميمة والحث على الابتعاد عنها كالشح والجرأة.

المطلب الثاني :

التحليل البلاغي للنصوص الدالة على

الحث على حسن الخلق من خلال لغة التضاد

الملاحظ على النص الوارد في النقطة الأولى أنه في غاية البلاغة من حيث انتقاء الألفاظ وإدخالها في تراكيب تثري دلالتها بما يجعل المتلقي متأثراً بها تأثراً واضحاً، وتفصيل ذلك ما يأتي:

غلبة الأساليب التركيبية والصوتية على الأساليب البيانية؛ لأنَّ الموقف استلزم إقناعاً لضالَّ، آمن بالباطل وعمل به، والإقناع يحتاج أساليب تركيبية وصوتية تثير الانتباه وترنُّ في الأذن أكثر من حاجته للتصوير الذي تمثله وسائل علم البيان، كالتشبيه والاستعارة والكناية إلَّا ما ندر مثل الكناية في «لو حرَّكت رحلك إلينا» التي عبَّرت عن حلول الغريب ضيفاً على الإمام؛ لذلك كثر استعمال أسلوب الشرط الذي تظهر فيه السببية والاستلزام وقد غلب هنا استعمال أداتي الشرط (لو) و (إن) إذ جاءت كل واحدة خمس مرات بشكلٍ متتالٍ بحيث أدخل فعل الشرط في طباق مع جوابه مستعرضاً حاجات الغريب الذي يفد على غير مدينته من دون أن يستثني حاجة واحدة.

إنَّ أفعال الشرط مع الأداة (لو) : (استعبتنا، و سألتنا، و استرشدتنا واستحملتنا) جاءت مباشرة بعدها وكان جوابها مشتقاً منها: (أعتبنك وأرشدناك وأهملناك)؛ ليجعل الجواب ألصق بالسؤال من خلال المباشرة به والاشتقاق صوتياً ودلالياً منه.

أما السؤال فالأنسب في جوابه (أعطيناك) ؛ لأنه لم يكن بصيغة (استفعل) التي

تعني الطلب حيث يمكن اشتقاق الجواب منها كما جاءت في الأفعال الثلاثة الأخرى. استعمال الفعل الماضي الناقص المسند إلى كاف الخطاب (كنت) مع أداة الشرط (إن) عند التعبير عن الحاجات الفسيولوجية الشعورية الأساسية كالجوع والعري والخوف، أو الحاجات المؤدية إليها كال فقر، وما بين (لو) و (إن) فرق في المعنى، لا بد من مراعاته، والوقوف عليه، ويتلخص في أن الأصل في (لو) أنها أداة تمن، ثم نقلت إلى الشرط؛ وذلك من باب تعدد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد.. ومن خواصها فرض ما ليس بواقع واقعا، ولهذا تستعمل فيما لا يتوقع حدوثه، وفيما يمتنع حدوثه، أو فيما هو محال، أو من قبيل المحال، أما (إن) فهي في الأصل موضوعة للشرط، ومن خواصها أن الفعل معها ممكن الوقوع، وغير ممكن^(٤٨)؛ مما يشير إلى دقة الإمام في اختيار بنى تراكيبه اللغوية وينم عن تبحر في أساليب العرب الراقية المعبرة واستغلال طاقات التركيب بالشكل الأمثل.

إن استعمال (كنت) مع (إن) تعني اتّصاف هذا الرجل بالصفات التي تلتها وهي أخبار لفعل (كان) الناقص الذي تكرر بعد (إن) في (جائعا، عريانا، محتاجا، طريدا، لك حاجة) مما يستلزم منه الأدب في طلبها ولا سيما أنه غريب، لا سوء الخلق الذي يخالف منطق الأشياء في أصول الطلب.

الرجوع إلى استعمال (لو)؛ لتظهر أدب الإمام وكرمه ووجهه للضيافة فكأنه يتمنى نزول هذا الضيف على سوء فعله وقلة أدبه مع الإمام في التصرف والحوار، حيث قال الإمام في أدب جم وحلم كبير: «فلو حرّكت رحلك إلينا وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك».

ربط الإمام الشرط المتتالي بالأسباب الموجبة له في قوله لذلك الرجل معللا: «لأن

لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً».

أما النصوص الواردة في النقطة الثانية فكان أهم ما لفت انتباهي فيها من الناحية البلاغية ما يأتي:

الإيجاز الذي أفصح عن شدة بلاغة الإمام في تكثيف التعبير عن الفكرة بأوجز لفظ مع الإحاطة بالمعنى وكان في ذلك سائراً على خطى أبيه في شدة الإيجاز فليس بمستطاع الآخرين من غير أهل البيت إصابة مقاتل المعاني بهذه الدقة وبهذا الإيجاز وهذا في غاية البلاغة.

لم يرد في كلام الإمام على إيجازه الطباق بل كان التضاد قائماً على المقابلة، وهذا أبلغ؛ لأن تضاد الجمل أكثر إحاطة بالمعاني من تضاد الكلمات المفردة.

تعاصد أكثر من فن بلاغي في النص الواحد ففي قول الإمام: «من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياك فآلقها في نحره» تتضح المقابلة بين الدين والدنيا، والجناس الاشتقاقي في «نافسك ونافسه» والجناس الناقص في «دينك ودنياك»، والاستعارة المكنية في: «آلقها في نحره» فقد صور الإمام الدنيا بصورة حجر يلقي لبيان أنه لا خير يرتجى منها وليس من ورائها إلا الأذى فتستحق إلقاءها في نحر من ينافس الآخرين فيها.

يكون بناء الجمل التي تضمنتها إجابات الإمام قائماً على التضاد بأسلوب المقابلة مع مزجه بالموازنة الصوتية كما في إجابته عند تعريف الزهد قائلاً:

«الرغبة في التقوى / والزهادة في الدنيا».

قد يكون الجواب قد أدخل التضاد في بنية استعارة مكنية كما في إجابته عن السداد بقوله: «دفع المنكر بالمعروف» فالمنكر لكثرة وتطفله يزاحم المعروف، فالمؤمن السيدد الرأي من يجعل الخير طريقاً لإبعاد الشر عن طريق الكرم والتسامح والحلم مثلاً.

وقد تحتوى الإجابة مع التضاد الجنس الناقص الذى يؤلف بين طرفى التضاد كما فى إجابته عن السماح بقوله: «البذل فى السراء والضراء»، فالسراء والضراء طرفا التضاد هنا، وكان بينهما الجنس الناقص بتغىير الحرف الأول بعد أل التعريف.

الخاتمة ونتائج البحث

بروز مصطلح لغة التضاد عند البلاغيين المحدثين أمثال د. مختار أبو غالي الذي أشار إلى أهمية لغة التضاد وحاجة الأديب إلى إيرادها لغايات اجتماعية وسياسية أو لتحقيق دلالات نفسية، فهي الأكثر دوراناً وشيوعاً في أساليبه.

اتضح لغة التضاد في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) في جميع مناحي تعبيره سواء في ذلك خطابه السياسي أم التعبدي أم الوعظي الإرشادي؛ لما في التضاد من طاقات تعبيرية إيجابية تحيط بالمعاني وتبرز الحالات المختلفة التي لا تتضح إلاً باجتماع متناقضاتها.

أكثر الإمام الحسن (عليه السلام) من المقابلة؛ لما فيها من قدرة على إيضاح الحالات المتضادة اجتماعياً ونفسياً وأخلاقياً وثقافياً، بينما قلّت عنده الوسائل الأخرى كالطباق والمفارقة؛ لان المجالات التي تتناولها لم تكن تفي بمتطلبات معاني الإمام الحسن (عليه السلام).

استثمر الإمام الجانب التنغمي من خلال الإفادة من أساليبه المتمثلة في السجع والجناس الناقص والتكرار الصوتي واللفظي والجملي؛ ليجعل التكرار وسيلة لترسيخ الفكرة التي يتحدث عنها.

سخر الإمام قدرته البلاغية وسرعة بديته ومبلغ علمه في كشف زيف إدعاءات خصومه وإظهار الحقائق التي حاول الأعداء التعمية عليها وإزالة التعقيم الإعلامي عن شخصيته وإبداء صورتها الحقيقية للناس ليعرفوا معادن الموجودين على الساحة السياسية فيميزوا الخبيث من الطيب.

أفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام من طاقات اللغة ووسائلها الإقناعية التركيبية والبيانىة والبديعية جاعلا ذلك متعاضدا مع أساليب التضاد التى أدخل فى بنائها تلك الوسائل وقد كان فى جميعها فى ذروة البلاغة سواء فى ذلك خطبه أو كلماته القصيرة.

أفاد الإمام من الموازنة بينه وبين خصمه فى خطابه السياسى مما رسم صورته الإيجابية الناصعة التى تمثل خط الالتزام بالمبادئ والقيم بمقابل صورة خصمه التى هى على الضد من صفاته، فكان سمو الإمام عاكسا لدنو خصمه نتيجة تلك الموازنة، مستثمرا تقنية الإجمال والتفصيل التى أثارت عنصر المفاجأة لدى المتلقى؛ لتثيره فى الإمعان فى الاستماع والإنصات لحجج الإمام عليه السلام.

كشف الخطاب الحسنى عن الآتى:

أولاً: الشخصية الفريدة للإمام فى شدة بأسه وشجاعته، وفى عمق تعبده وفهمه للدين الحق الذى أنزله إلى المعاملة والتطبيق، وإلى مقدار ما تحلى به من الخلق الرفيع الذى استحق به وبما وضعه الله فيه من المؤهلات من علم وحلم وحنكة ونباهة ودراية وغيرها أن يكون سيد شباب أهل الجنة ورابع أهل البيت عليه السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

ثانياً: الخلق الرفيع والتأدب فى الخطاب والحلم الذى يدل عن منبته النبوى وحلمه العلوى، فما كان من الذين يستمعون له أو الذين يتعرّضون لأذاه إلا التسليم بتفردده واستحقاقه واستحقاق آل بيته لما حباهم الله تعالى به أن يكونوا عدلاً للقرآن الكريم، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِمْ نَجَا وَمَنْ عَادَاهُمْ خَسِرَ وَهَلَكَ.

ثالثاً: الخطاب الإقناعى الحاوى الحجة والأدلة العقلية والنقلية عند محاجة أعدائه أو مناظرة سائليه؛ وهى التى لا يختلف عليها المسلمون للاستعانة بها على توضيح وجهة

نظره وتأييدها كالحجة القرآنية التي أفاد منها بطرق مختلفة بالنص أو الإشارة أو المعنى أو بالإتيان بها مجتمعة وهي أقوى الحجج لديه، أو إيراد أقوال جده المصطفى ﷺ التي لا خلاف عليها، والاستشهاد بالأقوال السائرة من الأبيات الشهيرة أو الأمثال، مع إفحامه خصومه باستعراض حججهم وتفنيدها بدقة وتكثيف وإيجاز، وإظهار البديل من الدلائل والحجج المقنعة، وقد بدا ذلك بكثرة بحيث يسلم الناس بما جاء به الإمام، ويغيرون أفكارهم الخاطئة، وهذا ما احتاج إليه؛ نظرا للظروف العصيبة التي أحاطت به ولشراسة أعدائه وابتعادهم عن الدين وشراء ذمم ضعاف النفوس من الناس وتأليبهم وتجنيدهم لمحاربتة والنيل منه ومن خطه الديني الذي سار فيه على خط أبيه.

رابعاً: تأثير الخطاب النبوي و العلوي والفاطمي عليه مما يدل على تأثير النشأة في بناء شخصيته البليغة المتكلمة، لذا لا نعجب إذا رأينا سبق الإمام الحسن للشخصية العرفانية وظهور المصطلحات الفلسفية فيها، ولا سيما عند حديثه عن ماهية الخالق تعالى وإجابته عن سألته عن وصفه كأنه يراه.

خامساً: الإيجاز والتكثيف اللذان برزا بشكل واضح في خطاب الإمام، فلم تكن خطبه طويلة بل كانت موجزة تغني ألفاظها القصيرة عن خطب طويلة أعيت غيره معانيها، أما كلماته القصيرة فما أشبهها بكلمات أبيه في إعجازها البلغاء عن مجاراتها.

الهوامش

١. ينظر: الإرشاد فى معرفة حجج الله على العباد: ١٦/٢، وقد نص الشيخ المفيد على ذلك، وينظر أيضا: وفیات الأعیان وأنباء أبناء الزمان: ٦٥/٢. تهذیب الکمال فى أسماء الرجال: ٦/٢٥٣.
٢. ينظر الإرشاد للشيخ المفيد ٦٥، ٢٣ فقد أفاض فى ذكر صفات الإمام ومناقبه .
٣. أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبى (عليه السلام): ٤/٧.
٤. البيان والتبيين: ٢/٥٢، وقد ورد النص ذاته فى الإرشاد للشيخ المفيد: ١/٢٤٠.
٥. كتاب سُلَيم بن قيس الهلالي: ٢/٦٢٤.
٦. الكافي: ٢/٤١٥، وينظر مثل معناه فى مسند احمد: ٥/١٨٢، والاحتجاج ١/٣٢٣.
٧. البديع: ٣٦.
٨. قواعد الشعر: ٥٣.
٩. البديع: ٣٦.
١٠. الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٤٤.
١١. البرهان فى وجوه البيان: ١٧٥.
١٢. نقد الشعر: ١٤٧-١٤٨.
١٣. العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٢/٥ .
١٤. تحرير التحرير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ١١١.
١٥. نقد الشعر: ١٤١.
١٦. كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر: ٣٢٦.
١٧. ينظر: البناء الفنى لشعر الحب العذري فى العصر الأموي: ٩١-٩٢.
١٨. ينظر: علوم البلاغة/ (البيان والمعاني والبديع): ٣٢٠.
١٩. ينظر: البلاغة العربية/ (المعاني والبيان والبديع): ٢٨٥.

٢٠. ينظر: البلاغة العربية فنونها وأفنانها علم البيان والبديع: ٢٧٧.
٢١. البلاغة العربية قراءة أخرى: ٣٥٤ - ٣٥٥.
٢٢. ينظر: جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنيوية في الشعر): ٧ - ٨.
٢٣. في الشعرية: ٤٥.
٢٤. ينظر: م. ن: الصفحة نفسها.
٢٥. ينظر: م. ن: الصفحة نفسها.
٢٦. م. ن: ٤٥ - ٤٦.
٢٧. تحليل الخطاب الشعري (ستراتيجية التناص): ١٦٠.
٢٨. ينظر: علم الأسلوب / (مبادئه وإجراءاته): ١٩٣.
٢٩. ينظر: الشعر ولغة التضاد: ٢٣.
٣٠. ينظر: م. ن: الصفحة نفسها.
٣١. وفيات الأعيان: ٨ / ٣١٩.
٣٢. بحار الأنوار: ٤٤ / ٩٠ - ٩١.
٣٣. مناقب آل أبي طالب: ٣ / ٢٢٠.
٣٤. كتاب سليم بن قيس: ٢ / ٦٤١ تحقيق الزنجاني، ط ٥، ١٤٢٨ هـ.
٣٥. ينظر: م. ن: الصفحة نفسها.
٣٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.
٣٧. العقد الفريد: ٥ / ٧.
٣٨. الطبقات الكبرى: ٣ / ١٠.
٣٩. نهج السعادة: ٨ / ٥٠٥. لقد كان الإمام متأثراً بجده المصطفى محمد ﷺ في هذا النص، فقد أورد الشيخ الصدوق خطبة لرسول الله تحدث في بعضها عن وحدانية الله تعالى وقد تضمن كلام الإمام الحسن الكثير مما ورد فيها، ينظر: التوحيد للشيخ الصدوق: ٤٤ - ٤٥، ولم يورد الصدوق خطبة الإمام الحسن ﷺ.
٤٠. التوحيد: ٤٥ - ٤٦.

٤١. نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: ٧٣.
٤٢. إرشاد القلوب: ١ / ١٥٧، والروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (عليه السلام): ١٢٤.
٤٣. ينظر: أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، (فصل فى مواقع التمثيل وتأثيره: ٨٦ - ٨٧).
٤٤. مناقب آل أبي طالب: ٣ / ٢١٧ - ٢١٨. وبحار الأنوار: ٤٣ / ٣٤٤.
٤٥. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ١٩ / ٢٨٩.
٤٦. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر: ٢ / ٤٣٢.
٤٧. تحف العقول: ٢٢٩.
٤٨. ينظر مقال من أسرار الإعجاز البياني فى القرآن، محمد إساعيل عتوك شبكة الأنترنت.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ) تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخراسان، طبع في مطابع النعمان النجف الاشرف، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦.

الإرشاد، الشيخ المفيد، (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، نشر دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط ٢، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

إرشاد القلوب إلى الصواب المنجي من عمل به من أليم العقاب، الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي من أعلام القرن الثامن، تح السيّد هاشم الميلاني، دار الأسوة للطباعة، قم، ط ٢، ١٤٢٤ هـ ق. أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ت ٤٧١ هـ، تحقيق: محمد رشيد رضا، القاهرة، مطبعة الترقّي (د ت).

أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، لجنة التأليف في المجمع العالمي لأهل البيت عليه السلام، مطبعة ليل، ط ١، قم المقدسة، ١٤٢٢ هـ.

بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان، ط ٢.

البديع، عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) تح اغناطيوس كراتشكوفسكي، مكتبة المثني، بغداد، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.

البرهان في وجوه البيان، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تح: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، بغداد، ط ١، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

البلاغة العربية (المعاني والبيان والبديع)، د. أحمد مطلوب، مكتبة الزهراء، بغداد، ط ١، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

البلاغة العربية فنونها وأفنانها علم البيان والبديع، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط ١، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان،

- القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٧م.
- البناء الفنى لشعر الحب العذرى فى العصر الأموى، سناء حميد البىاقى، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٩م.
- البىان والتبىىن، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- تحرىر التحفىر فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبى الأصبع المصرى، تح: د. حفىنى محمد شرف، القاهرة، ١٣٨٣هـ.
- تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، ابن شعبة الحرّافى، من أعيان القرن الرابع الهجرى، تصحىح وتعلىق: على أكبر الغفارى، مؤسسة النشر الإسلامى التابعة لجامعة المدرسىن، قم المشرفة، ط٢، ١٤٠٤هـ - ١٣٦٣ش
- تحلىل الخطاب الشعرى (ستراتىجىة التناص)، دار التنوىر للطباعة، بىروت، ط١، ١٩٨٥م.
- تنبىه الخواطر ونزهة النواظر، ورام بن أبى فراس المالكى الأشترى، ت ٦٠٥هـ، المطبعة الحىدرىة، طهران، ط٢، ١٣٦٨ش - ١٤٠٩هـ.
- تهذىب الكمال فى أساء الرجال الحافظ جمال الدىن أبو يوسف المزى (ت ٧٤٢هـ)، تح: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٠٦ - ١٩٨٥.
- جدلىة الخفاء والتجلى (دراسات بنوىة فى الشعر) د. كمال أبو دىب، دار العلم للملایىن، ط٢، بىروت، لبنان، ١٩٨١م.
- الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن ﷺ، السىد مصطفى الموسوى مرآة وتعلىق: السىد مرتضى الرضى، دار العلم للطباعة، ط١، ١٣٩٥ - ١٩٧٥م.
- شرح نهج البلاغة، ابن أبى الحدىد (ت ٦٥٦هـ)، تح محمد أبو الفضل إبراهىم، مؤسسة إسماعىلىان للطباعة والنشر والتوزىع، د.ت.
- الشعر ولغة التضاد، د. مختار أبو غالى، حوليات كلية الآداب، جامعة الكوىت، الحولىة الخامسة عشرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٤م.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منىع أبو عبد الله البصرى الزهرى، تح: إحسان عباس، دار صادر، بىروت، ط١، ١٩٦٨م.
- العقد الفرىد، لابن عبد ربه أبى عمر أحمد بن محمد الأندلسى تح: محمد التونجى، دار صادر،

بيروت، ط٢، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م.

علم الأسلوب / (مبادئه وإجراءاته)، د. صلاح فضل، مؤسسة مختار، القاهرة، ١٩٩٢
علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، د. أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت،
ط١٣، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٥٦هـ)،
تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢ م.

في الشعرية، د. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧ م.
الكافي، الشيخ محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، (ت ٣٢٩هـ)، تصحيح وتعليق: علي أكبر
الغفاري، مطبعة: حيدري، نشر: دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٤، ١٣٦٥ ش - ١٤٠٦ هـ.
كتاب سُلَيْم بن قيس الهلالي، للتابعي سليم بن قيس الهلالي (ت ٧٦هـ) تح: محمد باقر الأنصاري
الزنجاني، مؤسسة نشر الهادي، قم المقدسة: ٢ / ٦٢٤.

كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن
مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ)، تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة محمد علي صبيح، مصر، (د.ت).

مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ)، نشر: دار صادر - بيروت - لبنان، (د.ت).

من أسرار الإعجاز البياني في القرآن، محمد إسماعيل عتوك مقال منشور على شبكة الأنترنت.

مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب بن أبي نصر بن أبي الجيش المازندراني
(ت ٥٨٨هـ)، تح: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٣٧٦ هـ -
١٩٥٦ م.

موسوعة أحاديث أهل البيت (عليه السلام)، الشيخ هادي النجفي، دار إحياء التراث العربي للطباعة
والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.

نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الشيخ الحسين بن محمد بن الحسن بن نصر الحلواني، من أعلام القرن
الخامس الهجري، تح: مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام)، نشر مدرسة الإمام المهدي (عليه السلام) - قم المقدسة، ط١،
١٤٠٨ هـ.

نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ)، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب
العلمية، بيروت، (د.ت).

نهج السعادة في مستدرک نهج البلاغة، الشيخ محمد باقر المحمودي (ت ١٤٢٧ هـ)، مطبعة النعمان

- النجف الأشرف، نشر مؤسسة التضامن الفكرى - بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥ م
الوساطة بين المتنبى وخصومه، القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (ت ٣٩٢هـ)، نج: محمد أبى
الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى، مصر، ط٤، ١٩٦٦ م.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان
(ت ٦٨١هـ)، نج: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت

المتضمنات التَّداولية
وأثرها في فهم الخطاب وتفسيره
(كلام الإمام الحسن عليه السلام أنموذجاً)

محمد منصور حسين البياضي

أولاً- المفاهيم الأساس للمتضمنات التداولية.

١- نشأة ومفهوم التداولية.

٢- مفهوم المتضمنات لغة واصلاحاً.

ثانياً- جذور المتضمنات التداولية في التراث العربي.

ثالثاً- المتضمنات التداولية من حيث التكوين.

١- الافتراض السابق.

٢- الأقوال المضمرة.

٣- الاستلزام الحوارى.

٤- الإحاليات.

٥- الإشارات.

٦- الصيغ البديلة.

رابعاً- تداخل عناصر المتضمنات.

خامساً- إسهام المتضمنات التداولية في انساق النص.

المدونة

«روي عن الشعبي وأبي مخنف، ويزيد بن أبي حبيب المصري، أنهم قالوا: لم يكن في الإسلام يوم في مشاجرة قوم اجتمعوا في محفل، أكثر ضجيجا ولا أعلى كلاما ولا أشد مبالغة في قول، من يوم اجتمع فيه عند معاوية بن أبي سفيان عمرو بن عثمان بن عفان، وعمرو بن العاص، وعتبة بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة بن أبي معيط، والمغيرة ابن أبي شعبة، وقد تواطؤوا على أمر واحد، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ألا تبعث إلى الحسن بن علي فتحضره، فقد أحيا سنة أبيه، وخفقت النعال خلفه، أمر فأطيع، وقال فصدق، وهذان يرفعان به إلى ما هو أعظم منها، فلو بعثت إليه فقصرنا به وبأبيه، وسببناه وسببنا أباه، وصغرنا بقدره وقدر أبيه... فبعثوا إلى الحسن فلما أتاه الرسول قال له: يدعوك معاوية، قال: ومن عنده؟ قال الرسول: عنده فلان وفلان، وسمى كلا منهم باسمه، فقال الحسن عليه السلام: ما لهم خرّ عليهم السقف من فوقهم، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون... فقال الحسن عليه السلام: إن الذي حييت به سلامة، والمصافحة أمن. فقال معاوية: أجل إن هؤلاء بعثوا إليك وعصوني ليقروك أن عثمان قتل مظلوما، وأن أباك قتله، فاسمع منهم، ثم أجبههم بمثل ما يكلمونك، فلا يمنعك مكاني من جوابهم، فقال الحسن: فسبحان الله البيت بيتك والإذن فيه إليك! والله لئن أجبتهم إلى ما أرادوا إني لأستحيي لك من الفحش، وإن كانوا غلبوك على ما تريد، إني لأستحيي لك من الضعف، فبأيها تقرأ، ومن أيها تعتذر، وأما إني لو علمت بمكانهم واجتماعهم، لجئت بعدتهم من بني هاشم مع أبي ومع وحدتي هم أوحش مني مع جمعهم، فإن الله ﷻ لولي

اليوم وفيما بعد اليوم، فمرهم فليقولوا فأسمع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... فتكلم عمرو بن عثمان... ثم تكلم عمرو بن العاص... ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان... ثم تكلم الوليد بن عقبة... ثم تكلم المغيرة بن شعبة... ثم سكت فتكلم أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام فقال: الحمد لله الذي هدى أولكم بأولنا، وآخركم بآخرنا، وصلى الله على جدي محمد النبي وآله وسلم. اسمعوا مني مقالتي وأعيروني فهمكم وبك أبدأ يا معاوية: إنه لعمر الله، يا أزرق ما شتمني غيرك وما هؤلاء شتموني، ولا سبني غيرك وما هؤلاء سبوني ولكن شتمني، وسببني، فحشاً منك، وسوء رأي، وبغياً، وعدواناً، وحسداً علينا، وعداوة لمحمد صلى الله عليه وآله، قديماً وحديثاً، وأنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاورين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وحولنا المهاجرون والأنصار ما قدروا أن يتكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به. فاسمعوا مني أيها الملأ المجتمعون المتعاونون عليّ، ولا تكتموا حقاً علمتوه، ولا تصدّقوا بباطل إن نطقت به، وسأبدأ بك يا معاوية ولا أقول فيك إلا دون ما فيك.

أنشدكم بالله هل تعلمون أن الرجل الذي شتمتموه صلى القبلتين كليهما، وأنت تراهما جميعاً وأنت في ضلالة تعبد اللات والعزى، وبائع البيعتين كليهما بيعة الرضوان وبيعة الفتح، وأنت يا معاوية بالأولى كافر، وبالأخرى ناكث. ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أن ما أقول حقاً أنه لقيكم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ومعه راية النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، ومعك يا معاوية راية المشركين وأنت تعبد اللات والعزى، وترى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله فرضاً واجباً، ولقيكم يوم أحد ومعه راية النبي، ومعك يا معاوية راية المشركين، ولقيكم يوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعك يا معاوية راية المشركين، كل ذلك يفلج الله حجته، ويحق دعوته، ويصدق أحدوثته، وينصر رايته، وكل ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله يرى عنه راضياً في المواطن كلها ساخطاً عليك... وأما أنت

يا مغيرة بن شعبه! فإنك لله عدو، ولكتابه نابذ، ولنبيه مكذب، وأنت الزاني وقد وجب عليك الرجم، وشهد عليك العدول البررة الأتقياء، فأخر رجمك، ودفع الحق بالأباطيل، والصدق بالأغاليط وذلك لما أعدّ الله لك من العذاب الأليم، والحزني في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتى أدميتها وألقت ما في بطنها، استذللاً منك لرسول الله ﷺ ومخالفة منك لأمره، وانتهاكاً لحرمته وقد قال لها رسول الله ﷺ: «يا فاطمة أنت سيدة نساء أهل الجنة»، والله مصيرك إلى النار».

نقد المدونة

يمتاز النص الصادر عن الإمام الحسن (عليه السلام) بعدة خصائص من أهمها: قربه من زمن ذروة الفصاحة والبلاغة التي امتاز بها العرب آنذاك، التي كانت السبب الأساس لافتخارهم على عامة الامم، ولعل رقي العرب على مستوى الاستعمال اللغوي دفعهم الى التداول بأساليب بلاغية أوصلتهم إلى المباراة والمنازلة في أوقات وأماكن حدّوها لذلك الغرض، حتى اشتهرت هذه الأماكن عندهم كسوق عكاظ وغيره من أسواق العرب الأخرى؛ ولذلك جاءتهم رسالة الساء متحدية لهم ولغيرهم على أن يأتوا بمثل ما جاءت به الساء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(٢) سورة يونس: ٣٨.

أولاً: المفاهيم الأساس للمتضمنات التداولية

أ. نشأة التداولية ومفهومها :

ظهرت التداولية في الخمسينيات من القرن الماضي (القرن العشرين)، وتحديدًا في سنة ١٩٥٥م، عندما ألقى جون أوستين (John Austin) محاضراته في جامعة هارفارد ضمن مشروع محاضرات وليام جيمس (William James Lectures)، التي بحث فيها نظرية الأفعال الكلامية.

فالتداولية ليست اختصاصًا فرعيًا للسانيات أو مرحلة تكميلية لها، بل التداولية مدججة باللسانيات فهي جزء لا يتجزأ منها، إلا أنه مع هذا فالتداولية لها علاقة وطيدة بالعلوم المعرفية، بل (يكاد تاريخ العلوم المعرفية يتطابق وتاريخ ميلاد التداولية)؛ وللاهمية التي تشغلها التداولية صارت محط اهتمام الكثير من علماء اللسانيات النصية؛ ولذلك تعددت تعريفاتها واختلفت.

فمن تلك التعريفات هي: «الدراسة التي تعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعبيرات الرمزية والسياقات المرجعية، والمقامية والحديثة، والبشرية».

فيما نجد حدها آخر بأنها «دراسة استعمال اللغة، مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعنى به تحديدًا اللسانيات»، فيما نجد آخر يدرج التداولية ضمن اللسانيات فيعرفها على أنها: «الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل».

في ضوء التعريفات السابقة نجد التباين في وجهة نظر الدارسين للتداولية؛ إذ منهم من جعلها علمًا يقابل اللسانيات، في حين نجد آخر درجها ضمنه، إلا أنهم جميعًا اتفقوا على أنّ التداولية ينصبّ اهتمامها على دراسة استعمال اللغة والذي يهدف إلى إيجاد التواصل بين المتكلم والمتلقي.

فالتداولية سواء كانت حقلاً معرفياً مستقلاً، أم كانت فرعاً لسانياً يمثل مرحلة تكميلية للدرس اللساني الجديد، أو كانت مندمجة في اللسانيات وغير منفصلة منها، فإنها تهدف بجميع صورها إلى إيصال الرسالة التي يرمي المتكلم إبلاغها للمتلقي، وإيجاد التلاؤم بين ظاهر الخطاب وما يتضمّنه النصّ من دلالات، مستعيناً بالسياقات المقامية والمرجعية التي تكتنف النصّ.

ب. مفهوم المتضمّنات التداولية :

أولاً. المفهوم اللغوي:

يعني التضمّن على أنه احتواء شيء لشيء آخر، أو احتواء كلمة لمعنى كلمة أخرى؛ وذلك كون المعنى الأصلي للكلمة قد احتوى معنى آخر ثانوياً يفهم في ضوء سياق الخطاب.

وهذا المعنى ظاهر عند تتبع أمّات المعجمات اللغوية، فهي تشير إلى أنّ مصطلح التضمين هو: إحراز الشيء في شيء آخر، ومنه يقال: تضمّنته الأرض، والقبر، والرحم. ومنه يقال: فهمتُ ما تضمّنه كتابك؛ أي ما اشتمل عليه وكان ضمنه، وأنفذته ضمن كتابي، أي في طياته، وبهذا المعنى قال ابن فارس أنّ التضمّن هو: «جعل الشيء في شيء يحويه».

ثانيًا: المفهوم الاصطلاحيّ

تشكل نظرية المتضمنات ركنًا أساسًا في منظومة المفاهيم التداولية؛ لما لها أثر محوريّ في العملية التواصلية بين المتكلم والمتلقي، كما تعمل على تهذيب الخطاب من حيث الشكل والمضمون، فلذا يمكن تعريفها على أنها المعلومات التي تمثل ركنًا أساسيًا في بناء الخطاب وفهمه.

وهناك من يرى أنها: «كلّ فرضية نستخلصها من قول لم يقع إبلاغها صريحًا».

أمّا الباحثة الفرنسية أوريكيوني (Catherine Kerbrat-Orecchioni)، فتعرّف المتضمنات بأنها: «كلّ المعلومات القابلة للنقل عبر قول معيّن التي تبقى تفعيلها خاضعًا لبعض خاصّيات السياق التعبيريّ الأدائيّ».

أما العالم الفرنسي (فيلب بلانشه)، (Philippe Blanchet)، فيرى أنّ المتضمن هو «مفهوم يشمل في الوقت ذاته مفهومي (غير الصريح) و (الاستلزام)».

وإذا ذهبنا إلى الدراسات اللسانية العربية نجد عددًا من الباحثين العرب تعرضوا لتعريف مفهوم المتضمنات، فمن هذه التعريفات أنّها: «مفهوم تداوليّ إجرائيّ يرصد جملة من الظواهر المتعلقة بجوانب ضمنية وخفية من قوانين الخطاب».

ومنهم من عرفها بأنّها: «المعنى الإضافيّ الذي توحى به كلمة ما زيادة على معناها الأصلي، وغالبًا ما يختلف المعنى الإضافيّ من شخص إلى آخر».

في حين نجد آخر يرى مصطلح المتضمنات أنّه: «معنى خاص تأخذه الكلمة، أو الملفوظة في مقام أو سياق معيّن».

وفي ضوء اطلاعنا على المفهوم الاصطلاحيّ لنظرية (المتضمنات)، وجدنا تركيز

أغلب الباحثين في تعريفهم لهذا المفهوم على مسألة انطواء المعاني الزائدة في القول الصريح واستلزامها له كونها ركناً أساساً في تكوينه، وعليه يمكن القول: إنَّ (كلّ معنى ثانويّ يستخلصه المتلقي من القول الصريح)، هو قول متضمّن.

وبعد معرفتنا للمفهوم اللغويّ والاصطلاحيّ لنظرية المتضمّنات وجدنا تقارباً كبيراً بين المفهومين؛ فكلاهما يدلّ على تضمّن شيء لشيء، لوجود علاقة بين الشئيين أو المعنيين المتضمّن أحدهما للآخر.

ثانيًا: المتضمنات من حيث التكوين

يعدّ مفهوم متضمنات التداولية من المفاهيم الفضفاضة التي يمكن أن تنطبق على كثير من المفاهيم الفرعية؛ فلذا نجد نوعاً من التخبّط في تحديد المصطلح من جهة وتحديد مكوناته من جهة أخرى لدى بعض الباحثين، إلّا إنّنا نحاول - إذا شاء الله - مخلصين الوقوف على ما ينطوي عليه هذا المفهوم بكلّ دقّة وروية في كلام الإمام الحسن (عليه السلام).

أهمّ المفاهيم التي تشكل نظرية المتضمنات التداولية التي تعدّ فروعاً رئيسية لها، وتنقسم إلى أقسام عدّة منها:

١. الافتراض السابق، أو المسبق.

٢. الأقوال المضمرة.

٣. الاستلزام الحوارية.

٤. الإحاليات.

٥. الإشارات.

٦. الصيغ البديلة.

فالمعلومات التي يصرّح بها المتكلم تستبطن معاني ثانوية أو إضافية تكون متممة لما صرّح به، كأن تكون على شكل أقوال مضمرة في الخطاب إلّا أنّها مفهومة للمتلقّي من خلال سياق معيّن في الحديث، أو على شكل افتراضات مسبقة ومعلومة بين المتكلم

والمتلقي، أو تكون معاني ملازمة للمصرح بها عقلاً ولا يتمّ الهدف المنشود من الكلام إلا بها، أو تكون معاني أو كلمات مشار إليها غير مذكورة صراحة.

فكلّ تلك المعاني الثانوية أو الإضافية تعدّ متضمّنات، وسنأتي على بيانها والوقوف عليها.

١. الافتراض السابق:

هو كل الأحداث المعلومة مسبقاً التي تكون أساساً ينطلق المتكلم والمتلقي منها في عملية التحوار بينهما.

عرفت أوريكيوني الافتراض السابق بأنه «كلّ المعلومات التي وإن لم تكن مقرّرة جهرًا، إلا أنها تنتج تلقائيًا من صياغة الأقوال التي تكون مدوّنة فيه بشكل جوهري بغض النظر عن خصوصيّة النطاق التعبيري الأدائي».

فمصطلح الافتراض السابق استُعر من المعجم المنطقي، واستعمل في حقل الدلالة؛ ليُستدلّ به على المعنى الضمني، ويظل جزءًا من المفوظ ومكملاً للمعنى.

ولأهميّة الافتراض السابق عدّه التداوليون من العناصر الرئيسة التي تشكل عملية التواصل والإبلاغ؛ فلا يمكن تعليم الطفل معلومة جديدة إلا من خلال وجود أساس سابق يتمّ الانطلاق منه وبناء معلوماته الجديدة عليه.

وعلى هذا يكون الافتراض السابق من العناصر المهمّة التي يأخذها المتكلم في عين الاعتبار، فعندما يخاطب جمهورًا معيّنًا لا بدّ أن يكون خطابه في بعض جوانبه مرتكزًا على حوادث معلومة للمتلقّي، فتكون مشتركة بينهما، فلاجل ذلك يختصر بعض كلامه ولا يصرح به تعويلاً على ذلك الأساس المفترض والمشارك بينه وبين المتلقّي، والذي ينطلقان منه في عملية التواصل والإبلاغ ولولاه لما تمّت عملية التواصل بينهما، ولأصبح

المتلقي بعيداً عن مراد المتكلم؛ لجهله بما يقوله.

ولأجل إيضاح هذا العنصر التداولي بشكل أكثر نأخذ مثلاً من كلام الإمام الحسن عليه السلام: «الحمد لله الذي هدى أولكم بأولنا، وآخركم بآخرنا».

تضمّن هذا النصّ عدداً كبيراً من مواضع الافتراض السابق، فالإمام بنى كلامه على أساس مفهوم للمتكلم ومعلوم من أنّ أول أهل البيت عليهم السلام هو النبي محمد عليه السلام، وآخرهم هو الإمام الحجة المهدي عليه السلام، جعلهم الله ﷻ مفتتح هداية البشرية ومنتهاها، وهذا المعنى تشير إليه الروايات الصادرة عنهم صلوات الله عليهم كرواية زيد الشحام بقوله: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيّما أفضل: الحسن أم الحسين عليهما السلام؟ فقال عليه السلام: إنّ فضل أولنا يلحق بفضل آخرنا وفضل آخرنا يلحق بفضل أولنا، فكلّ له فضل. قلت: جعلت فداك! وسّع عليّ في الجواب فإنّي والله ما سألتك الأمر مرتاداً».

فقال عليه السلام: نحن من شجرة طيِّبة، برأنا الله من طينة واحدة، فضلنا من الله، وعلمنا من عند الله، ونحن أمانؤه على خلقه، والدعاة إلى دينه، والحجاب فيما بينه وبين خلقه.

أزيدك يا زيد؟

قلت: نعم.

فقال عليه السلام: خلقنا واحد، وعلمنا واحد، وفضلنا واحد، وكلّنا واحد عند الله ﷻ.

قلت: فأخبرني بعدتكم.

فقال: اثنا عشر، هكذا حول عرش ربّنا في مبتدأ خلقنا: أولنا محمد وأوسطنا محمد وآخرنا محمد».

أما الموضع الثاني ففي قوله عليه السلام: «إنه لعمر الله يا أزرق ما شتمني غيرك وما هؤلاء

شتموني، ولا سبني غيرك وما هؤلاء سبوني ولكن شتمتني، وسببتني، فحشا منك، وسوء رأي، وبغيا، وعدوانا، وحسدا علينا، وعداوة لمحمد ﷺ، قديما وحديثا.

وصف الإمام صلوات الله عليه معاوية بالأزرق، أي المجرم إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا﴾^(١)، وكذا العرب تسمي العدو بالأزرق، وعداوة بني أمية لأهل البيت لا تخفى على أحد.

أمّا الموضع الثالث للافتراض السابق فيتمثل في قوله ﷺ للمغيرة بن شعبة: «وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتى أدميتها وألقت ما في بطنها، استدلالاً منك لرسول الله ﷺ ومخالفة منك لأمره، وانتهاكاً لحرمة».

تضمّن هذا النصّ افتراضاً مسبقاً معلوماً للمتكلم والمخاطب مفاده (وقوع الاعتداء على الصديقة الزهراء وهي حامل ما أدى إلى إسقاطها)، كما يتضمّن افتراضاً مسبقاً آخر مفاده (إنّ من قام بضرب الزهراء صلوات الله عليها مجموعة من المجرمين إلّا أنّ بعضهم أدمى الزهراء صلوات الله عليها، وبعضهم لم يدمها).

يتبين مما سبق أثر الافتراض السابق الأساس في العملية التواصلية بين المتكلم والمتلقي، وكيفية جعله منطلقاً يبنى عليه الحوار.

٢. الأقوال المضمرة:

هي الأقوال التي يستنتجها المتلقي من خطاب المتكلم اعتماداً على السياقات المكتنفة للخطاب.

عند تتبع الدراسات اللسانية نجد أنّ الباحثين قد اختلفت وجهة نظرهم في تعريف مصطلح المضمّر، وهذا إن دلّ على شيء فيدلّ على شدة اهتمامهم وعنايتهم في دراسته؛

(١) سورة طه: ١٠٢.

ولأجل ذلك اختلفت وجهات النظر في تعريفهم له، فكل واحد ينظر إليه من زاوية مبتنياته الفكرية في فلسفة اللغة وعملية التواصل بين البشر، فبعضهم يعرف الإضمار على أنه ضرب من الاختزال، وهذا تعريف للإضمار على أساس الوظيفة البلاغية التي يؤديها، فالاختزال كما هو معلوم في اللغة ضرب من الإيجاز البلاغي.

أما أوريكيوني فنظرتها للمضمر نظرة واسعة، حيث تعرف المضمر بأنه: «ما يمكن استخلاصه من القول واستنتاجه من محتواه الحرفي عبر التوفيق بين معلومات ذات وضع متغير».

في حين نجد آخر قد ربط المضمر بالملفوظ فقط، فهو يرى أن المضمر هو «ما نقوله زائداً على الملفوظ بمجرد قولنا للملفوظ».

من خلال ما تقدم ذكره من تعريفات لمفهوم المضمر، اتضح مدى أهميته في عملية التواصل اللغوية؛ لأنه يضع المتكلم أمام خيارات متعددة في العلمية التخاطبية، كأن يجعله ينتقل من الأطناب إلى الإيجاز، أو من سباحة الألفاظ إلى عذوبتها، أو يجعله يتعد من الألفاظ الثقيلة على اللسان أو السمع، وغير ذلك من الخيارات المفتوحة أمام المتكلم التي يتيحها المضمر للمتكلم.

ولتوضيح مفهوم المضمر أكثر نعتمد على النموذج السابق من كلام الإمام الحسن عليه السلام، فيمكن الحصول على عدة مواضع من الأقوال المضمرة، منها في قوله عليه السلام: «وأنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاورين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحولنا المهاجرون والأنصار ما قدروا أن يتكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به».

في ضوء سياق الكلام يمكن استنتاج الأقوال المضمرة المتضمنة في النص والمتمثلة بما يأتي:

- يجب عليهم أن ينتهوا عما يقومون به؛ لأنه موجب لغضب الله ﷻ.
 - زجر الامام ﷺ معاوية وبيان أنه العدو الحقيقي لأهل البيت ﷺ.
 - يكشف الإمام ﷺ حقيقة هؤلاء المجتمعين عند معاوية من أنهم يتبعون أهواءهم وليسوا أصحاب مبدأ ثباتاً.
- وتبقى قائمة التأويلات مفتوحة للمتلقي يمكنه استنتاج ما يسمح له سياق الكلام لتوضيح خطاب المتكلم والوقوف على مراده.

٣. الاستلزام الحواريّ؛

يراد منه الترابط المنطقيّ القائم بين الكلام الصريح والكلام غير الصريح الذي يستنتجه المتلقي من الخطاب الموجه إليه.

ويراد منه حسب رأي أوستين: «أن تقول شيئاً ما قد يترتب عليه أحياناً أو في العادة حدوث بعض الآثار على إحساسات المخاطب وأفكاره أو تصرفاته، كما يستلزم ذلك لوازم ونتائج قريبة تؤثر على المتكلم، وغيره من الأشخاص الآخرين»، أو هو: «ما يرمي إليه المتكلم بشكل غير مباشر، جاعلاً مستمعه يتجاوز المعنى الظاهري لكلامه إلى معنى آخر».

فالمتكلم يجعل علاقة منطقية بين الكلام الظاهري الصريح والمعنى غير المباشر جاعلاً الكلام الظاهري بمثابة المقدمة التي تقوده إلى النتيجة الختامية وهي الكلام غير المباشر؛ لأن علوم اللغة منبثقة من فكرٍ علميٍّ قوامه المنطق.

فالعلاقة بين الكلام الصريح وغير الصريح يقتضيها العقل، ويقود المتلقي إلى وجودها وتحديدها.

ولتوضيح ذلك أكثر نأخذ المثال نفسه من كلام الإمام (عليه السلام): «وأنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاورين في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وحولنا المهاجرون والأنصار ما قدروا أن يتكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به».

يتضمن هذا النص الكثير من الاستلزامات الحوارية تبين كالآتي:

- التهكم من معاوية ومن معه؛ لفعلهم القبيح.
- اظهار جبن أصحاب معاوية وأنهم لا يستطيعون مواجهة الإمام (عليه السلام) في الظروف الطبيعية.
- بيان سفاهة معاوية؛ لاعتماده على ثلّة لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم الخير.
- وهكذا يستطيع المتلقي أن يستنتج عدداً آخر من الاستلزامات الحوارية المستقاة من خطاب المتكلم، والتي لها أثر في بيان قصده وفهمه.

٤. الاحاليات:

تقسم إلى إحالة مقامية ونصيّة.

أ. الإحالة المقاميّة، أو الخارجيّة:

تشير إلى أنّ العنصر المشار إليه محدد في سياق الموقف، فتتوقف معرفة هذا النوع من الإحالة على سياق الحال، أو الأحداث والمواقف التي تحيط بالنص؛ ولذلك تسمى أيضاً السياقية.

وأدوات الإحالة المقاميّة هي: «نحن، أنت، هم، هي»، إلّا أنّه لا تتحدد الأدوات فقط بهذه الأربع، بل تشمل أيّ عنصر إحاليّ يشير إلى خارج النصّ، كـ (أنا، نا، أنتم، هذا....)، وتتميز الإحالة عن سائر الروابط الاتساقية بوجود تطابق الخصائص

الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه، فيفهم من ذلك أنَّ الإحالة تتحقّق بثلاثة أركان هي:

١. الأداة أو العنصر الإحاليّ.

٢. والمحيل وهو المتكلم الذي يمثّل الطرف الأوّل.

٣. والمحال إليه، وهو الطرف الثاني.

والظاهر أنّه إذا اختلّ أحد هذه الأركان لا تتحقّق الإحالة.

ويمكن توضيحها من خلال الاعتماد على مثال من كلام الامام الحسن (عليه السلام)، في قوله: «أنشدكم بالله هل تعلمون أن الرجل الذي شتمتموه صلى القبلتين كليهما وأنت تراهما جميعاً وأنت في ضلالة تعبد اللات والعزى، وبائع البيعتين كليهما بيعة الرضوان وبيعة الفتح، وأنت يا معاوية بالأولى كافر، وبالأخرى ناكث».

يتضمّن هذا النصّ عدداً من الاحالات المقاميّة التي أحال المتكلم بها إلى أحداث خارج النصّ، منها استعماله ضمير المخاطب المنفصل (أنت)، فالضمير يشير إلى معاوية ابن أبي سفيان مع عدم ذكر اسمه في أوّل الكلام من هذه الفقرة، وبذلك استطاع المتكلم أن يستخدم عنصراً إحالياً يشير به إلى شخص خارج النصّ دالا عليه من خلال سياق الكلام، وهذا يعطي إشارة إلى استقباح ذكر المشار إليه، أو احتقاره وتجاهله، وهذا المعنى يشهد له مضمون النصّ.

ب. الإحالة النّصيّة، أو الداخلية:

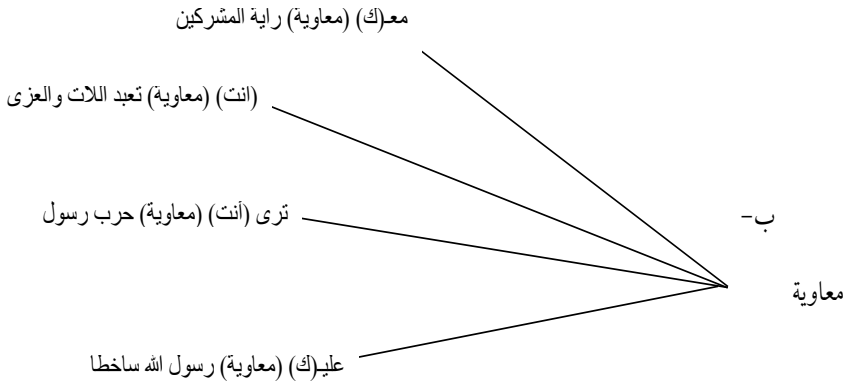
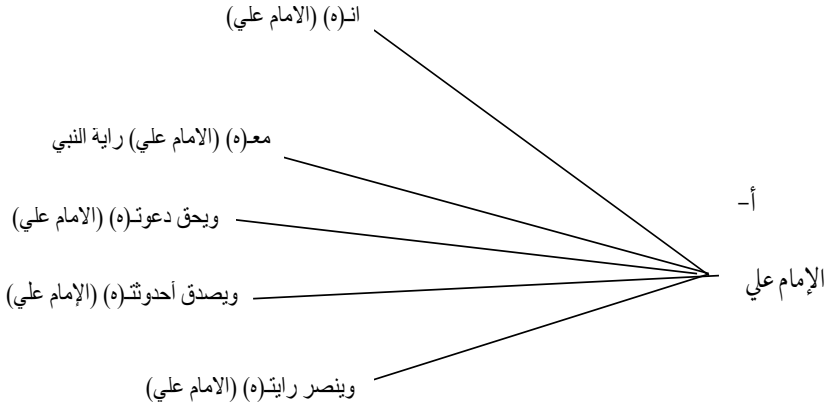
هي الإحالة التي تركز على العلاقات اللغوية في النصّ ذاته، وقد تكون بين ضمير وكلمة أو بين كلمة وكلمة، أو بين عبارة وكلمة، وتنقسم إلى إحالة على سابق، وإحالة

على لاحق، كما مرّ الحديث عنها سابقاً.

وللإحالة النصّية أدوات تؤدّي إلى اتساق النصّ وتماسكه، كالضمائر وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، يمكن توضيحها في ضوء المثال الآتي من كلام الامام الحسن عليه السلام: «أنشدكم بالله هل تعلمون أن ما أقول حقاً، أنه لقيكم مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ومعه راية النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين، ومعك يا معاوية راية المشركين وأنت تعبد اللات والعزى، وترى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله فرضاً واجباً، ولقيكم يوم أحد ومعه راية النبي، ومعك يا معاوية راية المشركين، ولقيكم يوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعك يا معاوية راية المشركين، كل ذلك يفلج الله حجته، ويحقّ دعوته، ويصدق أحدوثته، وينصر رايته، وكل ذلك رسول الله يرى عنه راضياً في المواطن كلها ساخطاً عليك».

تضمّن هذا النصّ عدة إحالات متداخلة بعناصر إحالية قبلية وبعديّة، متصلة ومنفصلة، تتمثل بضمير المخاطب المتصل (الكاف)، والضمير المتصل للغائب (الهاء). تعني الإحالة القبلية أن العنصر الإحالي يشير إلى حدث سبق ذكره في النصّ، أما البعدية فتشير لما سيأتي ذكره.

هذا الأسلوب المتداخل في الإحالات يؤدّي إلى تماسك النص من جانب وتنوع إيقاع خطاب المتكلم من جانب آخر ما يؤدّي إلى انتباه المتلقي وعدم تشتت ذهنه، ولتوضيح ذلك أكثر يمكن الاعتماد على الشكل الآتي:



يلاحظ من خلال الشكل السابق كيفية تتابع العناصر الاحالية على المحال إليه؛
ليتم من خلالها المعنى المراد من المتكلم.

٥. الإشارات :

يراد منها كل الصيغ التي يستخدمها المتكلم لإرشاد المتلقي إلى الأشياء المشار إليها، «التي قد تكون أسماء علم، أو عبارات اسمية معرفة، أو نكرة أو ضمائر»^(١).

لتوضيح هذا الأسلوب أكثر نعتمد على قول الإمام الحسن عليه السلام: «وأنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاورين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وحولنا المهاجرون والأنصار ما قدروا أن يتكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به».

استعمل الإمام عليه السلام عناصر اشارية متعددة منها تدلّ على الذات المقدسة لله ﷻ فاستعمل لفظ الجلالة (الله)، وأشار إلى شخصه من خلال الضمير المتصل (تاء الفاعل)، وضمير الرفع المنفصل (أنا)، وأشار إلى القوم من خلال ضمير الرفع المنفصل (هؤلاء)، وأشار إلى معاوية من خلال الصفة (يا أزرق)، وأشار إلى المسجد النبوي من خلال عبارة اسمية معرفة (مسجد رسول الله)، كما أشار عليه السلام إلى مجموعة خاصة من المسلمين بواسطة اسمين معرفتين، هما: (المهاجرون والأنصار).

كل هذه الاشارات التي استعملها المتكلم (الإمام الحسن عليه السلام)، زادت مراده وضوحاً وأدّت إلى تقوية العملية التواصلية بينه وبين المتلقي، وبذلك تمت الرسالة الإبلّغية التي قصد إيصالها للمتلقي.

٦. الصيغ البديلة :

تعد من المباحث المهمة في التماسك النصي؛ لما له من أهمية كبيرة في إيجاد الترابط الشكلي والدلالي للنص، فمن بين الصور التي يمثلها التماسك النصي هي الاعادة الصريحة للاسم أو ما يقوم مقامه من ضمير أو اسم إشارة، أو غيرهما، فالضمائر واسماء

(١) التداولية، جورج يول، مرجع سابق، ص ٣٩.

الإشارة والاسماء الموصولة يصح وقوعها بدل الاسم أو المشتق؛ من هنا سميت بدائل الصيغ؛ لأنها تبدل بغيرها فتحل محلها وتأخذ مهمتها من حيث الدلالة.

تطلق بدائل الصيغ على كل العناصر التي من خلالها إعادة أبنية لغوية، أو تتابعات جمالية، أو غيرها داخل النص.^(١)

لتوضيح هذا المصطلح أكثر في كلام الامام الحسن عليه السلام نجد ذلك في قوله: «وأما أنت يا مغيرة بن شعبه! فإنك لله عدو، ولكتابه نابذ، ولنبیه مكذب وأنت الزاني وقد وجب عليك الرجم، وشهد عليك العدول البررة الأتقياء، فأخر رجمك، ودفع الحق بالأباطيل، والصدق بالأغاليط وذلك لما أعد الله لك من العذاب الأليم، والخزي في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، وأنت الذي ضربت فاطمة بنت رسول الله صلی الله علیه وآله حتى أدميتها وألقت ما في بطنها».

استعمل الامام عليه السلام العديد من الصيغ البديلة في هذا النص لتوضيح مراده للمتلقي منها الضمير المنفصل للمخاطب (أنت)، وضمير الغائب المتصل (الهاء)، والضمير المتصل للمخاطب (الكاف).

كل هذه الصيغ استعملها الامام عليه السلام لتكون بدلاً من أسماء لم يرد تكرارها لأغراض بلاغية منها الإيجاز والاختصار وتجنب التطويل، والابتعاد عن التكرار؛ لأنه يثقل ذهن السامع ويشتت انتباهه، وغيرها من الأغراض.

(١) التحليل اللغوي للنص، كلاوس برينكر، ترجمة: حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة،

ثالثاً: تداخل عناصر المتضمنات

تتماز عناصر المتضمنات في أغلب مواضعها بالتداخل فيما بينها، فيمكن أن تكون في موضع واحد مجتمعة في آن واحد، وهذا يعطي زحماً دلاليًا واسعاً لخطاب المتكلم، كما يعطي المتلقي وفرة كبيرة في فهم الخطاب الملقى وتوضيحه، وللوقوف على هذا المعنى أكثر نأخذ مثلاً من قول الإمام الحسن (عليه السلام): «وأنه والله لو كنت أنا وهؤلاء يا أزرق مشاويرين في مسجد رسول الله ﷺ وحولنا المهاجرون والأنصار ما قدروا أن يتكلموا به، ولا استقبلوني بما استقبلوني به».

يتضمن هذا النصّ عددًا من المتضمنات التداولية التي تجتمع فيها جميع عناصرها، ومن ذلك قوله (عليه السلام): «يا أزرق»، فهذه الكلمة تتضمن:

١. الافتراض السابق، حيث وصف الإمام صلوات الله عليه معاوية بالأزرق، أي المجرم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾^(١)، وكذا العرب تسمي العدو بالأزرق، وعداوة بني أمية لأهل البيت لا تخفى على أحد.

٢. القول المضمر، فالمتلقي عند تلقيه هذا الوصف من المتكلم ينتقل ذهنه إلى عدة احتمالات يتصورها ليتمكن من فهم مراد المتكلم وغرضه الأساس الذي دعاه لهذا الوصف، معتمداً على سياقات لغوية أو مقامية مكتنفة للخطاب، فيمكن أن يتصور أنه أراد:

(١) سورة طه: ١٠٢.

- التهكم من الموصوف.

- بيان لؤمه وخبثه.

- بيان لون بشرته غير المرغوب فيه.

وهكذا تبقى قائمة التأويلات مفتوحة بغية الوصول إلى مراد المتكلم الكامل.

٣. الاستلزام الحوارى، يمكن للمتكلم أن يستلزم عدة أمور من هذا الوصف منها أنه أراد أن يبين للآخرين عدم احترامه للموصوف وأنه غير مرغوب به.

٤. الإحاليات، هذا الوصف يحيل إحالة مقامية إلى خارج النص، أي إنه يحيل إلى شخص الموصوف (معاوية)، وهذا له دلالة تفيد انزعاج المتكلم من الشخص الموصوف بهذه الصفة.

٥. الإشارات، يشير هذا الوصف إلى شخص مشخص ومعروف للمتكلم والمتلقي.

٦. الصيغ البديلة، جعل المتكلم هذا الوصف بدلاً عن اسم الموصوف بهذه الصيغة.

اتضح من خلال هذا المثال أن هذه الصيغ يمكنها أن تجتمع على مثال واحد وبذلك تكون قد ساعدت المتكلم من توفير مساحة دلالية واسعة لقصده، ومن جانب آخر أعطت المتلقي وفرة في فهم الخطاب الملقى إليه بعمق وشمولية.

رابعاً: إسهام المتضمنات التداولية في اتساق النصّ

الاتساق هو أحد المعايير السبعة^(١) التي نادى بها (دي بوجراند)^(٢)، ويعتقد أنّ النصّ لا يتسم بالنصيّة إلّا إذا ضم سبعة معايير؛ ومن أهم هذه المعايير عنده، هما معيارا الاتساق والانسجام^(٣)، فهو يعرف الاتساق بأنّه: «يترتب على اجراءات تبدو بها العناصر السطحيّة على صورة وقائع يؤدّي السابق منها إلى اللاحق، بحيث يتيح لها الترابط الرّصفيّ»^(٤).

أما الباحثان (هاليداي، ورقية حسن)^(٥) فيعرّفان الاتساق على أنّه: «مفهوم دلاليّ، يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النصّ»^(٦).

(١) المعايير السبعة هي، الاتساق، الانسجام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية. (دي بوجراند، روبرت، النصّ والخطاب والاجراء، ترجمة، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ، ص ٣-٥).

(٢) وهو عالم أمريكي، أستاذ بجامعة فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية، المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) دي بوجراند، النصّ والخطاب والاجراء، ص ١٠٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٥) هاليداي، هو عالم بريطاني، ولد سنة ١٩٢٥م بانجلترا، حصل على شهادة الدكتوراه في اللسانيات الصينية من جامعة كامبرج، شغل منصب استاذ بجامعة لندن وغيرها من الجامعات، له عدة مؤلفات باللغة الإنجليزية وغيرها من اللغات.

أما رقية حسن، فتخرجت من جامعة ايدنبرغ، مارست التدريس في جامعات انجلترا، وأمريكا، ألّفت عدّة من الأبحاث في النصّ والسياق والدلالة، كما ألّفت كتابين بالتنسيق مع هاليداي. بلحوت، شريفة، طبيعة النصّ وعلاقته بسياق المقام، مجلة جامعة تيزي وزو، الجزائر، د.ت، ص ١٢٠.

(٦) الخطابي، محمّد، لسانيات النصّ، مرجع سابق، ص ١٥.

استناداً إلى ما سبق إنّ للاتساق وظيفتين الأولى الترابط الشكلي للنصّ، والثانية الترابط الدلالي الناتج عن الترابط الشكليّ، فكل جملة لها رابط اتساق مع الجملة التي تسبقها واللاحقة لها؛ ما يؤدّي إلى نوع من الترابط الدلاليّ الخاص.

ويكون الاتساق بواسطة أدوات تُنشئ علاقة بين التراكيب في الجملة الواحدة، أو بين الجمل المتعددة كما يظهر من تعريف (جون ماري) للاتساق بأنه مصطلح يشير «إلى الأدوات التي تؤسّس العلاقات المتبادلة بين التراكيب الشبه الجمالية، أو بين الجمل»^(١).

للقوف على معنى الاتساق أكثر نأخذ نموذجاً من كلام الإمام الحسن (عليه السلام): «فسبحان الله البيت بيتك والإذن فيه إليك! والله لئن أحببتهم إلى ما أرادوا إني لأستحيي لك من الفحش، وإن كانوا غلبوك على ما تريد، إني لأستحيي لك من الضعف، فبأيها تفر، ومن أيها تعتذر؟».

يتضمّن هذا النصّ عدداً من العناصر الاتساقية التي عملت بشكل واضح على إيجاد التلاحم بين مفردات النصّ على مستوى البنية السطحية للنصّ والبنية العميقة، فنجد تكرار العنصر الإحالي (كاف الخطاب) في عدة مواضع (بيتك، إليك، لك، غلبوك)، أدى مهمة أساسية في اختصار النصّ كما جنب المتكلّم من تكرار الاسم (معاوية)، وإن اضطر إلى تكرار حرف الخطاب إلّا أنّ تكراره أخفّ على ذهن السامع من تكرار الاسم، كما أعطت جانباً دلاليّاً يستفاد من السياقات التي اكتنفت الخطاب من أنّ المتكلّم لا يريد ذكر اسم المخاطب ويحاول الابتعاد عن ذلك؛ لوجود علاقة متناقضة بينهما؛ لأنّ معاوية لا يتغير سلوكه المنحرف رغم توارد المتغيرات عليه وتقادم الزمن وهذا يتناسب

(١) العلامة وعلم النصّ، جون ماري سشايغر، ترجمة، منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، المغرب، ط ١، ٤-٢ م. ص ١٣٢.

وما تمتاز به الكاف بالعربية فإنّها تقع مجرورة ومنصوبة، للمفرد والمؤنث المخاطبين^(١)، ومع ذلك لا تتغير.

وهكذا بقية عناصر الاتساق الأخرى في النصّ، فإنها تعمل جميعها على إيجاد الترابط الأفقي للبنىات والتتابعات الجمليّة وتعمل على الترابط العمودي للبنىات العميقة الدلاليّة للنصّ.

فالاتساق على وفق العرض السابق لا يخرج معناه الحقيقي من كونه بناءً مقالياً يضع الوحدات اللغوية البسيطة المفردة في علاقة تجاور، فيجعلها متتابعة في سياق خطّي تتابعي في وحدات لغوية، ولا يقف مفهوم التجاور أو التتابع عند هذا الحد، بل إنّهُ يتضمن الصلات الدلاليّة المقاليّة كذلك^(٢).

(١) المقتضب، محمد بن يزيد المبرد، تحقيق، محمد عبد الخالق عظيمه، وزارة الاوقاف، القاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ، ج١، ص٣٩٨.

(٢) نحو نظرية أسلوية لسانية، فيلي سانديرس، ترجمة خالد جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ، ص١٢٧.

خامساً: جذور المتضمنات التداولية في التراث العربي

رغم أنّ مصطلح (المتضمنات التداولية)، لم يرد في التراث العربي بهذا التعبير نفسه، إلاّ أنّه موجود في كثير من التعابير من حيث الوظيفة والمضمون، بل في بعض هذه التعابير والمفاهيم تقدم على هذا المصطلح من حيث العمق الفكري اللغوي، ومن تلك المفاهيم:

الإضمار، والحذف، والمسكوت عنه، أو طي ذكر المسند إليه، وغيرها من المفاهيم الشاملة لوظيفة متضمنات القول.

فالحذف في اللغة العربية صار منهجاً يقتفيه فحول البلاغة والبيان؛ للإيجاز والاختصار حتى اشتهر بينهم «البلاغة بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب»^(١)، والإيجاز في اللغة العربية سمة أساسية قوامه الحذف.

لذلك أكّده علماء العربية واهتمّوا به وعدّوه نوعاً من الكلام الشريف الذي لا يأتيه إلاّ فرسان البلاغة^(٢).

ومن الواضح أنّ الحذف هو كلام متضمّن في القول حذفه المتكلم وأعرض عن ذكره لعلّة هو يراها، وأمّا الإضمار كذلك هو ضرب ممّا يتضمّنه القول، والمتكلم يعوّل

(١) كتاب «الصناعتين»، أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٣٧١هـ، ص ١٧٤.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ص ٦٨.

على ذكره سابقاً فيضمّره، و غير ذلك كثيرة المسوغات التي تدعو المتكلّم للإضمار.

وعلماء العربية اهتمّوا بتحديد المضمرات وتتبع مواضعها كما في الحذف، فمواطن الاضمار كثيرة في النحو العربي، كإضمار الفاعل أو أسماء النواسخ أو أخبارها أو غيرها من مواطن الاضمار المليء بها النحو العربي.

كما أنهم فرّقوا بين الاضمار والحذف ومنهم ابن القيم الجوزي يقول في ذلك: «المضمر هو المستتر، فهو مضمر في النية مخفي في الخلد، والإضمار هو الإخفاء فإن قيل: فهلاً سمّوا ما حذفوه لفظاً وأرادوه نيةً مضمرّاً مثل العائد في قولك: الذي رأيت زيد، وما الفرق بينهما وبين (زيد قام) قيل: الضمير في (زيد قام) لم ينطق به ثم حذف، ولكنّه مضمر في الإرادة ولا كذلك المحذوف للعلم به؛ لأنّه قد لفظ به في النطق ثم حُذف تخفيفاً، فلمّا كان قد لُفّظ به ثم قُطع من اللفظ تخفيفاً عبّر عنه بالحذف، والحذف هو قطع الشيء»^(١).

وأما طيّ ذكر المسند إليه أو المسكوت عنه فهو كلام متضمّن في القول، إلّا أنّ المتكلم طوى ذكره معولاً على أنّ «السامع مستحضرّاً له، عارفاً منك القصد إليه»^(٢)، والمسكوت عنه مصطلح قديم في التراث العربيّ استعمله النحاة والبلاغيون، والأصوليون، والمفسرون.

والمسكوت عنه يشترك مع الحذف والإضمار في الدواعي التي تجعل المتكلم يعمد إلى طيّه وعدم ذكره أو حذفه وإضماره ومن تلك الدواعي:

(١) بدائع الفوائد، محمد بن بكر بن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، ط ١، عالم الفوائد، ٤٠٠٤م، ج ١، ص ٢١٥-٢١٦.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكي، ضبطه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، ص ١٧٦.

١. الاختصار وعدم التطويل.

٢. التعظيم، أي إظهار عظمة المتكلم عنه.

٣. التحقير، أي إظهار قبح المتكلم عنه والترفع عن ذكره.

٤. الإيجاز والتخفيف من الذكر؛ لكثرة دورانه في الكلام.

٥. ضيق المقام عن الذكر.

٦. الاحتراز عن العبث في الذكر؛ لعدم الحاجة إليه.^(١)

وغير ذلك من الدواعي التي تدعو المتكلم إلى عدم الذكر؛ لاقتضاء سياق المقام لها فيوظفها المتكلم كاشفاً عن براعة في الخطاب وإمساكه زمام البلاغة.

أمّا وجه افتراق التعابير الثلاثة (الحذف، والإضمار، والمسكوت عنه)، فيما بينها فهو أنّ الحذف هو ذكر بعد إسقاط، أي أنّ المتكلم يذكر لفظاً ما ثمّ يسقطه من القول.

وأما الإضمار فهو عدم الذكر وإنما هو إضمار في نيّة المتكلم اعتماداً على فهم المخاطب له ومعرفته بمراد المتكلم كأن يُتكلم عن محمد فيقال عنه: أنّه نائم، فالفاعل لاسم الفاعل (نائم)، لم يذكره المتكلم وإنما أضمره المتكلم في خلدته فلم يحصل حذف ولا إسقاط بل من أوّل الأمر المتكلم أضمره.

أما المسكوت عنه فإنه يختلف عن المفهومين السابقين؛ وذلك أنّ المتكلم لم يسقط ولم يضمّر في نيّته شيئاً، وإنما أعرض عن تلك الحادثة المستلزم لها قوله ومن هذا القليل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، بيروت، ١، ١٣٧٦هـ، ج ٣، ص ١٠٦-١٠٧، وينظر: مفتاح العلوم، السكاكي، مصدر سابق، ص ١٧٦.

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١﴾ فالآية الكريمة تدل على حلية أكل ما صاده كلب الصيد، وجاء الخطاب فيها متجاهلاً لما أمسكه الكلب «ولم يأمر بغسل ما أصاب فمه.... وإباحة الأكل لا يستلزم أكل ما مسّه فمه ولا ترك الغسل» بل هما مسكوت عنهما لعلم المخاطب بالحكم مسبقاً؛ لأنّ الآية المباركة ليست بصدد بيان هذا الحكم وإنما هو متضمّن في الكلام ومفهوم لدى السامع لإقراره مسبقاً.

فمفهوم الاضمار والحذف والمسكوت عنه هي من أهمّ المفاهيم في التراث العربيّ التي تقوم بوظيفة نظريّة (المتضمنات التداولية)، بل تزيد عليها عمقاً في جميع جوانب ومستويات الكلام، وهذه المفاهيم نجدها تمتدّ في أغلب ميادين اللغة من نحو وصرف وبلاغة، كذلك العلوم الدينيّة كال تفسير وأصول الفقه والمنطق.

خلاصة البحث

خلصت الدراسة إلى تقديم عرض تحليلي لنماذج مختارة من كلام الإمام الحسن (عليه السلام)، معتمدة على أسلوب وطريقة غير مألوفة في ساحة التراث الإسلامي؛ لكونها أنتجت بأدوات جديدة، إلا أنها على الرغم من ذلك لم تبتعد عن روح التراث ومسار العقيدة الحقة.

كشفت الدراسة مدى قدرة الدراسة التداولية على سبر أغوار الدلالة وبيان مضامينها الخفية اعتماداً على السياقات اللغوية والمقامية.

كما استطاعت الدراسة أن تبين امتلاك الخطاب العربي الأصيل (المتمثل بكلام الإمام الحسن (عليه السلام))، مفاهيم تداولية تمثل أساساً ومرتكزاً يتيح للباحثين الانطلاق منه لتأسيس قواعدهم وتأصيلها.

أبرزت الدراسة أهم المفاهيم التداولية لمتضمنات القول، حيث فاقت أغلب الدراسات من حيث تسليط الضوء على هذه النظرية والتركيز على جمع شتات مرتكزاتها الأساس المتمثلة:

١. الافتراض السابق، أو المسبق.

٢. الأقوال المضمرة.

٣. الاستلزام الحوارية.

٤. الإحاليات.

٥. الاشارات.

٧. الصيغ البديلة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ضياء الدين ابن الاثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط ٢، ١٤٠٣هـ.
- ابن منظور، لسان العرب، الناشر: أدب الحوزة، قم المقدسة، ١٤٠٥هـ.
- أبو هلال العسكري، كتاب «الصناعتين»، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٣٧١هـ.
- أحمد بن علي الطبرسي، الاحتجاج، تعليقات، محمد باقر الخراسان، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ١.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبدالسلام هارون، الناشر المكتب الإعلامي الإسلامي، قم المقدسة، د. ط، ١٤٠٤هـ.
- إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق، أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ.
- أ. مولتر - ك - زيلمان - ك، اور يكيوني، في التداولية المعاصرة والتواصل، ترجمة: محمد نظيف، افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠١م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق، مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة، ط ٢، ١٤١٠هـ.
- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية، بيروت، ط ١، ١٣٧٦هـ.
- الحسن بن سليمان بن محمد الحلي، المختصر، تحقيق: علي أشرف، المكتبة الحيدرية، ط ١ - ١٤٢٤هـ.
- السكاكي، ضبطه: مفتاح العلوم، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ.

- العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، المطبعة مهر، قم المقدسة، ط ١، ١٤١٤هـ.
- العياش أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان، المغرب العربي، ط ١، ٢٠١١م.
- الفقي صبحي إبراهيم، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، د. ط ١، ٢٠٠٠م.
- آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت.
- آن روبول، وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م.
- جاك موشلر، وأن روبول، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين، المركز الوطني للترجمة، تونس، ط ٢، ٢٠١٠م.
- جون ماري سشايفر، العلاماتية وعلم النصّ، ترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، المغرب، ط ١، ٢٠٠٤م.
- روبرت دي بوجراند، النصّ والخطاب والاجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ.
- عبد العزيز العماري، قضايا لسانية، مطبعة سندي مكناس، الجزائر، ط ١، ٢٠٠٠م.
- عزة شبل محمد، علم لغة النصّ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ.
- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط ١، ٢٠٠٧م.
- فيلي سانديرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة خالد جمعة، المطبعة العلمية، دمشق، ط ١، ١٤٢٤هـ.
- كاثرين كيربرات أوريكيوني، المضمّر، ترجمة: ريتا خاطر، الناشر: المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
- كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنصّ، ترجمة: حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط ٢، ١٤٣١هـ.
- مبارك المبارك، معجم المصطلحات الألسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.

- ماري نوال، عبد القادر الشيباني، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، الناشر سيدي بلعباس، الجزائر، ط١، ٢٠٠٧م.
- محمد بن بكر بن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، ط١، عالم الفوائد، ٤٠٠٤م.
- محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق، محمد عبد الخالق عزيمة، وزارة الاوقاف، القاهرة، ط٣، ١٤١٥هـ.
- مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- مها خيربك ناصر، اللغة العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي، مجلة التراث العربي.

مَوْضُوعِيَّةُ الْمَنْظُومَةِ الْخِطَابِيَّةِ

عِنْدَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أ.م.د.

رَحِيمُ كَرِيمٍ عَلِيٍّ الشَّرِيفِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خَصَّ محمداً بالرسالة والنبوة، وأنار على يديه دروب البرية، وقادهم إلى المحجة البيضاء، وصلى الله على المخاطب بالقرآن صاحب المنظومة السنية العلية نبينا محمد ﷺ، وعلى آله موضوع العصمة والطهارة والرشاد، وعلى صحبه الكرام المخلصين.

وبعد، فإنَّ البحث سيتناول جَنبةً عظيمة القدر، جليلة الوقع من جنبات الإمام الناصح أبي محمد (الحسن بن علي) ﷺ العظيمات التي تتصل بترائه الفكري عامة - والتي نخال أنها تمثل العتبة الأولى من عتبات ترائه - ألا وهي (موضوعية المنظومة الخطابية) عنده ﷺ.

إنَّ المتدبر في تراث الإمام الحسن ﷺ بمراقب التأمل ومنظار التدبر يجد المنهجية الموضوعية، والعقلانية الرشيدة، والحجج المنطقية المنظمة وغيرها في منجزه الخطابي.

وهذا البحث يمثل أيضاً معلماً من معالم البحث الفكري لدى الإمام الحسن ﷺ، وجزئية من جزئيات البناء الخطابي لديه ﷺ، هذا البناء الذي يُعدّ مكنزاً كشفياً يضطّم على حقائق عظيمة المضمون، وقوادح عالية البيان^(١).

وسيقدحُ البحث بحزمة من الأفكار، والقبسات، والشذرات من لبنات تراث الإمام الحسن ﷺ، يأملُ كاتبُ هذه السطور من الباحثين الأكارم أن يقتنصوها، ويفيدوا منها علّهم يوسعون هذه الدوائر، ويشطّون البؤر - التي نحسبُ أنّها لم تتوسّع،

(١) هذا البحث يتنظم ضمن مشروع علمي يعكف الباحث على إتمامه - إذا شاء الله - والموسوم به (فهم الخطاب الديني بين الحسن بن علي ﷺ ومناوئيه).

ولم تتشظَّ -.

عندما نَسْبُرُ غور الموضوعية في منظومة الخطاب الحسني، نجعلها في قبال الذاتية والمعياريّة اللتين تلتزمان بالفردية، والنظرة إلى قيمة الأشياء من دون بيان قيمتها، وقد فرق المفكر محمد عابد الجابري بين هاتين الشيمتين، فالذاتية والمعياريّة نظرة اختزالية، أما الموضوعية، فهي نظرة تحليلية تركيبية تحلل الأشياء إلى عناصرها الأساسية؛ من أجل إعادة بنائها بشكل يُرْزُ ما هو جوهرى منها^(١).

وعلى وفق هذا الفهم المراد ليس دأب البحث الحديث عن الموضوعية بوصفها مصطلحاً بلاغياً يتساق ويطاشى مع مصطلح الفنية، بوصفها من لوازم النصوص والأجناس الأدبية كالخطبة، والرسائل، والأدعية، والمناظرات، والكلمات الحكمية القصار وغيرها.

واقترضت هيكلية البحث - بحسب المادة المجموعة - أن يكون في ثلاثة مطالب، وهي:

- الأول: أثر البيئة الاجتماعية في المنجز الخطابي عند الإمام الحسن عليه السلام.
 - الثاني: آليات المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام.
 - الثالث: أسس موضوعية المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام.
- وهذا أوان الشروع في:

(١) ينظر: تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري: ٣٢.

المطلب الأول:

أثر البيئة الاجتماعية في المنجز الخطابي عند الإمام الحسن عليه السلام.

لا يخفى على البصير أنَّ البيئة الاجتماعية لها أثر في كيان الإنسان وتصرفاته، وأقواله، وأنَّ المنظومة الفكرية المتمثلة بأفعاله وأقواله لتتناسب مع إرهاصات البيئة وتمثلاتها المتنوعة، وهو أمر عقلي ومنطقي ترنو إليه النفوس الواعية المطمئنة.

إنَّ التأمل العميق في المنظومة الفكرية للإنسان يرى أنها انعكاس أفكار، وتأثر النفس مع أحداث الحياة، يقول إحسان عباس: «وكَلِّما كانت السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة، أو منعكسة فيها، أو متأثرة بها، فإنَّ السيرة في هذا الوضع تحقِّق غاية تاريخية، وكلِّما كانت السيرة تجتزئ بالفرد وتفصله عن مجتمعه، وتجعله الحقيقة الواحدة الكبرى، وتنظر إلى كلِّ ما يصدر عنه نظرة مستقلة فإنَّ صلتها بالتاريخ تكون واهية ضعيفة»^(١).

ولم يكن الإمام الحسن عليه السلام بدعاً من غيره، فقد اتَّجه في خطابه إلى الحياة الإنسانية، وما تزخر بها من شعور، وآلام، فكان عليه السلام واعياً وباصراً بالبيئة التي تحيط به بتمثلاتها كلّها وفاقاً لنظرة موضوعية تعتمد على الاستدلال والبرهان لا الحدس والوجدان، واللَّدنية والاكْتساب والجهْد وهي من لوازم الموضوعية بخلاف الفطرة والارتجال اللتين من لوازم الذاتية.

إنَّ البياني الذي يصطدم ببيئته الاجتماعية، ويتفاعل معها يُعدُّ أنموذجاً متجدداً

وفعلاً للكشف عن أسرار الفن القادر على التخطّي، والتجاوز.

ونقطع جازمين أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) منذ الوهلة الأولى قد كشف النقاب عن حقيقة البيئة الاجتماعية التي تحيط به، فهي بيئة متلجلجة لا تستقر على أرضية إيمانية صلبة، ولا تستند على جدار حصين من الفهم الإسلامي الصحيح؛ لذلك عمل (عليه السلام) لحظة تسنمه الخلافة إلى التعريف بنفسه لكونه قد جمع الكمالات الإنسانية كلّها، واحتشدت فيه الفضائل التي نالها من كتاب الله (تعالى)، ومن جده المصطفى (صلى الله عليه وآله)، ومن أبيه أمير المؤمنين علي (عليه السلام)؛ لأنه يعلم فساد المجتمع وانحطاطه، فعملية الإصلاح الشامل لا بد لها من مصلح عظيم معروف نسبته، محمود سيرته، محبوب لدى الناس، قال (عليه السلام) من خطبة بعد استشهاد أبيه (عليه السلام): «أيّها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي، وأنا ابن الوصي، وأنا ابن البشير، وأنا ابن النذير، وأنا ابن الداعي إلى الله والسراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل فينا، ويصعد من عندنا»^(١)، فالإمام (عليه السلام) أراد أن يعيد المجتمع الى وعيه في ضوء تعريفهم بأنه من شجرة النبوة، ومعدن الرسالة، بعد أن فقدت الأمة إتجاه البوصلة الصحيح.

لقد درس الإمام الحسن (عليه السلام) المجتمع دراسة وافية، مبيناً أنه مجتمع مريض شكّاك لا يفرّق بين الخير والشرّ، وبين المفسد والمصلح، وبين الإمام الحقيقي والإمام المزيف، وبين الجبهة الإسلامية الرسالية الصحيحة، وبين الجبهة المحطّمة والمدمّرة للإسلام، ومن هنا جاء خطاب الإمام الحسن (عليه السلام)؛ لبيّن المسار الصحيح، وكونه الإمام الحقّ - إمام الهداية والرشاد - مشيناً على المرجعية الدينية الأصلية الثابتة - مرجعية جدّه (صلى الله عليه وآله)، ومرجعية أبيه علي (عليه السلام)؛ تأمل في خطابه (عليه السلام) - وهو يخاطب أصحابه - «وأحذرکم

الإصغاء لهتاف الشيطان فإنه لكم عدوٌّ مبین فتكونون كأوليائه»^(١)، ولا يخفى أنَّ المراد بهتاف الشيطان الجبهة المناوئة المحطمة للإسلام والإيمان، وقد جاء الخطاب مكشوفاً في قوله ﷺ: «فليتعجب المتعجب من توثبك يامعاوية، على أمرٍ لست من أهله لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابنُ خربٍ من الأخراب، وابنُ أعدى قریش لرسول الله ﷺ، ولكتابه»^(٢).

ويبدو في ضوء استقرار المنجز البياني، والتراث العلمي للإمام الحسن ﷺ من جهة، وطبيعة المجتمع الإسلامي المعيش فيه الإمام الحسن ﷺ، أنَّ المجتمع قد أصيب بجملة من الأمراض الاجتماعية، منها:

أ. ضعف البناء الاجتماعي.

ب. البعد عن القيم الروحية.

ج. غياب العقل.

د. موت الإرادة.

هـ. حبّ الدنيا وشهواتها وملذاتها.

و. الخوف من المستقبل.

ز. قلب الحقائق.

وهذه الأمراض مردّها طبيعة المجتمع الكوفي - هذا المجتمع المختلف تركيباً، والمتباين مذهباً، والمختلف قومية، والمتنوع قلياً، والمتفاوت طبقة^(٣) - وفي ظل هذا

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: ٣ / ١٠ - ١١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٣ - ٣٤.

(٣) ينظر: موسوعة المصطفى والعترة (الحسن المجتبي): حسين الشاكري ٥ / ١٧٨ - ١٧٩.

التباين الذي تعيشه الكوفة على المستويات كافة، فإنَّ الأوضاع فيها كانت مرهقة ومتعبة، وكانت متفرقة ومتشتتة، فأخذ الإمام الحسن عليه السلام يعمل بجدٍّ وإخلاص وعناية من أجل إصلاح دولته، وإحكامها، وصيانتها.

إنَّ الحسن عليه السلام أراد أن يقوي الوحدة، ويوثقها في نفوس أفراد المجتمع لاسيما بعد أن خيم الشك على الفرد المسلم آنذاك فأراد معالجة أسبابه، وإنعاشه من جديد، فالظروف التي يمر بها المسلمون في العراق كانت ظروفًا نفسيةً، والمجتمع محطَّم من جهة التعايش والتسامح، زد على ذلك وجود فراغات فكرية ونفسية واضحة وكبيرة، فكانت دعوته ملحة في الوحدة والتآلف والمحبة، وأراد الإمام كذلك أن يُبعد الأمة عن شبح موت الإرادة، وموت القيم الإنسانية العليا^(١).

وعَى الإمام الحسن عليه السلام الأحداث المحيطة بالمجتمع من جهة، والمحيطه به من جهة أخرى، فكان قارئاً واعياً للمشهد السياسي والاجتماعي ومفكراً بارعاً في الإحاطة بنزعات النفوس وتخالجاتها، فالقراءة السايكلوجية الحاذقة للمجتمع عامة، ولخصومه ومناوئيه خاصة جعلته يصوّب سهام خطابه بصورة دقيقة في أغراض فهم المجتمع والمناوئين من دون أن يخطئها، وهنا يكمن سرُّ عظمة الخطاب الحسيني البياني، وتجاوزته الحدود الظاهرية، وانسيابه وجريانه إلى حجاج القلوب، فلا مَعْدَى من أن يتلَوْنَ الخطاب الحسيني بمراقب هذه البيئة، فنجد خطابه معقولاً يدعو إلى التوحيد، والالتزام بمبادئ الإسلام الصحيح، وعدم الانحراف والعودة إلى الفهم الصحيح للإسلام، والتمسك بالقيم والتعاليم الإسلامية النبيلة الصحيحة، وفي قبال ذلك نجد خطاباً حسنيّاً لا معقولاً كشف فيه عليه السلام انحراف المناوئين، وشططهم وابتعادهم عن خط الإسلام الصحيح، وإضلّاهم الناس، لقد استطاع عليه السلام أن يصور مناوئيه الذين

(١) ينظر: أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية: محمد باقر الصدر: ٢٤١.

عاصرهم بأنهم شخصيات متزاحمة على الدنيا، وغير ملتزمة بحدود الشرع المقدس؛ لذلك جاء الخطاب الحسيني قائماً على النظرة التحليلية العميقة لمجتمعه عامة ولأعدائه وأصحابه خاصة، جاء في أمالي الشيخ المفيد (ت ١٣٤٤هـ)، قال بعد ذكره سلسلة السند: «سمعت أبا محمد بن عليّ عليه السلام يخطب الناس بعد البيعة له بالأمر: نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ في أمته، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان فإنه لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه فتلقون إلى الرماح وزراً، وإلى السيوف حرزاً، وللعمد خطماً، وللسهام غرَضاً»^(١).

رأى الإمام الحسن عليه السلام أصحابه كأعجاز نخل خاوية وكأخشاب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم العدو، أصحاب عقيدة متزلزلة لم يلجؤوا إلى ركن وثيق، تأمل الخطاب الحسيني يوم خروج الإمام الحسن عليه السلام من الكوفة إلى مدينة جدّه عليه السلام بعد إبرام الهدنة مع معاوية: «أنتم شيعتنا، وأهل مودتنا، فلو كُنْتُ بالخزم في أمر الدنيا أعمل لسلطانها، وأنصب ما كان معاوية بأبأس مني بأساً ولا أشد شكيمة، ولا أَمْضَى عزيمة، ولكن أرى غير ما رأيتم وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء فأرضوا بقضاء الله، وسلّموا الأمر، والزموا بيوتكم وأمسكوا أيديكم حتى يستريح برّ، ويستراح من فاجر»^(٢).

واسمع خطابه الصادق بعد هدنته وسلّمه مع معاوية مبيّناً أسبابه عفو الخاطر بلا تكلف ولا تصنع كاشفاً النقاب عن تقهقر الإرادات، وضعف النوايا، وتهافت القيم، متحملاً من قومه وأصحابه ما لم تتحملة الجبال الراسيات، فلم يستوعب هؤلاء

(١) أمالي الشيخ المفيد: المفيد: (المجلس ٢١ الحديث ٤): ٣٩٨، وينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر: المسعودي: ٣/ ١٠ - ١١.

(٢) أنساب الأشراف: البلاذري: ٣/ ٢٥٩.

الصدمة وعظمة الفتنة، فانبروا كلاً على شاكلته، قال عليه السلام: «فقد مات والله جدّي رسول الله ﷺ، وقتل أبي ﷺ، وصاح الوسواس الختّاس في قلوب الناس، ونعق ناعق الفتنة، وخالفهم السنة، فialها من فتنة صمّاء عمياء لا يسمع لداعيها، ولا يجاب منادياها، ولا يخالف وإليها ظهرت كلمة النفاق، وسيّرت رايات أهل الشقاق، وتكالت جيوش أهل الرّاق من الشام والعراق، هلمّوا - رحمكم الله - إلى الافتتاح، والعلم الجحجاح، والنور الذي لا يُطفئ، والحقّ الذي لا يُخفى، أيها الناس، تيقّظوا من رُقدة الغفلة، ومن تكاثف الظلمة، فوالذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، وتردّى بالعظمة لئن قام إلي منكم عصبة بقلوب صافية، ونيات مخلصّة لا يكون فيها شوبٌ نفاق، ولا نية افتراق، لأجاهدنّ بالسيف قدماً قدماً، ولأصيّنّ من السيوف جوانبها، ومن الرماح أطرافها، ومن الخيل سناكبها، فتكلّموا يرحمكم الله»^(١)، وقال طه حسين: «ومهما يكن من ذلك فقد سخط على الحسن جماعة من أصحابه الذين أخلصوا له، ولأبيه، وأخلصوا في بغض معاوية وأهل الشام، ورأوا في هذا الصلح نوعاً من التسليم لم يكن يلائم ما بذلوا أيام عليّ من جهد، ولم يكن يلائم كذلك ما كان في أيديهم من قوة، فمنهم من كان يقول للحسن: يا مدلّ المؤمنين، ومنهم من كان يقول له: يا مدلّ العرب، ومنهم من كان يقول له: يا مسوّد وجوه العرب، ولكنّ الحسن لم يحفل بشيء من ذلك وإنّا رضي عن خطبته كلّ الرضا فرأى فيها حقناً للدماء، ووضعاً لأوزار الحرب، وجمعاً لكلمة الأمة، وتمكيناً للمسلمين من أن يستقبلوا أمورهم مؤتلفين لا مختلفين، ومتفقين لا مفترقين»^(٢)، وقد جابه الإمام الحسن عليه السلام كلاماً من المنددين بالهدنة والسّلم أشد عليه من وقع الحسام المهتدّ، فقد رأى منهم غلظة في القول وقسوة في الحديث، وجفاء أي جفاء»^(٣).

(١) بحار الأنوار: المجلسي: ١٠ / ٢٢١.

(٢) الفتنة الكبرى: ٢ / ١٨٥ - ١٨٦.

(٣) ينظر: حياة الإمام الحسن بن عليّ عليه السلام: باقر شريف القرشي: ٢ / ٢٦٩.

إنَّ جَسَامَةَ الْأَحْدَاثِ، وَفِدَا حَةَ الْخُطُوبِ الَّتِي وَاجَّهَهَا الْإِمَامُ الْحَسَنُ عليه السلام جَعَلَتْهُ عليه السلام مِنْ جِهَةٍ، وَالْبَيْئَةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ الْمُضْطَّرِبَةُ لِلْمَجْتَمَعِ غَيْرُ الْقَائِمَةِ عَلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، أَنْ يَقْدَمَ لَنَا مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّصُوصِ شَكَّلَتْ مَا نَسْمِيهِ بِالتَّرَاثِ الْأَدْبِيِّ وَالْفِكْرِيِّ لَدَيْهِ عليه السلام فِي مَجَالَاتٍ مَعْرِفِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، فَجَاءَ خُطَابُهُ مَتَلَوَّنًا، وَمُتَنَوِّعًا، فَتَلَمَّحَ الْخُطَابُ الْإِنْسَانِي، وَالتَّرْبَوِي، وَالْأَخْلَاقِي، وَالسِّيَاسِي، وَالْقِيَمِي، وَالْعَقْدِي وَغَيْرَهَا، فَضِلَّا عَنْ ذَلِكَ تَعَدَّدَ مَوْضُوعَاتُ أَدْبِهِ (الْخُطْبُ، وَالرِّسَالُ، وَالْأَدْعِيَّةُ، وَالْمَنَاظَرَاتُ، وَالْكَلِمَاتُ الْحِكْمِيَّةُ الْقَصَارُ، وَالْمُرُويَاتُ وَغَيْرَهَا)، زِدْ عَلَى ذَلِكَ نَقْدَحَ بِفَنِيَّةِ الْخُطَابِ لَدَيْهِ وَجَمَالِيَّتِهِ فِي ضَوْءِ تَشَكُّلِ الْأَنْسَاقِ الْخُطَابِيَّةِ، وَتَعَدَّدِ أَنْمَاطِهَا.

المطلب الثاني :

آليات المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام.

قبل الشروع في الكشف عن آليات المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام، نقول: إن الحاجة تقتضي اليوم إلى دراسة تراث الإمام الحسن عليه السلام في ضوء الأبحاث والدراسات التحليلية التي تعتمد على المناهج التحليلية واللغوية والتاريخية، وأنَّ عملية جمع تراثه لا تكفي لمعرفة موضوعية المنظومة الخطابية عنده عليه السلام في محتواه ما لم يتمَّ تحليل نصوص هذا التراث ومظاهره، وصياغة رؤاه بطرائق المناهج الحديثة.

إن هذه الدراسات والأبحاث التحليلية تأخذ بفكره عليه السلام إلى مواقع متقدمة لسبر أغواره، والتنقيب في كنوزه، من أجل أن يأخذ موقعه المتألق في ثقافتنا الجديدة التي بنا حاجة إليها لضبط حركتنا المعرفية والعملية على هداها، ونسترشد بإبداعات هذا التراث الحسني وأدبياته في توجيه حياتنا المعاصرة التي تشهد انقطاعاً جزئياً عن هذا التراث^(١).

وإذا تفحصنا تراث الإمام الحسن عليه السلام نراه موزعاً بين أن يكون نصوصاً شفاهية تتمثل في خطبه التي ألقاها، أو كتابية تتمثل في رسائله التي دارت بينه عليه السلام، وبين معاوية، وقد تكون نصوصه وصايا أو حكماً أجاد بها لسانه الشريف^(٢).

إن المهمة التي كان يجب أن يقوم بها الحسن عليه السلام توصف بالصعبة والمعقدة، والبعيدة

(١) ينظر: دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام: يوسف مدن: ١٢.

(٢) ينظر: الإنسانية المثالية عند الحسن بن علي عليه السلام: رحيم الشريف: ١٥١.

المدى، وملأى بالمخاطر والعقبات، فكان البيان الخطابي حاضراً، وأخذاً موقعه في إزالة تلکم العقبات، وتوجيه مسيرة الأمة نحو الطريق الآمن، والعدل المخطط له.

إنَّ الإمام الحسن عليه السلام ترك لنا نصوصاً تتحدَّى الزمن، محشداً الآليات والطاقات التعبيريَّة، والشحنات الضاغطة التي تفجر في الموتى الحياة، وفي الطين الروح، فكلَّ ما يروحُه أن يعود الناس إلى التأمل في سرِّ الخلق، ومعرفة الصحيح من السقيم، وعدم الذوبان في المادية الفانية.

ومن أهم الآليات التي وظَّفها الإمام الحسن عليه السلام في منظومته الخطابيَّة:-

أولاً: الاستدلال بالقرآن الكريم:

تُعَدُّ آليَّة الاستدلال والاستشهاد بالنصوص من الآليات المهمة التي يتكئ عليها البياني؛ لأنها تمثل تناصّات مضيئة في النصّ من جهة، ودعائم قويّة للخطاب البياني من جهة أخرى، ولما كان الحسن عليه السلام سبط سيّد البيانيين محمد عليه السلام، وابن خير المتكلمين بعد الله ﷻ، ورسوله المصطفى ﷺ، فقد أفاد من الخطابات القرآنية أيّما فائدة.

لقد امتاز الخطاب القرآني المعجز بمفاهيمه العقلية، وأساليبه البيانيّة التعبيريّة، التي تستولي على نفوس المخاطبين، وتمتلك مشاعرهم بما لها من احتجاجات جمعت بين الدلائل النفسية والشعورية والآيات الآفاقية في توكيد العقائد والشرائع السماويّة ونقض ما عداها في ضوء منظومة استدلالية برهانية متكاملة الأبعاد، فالتأمل بكتاب الله المجيد تأسره مظاهر الاستدلال الذي يسخر هذا الوجود بأكمله ويوظّفه ويقدمه للإنسان المخصوص بخطاب القرآن متناسباً مع جِلَّتْه؛ سعيّاً في البناء النفسي والسلوكي، وصناعة الأنموذج المثالي في وعيه لنفسه وإدراكه لما حوله في هذا الوجود سواء أكان منه، أم ما هو كائن، وما سيكون - ولو بعد حين -^(١).

(١) ينظر: مظاهر الاستدلال في القرآن الكريم (مظاهر المباني الاستدلالية) (بحث): محمد محمود

لقد أبان الحسن عليه السلام عن مقدرته البيانية التفسيرية في ضوء تفسيره القرآن بالقرآن - الذي يراده -: «بيان الآيات القرآنية وإيضاح مضامينها من خلال الاستعانة بالآيات القرآنية الأخرى والاعتماد عليها»^(١)، قال الأربلي (ت ٦٩٢هـ) : «روى الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي رحمته الله في تفسيره الوسيط ما يرفعه بسنده أن رجلاً قال: دخلت مسجد المدينة، فإذا أنا برجل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والناس حوله، فقلت له: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾^(٢) فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزته إلى آخر يحدث فقلت له أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتها إلى غلام كأن وجهه الدينار وهو يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فقلت: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فقال: نعم، أما الشاهد، فهو محمد صلى الله عليه وآله، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٤)، فسألت عن الأول؟ فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني؟ فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث؟ فقالوا: الحسن ابن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان قول الحسن أحسن»^(٥).

وقد وصف الحسن عليه السلام كتاب الله تعالى الأكبر بأنه مصدر الهداية وجماع الفضائل والشمائل، وطريق الهدى والرشاد، بقوله: «ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتخذوه

عبود زوين: ١٦.

(١) إطلالة على منهج تفسير القرآن بالقرآن (بحث) : فالج الموسوي: ٣٢٦.

(٢) سورة البروج: ٣.

(٣) سورة الاحزاب: ٤٥.

(٤) سورة هود: ١٠٣.

(٥) كشف الغمة في معرفة الأئمة: الأربلي: ١ / ٥٠٩ - ٥١٠، وينظر: الفصول المهمة في معرفة

أحوال الأئمة عليهم السلام: ابن الصباغ المالكي: ١٤٧.

إماماً يدلُّكم على هداكم، وإنَّ أحقَّ الناس من عمل به وإنَّ لم يحفظه، وأبعدهم من لم يعمل به وإنَّ كان يقرأه»^(١).

وقال ﷺ في نصِّ آخر يصف القرآن وصفاً جميلاً: «إنَّ هذا القرآن فيه مصابيح النور وشفاء الصدور فليجلَّ جال بضوئه، وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»^(٢)، وفي ضوء النصين يمكن بيان أهم النقاط الجوهرية، وهي:

١. إن القرآن كتاب مقدس مهم في حياة المسلمين، وهو ذخيرتهم الروحية، والعقدية، والأخلاقية والسلوكية.

٢. إنَّ الإمام الحسن ﷺ أراد من الناس أن يتخذوا من القرآن إماماً من أجل هدايتهم وإرشادهم.

٣. دعا الإمام ﷺ إلى العمل بالمحتوى التعليمي، والتربوي والعقدي والعلمي للخطاب القرآني، والعمل به بوصفه منهجاً ومشروعاً للعمل الصالح، وتوجيه مستنير لحركة الحياة.

٤. هو مصدر النور، والهداية، والسعادة، وشفاء النفوس والصدور^(٣).

ووصف الإمام الحسن ﷺ القرآن بالكمال، والتفصيل لا يأتيه الباطل من أيِّ ناحية، وأن نتدبّر معانيه حقيقة من دون ظنٍّ وتأويل، وهو المعول في التفسير، «نحن

(١) كلمة الإمام الحسن ﷺ: الشيرازي: ٢٣، وينظر: الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن وكتبه ورسائله وكلماته القصار: مصطفى الموسوي: ١٤١.

(٢) كشف الغمة: ١ / ٥٣٦.

(٣) ينظر: دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن ﷺ: ٩٦ - ٩٧، والإنسانية المثالية عند الحسن بن علي ﷺ: ١٨.

حزب الله الغالبون، وعتره رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لا نتظنّي تأويله، بل نتيقن حقائقه فأطيعونا فإنّ طاعتنا مفروضة، إذ كانت بطاعة الله ﷻ ورسوله مقرونة، قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١)، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٢)»^(٣).

لقد أكثر الإمام الحسن (عليه السلام) من الاستدلال الحجاجي في ضوء استشهاده بالآيات القرآنية التي اتخذها حججاً لدعم النتيجة المطلوبة أو الحصول على الاستنتاج من المقدمات.

إنّ الاستدلال بالخطاب القرآني يظهر المرجعية الإيمانية العميقة، والحنين إلى زمن النبي ﷺ، وأبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو الزمن الحقيقي الصريح الذي ينتظم في حركة من الإيمان والهناء، والاطمئنان.

ومن استدلالات الإمام الحسن (عليه السلام) القرآنية، خطبته التي خطبها لما بلغه ﷺ بأنّ معاوية قد وصل إلى جسر (منبج) فبعث حجر بن عديّ يأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير، ونادى المنادي الصلاة جماعة فأقبل الناس يتوثّبون ويجمعون، فقال الحسن (عليه السلام) إذا رضيت جماعة الناس فأعْلِمْني فخرج الحسن (عليه السلام) فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإنّ الله كَتَبَ الجهادَ على خَلْقِهِ وسَمَّاهُ كرها، ثم قال لأهل الجهاد من

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) سورة النساء: ٨٣.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٣/ ١٠ - ١١.

المؤمنين اصبروا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ، فليست أئمة الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون، إِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنْ مَعَاوِيَةَ بَلَّغَهُ أَنَّا كُنَّا أَزْمَعْنَا عَلَى الْمَسِيرِ إِلَيْهِ فَتَحَرَّكَ لَذَلِكَ فَاخْرَجُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى مَعْسَكِرِكُمْ بِالنُّخِيلَةِ»^(١)، ولا يخفى أن الإمام يشير إلى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

ومن الاستدلال القرآني الذي وظّفه الحسن عليه السلام الاستدلال بالإشارة والتلويح، وما يستلزمها من إشارات إلى الحقيقة، وحصول المنظور بحسب الإحاطة بالمقدمات والنتائج؛ بمعنى أن القضية (قضية الهدنة والسلام) مع معاوية أصبحت واقعة لا محالة، زد على ذلك فإن ظهور نتائجها وجلاء حقائقها بما لا حاجة إلى برهان أو دليل صريح، وهذا الاستدلال من باب إقرار المعنى وتشبيته، ففي خطبته عليه السلام لما قبل بهدنة معاوية وسلمه، «أيها الناس إِنَّ اللَّهَ هَدَاكُمْ بِأَوَّلِنَا وَحَقَّنْ دِمَاءَكُمْ بِآخِرِنَا، وَإِنْ هَذَا الْأَمْرُ مَدَّةً، وَالدُّنْيَا دَوْلٌ، وَإِنَّ اللَّهَ عليه السلام قَالَ لِنَبِيِّهِ عليه السلام: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٤)»^(٥).

ويعلو الاستدلال القرآني الصريح في الخطاب الحسني لما حضرته الوفاة عليه السلام استدعى أخاه الإمام الحسين عليه السلام وانفرد به فقال: «هذا ما أوصى به الحسن بن علي إلى أخيه الحسين بن علي، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه يعبدُه حقَّ عبادته لا شريك له في الملك ولا ولي له من الدّل، وأنه خلق كلَّ شيءٍ فقَدَره تقديرًا،

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٨، وينظر: أعيان الشيعة: محسن الأمين ١ / ٥٦٨.

(٢) سورة البقرة: ٢١٦.

(٣) سورة الأنفال: ٤٦.

(٤) سورة الانبياء: ١١١.

(٥) رسائل المقرئ: تقي الدين المقرئ: ٦٢، وينظر: كشف الغمة: ١ / ٥٣٤.

وأنه أولى مَنْ عُبِدَ، وأحقُّ من حمد، مَنْ أطاعه رشد وَمَنْ عصاه غوى، وَمَنْ تاب إليه اهتدى... وأن تدفني مع رسول الله ﷺ فأني أحق به، وببيته مَنْ أدخل بيته بغير إذنه ولا كتاب جاءهم من بعده، قال الله فيما أنزل على نبيه ﷺ في كتابه: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١)، فوالله ما أذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير إذنه، ولا جاءهم الإذن في ذلك من بعد وفاته، ونحن مأذون لنا في التصرف فيما ورثناه من بعده^(٢)، فنلحظ الاستدلال المبرهن بلحاظ المفاهيم القرآنية، والدلائل الحججية الواضحة الصريحة في الخطاب الحسني.

ثانياً: الحجاج:

يبدو بلحاظ استنطاق التراث الفكري عند الإمام الحسن ﷺ نجد أنه كان خطاباً مؤثراً يحاكي الواقع، فاضحاً الجهات غير الشرعية، خطاباً حياً لا ميتاً، إنه خطاب المرحلة.

لقد أراد الحسن ﷺ بمحاججاته ومناظراته وحواراته أن يصلح الأمة، وينقذها من الضلالة والخيرة، وقد عُرِفَ أهل البيت بالبيان، وفصل الخطاب، قال الإمام عليّ الهادي ﷺ (ت ٢٥٤هـ) واصفاً بلاغة أهل البيت: «إنَّ الله ﷻ اصطفى محمداً ﷺ بالنبوة والبرهان، واصطفانا بالمحبة والتبيان»^(٣)، وجاء في زيارة الجامعة الكبيرة «وفصل الخطاب عندكم، وعزائمه فيكم، ونوره وبرهانه عندكم، وأمره إليكم»^(٤)، ومما جاء أيضاً: «اصطفاكم بعلمه، وارتماكم لغيبه واختاركم لسره... وخصكم ببرهانه...»

(١) سورة الاحزاب: ٥٣.

(٢) تاريخ يعقوبي: يعقوبي: ٢ / ٢٢٥.

(٣) دلائل الإمامة: ابن رستم الطبري: ٣٧٦، وينظر: إثبات الوصية: المسعودي: ٢٠٢.

(٤) شرح الزيارة الجامعة الكبيرة: الإحسائي: ٢ / ١٩١، وينظر: مفاتيح الجنان: عباس القمي:

ودعوتهم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة»^(١).

وقد أشار الإمام الحسين (عليه السلام) إلى الملكة الخطابية، والمقدرة البيانية والحجاجية لأخيه الإمام الحسن (عليه السلام) حينما أبنه معدداً مناقبه، وسجاياه، وحكمته، جاء فيها «رَحِمَكَ اللَّهُ أبا محمد، إِنْ كُنْتَ لتباصر الحقَّ مظانَّه، وتؤثر الله عند مداحض الباطل في مواطن التقيَّة بحسن الرويَّة، وتستشفَّ جليل معازم الدنيا بعين لها حاكمة وتقبض عليها يداً ظاهرة الأطراف نقيَّة الأسيِّرة ... ولا غرو وأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة نعيم»^(٢).

وكان الحسن (عليه السلام) يتكلَّم في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويأتي بكلام يشفي غليل السائلين، ويقطع حجج القائلين، وكان يتصدَّى لعملية التدريس والحوار التعليمي، والردود على التساؤلات، وكان (عليه السلام) يملك القدرة الحجاجية والحوارية التي تقطع حجج القائلين ممَّن يسمعون دروسه، وقد أشرنا من قبل إلى مسألة تفسيره (الشاهد)، و (المشهد).

ويظهر أنَّ الحجاج كان من المسلمات الخطابية، والآليات البيانية لدى الحسن (عليه السلام)؛ لأن الخطاب الأيديولوجي عند مناوئيه لاسيما معاوية بن أبي سفيان قد وظَّف توظيفاً سياسياً انتظم على حياة خداع، وتضليل، وكذب، وبت الحقائق وقلبها، فضلاً عن ذلك الصمت والسكوت عنها، فكان الإمام الحسن (عليه السلام) راغباً وحريصاً في استعادة الماضي وهو نوع من الاحتجاج على الحاضر رمز الخيانة، والبعد عن الإسلام، ونكث العهود والمواثيق، والكذب الصراح، والتكالب والتراحم على الدنيا وزخرفها، وإتيان الموبقات، والاحتكار، وتعمية الفضائل والشئال بضباب كثيف.

(١) شرح الزيارة الجامعة الكبيرة: ٢ / ١٩٠.

(٢) عيون الأخبار: ابن قتيبة: ٢ / ٢٣٨ - ٢٣٩.

إنَّ إعلام التضليل، وقلب الحقائق وتشويهها بلحاظ الخطاب الأيديولوجي المضل جعل كثيراً من الباحثين يتقهقرون ويفقدون الموضوعية والعقلانية في قضية هُذنة الإمام الحسن عليه السلام، وسلّمه مع معاوية، يقول محمد عابد الجابري: «ولم تكن بيعة محمد بن الحنفية لعبد الملك بن مروان بدون مقابل بل كانت على غرار بيعة الحسن - أخيه - لمعاوية مقرونة بعتايا وامتيازات كثيرة كانت أشبه بصفقة»^(١)؛ وهذا الزعم مردود فالجابري في أبحاثه المتصلة بالعقل العربي قد ألصق كثيراً من التهم بالأئمة وشيعتهم وهم براء منها، وسبب ذلك جهله بتراث الإمامية من جانب، وتعمده عدم الرجوع الى تراثهم من جانب آخر، فضلاً عن ذلك استعانت به في كثير من المسائل المتصلة بتراث أهل البيت عليهم السلام، ومواقفهم من تراث غيرهم، وهو أمر غير مقبول في البحث العلمي، يقول إدريس هاني: «يبدو في ضوء كلام الجابري أنَّه لم يكن له إلمام بالتاريخ والفكر الشيعيين كما تدل على ذلك مصادره المعتمدة، فعزو تلك المحاولة التي لم تحقق النجاح المطلوب الى الهاجس السياسي والايديولوجي الساكن بقوة في أعماق مشروع الجابري، مضافاً الى عدم التخصص، والبعد عن المصادر، والسرعة وهي آفة كل مشروع أيديولوجي في تركيب الصور والاحكام التاريخية، ويكفي في هذا الاطار تصديّ الكثير من النقاد الى تفكيك هذا المشروع وبيان هواجسه ونقائضه»^(٢).

عمد الإمام الحسن عليه السلام إلى مبدأ الحجاج؛ لأن مناوئيه لما يدخل الإيمان في قلوبهم فهم مسلمة الفتح (الطلاق وأبناء الطلقاء)، فلم يكن الإسلام قد تغلغل في أعماقهم حتى يشحنوه في قلوب أتباعهم حتى وصل الحال بأحدهم إلى أن يسأل مَنْ هو أبو تراب هذا الذي يلعنه إمام الجماعة على المنبر؟ فيجواب أراه لصاً من لصوص الفتن،

(١) العقل السياسي العربي: محمد عابد الجابري: ٢٦٧.

(٢) الجابري واللامعقول الشيعي (بحث): إدريس هاني: ١٥٤ - ١٥٥.

وقد أشار الإمام الحسن (عليه السلام) إلى هذه الحقيقة - حقيقة أن الإسلام لعق على السنة هؤلاء الذين لا يرجون الله وقاراً - فقال: «من الحسن بن علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن الله جلّ جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين، ومِنَّةً للمؤمنين وكافّةً للناس أجمعين ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(١)، فبلغ رسالات الله، وقام بأمر الله، حتّى توفاه الله غير مُقَصِّرٍ ولا وان، وبعد أن أظهر الله به الحقّ وتحقّق به الشّرك وخصّ به قريشاً خاصة، فقال له: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(٢)، فلما توفّي تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش: نحن قبيلته، وأسرته، وأوليائه ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقّه، فرأت العرب أن القول: ما قالت قريش، وأنّ الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمدٍ فأنعمت لهم وسلّمت إليهم، ثم حاججنّا نحن قريشاً بمثل ما حاجبت به العرب فلم تُنصفنا قريش إنصاف العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتياج، فلما صرنا أهل بيت محمد وأوليائه إلى محاجبتهم، وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا والعنت منهم لنا فالموعد الله، وهو الولي النصير»^(٣).

لقد استطاع الخطاب الحسيني أن يكشف القناع الحقيقي لمعاوية، وأن يسقط الماكنة الإعلامية له التي أرادت أن تُشكك في ثوابت الإسلام، فكانت الكلمات التي يحملها الخطاب الحسيني الرزين العميق إلى آذان المخاطبين لا تكاد تبلغ آذان القوم حتّى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم، وتستقر فيها وتملاها عجباً وإعجاباً، إلّا أنهم لم يتقبلوها عملياً؛ لعدم وجود التعامل بين الواقع والنصّ عند هؤلاء الذين يضحّمون الأهمية الماديّة،

(١) سورة يس: ٧٠.

(٢) سورة الزخرف: ٤٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٣ - ٣٤. (يس: ٧٠)، (الزخرف: من الآية ٤٤).

بقبال تهوين الشأن العقلي والوعي الثقافي فكانوا يمثلون التسلّط العسكري بكلّ ما يصاحبه من انقلاب فكري، قال ﷺ: «ولقد كُنَّا نَعْجَبُنا لِتَوَثُّبِ الْمُتَوَثِّبِينَ عَلَيْنَا فِي حَقِّنا، وسلطان نبينا، وإن كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وأمسكنا عن مُنازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب في ذلك مَغْمَزاً يَثْلُمُونَهُ به، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده فاليوم فليتعجّب المتعجّب من توثّبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف ولا أثر في الإسلام محمود وأنت ابنُ حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ ولكتابه، والله حسيبك، فسترد فتعلم لمن عقيب الدار»^(١).

إنّ الاحتجاجات والمناظرات والأجوبة التي كانت تصدر عن الإمام الحسن ﷺ مع بعض مناوئيه، وخصومه، قد أظهر الإمام ﷺ بحجّته البالغة وبرهانه الساطع وسرعة بديته الغاية المرادة بعيداً عن التبجّح والمكابرة، وكان يتدفّق ﷺ تدفّق السيل الهادر، يهتك أستار الغلّ والخديعة والضلال المتمثلة بسياسة معاوية وزمرته، قال ﷺ: «أيتها الرادّاء على معاوية بكلمات مهذّبة مؤدّبة بعد أن نال معاوية من أبيه أمير المؤمنين ﷺ»: «أيّها الذاكر عليّاً أنا الحسن وأبي عليّ، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمّي فاطمة وأمّك هند، وجدّي رسول الله وجدّك عتبة بن ربيعة، وجدتي خديجة، وجدّتك قتيّلة، فلعن الله أخلنا ذِكْراً والأماناً حسَباً وشرّاً قدماً وأقدمنا كُفْراً ونفاقاً»^(٢).

ونلمح في الخطاب الحسني التدرّج في الخطاب، ومحاولة استمالة الخصم، علّه يثوب إلى رُشدّه، ويستغفر ربه، «روي أنّ الحسن بن عليّ ﷺ قال لحبيب بن مسلمة في بعض خروجاته بعد صفين: يا حبيب ربّ مسير في غير طاعة الله، فقال له حبيب: أما إلى أبيك فلا، فقال له الحسن ﷺ: بلى والله لقد طاوعت معاوية على دنياه وسارعت في

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد: ١٦ / ٣٤.

(٢) مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني: ٤٦.

هواه فلئن قام بك في دنياك، لقد قعد بك في دينك، فليتك إذا أسأت الفعل أحسنت القول، فتكون كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرُونا عَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١)، ولكنك كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢)،^(٣)، إِنَّ أسلوب الإمام الحسن عليه السلام الحكيم مع حبيب بقوله: «رُبَّ مسير» فلم يواجهه بفظاظة بأنك على باطل، بل أبقى له في نفسه احتمال التضليل من غيره لا من نفسه، لما روي أنه كان فاضلاً، ولكن لما رأى الإمام عليه السلام جوابه له، وأنه معاند ولجوج، بل هو ضال مضلل، ولم يرج منه نفعاً بعد ذلك قال له عليه السلام مستدلاً بقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وقد تنوّعت المحاججات في الخطاب الحسيني، فنجد المحجاج التقويمي، والمحجاج التهذيبي، والمحجاج التوجيهي، ويمكن الاستدلال على تلوّن هذه المحاججات، بما حكي «أن معاوية أرسل إلى الحسن عليه السلام في حاجة له، فلما قابله الرسول هابه، وعظمه من حيث لا يريد وقال: حفظك الله يا بن رسول الله، وأهلك هؤلاء القوم، فنهره الحسن عليه السلام وقال: لا تخن من اتّمتك، وحسبك أن تُحبّني لحب رسول الله، وأبي وأمي، ومن الخيانة أن يثق بك قومٌ، وأنت عدوّهم، وتدعو عليهم»^(٤).

ويشتد المحجاج الإرشادي الوعظي الحسيني، حينما رأى شاميّ الحسن عليه السلام راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يردّ، فلما فرغ، أقبل الحسن عليه السلام وضحك، فقال: «أيّها الشيخ أظنّك غريباً ولعلك شبّهت، فلو استعبتنا أعْتَبْنَاك، ولو سألتنا أعطيناك ولو استرشدتنا أَرشَدْنَاك، ولو استحملتنا حملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كُنت غريباً كَسَوْنَاك،

(١) سورة التوبة: ١٠٢.

(٢) سورة المطففين: ١٤.

(٣) الاستيعاب من هامش الإصابة: ابن عبد البر: ١ / ٣٢٨.

(٤) سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني: ١ / ٥٤٩.

وإن كنت محتاجاً أغنيك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة فُضيها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك؛ لأنّ لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً»^(١) فلما سَمِعَ الرجل كلامه بكى ثم قال: «أشهد أنك خليفةُ الله في أرضه والله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحبّ خلق الله إليّ»^(٢).

ومن لوازم الحجاج عند الحسن عليه السلام، ولواحقه (الإقناع الخطابي)، وهو من المفاهيم التي لها تأثير في السامعين، فهو يمثل حلقة اشتراك بين المتكلم، والسامع، بمعنى عقد عملية تواصل واستقبال بينهما، يقول صابر حبّاشة: «ولعل الإقناع - وهو مقصد أساسي في الخطب والنصوص ذات المنزع التأثيري قد شكّل نواة البحث الحجاجي، والقلب الرابط بين البلاغة القديمة (الأرسطية) وفي صيغتها العربية القديمة، والبلاغة الجديدة (نظريات الحجاج والتداولية، ونظرية الأعمال اللغوية)، فالإقناع هدف يتحقّق عبر توّسل أدوات وأساليب بلاغية أي لغوية تركيبية بيانية»^(٣).

ويتجلّى هذا الملمح الحجاجي المهم (الإقناع) عندما عاتبه عبد الله بن الزبير على هدنته وسلمه مع معاوية، فقال الإمام عليه السلام: «ثُمَّ تَزَعَّمُ أَنِّي سَلَّمْتُ الْأَمْرَ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ وَيُحْكَمُ كَذَلِكَ؟! وَأَنَا ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَقَدْ وَلَدَتْنِي فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَخَيْرَةُ الْإِمَاءِ، لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ جُبْنًا وَلَا ضَعْفًا، وَلَكِنَّهُ بَايَعَنِي مِثْلُكَ، وَهُوَ يَطْلُبُنِي بِتَرَةِ وَيُدَاجِنِي الْمَوَدَّةَ، وَلَمْ أَثِقْ بِنَصْرَتِهِ؛ لِأَنَّكُمْ أَهْلَ بَيْتِ غَدْرٍ»^(٤).

(١) بحار الأنوار: ١٠ / ١٨٢، وينظر: أعلام الهداية (الإمام الحسن عليه السلام) المجتبى: المجمع العلمي لأهل البيت: ٣٦.

(٢) بحار الأنوار: ١٠ / ١٨٢.

(٣) محاولات في تحليل الخطاب: صابر حبّاشة: ١١٧.

(٤) المحاسن والمساوي: البيهقي: ١ / ٥٨ - ٥٩.

المطلب الثالث :

أسس موضوعية المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام

يبدو أنَّ موضوعية المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام قد صَوَّرَ أُسُسَهَا، وأنساقها الإمام الهادي عليه السلام في زيارة الجامعة الكبيرة حينما أشار إلى أنَّ الأئمة المعصومين هم معدن الفضائل والشائِل والمحاسن، واصفاً كلامهم بالنور، والرأي بالعلم والحزم، قال عليه السلام: «كلامكم نورٌ، وأمركم رشد، ووصيتكم التقوى، وفعلكم الخير، وعادتكم الإحسان، وسجيَّتكم الكرم، وشأنكم الحقَّ والصدق والرفق، وقولكم حكم وحثٌّ، ورأيكم علم وحلم وحزم، إن ذكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه»^(١).

ونحسب أنَّ أسس موضوعية المنظومة الخطابية للإمام الحسن عليه السلام قد تجلَّت وظهرت مشرقة؛ لأنه ملك زمام الخطاب وعنانه، بخلاف منائيه الذين ملكوا السلطة القهرية والقمعية، فلم يحتاجوا إلى الأدلَّة والبراهين من جهة، وإلى آداب المخاطبة والصدق، والعقلانية والواقعية من جهة أخرى، فألَّة السيف والقهر والسجن والقتل علَّت عند هؤلاء على آلة الخطاب والقلم؛ بخلاف البيانيِّ الإمام الحسن عليه السلام الذي استند على الموروث الإسلامي الأصيل والقرآن الكريم، والسيرة الطاهرة لجده وستته المباركة، وسيرة أبيه المباركة وتراثه الفكري.

إنَّ من أهم أسس موضوعية المنظومة الخطابية عند الإمام الحسن عليه السلام:

أولاً: آداب المخاطبة:

مَنْ يتفحص الخطاب الحسنِي يجد الموضوعية حاضرة وسانحة ولاسيما في أسس، وأصل مهم من أسس موضوعية المنظومة الخطابية عنده عليه السلام، وهو أصل (آداب المخاطبة)، في ضوء التحلي بأعلى درجات اللباقة والآداب والتهذيب، وقد ترك لنا الإمام الحسن عليه السلام مبدأً عظيماً من مبادئ تداول الخطاب هو (آداب المخاطبة)، يقول هاشم معروف الحسني: «إنَّ الأئمة كانوا يحرصون بكل ما يملكون من قوة وبيان على أن يجعلوا من أصحابهم وشيعتهم، ومن يتصل بهم دعاة حق وخير يمثلون الإسلام، ويجسدون تعاليمه بأفعالهم قبل أقوالهم، كما كانوا يحرصون على تنزيه الإسلام من التشويه والافتراء»^(١).

لقد قدّم لنا الإمام الحسن عليه السلام تراثاً فكرياً يشعّ بآداب المخاطبة، لأنه عليه السلام يَعْرِفُ أَنَّ قانون التغالب لا يوجد إلا بين الأنواع المختلفة، أما ضمن النوع الأول فيسود قانون آخر هو قانون التسالم، فهناك رباط يجمعهم هو انتمائهم إلى نوع واحد هو الإنسانية؛ ولذا ينبغي أن يتسالموا فيما بينهم، ويتكاتفوا على مغالبة سائر الأنواع^(٢)، ويتجلى هذا الأصل العظيم في أشدّ المواقف، وأقساها بعدما تعرّض لمحاولة اغتيال، فقد طُعِنَ في فَخْذه، فقال: «أما بَعْدُ، فَوَاللّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ قَدْ أَصْبَحْتُ - بحمد الله ومَنّهُ - وأنا أَنْصَحُ خَلْقَ اللَّهِ لَخْلُقِهِ، وما أَصْبَحْتُ مُحْتَمِلاً عَلَى مُسْلِمٍ ضَغِينَةً وَلَا مُرِيداً لَهُ سُوءَ وَلَا غَائِلَةً، وَإِنَّ ما تَكْرَهُونَ فِي الْجَمَاعَةِ خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ فِي الْفِرْقَةِ، أَلَا وَإِنِّي نَاطِرٌ لَكُمْ خيراً مِنْ نَظَرِكُمْ لَأَنْفُسِكُمْ، فلا تحالفوا أُمري ولا تَرُدُّوا عَلَيَّ رَأياً غَفَرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ وَأَرْشَدَنِي

(١) سيرة الأئمة الاثني عشر: ٢ / ٤٦٥.

(٢) ينظر: آراء المدينة الفاضلة: الفارابي: ١٧.

وإياكم لما فيه المحبة والرضا»^(١).

وعلى الرغم من أن مناوئيه عليه السلام كانوا ماهرين في المكر والدهاء وعظيم المراوغة، مدّاورين شديدي المداورة، يخدعون الآخرين، جابههم الإمام عليه السلام بالصبر، فكان عزيزاً أشمّ، جاعلاً نصب عينيه قوله عليه السلام: «رأس العقل معاشره الناس بالحياء»^(٢)، وتأمل قوله عليه السلام محدّراً معاوية من الغدر، ونقض الشروط التي اتفق عليها مع معاوية عند الهدنة والسلام: «ولي شروط أشترطها لا تُبْهَظَنَّكَ إن وفيت بها بعهد، ولا تخف إن غدرت وستندم يا معاوية كما ندم غيرك ممّن نهض في الباطل أو قعد عن الحقّ حين لم ينفع الندم والسلام»^(٣).

ومن آداب المخاطبة التي نلمسها عند الإمام عليه السلام عدم التوسع، والردّ بإيجاز، قال عليه السلام رادّاً على رسالة معاوية التي يحذّر فيها الإمام من أن تكون منيته على أيدي رعا من الناس، وفيها اطمئنان للإمام على أن الخلافة تكون له من بعده، فلم يعتن الإمام الحسن عليه السلام بتهديد معاوية، فأجابه على رسالته «أما بعد، فَقَدْ وَصَلْ إِلَيَّ كتابك تذكر فيه ما ذكرت، وتركت جوابك خشية البغي عليك، وبالله أعوذ من ذلك فاتبع الحقّ تعلم أنّي من أهله وعليّ إثمّ أن أقول فأكذب، والسلام»^(٤).

ثانياً: العقلانية :

حرص الإمام الحسن عليه السلام إلى الدعوة إلى إعمال العقل، والتنشيط العقلي، ونلمح هذا التصور في جملة من الألفاظ التي جاءت في أدب الإمام الحسن عليه السلام، منها: التفكير،

(١) الإرشاد: المفيد: ١٨٠، وينظر: مقاتل الطالبين: ١٨٠.

(٢) موسوعة المصطفى والعترة (الحسن المجتبي): ٥ / ١٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ١٠ / ٢٠٦.

(٤) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٧.

التفكير، يفكر، العقل العاقل، رأس العقل، معقوله، القلب البصير، الحكمة، التذكير وغيرها من الكلمات الذهبية المعبرة، وقد ربطتها هذه النصوص بالهدف الأكبر للوجود وهو تقوى الله وطاعته وعبادته^(١).

ومن هنا انماز خطاب الإمام الحسن عليه السلام بالعقلانية، والفهم الواعي الفعّال؛ لأنّه هو أحق بالخلافة والإمامة لما عُرف عنه من علم وتقوى، وإرادة، وإدارة وسياسة وغيرها فجاء خطاباً عاقلاً، في حين جاء خطاب مناوئيه بارداً ضعيفاً؛ لأن العقل الإرهابي من جهة الخطاب ضعيف، بسبب غياب العقل، لذلك عُدّ خطاب الحسن عليه السلام بعقلانيته ومنطقيته وثيقة سياسية في مجتمع توشك فيه قنوات التعبير إمّا أن تكون مغلقة تماماً أو واحدة النغمة، يقول يوسف مدن: إنّ بنا حاجة إلى «محاولة علمية جادة للتحرك بفكر الإمام الحسن وتراثه الأخلاقي والروحي والثقافي بواسطة (المنهج العقلي) المتداول تاريخياً في عالم المسلمين عبر قرون متتالية إلى منهج تحليلي جديد يفتح أذهان الباحثين على كنوزه العلمية والقيمية، ويُطلع عقولهم على مدخلاته ومعطياته وإبداعاته، وهي مهمة علمية حيوية تحتاجها الأجيال المعاصرة للاتصال بتاريخهم الثقافي وإضاءاته العقائدية والأخلاقية والروحية والفكرية»^(٢).

وقد كثرت النصوص الحسينية الحكمية التي تحضّ الإنسان على إعمال العقل، لكونه يؤدّي وظائف عبادية تُسعده في الدنيا، وتُنجيه من عذاب الآخرة، قال عليه السلام: «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مروّة لمن لا همّة له، ولا حياء لمن لا أدب له، ورأس العقل معاشره الناس بالجميل، وبالعقل تدرك الداران جميعاً، ومن حُرِم من العقل حُرِمَهما جميعاً»^(٣).

(١) ينظر: دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام: ١٥٠.

(٢) دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام: ١٣.

(٣) كشف الغمّة: ١/ ٥٣٤، وينظر: الفصول المهمة: ١٥١.

وقال ﷺ: «والعقل أفضل ما وهب الله تعالى للعبد إذ به نجاته في الدنيا من آفاتِها وسلامته في الآخرة من عذابِها، وقد قيل: إنهم وصفوا رجلاً عند رسول الله ﷺ بحسن عبادته، فقال ﷺ: انظروا إلى عقله فإنَّما يُجْزَى العباد يوم القيامة على قدر عقولهم، وحسن الأدب دليل على صحة العقل»^(١).

ومن لوازم العقلانية في موضوعية الخطاب الحسني المعاناة والمكابدة وإجالة النظر، زد على ذلك القدرة على الاستنتاج، والنظرة الثاقبة في نتائج الأمور، قال الإمام الحسن ﷺ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ مَجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ أَطْلَقَ عَقْلًا لِسَانَهُ، وَفَتَقَ مَا رَتَقَ مِنْ ذَهْنِهِ، وَسَرَّهُ مَا وَجَدَ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي نَفْسِهِ، وَكَانَتْ لَهُ وَلَايَةٌ لِمَا لَا يَعْلَمُ وَإِفَادَةٌ لِمَا تَعْلَمُ»^(٢).

إنَّ العناية بالعقل، وبيان أثره في قدرته على تصريف الأمور، والبصر في مقدّماتها ونتائجها، فضلاً عن ذلك أثره في الجانب العبادي من فهم الإمام الحسن ﷺ الذي كان له انعكاس واضح من خطابه، فجاء خطاباً واعياً فعّالاً لا تجد فيه تهافتاً أو انحرافاً، فالنتائج تتساق مع المقدّمات، والعلل تتماشى مع المعلولات، تأمل في قوله ﷺ بعدما بلغه أن عدداً من أصحابه قد عرض عليهم معاوية قتله ﷺ جزاء حفنة من الدراهم: «وَيَلُكُمُ اللَّهُ، إِنْ مَعَاوِيَةَ لَا يَفِي لِأَحَدٍ مِنْكُمْ بِمَا ضَمَنَهُ فِي قَتْلِي، وَإِنِّي أَظُنُّ أَنِّي إِنْ وَضَعْتَ يَدِي بِيَدِهِ فَأَسَالَهُ لَمْ يَتْرَكْنِي أَدِينٍ لِدِينِ جَدِّي ﷺ وَإِنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ﷻ وَحْدِي، وَلَكِنِّي كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَبْنَائِكُمْ وَاقِفِينَ عَلَى أَبْوَابِ أَبْنَائِهِمْ يَسْتَسْقُونَهُمْ، وَيَسْتَطْعَمُونَهُمْ بِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ، فَلَا يَسْقُونَ وَلَا يَطْعَمُونَ فَبَعْدًا وَسَحَقًا لِمَا كَسَبْتَهُ أَيْدِيهِمْ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) كلمة الإمام الحسن ﷺ: ٦٢.

(٢) الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن: ١٣٤.

أَيِّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١﴾﴾ (٢).

ثالثاً: الواقعية والصدق:

يُعَدُّ خطاب الإمام الحسن عليه السلام صورة واقعية صادقة معبرة نابضة بالحياة، وليس أحياناً تسرد أو أشخاصاً تذكر، بل كان يتخير في كل ذلك ما فيه موعظة، وذكرى لقومه في محتتهم الحاضرة مذكراً إياهم بعظمة الرسول الأعظم والدين الإسلامي وعدالة أبيه وحكمته، وفي قبال ذلك وصف مناوئيه أنهم مضيعون للحق، ومهدرون الرحمة، وقاطعون الرحم، يخلطون الخير بالشر والمعروف بالمنكر، قال عليه السلام في خطبة له لما تمّ الصلح، وانبرم الأمر مع معاوية مفتخراً بالانتساب إلى جدّه المصطفى عليه السلام، وإن الهداية والصلاح والرشد ببركة وجوده عليه السلام ورسائله السمحاء: «أيها الناس، إن أكيس الكيس التقى، وأحقّ الحمق الفجور، وإنكم لو طلبتم ما بين جابلق، وجابرّس رجلاً جدّه رسول الله عليه السلام ما وجدتموه غيري، وغير أخي الحسين، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد فأنتذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة وكثركم به بعد القلة، إن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه فنظرت لصلاح الأئمة، وقطع الفتنة» (٣)، وتأمل خطابه الواقعي المملوء صدقاً وحقاً حينما دعا معاوية إلى الخضوع، ولزوم الطاعة، والدخول مع الجماعة، فأمر خلافة المسلمين ليس من أهله لا بفضل من دين ولا سابقة في الإسلام، قال عليه السلام: «فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين معروف، ولا أثر في الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن أعدى قرش لرسول الله عليه السلام، وكتابه والله حسيك... فدع التهادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي فإنك تعلم أنّي أحق بهذا الأمر

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ١٠ / ٢٠٦.

(٣) كشف الغمة: ١ / ٥٣٤.

مِنْكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ كُلِّ أَوَابٍ حَفِيزٌ، وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ مَنِيبٌ، وَاتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ الْبَغْيَ وَاحْقِنْ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

كانت الواقعية ظاهرة واضحة في منظومته عليه السلام الخطابية في ضوء شحذ الهمم، والتمسك بالقيم والتعاليم الإسلامية، والتذكير بالآخرة، والترغيب في الثواب والجنة، والتحذير من الركون إلى الباطل فمآله الهبوط والتهافت والسقوط في هاوية الشيطان والرذيلة والخذلان.

إِنَّ كُلَّ مَجَالَاتِ التَّفَكِيرِ لَدَيْهِ عليه السلام حَقِيقَةٌ وَاقِعِيَّةٌ، يُمْكِنُ لِلْمُتَلَقِّي أَنْ يَتَخَذَ مِنْهَا مَوْضُوعاً لِلتَّأَمُّلِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَإِعْمَالِ عَقْلِهِ لِلْوُصُولِ إِلَى حَقِيقَةٍ قَائِمَةٍ، أَوْ حَلِّ مُشْكَلَةٍ.

إِنَّ مَبْدَأَ الْوَاقِعِيَّةِ وَالصَّدَقِ فِي الْمَنْظُومَةِ الْخُطَابِيَّةِ لِلْإِمَامِ الْحَسَنِ عليه السلام يَتَجَلَّى فِي مِطَابَقَةِ الْقَوْلِ لِلْفِعْلِ، وَتَصَدِيقِ الْعَمَلِ لِلْكَلَامِ، وَهَذَا الْمَبْدَأُ (مَبْدَأُ التَّصَدِيقِ)، وَيُبْنَى اعْتِمَادُ الصَّدَقِ وَالْإِخْلَاصِ عَلَى عَنصرَيْنِ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا: نَقْلُ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهَا أَسْمِينَاهُ بِالْجَانِبِ التَّبْلِغِيِّ فِي الْمَخَاطَبَةِ، وَالثَّانِي: تَطْبِيقُ الْقَوْلِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ بِالْجَانِبِ التَّهْذِيبِيِّ^(٢)، لَذَا كَانَ خُطَابُ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عليه السلام لَدَفَعَ ضَرَرَ وَجَلَبَ نَفْعٍ مِنْ جِهَةٍ، وَتَوَخَّى إِصَابَةَ الْفُرْصَةِ وَالْغَرَضِ، فَجَاءَ خُطَابُهُ مُتَسَمِّاً بِالْاِقْتِصَادِ اللَّغَوِيِّ عَلَى قَدَرِ الْحَاجَةِ، مَعَ تَخْيِيرِ اللَّفْظِ الَّذِي بِهِ يُتَكَلَّمُ، قَالَ عليه السلام فِي أَوَّلِ النُّصُوصِ بَعْدَ عَقْدِ الْهُدْنَةِ مَعَ مَعَاوِيَةَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ هَدَى أَوَّلَكُمْ بِأَوَّلِنَا، وَحَقَّنْ دِمَاءَكُمْ بِآخِرِنَا وَكَانَتْ لِي فِي رِقَابِكُمْ بَيْعَةٌ تَحَارِبُونَ مِنْ حَارِبْتُ وَتَسَالُمُونَ مَنْ سَالَمْتُ، وَقَدْ سَالَمْتُ مَعَاوِيَةَ وَبَايَعْتَهُ فَبَايَعُوهُ، ﴿وَإِنْ أَذْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾»^(٣).

(١) شرح نهج البلاغة: ١٦ / ٣٤.

(٢) ينظر: اللسان والميزان والتكوثر العقلي: طه عبد الرحمن: ٢٤٩.

(٣) الإمامة والسياسة: ابن قتيبة: ١ / ١٣٣.

عمل الإمام الحسن عليه السلام على هذا المبدأ من أجل الارتقاء بالجانب التهذيبي من المخاطبة، إذ بفضلله يخرج هذا التهذيب من مرتبة التأدب الاجتماعي المفروض إلى مرتبة التخلق المخلص الذي ينشد الكمال في السلوك والتحلي بمكارم الأخلاق، ويظهر ذلك في كلماته الحكمية القصار قال عليه السلام: «يا بن آدم عَفَ عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله سبحانه تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وصاحب بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عدلاً»^(١)، وقال عليه السلام: «ما تشاور قوم إلا هُتُوا إلى رُشدهم»^(٢)، وقال عليه السلام: «لا تعاجل الذنب بالعقوبة واجعل بينهما للاعتذار طريقاً»^(٣).

وقد كتب الحسن عليه السلام خطبه ورسائله مجارة للمناسبة فاتسمت بالصدق، والصدق في أدبه هو جوهر بلاغته، وسر دوامه فتأمل إلى جوابه المفعم بالصدق الواقعي، حينما سأله معاوية: «ظننت أن ستكون خليفة وما أنت وذاك؟ فقال الحسن عليه السلام: إنما الخليفة من سار بكتاب الله، وسنة رسول الله، ليس الخليفة من سار بالجور وعطل السنة، واتخذ الدنيا أباً وأماً، ملكاً مُلْكاً مُتَّعَ به قليلاً، ثم تَنَقَّطَ لَذَّته، وتَبَقَّى تَبَعَتُهُ»^(٤).

ويمكن القول: إنَّ رمزية حقن الدماء والدعوة إلى الهدنة والسلم ملاصقة بالإمام الحسن عليه السلام ما أظلم ليل، وأضاء نهار، - وهي معيار عظيم من معايير الصدق، والالتزام - بخلاف مناوئيه، فستبقى رمزية خيانة العهد، ونكث العهود ملاصقة بمعاوية ما أشرقت شمس، وأنار القمر.

(١) كشف الغمة: ٢ / ١٩٤ - ١٩٥.

(٢) أعيان الشيعة: ١ / ٥٧٧.

(٣) م. ن.

(٤) بحار الأنوار: ١٠ / ٢٣٠.

نتائج البحث

١. دعوة الباحثين إلى دراسة أدب الإمام الحسن (عليه السلام) دراسة تحليلية؛ من أجل الوقوف على موضوعية المنظومة الخطابية عنده (عليه السلام)، هذه المنظومة التي نحسب أنها لم تنل من العناية.
 ٢. ظهر أن الإحاطة بالبيئة الاجتماعية، وتطويرها لها أثر في موضوعية منظومة الإمام الحسن (عليه السلام) الخطابية، فكان خطابه متناغماً مع واقع المجتمع، وملامساً نفوس المخاطبين ومستشرفاً المستقبل.
 ٣. إن الموضوعية التي عني بها في تراث الإمام الحسن (عليه السلام) وأدبه هي النظرية التحليلية التركيبية القائمة على الاستدلال والبرهان وهي ضد الذاتية المعتمدة على الحدس والوجدان.
 ٤. إن أهم الآليات التي اعتمد عليها الإمام الحسن (عليه السلام) في منظومته الخطابية الاستشهاد بالنصوص بوصفها دليلاً معتبراً في بيان موضوعية تلك المنظومة، فضلاً عن ذلك مبدأ الحجاج وتدرجه.
 ٥. ظهر أن أهم الأسس أو الأصول للمنظومة الخطابية للإمام الحسن (عليه السلام) آداب المخاطبة، والعقلانية، والواقعية والصدق.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية (محاضرات السيد محمد باقر الصدر) : ط ١، مطبعة شريعة، إيران، ١٤٢٥هـ.
- آراء المدينة الفاضلة: أبو نصر محمد الفارابي، تحقيق البيرنادر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٩م.
- آمالي الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن نعمان البغدادي الملقب بـ (الشيخ المفيد) (ت ٤١٣هـ) مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: أبو الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، ط ١، دار الأندلس، النجف، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الإرشاد في حجج الله على العباد: محمد بن محمد بن نعمان البغدادي (الشيخ المفيد)، ط ١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يوسف بن عبد الله بن عبد البرّ (ت ٤٦٣هـ)، طبعة بيروت، ١٤١٢هـ.
- أعلام الهداية (الإمام الحسن عليه السلام المجتبى): المجمع العلمي لأهل البيت عليهم السلام، الطبعة الأولى، دار الأميرة، بيروت، ٢٠٠٥م.
- الإمامة والسياسة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) ط ٣، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ٢٠٠٩م.
- أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، (د.ط)، القاهرة، ١٩٥٩م.
- الإنسانية المثالية عند الحسن بن علي عليه السلام: رحيم كريم علي الشريفي، ط ١، دار البرهان، بيروت - لبنان، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: الشيخ محمد باقر المجلسي، إحياء الكتب المقدسة، إيران، ١٤٢٧هـ.

- تاريخ اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) دار الزهراء، إيران، ٢٠١٠م.
- تكوين العقل العربي: محمد عابد الجابري، ط ٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠١٠م.
- حياة الإمام الحسن عليه السلام دراسة وتحليل: باقر شريف القرشي، تحقيق: مهدي باقر القرشي، ط ١، مطبعة شريعة، إيران، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
- دراسات في الفكر التربوي عند الإمام الحسن عليه السلام: يوسف مدن، ط ١، دار البرهان، بيروت - لبنان، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
- دلائل الإمامة: أبو جعفر محمد بن رستم الطبري، ط ٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الذرية الطاهرة، أبو البشر محمد بن أحمد بن حماد الأنصاري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق السيد محمد جواد الجلاي، ط ٨، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- رسائل المقرئ: تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥هـ)، دراسة وتحقيق: رمضان البدري، وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن وكتبه ورسائله وكلماته القصار: مصطفى الموسوي، منشورات دار الكتاب الإسلامي، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني، ط ٥، مطبعة شريعة، إيران، (د.ت).
- شرح نهج البلاغة: أبو حامد عز الدين بن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٨هـ.
- شرح الزيارة الجامعة الكبيرة: أحمد بن زين الدين الإحسائي (ت ١٤٢١هـ)، ط ١، مكتبة العذراء، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- العقل السياسي العربي: محمد عابد الجابري، ط ٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، ٢٠١٠م.
- الفتنة الكبرى: طه حسين، ط ١، دار المنار، مصر، ٢٠٠٣م.
- فن السيرة: إحسان عباس، ط ١، بيروت - لبنان، ١٩٥٦م.
- الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام: علي بن محمد بن أحمد بن الصباغ المالكي (ت

- ٨٥٥هـ)، ط٢، دار الأضواء، بيروت - لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- كشف الغمة في معرفة الأئمة: أبو الحسن علي بن عيسى الأربلي، (ت ٦٩٢هـ)، تقديم أحمد الحسيني، ط١، مطبعة شريعة، قم - إيران، ١٤٢٧هـ.
 - كلمة الإمام الحسن (عليه السلام): حسن الشيرازي، دار الصادق، بيروت - لبنان، ط٣، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
 - اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط٣، بيروت - لبنان، ٢٠١٢م.
 - محاولات في تحليل الخطاب: صابر حباشة، دار المعارف، ط١، مصر، ٢٠٠٩م.
 - المحاسن والمساوي: محمد بن إبراهيم (البيهقي ت ٣٢٠هـ)، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٥هـ.
 - مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، ط١، دار القارئ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
 - مفاتيح الجنان: عباس القمي (ت ١٣٥٩هـ)، ط٤، دار الرسول الأكرم، بيروت، ١٤٠٢هـ - ٢٠٠١م.
 - مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ): تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء التراث العربية، بيروت (د.ت).
 - موسوعة المصطفى والعترة (الحسن المجتبي (عليه السلام)): حسين الشاكري، ط٢، مطبعة غدير، قم - إيران، ١٤٢٥هـ.
- الأبحاث:
- الجابري واللامعقول الشيعي: ادريس هاني، مجلة المنهاج، العدد (٨)، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
 - إطلالة على منهج تفسير القرآن بالقرآن: فالح الموسوي، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد ١٩، السنة الخامسة ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ.
 - مظاهر الاستدلال في القرآن الكريم (مظاهر المباني الاستدلالية): محمد محمود عبد زوين، مجلة المصباح، العتبة الحسينية المقدسة، العدد (١٩)، السنة الخامسة، ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ.

الفكر العسكري

للإمام الحسن بن علي عليهما السلام

أعداد الدكتور

عماد علو الربيعي

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وصحابته الأخيار الكرام ... وبعد

تهتم الأمم المتحضرة بالتراث والحضارة، وهو ما أوجبت له عقد الندوات والمهرجانات في تواريخ مختارة، وإنّ هذا الاهتمام أصبح حالة متقدمة، بدأت تهتم به الأمم المتحضرة على نطاق واضح، لتعكس من خلال تجارب شعوبها وعطاءاتها الإنسانية عبر التاريخ، ولما كانت مناقب وسير آل البيت عليهم السلام ومنهم السبط المجتبي الإمام الحسن ابن علي بن ابي طالب عليه السلام تمثل عن جدارة واستحقاق حضارة الأمة الإسلامية بكافة معانيها وابعادها؛ لأنّ ضروبها زاخرة بالكثير من العلوم والمعرفة والبلاغة والفصاحة والفضائل والمحاسن والإنسانية والرحمة والفدائية والإقدام والفروسية والجهاد والزهد والسخاء والكرم والإيثار ومكارم الأخلاق والادارة والسياسة والعقيدة والفلسفة والفقه والتفسير والنحو والصرف وعلم الالهيات والقراءات والكلام والرياضيات والطب والفلك، ولهذا فان سيرة الامام الحسن عليه السلام في جميع صورها من اروع سير العظماء والمصلحين الذين تعتز بهم الامة في جميع مجالاتها، ويكفيها خلودا أنها شابهت سيرة النبي صلى الله عليه وآله وحكت كريم طباعه وسجاياه.

أهمية البحث

تنطلق أهمية هذا البحث من عظم دور الامام الحسن بن علي عليه السلام في تاريخ سيرة آل بيت النبوة عليهم السلام اولا «وفي التاريخ الاسلامي ثانيا». فقد كان عليه السلام من اروع الشخصيات

الفذة التي لمعت في سماء الأمة الإسلامية، وذلك لما اتصفت به شخصيته العظيمة من الحلم والعلم والخلق والسماحة والسخاء وغير ذلك من الصفات الرفيعة التي شابهت صفات الرسول ﷺ وحكت اخلاقه، وكانت له ﷺ حياة مثالية وسيرة فواحة عطرة تتدفق بها طاقات الاسلام الثرة الندية، وتتمثل فيها سيرة النبي ﷺ واخلاقه واتجاهاته، وتتجسد فيها جميع عناصر التربية الاسلامية الرفيعة.

وقد شارك الامام الحسن ﷺ في الكثير من حروب الدفاع عن بيضة الإسلام، وفي كثير من الفتوحات الإسلامية، كما ساهم بقوة وفاعلية بمعارك وحروب تثبيت اركان الاسلام والتصدي للانحراف والتشويه ودرء الفتن الى جانب ابيه واخيه ﷺ، منطلقاً من مقولة أبيه أمير المؤمنين ﷺ في رعاية مصلحة الإسلام العليا، التي كررها في أكثر من موضع: «وَاللّٰهُ لَا سَلْمَنَّ مَا سَلَمْتُ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً».

ان الدور العسكري للإمام الحسن المجتبي ﷺ كان من الأمور التي لم يتطرق اليها الكثير من المؤرخين والباحثين بالتفصيل والتمحيص والدراسة بل حاول البعض تجاوزها وتحريفها، فألصقت الاساءات والأكاذيب دسها في التأريخ الاسلامي بعض الرواة لدوافع واغراض مختلفة استهدفت الاساءة الى دور آل بيت النبوة ﷺ في الدفاع عن بيضة الاسلام بالسيف وذودهم عن حياضه واعلاء كلمته، ومن هنا تتأتى أهمية توضيح الدور العسكري للإمام الحسن ﷺ وبيان فكره العسكري الذي له دور فعال في تاريخ الاسلام والمسلمين.

مشكلة البحث

ان ابرز مشكلة تواجهنا في بحث ودراسة الفكر العسكري للإمام الحسن ﷺ هي الاخبار الموضوعية التي ألصقت بتأريخه النير، والتي دسها في التأريخ الاسلامي بعض الرواة المرتبطين بأعداء آل البيت ﷺ، وكذلك فقر المصادر التاريخية الى متابعة هذا

الجانب المهم من حياة أئمة آل البيت عليهم السلام، ذلك الجانب الذي نهض به بكل جدارة أبوه أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام صاحب سيف ذي الفقار.

أهداف البحث

ان تسليط الضوء على الجوانب المضيئة والمشرقة في حياة وسيرة الإمام الحسن عليه السلام، وإبراز دوره في الحياة الإسلامية تتطلب ايضا البحث في ابعاد الفكر العسكري الفذ للإمام الحسن بن علي عليه السلام وبيان دوره الكبير في تثبيت أركان الإسلام و الذي تميز بالإضافة إلى شجاعته الفريدة بقدرة عالية على إدارة المعارك وتوجيه صفحاتها وفق أساليب علمية فنية بحتة.

منهج البحث

اعتمد الباحث المنهج التاريخي والتحليلي، وذلك بجمع المادة العلمية في القضية موضع البحث، ثم محاولة تحليلها، ومناقشتها، ومن ثم الوصول إلى النتائج المرجوة.

هيكلية البحث

ولغرض تحقيق أهداف البحث وغاياته قسم الى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة وكما يلي:

المبحث الأول: نبذة موجزة عن سيرة الامام الحسن بن علي عليه السلام.

المبحث الثاني: الدور العسكري والمعارك التي شارك فيها الامام الحسن عليه السلام.

المبحث الثالث: ابعاد وملامح الفكر العسكري للإمام الحسن عليه السلام.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج التي تمخض عنها البحث.

الباحث

الدكتور عماد علّو الربيعي

Abstract

The military role of the Imam al-Hasan (peace be upon him) was of the things that did not touch it a lot of historians and researchers in detail and scrutiny and study, but some have tried to, abuses and lies, planting in Islamic history some narrators for different motives and purposes aimed to harm the role of the family of the Prophet Muhammad God bless him and in the defense of Islam by the sword..for that it is very important to "clarify the military role of Imam al-Hasan (peace be upon him) and the statement of his military role, in the history of Islam and Muslims.

Research problem

That the most prominent problem facing us in the research and study of the military thought of Imam Hassan (peace be upon him) is the news that set pasted On Imam Hassan, and that planting in Islamic history some narrators associated enemies al-Bayt peace be upon them. And poverty as well as historical sources to follow up this important aspect of the life of Imams al-Bayt peace be upon them.

Research Objectives

The highlight of the bright, bright aspects of life and the life of Imam Hassan (peace be upon him), and to highlight its role in the Islamic way of life also requires a "Search in dimensions feat military thought of Imam al-Hasan ibn Ali (peace be upon

them) and the statement of the large role in the installation of the pillars of Islam, which distinguishes In addition to the unique high capacity for battle management and guidance of pages in accordance with the technical scientific methods purely courage.

Research Methodology

Researcher historical and analytical approach adopted by collecting scientific article in the issue in question, and then try to analyze and discuss, and then access the desired results.

Research Structure

For the purpose of achieving the objectives of the research objectives and the Department has submitted to the three sections and a conclusion as follows:

The first topic: brief biography of Imam Hassan ibn Ali (peace be upon them).

The second topic: role of the military and the battles in which he participated Imam Hassan (peace be upon him).

The third topic: Features military thought of Imam Hassan (peace be upon him).

Conclusion: This includes the most important outcomes of the research.

المبحث الأول

نبذة موجزة عن سيرة الامام الحسن بن علي عليهما السلام

إن الحديث عن ريحانة المصطفى صلى الله عليه وآله، لمن الأحاديث التي تشرح الصدر وتروح النفس، وما ذلك إلا لأنه حديث عن بيت النبي صلى الله عليه وآله، وهل هناك أفضل من الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وأهله؟ لتتعلم عند حديثنا عن الامام الحسن عليه السلام الحب والزهد والحلم والخلق الكريم إنه الشبيه بالنبي صلى الله عليه وآله في خلقه وخلقه.. إنه الحبيب إلى قلب جده صلى الله عليه وآله.. إنه ابن علي الصحابي المغوار ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وأخيه ووزيره.

كنيته ونسبه عليه السلام

وكنيته عليه السلام، ابو محمد، كناه بها رسول الله صلى الله عليه وآله ويذكر ابن شهر آشوب بان كنيته ابو محمد وابو القاسم، فالإمام الحسن بن الامام علي بن ابي طالب سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وريحانته واحد سيدي شباب اهل الجنة، إنه: ابو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، أمه: فاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وُلِدَ الإمام الحسن بن علي السبط الأكبر للرسول محمد ﷺ سيد شباب أهل الجنة^(١) في شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وكان ذلك في السنة الثانية، أو الثالثة من الهجرة وقد شوهدت في طلعة الوليد طلعة الرسول ﷺ وبدأت فيه شمائل النبوة ومحاسن الإمامة^(٢)، وقيل أن أول من سماه هو رسول الله ﷺ، وقد أذن في أذنه اليمنى، وأقام في يسراه.

ويؤكد الرسول على هذه التسمية فيُعْلِنُ عن أسباب اختيارها، في ما رواه سلمان، قال: قال رسول الله: «سَمَى هَارُونَ ابْنَهُ شَبْرًا وَشُبَيْرًا، وَإِنِّي سَمَيْتُ ابْنِي الْحُسَيْنَ بِمَا سَمَى بِهِ ابْنُهُ: شَبْرًا، وَشُبَيْرًا»^(٣). دليلاً ومؤشراً على منزلة أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من النبي محمد ﷺ بمنزلة هارون في الخلافة، والوزارة، فليكن اسماً لابنه كاسمي ابني هارون، فعلي منزلته من النبي ﷺ هي منزلة هارون من موسى عليه السلام في كل شيء إلا ما استثناه النبي ﷺ وهي قضية النبوة فقط.

(١) قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن ربيع بن سعد عن أبي سابط، قال: «دخل حسين بن علي المسجد فقال جابر بن عبد الله: من أحب أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى هذا، سمعته من رسول الله ﷺ» البداية والنهاية: ٢٢٥/٨، مؤسسة التاريخ العربي.

(٢) الاصابة ج ١ ص ٣٢٨، الاستيعاب ج ١ ص ٣٦٨ تأريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٣، دائرة المعارف للبيهقي ج ٧ ص ٣٨. ذكر هؤلاء ان ولادته ﷺ كانت في السنة الثالثة من الهجرة في النصف من شهر رمضان، وجاء في شذرات الذهب ج ١ ص ١٠ ان ولادته كانت في الخامس من شهر شعبان. وهو اشتباه ظاهر ولعله اشتبه بالإمام الحسين عليه السلام فان ولادته كانت في الخامس من شهر شعبان.

(٣) انظر الحديث بطرق ابن عساکر في تاريخ دمشق، ترجمة الإمام علي عليه السلام الأحاديث المرقمة (٣٣٦ - ٤٥٦) المجلد الأول (ص ٣٠٦ - ٣٩٤) وما علق عليه محققه؛ ورواه ايضا البيهقي في كتاب النكاح من السنن الكبرى: ج ٧ ص ٦٣.

صفته

كان الامام الحسن عليه السلام، سيداً وسيماً جميلاً أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج العينين، سهل الخدين، كث اللحية كأن عنقه أبريق فضة، عظيم الكراديس بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير، من أحسن الناس وجهاً، جعد الشعر حسن البدن، وكان أشبه الناس بجده عليه السلام، وعن أبي خالد قال: «قلت لأبي جحيفة رأيت رسول الله عليه السلام؟ قال نعم كان أشبه الناس به الحسن بن علي»^(١)، قال: «أخبرنا عبد الله ابن مسلمة بن قعنب الحارثي، قال: أخبرنا علي بن عابس الكوفي، عن يزيد بن أبي زياد، عن البهي مولى الزبير، قال: تذاكرنا من أشبه النبي عليه السلام من أهله؟ فدخل علينا عبد الله ابن الزبير، فقال: أنا أحدثكم بأشبه أهله واحبهم إليه، الحسن بن علي، رأيت يجيء وهو ساجد فيركب -رقبته أو قال ظهره - فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، ولقد رأيت يجيء وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الاخر»^(٢).

(١) وأبو جحيفة بالتصغير وتقدير الجيم وهب بن عبد الله السوائي، قال في التقريب ٢ / ٣٣٨: السوائي بضم المهملة والمد، صحابي معروف، وصحب علياً، ومات سنة ٧٤.
وقد أخرجه البخاري برقم ٣٥٤٣ ومسلم برقم ٢٣٤٣ عن إسماعيل، وأخرجه أحمد في المسند ٤ / ٣٠٧ عن يزيد بن هارون وفي فضائل الصحابة برقم ١٣٤٨ عن وكيع عن إسماعيل.
ورواه الدولابي في الذرية الطاهرة برقم ٩٩ عن محمد بن منصور، عن ابن عيينة عن إسماعيل.
وأخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨١٦٢.

وأخرجه الترمذي في سننه برقم ٢٨٢٦ و ٣٧٧٧ عن محمد بن بشار، عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، وقال: هذا حديث صحيح، قال: وفي الباب عن أبي بكر الصديق وابن عباس وابن الزبير، ورواه قبله عن أنس.

وأخرجه الطبراني في ترجمة الحسن عليه السلام من المعجم الكبير: ٣ / ١٠، بالأرقام ٢٥٤٣ و ٢٥٤٤ و ٢٥٤٦ و ٢٥٤٩ بطرقه وأسانيده عن إسماعيل، عن أبي جحيفة؛ وبغيرها عن غيره في معناه، وخرجها المعلق في تعاليقه عن عبد الرزاق والترمذي وأبي يعلى والحاكم والذهبي والهيثمي.

(٢) رواه البلاذري في أنساب الاشراف برقم ٢٢ عن البهي نحوه وقال المصعب الزبيري في نسب قريش ص ٢٣: وذكر لي عن عبد الله البهي مولى آل الزبير، قال: تذاكرنا من أشبه الناس. وأخرجه

والإمام الحسن يعرفنا نفسه اذ قال: «يا أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فانا الحسن بن علي، وانا ابن النبي، وانا ابن الوصي، وانا ابن البشير، وانا ابن النذير، وانا ابن الداعي الى الله بإذنه، وأنا ابن السراج المنير، وأنا من أهل البيت الذي كان جبرائيل ينزل إلينا، ويصعد من عندنا، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(١).

مكانة الحسن عند جده ﷺ

كانت بشرى رسول الله ﷺ بمولد الحسن عظمة، فكان يحمله ويداعبه ويدعوه ليتسلق صدره ويلعب معه، فعن أبي هريرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين هذا على عاتقه وهذا على عاتقه وهو يلثم هذا مرة وهذا مرة حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله انك تحبهما، فقال: نعم من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني»^(٢).

وعلاقة رسول الله ﷺ بابنه الحسن ؑ فاقت حدود العلاقة العائلية الموروثة كعلاقة الأب بابنه وما يصحب هذه العلاقة من انشدادات عاطفية وانجذاب مشترك

الحافظ ابن عساكر برقم ٤٠ بإسناده عن الزبير بن بكار، عن عمه مصعب. كما أخرجه أيضاً برقم ٤٢ من طريق أبي بكر الشافعي عن ابن أبي الدنيا بإسناده عن البهي، وأخرجه أيضاً برقم ٤١ من طريق ابن سعد. وأورده المزي في تهذيب الكمال: ٦/ ٢٢٥. وأورده السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ وسبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص ص ١٩٥ كلاهما عن ابن سعد، وقال الأخير: وحكى ابن سعد في الطبقات بإسناده إلى عبد الله بن الزبير، قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو ساجد ويحيى الحسن ويركب ظهره.

(١) المستدرک على الصحيحین ج ٣ ص ١٧٢، ورواه محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص ١٣٨.

(٢) المستدرک على الصحيحین: ٣/ ١٦٦، دار المعرفة؛ مسند أحمد: ٢/ ٤٤٠، دار صادر؛ وكذلك ابن عساكر، تاريخ دمشق: ١٣/ ١٩٩، دار الفكر..

بين الطرفين، بل كانت علاقة تتجاوز هذا الحد، فالرسول المصطفى ﷺ يرفع تربية الحسن ﷺ رعاية مميزة وخاصة، فكان يغذيه بأدابه ومعارفه، فقد كان يخشى عليه من كل مكروه لحبه له وخوفه عليه لأنه أمانة الله عنده ووصي من بعد أبيه ﷺ، والامتداد الطبيعي للرسالة الإسلامية، فكانت طفولة الامام المجتبي في عهد النبي الاعظم ﷺ قد التقت بها جميع العناصر الحية، فالرسول ﷺ تولى تربيته، وأفاض عليه بمكرمات نفسه. وبذلك سمت فترة طفولته لتكون مثلاً للتكامل الانساني.

وأما المدة التي عاشها الامام في كنف النبي ﷺ، كانت سبع سنوات وستة أشهر من عمره الشريف، وهذه الفترة من العمر كافية للتربية لاسيما وأن المربي رسول و نبي، وهنا حتما ستكون تلك التربية مختلفة، حيث غرس الايمان في نفس المتربي^(١)، وكان النبي ﷺ يحبه حباً جماً، وكثيراً ما كان يحمله على كتفيه ويقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»^(٢) ويقول: «من أحب الحسن والحسين فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»^(٣)، ويقول أيضاً: «الحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة»^(٤).

وعن سعد بن أبي وقاص، قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ، والحسن والحسين يلعبان على بطنه، فقلتُ: يا رسول الله أتحبّهما، فقال: «وما لي لأُحبّهما وهما ریحانتاي»^(٥).

كما ورد أن الحسن ﷺ كان يركب على رقبة النبي ﷺ، وهو ساجد فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل، وكان يجيء والنبي راکع فيفرج له بين رجله حتى يخرج من

(١) الطبري، دلائل الامامة: ص ٦٠.

(٢) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٨.

(٣) البحار: ج ٤٣: ص ٢٦٤.

(٤) تاريخ الخلفاء: ص ١٨٩.

(٥) مسند البزار: ٣/ ٢٨٧، نشر مؤسسة علوم القرآن.

الجانِب الآخر^(١)، وكان يحملُه أحياناً على رقبته، ويخرج به إلى الناس، ويقول عنه: «نعم الراكب هو»^(٢).

وروى أبو بكرة قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة، وعليه أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣).

وأخرج البخاري في صحيحه باب مناقب المهاجرين، باب مناقب الحسن والحسين بسنده إلى البراء قال: «رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»^(٤). وغير ذلك من الروايات العديدة الدالة على اهتمام الرسول الأعظم ورعايته المنقطعة النظر لولده الحسن ﷺ، والتي تكشف عن عظم مقام الحسن ﷺ، وكبر شأنه، وتبين بوضوح مراد النبي ﷺ، من أمته في الاهتمام برحائله المباركة وتبجيلها، والسير وفق نهجها الشريف.

ومن جانبه فإن الإمام الحسن ﷺ كان شديد الانتباه والمتابعة لكل ما يصدر من جده الرسول ﷺ، لذلك جاء وصف الإمام المجتبي للنبي ﷺ، وهذا دليل على نباهة

(١) تاريخ دمشق: ١٣/١٧٦، دار الفكر، والإصابة: ٢/٦٢، دار الكتب العلمية.

(٢) سنن الترمذي: ٥/٦٦١، دار إحياء التراث العربي.

(٣) الإصابة: ١/٣٣٠، صحيح البخاري ذكره في الصلح، ورواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٥/ ٤٤ بإسناده عن المبارك عن الحسن بن أبي بكرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بالناس، وكان الحسن بن علي يثب على ظهره إذا سجد، ففعل ذلك غير مرة، فقالوا له: والله إنك لتفعل بهذا شيئاً، ما رأيناك تفعله بأحد، قال المبارك: فذكر شيئاً ثم قال: إن ابني هذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين، وذكره ابن حجر في صواعقه وجاء في العقد الفريد ١/ ١٦٤ أن الرسول ﷺ دخل على ابنته فاطمة فوجد الحسن طفلاً يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله سيصلح على يدي ابنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين.

(٤) صحيح البخاري: ٤/٢١٦، دار الفكر.

السيد الزكي وفطنته على ملامح الرسول الأعظم ﷺ، إذ كان دقيقاً في وصفه لحلية النبي ﷺ ومكارم أخلاقه، ومما جاء في وصفه لمنطق الرسول ﷺ قوله: «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحران، دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداق. ويتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين، يعظم المنّة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً، ولا يذم ذوّاقاً ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطني الحق لم يعرفه أحد، ولم يستقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، إذا أشار بكفه أشار بكفه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا تحدّث اتّصل بها فضرّب براحته اليمنى باطن ابهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غصّ طرفه، جلّ ضحكته التّبسم، ويفتر عن مثل حبّ الغمام...»^(١).

عبادة الامام الحسن بن علي عليه السلام

لقد كان ﷺ مثلاً للورع والتقوى يشهد له معاصروه من الصحابة الأبرار، ومارس مفهوم العبادة الشامل في حياته، فقد رضع لبان العبادة من معدن النبوة وتربية الزهراء، فأطل على الحياة في بيت الزهد والعبادة والتقوى والحلم والصبر وانغمس في هذه المفاهيم والمبادئ حتى غدا مثلاً من مثلها، يشهد له بذلك معاصروه من الصحابة الأبرار، ومن عاشره من الأخيار^(٢).

ويقول الامام الصادق ﷺ: «حدثني أبي عن أبيه أن الحسن بن علي بن أبي طالب كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم وكان إذا حج حج ماشياً وربما مشى حافياً، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى،

(١) أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبي ﷺ، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت ﷺ، قم، إيران ١٤٢٧ هـ، ج ٤، ص ١٩٨، الأشدق: البليغ المفوّه.

(٢) وفيات الأعيان: ٢٩٦.

وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهِق شهِقَةً يغشى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربه ﷺ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم، ويسأل الله الجنة ويعوذ به من النار، وكان ﷺ لا يقرأ من كتاب الله ﷻ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَّا قال: لبيك اللهم لبيك، ولم ير في شيء من أحواله إِلَّا ذاكراً لله سبحانه وكان أصدق الناس لهجة وأفصحهم منطقاً^(١). وكان إذا توضأ وفرغ من الوضوء تغير لونه، فقيل له في ذلك فقال: «حق لمن أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه»^(٢)، وكان الامام الحسن بن علي رضي الله عنهما إذا صلى الغداة في مسجد الرسول ﷺ يجلس في مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس^(٣).

زهد الامام الحسن رضي الله عنه

من خلال معايشة الامام الحسن رضي الله عنه للقرآن الكريم وملازمته لوالده أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، فقد تربى على كتاب الله، واستوعب الآيات التي تحدثت عن الدنيا، فهكذا أهل الزهد حقيقة، لا ينظرون إلى مصالحهم الدنيوية، ويقدمون مصالح الأمة دائماً، وعن زهده في الخلافة يقول رضي الله عنه: «كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالت ويحاربون من حاربت، فتركها ابتغاء وجه الله»^(٤). وكان رضي الله عنه عندما يُسأل عن سبب تركه الخلافة يقول: «خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً أو أكثر أو أقل كلهم تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيم أهريق دمه»^(٥).

(١) الأمالي، المجلس الثالث والثلاثون ص ١٧٨.

(٢) المناقب ج ٤ ص ١٤.

(٣) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٧ و ٣٨.

(٤) البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٠٦.

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق ١٤ / ٧٢.

محطات في حياة الامام الحسن عليه السلام

لقد اجتمع في الامام الحسن عليه السلام، شرف النبوة والإمامة، بالإضافة إلى شرف الحسب والنسب، ووجد المسلمون فيه ما وجدوه في جدّه وأبيه حتى كان يذكرهم بهما، فأحبّوه وعظّموه، وكان مرجعهم الأوحد بعد أبيه، فيما كان يعترضهم من مشاكل الحياة وما كان يستصعبهم من أمور الدين، لاسيّما بعد أن دخلت الأمة الإسلامية حياة حافلة بالأحداث المريرة التي لم يعرفوا لها نظيراً من قبل.

وكان الإمام الزكي المجتبي في جميع مواقفه ومراحل حياته مثلاً كريماً للخلق الإسلامي النبوي الرفيع في تحمّل الأذى والمكروه في ذات الله، والتحلي بالصبر الجميل والحلم الكبير، حتى اعترف له ألدّ أعدائه مروان بن الحكم بأنّ حلمه يوازي الجبال، كما اشتهر عليه السلام بالسماحة والكرم والجود والسخاء بنحو تميّز عن سائر الكرماء والأسخياء^(١)، وعاصر الامام الحسن عليه السلام، مراحل ومحطات تاريخية مهمة وحاسمة في تاريخ الأمة الإسلامية وتبلور ونشوء الدولة الإسلامية الفتية، التي أسسها جده المصطفى عليه السلام، وأبوه الامام علي المرتضى عليه السلام، وكان يقوم بأكثر ممّا ينتظر من مثله، من حيث وعيه وإحساسه بالأوضاع العامة وتطوّراتها، ومن هنا كان يتمتّع بتقدير المسلمين واحترامهم له بعد ما شاهدوا مدى اهتمام نبيّهم به.

ولقد وقف الإمام الحسن الزكي إلى جانب أبيه عليه السلام في مختلف المواقف، وعمل مخلصاً لأجل الإسلام، في كلّ ما يقول ويفعل، واشترك معه في جميع حروبه، وكان يتمنّى من أبيه أن يسمح له بمواصلة القتال وخوض المعارك عندما يتأزّم الموقف، فيما كان أبوه شديد الحرص عليه وعلى أخيه الحسين عليه السلام خشية أن ينقطع بقتلهما نسل رسول الله عليه السلام، وبقي الحسن عليه السلام إلى جانب والده إلى آخر لحظة.

(١) أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، المصدر السابق، ص ١٨ ..

ولما استشهد أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبقي الحسن بن علي عليه السلام بين تلك الأعاصير، والمواقف الصعبة والحاسمة على الصعيد السياسي والعقائدي، لاسيما بعد أن نصّ أمير المؤمنين عليه السلام على خلافة ابنه الحسن الزكي وسلّمه مواريث النبوة اجتمع عليه أهل الكوفة وجماعة المهاجرين والأنصار، وبايعوه بالخلافة، بعد أن طهره الله من كلّ نقص ورجس، بالإضافة إلى توفر جميع متطلّبات الخلافة فيه من العلم والتقوى والحزم والجدارة، وتسابق الناس إلى بيعته في الكوفة والبصرة، كما بايعه أهل الحجاز واليمن وفارس وسائر المناطق التي كانت تدين بالولاء والبيعة لأبيه عليه السلام ^(١).

واستلم الإمام الحسن السلطة بعد أبيه، وقام بأفضل ما يمكن القيام به في ذلك الجوّ المشحون بالفتن والمؤامرات، فأمر الولاة على أعمالهم وأوصاهم بالعدل والإحسان ومحاربة البغي والعدوان، ومضى على نهج أبيه عليه السلام الذي كان امتداداً لسيرة جدّه المصطفى عليه السلام، لذلك فقد أبى أن يعلن الحرب على معاوية بن أبي سفيان، الذي نافس أباه أمير المؤمنين وحاربه طمعاً بالسلطة إلّا بعد أن كتب إليه المرّة بعد المرّة يدعوه إلى جمع الكلمة وتوحيد أمر المسلمين، فلم يُبق له في ذلك عذراً أو حجة.

وقد استحضر واستعد معاوية لحرب الإمام الحسن عليه السلام بمحاولة اغراء قادة الإمام الحسن عليه السلام، بالأموال والمناصب وتضليل الرأي العام، معتمداً المكر والخداع والتمويه وشراء الضمائر وتفتيت جيش الإمام عليه السلام، ولم يكن للإمام بدّ من اختيار الصلح بعد أن تخاذل عامة جيشه وأكثر قادته، ولم يبق معه إلّا فئة قليلة من أهل بيته والمخلصين من أصحابه، فتغاضى عن السلطة دفعاً للأفسد بالفاسد في ذلك الجوّ المحموم، فكان اختياره للصلح في منتهى الحكمة والحنكة السياسية الرشيدة تحقيقاً لمصالح الإسلام العليا وأهدافه المثلّية ^(٢)، وعلى الرغم من تعرّض الإمام الحسن السبط عليه السلام للنقد اللاذع

(١) المصدر السابق، ص ١٩.

(٢) أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، ص ٢١.

من شيعته وأصحابه الذين لم يكونوا يدركون الظروف القاسية التي اضطرتّه إلى تجنب القتال واعتزال السلطة.

وقال الحضرمي: «وكان صلحه هذا رضي الله تعالى عنه من أعظم التدبير ومن خفي اللطف الذي جرت به المقادير فانه رضي الله تعالى عنه حقن به دماء خلق كثير وفاز فيه بأجر كبير»^(١).

ولما دخل معاوية بن ابي سفيان الكوفة صعد المنبر فخطب الناس وذكر أمير المؤمنين عليه السلام ونال منه، ونال من الحسن عليه السلام ما نال، وكان الحسن والحسين عليهما السلام حاضرين، فقام الحسين عليه السلام ليرد عليه فأخذ بيده الحسن عليه السلام وأجلسه، ثم قام فقال: «أيها الذاكر علياً أنا الحسن وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر وأمي فاطمة وأمك هند، وجدي رسول الله وجدك حرب وجدتي خديجة وجدتك فتيلة، فلعن الله أخلصنا ذكراً والأمناء حسباً وأشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً، فقالت طوائف من أهل المسجد: آمين آمين»^(٢). وتوج الإمام المجتبي عليه السلام جهاده العظيم هذا والذي فاق الجهاد بالسيف في تلك الظروف العصيبة، باستشهاده مسموماً على يد أعدائه، فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يُبعث حياً^(٣)، وقد اختلف المؤرخون في السنة التي توفي فيها الإمام فقيل: سنة ٤٩ هـ، ذهب إلى ذلك ابن الأثير وابن حجر في تهذيب التهذيب، وقيل: سنة ٥١ هـ، ذهب إلى ذلك الخطيب البغدادي في تاريخه وابن قتيبة في الإمامة والسياسة، وقيل غير ذلك^(٤).

(١) وسيلة المال في عد مناقب الآل عليهم السلام ص ٣٤٤ مخطوط.

(٢) الإرشاد ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٤) المسامرات، ص ٢٦.

المبحث الثاني

الدور العسكري والمعارك التي شارك فيها الإمام الحسن عليه السلام

حاول العديد من الباحثين في سيرة وحياة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، تجنب الغوص والتعمق في بحث محطة مهمة من محطات حياته الشريفة والتي تخص جانباً مهماً منها ألا وهي المحطة التي تخص حياته العسكرية وشجاعته، التي حاول البعض إما متعمداً أو متوهماً أو جاهلاً أن ينتقص منها، فكان لابد لنا من خوض غمار هذا البحر والذهاب في هذه المحاولة المتواضعة لبيان حقيقة قيادة الإمام الحسن عليه السلام العسكرية والميدانية، وقدراته القيادية في الجوانب العسكرية، بغية الوقوف على ملامح الفكر العسكري للإمام المجتبي عليه السلام.

فالإمام الحسن عليه السلام هو الوريث الشرعي للنبي صلى الله عليه وآله ووصيه علي عليه السلام وذلك وفق النصوص التي وردت في القرآن وفي الأحاديث الشريفة، وقد ثبت ذلك بالأدلة القطعية من الكتاب والسنة فمن أراد التفصيل فليرجع الى كتب التفسير والحديث فإن فيها الجواب الشافي لمن أراد البحث، ومما أثر عن الإمام الحسن عليه السلام أنه قال: «لا أدب لمن لا عقل له، ولا مودة لمن لا همة له، ولا حياة لمن لا دين له، ورأس العقل معاشره الناس بالجميل، وبالعقل تدرك سعادة الدارين، ومن حرم العقل حرمهما جميعاً»^(١).

وقد شارك الإمام الحسن عليه السلام في العديد من المعارك والحروب على امتداد حياته الشريفة، الأمر الذي يعني أن له خبرة مهمة في الحرب والقتال واساليب تنظيم وقيادة

(١) كشف الغمة ٢: ١٩٨ (ذكر مواظمه عليه السلام)، أنوار الهداية ج ٤ ص ٢٠٥..

الجيش، فضلاً عن اساليب استخدامها وتوظيفها لمصلحة الاسلام والمسلمين.

ولما كان من المعلوم عند أهل العقل والمنطق أن الموقع العسكري للمقاتل يختلف باختلاف مؤهلات كل من الجندي والقائد، فالقائد لابد أن يكون متمتعاً بصفات تؤهله لهذه القيادة، كأن يكون متميزاً بالشجاعة وروح المبادرة والقابلية على الإعداد والتخطيط والقدرة على العمل الجماعي، فكيف إذا كان اختيار شخص الإمام الحسن (ع) قد تم على يد أبيه سيد المتقين وأكبر علماء الأمة علي بن أبي طالب (ع)، فلو لا أن الإمام الحسن (ع) كان يتمتع بالصفات التي تليق بالقيادة وتؤهله لهذا الدور لما اختاره الإمام علي (ع)، ولا عترض الجيش على ذلك الاختيار، لكن الذي ظهر في الإمام الحسن (ع) من العقل والقدرة على الحركة وروح المبادرة أثناء قيادته لأجنحة جيش أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) أثناء حروب مقارعة الظلم.

دور الامام الحسن (ع) في الفتوحات الاسلامية

١. دوره في فتح افريقية (تونس): يذكر أن الخليفة عثمان جمع يوماً أكابر الصحابة وكان بينهم الإمام علي (ع) في مسجد رسول الله (ص) واستشارهم في غزوة إفريقية، فرأوا في الأكثر أن المصلحة في أن لا تقع بأيدي أصحاب الأغراض والأهواء والمنحرفين^(١) وكان ذلك في سنة ٢٧هـ، ويؤكد ذلك ابن الأثير بقوله: «أنه في سنة ٢٧هـ في عهد الخليفة عثمان بن عفان أن عبد الله بن سعد لما ولي أرسل إلى عثمان في غزو إفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره فسار بهم عبد الله بن سعد إلى إفريقية»^(٢). ويذكر الدكتور علي محمد الصلابي أنه عندما

(١) الفتوح، ابن أعثم، الترجمة الفارسية، ص ١٢٦.

(٢) ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد

أراد عثمان أن يفتح أفريقية استشار الأكابر من أصحاب رسول الله، فقد جاء في رياض النفوس أن أمير المؤمنين عثمان جاءه من واليه على مصر عبد الله بن سعد، أن المسلمين يغيرون على أطراف أفريقية فيصيبون من عدوهم وأنهم قريبون من حوز المسلمين، فأعرب عثمان بن عفان على إثر ذلك للمسور بن مخرمة عن رغبته في بعث الجيوش لغزو أفريقية، جاء في هذا الصدد ما نصه: فما رأيك يا بن مخرمة؟ قلت: أغزهم، قال: اجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله، واستشيرهم، فما أجمعوا عليه فعلته، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته... رأيت علياً، وطلحة والزبير والعباس، وذكر رجالاً، فخلا بكل واحد منهم في المسجد، ثم دعا أبا الأعور سعيد بن زيد، فقال له عثمان: لم كرهت يا أبا الأعور من بعثة الجيوش إلى أفريقية؟ فقال له: سمعت عمر يقول: لا أغزها أحداً من المسلمين ما حملت عيناى الماء، فلا أرى لك خلاف عمر، فقال له عثمان: والله ما نخافهم وإنهم لراضون أن يقرؤا في مواضعهم، فلا يغزون، فلم يختلف عليه أحد ممن شاوره غيره، ثم خطب الناس، وندبهم إلى الغزو إلى أفريقية، فخرج بعض الصحابة، منهم عبد الله ابن الزبير وأبو ذر الغفاري، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر والحسن والحسين وغيرهم كثير، ويقول ابن خلدون في العبر أنه «لما أراد المسلمون فتح أفريقية فإنَّ عثمان جهَّز العساكر من المدينة، وفيهم جماعة من الصحابة، منهم ابن عباس وابن عمر وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير، وساروا مع عبد الله بن أبي سرح سنة ستٍّ وعشرين»^(١). ويؤيد ذلك: كان عبد الله من جند مصر، وكان قد أمره عثمان بغزو أفريقية سنة خمس وعشرين وقال له عثمان: إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلاً، وأمر عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث

الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٩٩٧.

(١) العبر (تاريخ ابن خلدون): ١ / ١٢٨.

على جند وسرّحهما، وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن سعد صاحب أفريقية، ثم يقيم عبد الله في عمله، فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر، وكان من بين الجيش الذي أرسله عثمان جماعة من أعيان الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وابن جعفر، والحسن، والحسين، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أن وصلوا برقة فلقبهم عقبة بن نافع^(١). وبعد انتصارهم الكبير على أعدائهم اتجه الحسن ومعه ثلة مباركة من المسلمين إلى عاصمة الخلافة وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الإسلامي، وانتشار دين رب العالمين^(٢). وتتفق المصادر التاريخية على أن غزو أفريقية (تونس) تم في سنة ٢٧هـ أي أن عمر الامام الحسن عليه السلام عندما شارك في هذه الحملة العسكرية الكبيرة كان ٢٤ أو ٢٥ عاما وقد شارك معه في الحملة أخوه ابو عبد الله الحسين عليه السلام. ولم يكن غزو أفريقية معركة واحدة، بل عدد من المعارك التي خاضها المسلمون ضد الروم بقيادة ملكها يوم ذاك جرجير ويمتد ملكه من طرابلس إلى طنجة وكان يؤازره في الحكم هرقل ملك الروم؛ لأنه كان يدفع إليه الخراج كل سنة، وإن عبد الله بن سعد عاد من إفريقية إلى مصر وإن مقامه بأفريقية سنة وثلاثة أشهر^(٣). أي أن الامام الحسن عليه السلام بقي في أفريقية مع الجيش الإسلامي أكثر من سنة قبل عودته الى المدينة المنورة في نهاية سنة ٢٨هـ. وهي فترة غير قليلة من الخبرة القتالية والمعرفة العسكرية بفنون القتال والحرب، وما هي الا شهور قليلة حتى ينطلق السبطان الحسن والحسين عليهما السلام الى رحلة جهادية جديدة باتجاه الكوفة، وذلك بحدود سنة (٣٠هـ) استعدادا للمشاركة في غزو طبرستان.

(١) للاستزادة راجع: الأخبار الطوال ص ١٢٣، الإصابة ترجمة ٨٦٥٤، الاستيعاب ج ٣/ ص ٥١٢، فتوح البلدان، البلاذري ص ٣٥٩، معجم البلدان: ج ٢/ ص ١٩٢.

(٢) الصلابي، الدكتور علي محمد، الحسن بن علي بن أبي طالب شخصيته وعصره، دار المعرفة بيروت، ط ٤ (٢٠٠٦م)، ص ١١١-١١٢.

(٣) الكامل في التاريخ: ٨٥/٣.

٢. دور الامام الحسن عليه السلام في فتح طبرستان: طبرستان (بفتح الطاء والباء وكسر الراء) هو إقليم عرفه العرب والفرس باسمه منذ القرون القديمة، وهو يقع في شمال دولة إيران اليوم ويمتد في معظمه على الساحل الجنوبي لبحر قزوين عبر سلسلة جبال ضخمة أعطته هيبة عند قدماء العرب، كما يصفه ياقوت الحموي في معجم البلدان^(١)، وتسمى هذه السلسلة الآن سلسلة جبال البروز وهي تمتد عبر أقاليم مازندران وكلمستان وشمال سمنان، وكان يُسمى الفرس حاكم إقليم طبرستان بـ«الأصبهذ»، وتتفق المصادر التاريخية على أنه في سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص «طبرستان»، وكان أهلها في خلافة عمر قد صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه، ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس^(٢)، وقد تقدم في أيام عمر الخلاف في ذلك وأن (أصبهذها) قد صالح سويد بن مقرن أيام عمر على مال بذله، وأما على هذا القول فإن سعيداً غزاها من الكوفة سنة ثلاثين ومعه الحسن والحسين وابن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وابن الزبير وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وقد بدأ سعد خلال فتحه طبرستان بقرية طميس (وهي آخر مدن طبرستان من جهة الشرق (جهة خراسان)، وهي تقع في السهول عند تخوم طبرستان الشرقية بعيداً عن سلسلة الجبال الكبيرة التي تغطي معظم الإقليم، وتفصل بينها وبين جرجان سلسلة الجبال الوعرة هذه التي تمتد حتى البحر بحيث تحجز المدينتين عن بعضهما تماماً وتجعل العبور من طميس إلى جرجان صعباً جداً، وقد كانت طميس مدينة كبيرة وعامرة فيها مسجد كبير وقائد عسكري مع ألفي رجل، ويُنسب إليها عدة علماء فأخذها، ثم سار إلى جرجان وصالح حاكمها على أن يدفع له

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان ٦ / ١٠.

(٢) معجم البلدان، ٦ / ١٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣ / ٨٥.

٢٠٠ ألف درهم^(١) وتابع سيره بعد ذلك ففتح الرويان ودنباوند، ثم توقف بعد ذلك ولم يتوغل في عمق جبال طبرستان بل اكتفى بجباية المال من أهلها، مما سبق نلاحظ صعوبة مسالك ومسار الحملة العسكرية الاسلامية التي فتحت طبرستان وكان ضمنها الامام الحسن عليه السلام، من حيث وعورة التضاريس الجغرافية وطبيعة المعارك التي جرت في تلك البقاع البعيدة الوعرة، بالإضافة الى ما انتهت اليه الحملة من مفاوضات بين المسلمين وسكان مدن طبرستان، ومن المفيد أن نعلم أن عمر الامام الحسن في تلك الغزوة كان بين ٢٦ و ٢٨ سنة، ولم نقف على وجه اليقين في المصادر التاريخية عما كان يفعله الامامان الحسن والحسين عليهما السلام في الكوفة التي انطلقت منها الحملة العسكرية لفتح طبرستان، حيث لاحظنا ان الكثير من المصادر التاريخية المتقدمة والمتأخرة تحاول التعقيم والقاء ظلال ثقيلة من الشك والريب فيما ينسب إلى الإمامين الهمامين الحسن والحسين عليهما السلام من الاشتراك في فتح طبرستان أو في فتح أفريقية، مع أن عدداً من كتب التاريخ التي عدّدت أسماء كثيرة من الشخصيات المشتركة في فتح أفريقية لم تذكرهما، علماً بأنهما من الشخصيات التي كان يهم السياسة التأكيد على ذكرها في مقامات كهذه، وهذا يدل على محاولات مشبوهة للنيل من دور آل البيت عليهم السلام في الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الاسلامي وفق ما أوصى به الرسول محمد صلى الله عليه وآله فضلاً عن التعقيم على بطولاتهم وشجاعتهم في الحرب والقتال.

(١) بهاء الدين محمد بن إسفنديار، «تاريخ طبرستان»، ترجمة «أحمد محمد نادي»، ص ٧٣-٨٠، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ من دار «المجلس الأعلى للثقافة»؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الأول ص ١٠٩-١١١ (ذكر غزو سعيد بن العاص طبرستان)، دار صادر - بيروت - ١٩٧٩.

٣. موقف الامام الحسن عليه السلام في حادثة مقتل الخليفة عثمان: نقل بعض المؤرخين: أنه حينما حاصر الثائرون عثمان بعث الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بولديه الحسن والحسين عليه السلام للدفاع عنه ^(١). وعلى الرغم من شك السيد الشريف المرتضى في إرسال أمير المؤمنين عليه السلام ولديه للدفاع عن عثمان، بقوله: «فإنّما أنفذهما إن كان أنفذهما ليمنعنا من انتهاك حريمه وتعمّد قتله، ومنع حرمة ونسائه من الطعام والشراب، ولم ينفذهما ليمنعنا من مطالبته بالخلع» ^(٢)، ويؤكد ذلك قول الامام أمير المؤمنين علي عليه السلام وهو يؤنب المحاصرين بقوله: «يا أيّها الناس: إن الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرّجل الماء، ولا المادة فإن الرّوم، وفارس لتأسر، وتطعم، وتسقي» ^(٣)، وهكذا يتّضح أنّ نصرته الحسين عليه السلام لعثمان بأمر من أبيهما الإمام علي عليه السلام قد كانت منسجمة كلّ الانسجام مع خطّهم عليهم السلام الذي هو خطّ الإسلام الصافي والصحيح، وهو يدخل في عداد تضحياتهم الجسام وما أكثرها في سبيل هذا الدين! كما أنّه دليل واضح على بُعد النظر والدقّة والعمق.

٤. دور الامام الحسن عليه السلام في لم الشمل وتوحيد الصفوف: وهو دور لا يقل اهمية عن دوره في الحرب والقتال في سبيل الله، كيف وقد انتدبه واختاره بعناية لهذا الدور ابوه أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام، فعندما امتنع وماطل ابو موسى الاشعري والي الكوفة عن بيعته الامام علي عليه السلام أميرا للمؤمنين بعد مقتل عثمان، ارسل اليه أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام عدداً من الرسل لإقناعه بالبيعة، واستنفار اهل الكوفة لنصرة أمير المؤمنين، لإخماد نار

(١) ينظر، الصواعق المحرقة: ١١٥-١١٦، ومروج الذهب: ٢/ ٣٤٤-٣٤٥، والإمامة والسياسة: ١/ ٤٤ و ٤٢ و ٤٣، وأنساب الأشراف: ٥/ ٦٩ و ٧٠ و ٧٤ و ٩٣ و ٩٥، والبدء والتاريخ: ٥/ ٢٠٦، وتاريخ مختصر الدول، ص ١٠٥.

(٢) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد: ٣/ ٨.

(٣) ينظر، تاريخ الطبري: ٥/ ٤٠٠.

الفتنة، فأوفد لِقياهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وزوّدَهما برسالة جاء فيها: «أني اخترتكم على الأمصار، وفزعت إليكم لما حدث، فكونا لدين الله أعواناً وأنصاراً، وأيدونا وانفضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخواناً، ومن أحبّ ذلك وآثره فقد أحبّ الحق، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وأغمضه»^(١)، وعرض الرسولان رسالة الإمام علي عليه السلام على أبي موسى الأشعري والي الكوفة، إلّا أنّهما لم يجدا منه آية استجابة، وإنّما وجدها يثبط العزائم ويمنع الناس من الاستجابة لنداء الخليفة، وبرّر عناده قائلاً: «والله إنّ بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بدّ من القتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان...»^(٢)، فأوفد الإمام علي عليه السلام لِقيا الأشعري رسولاً ثالثاً هو هاشم المرقال، فلم يكن أوفر حظاً في اقناع الأشعري من سابقه، وبعد أن عرف الإمام علي عليه السلام إصرار أبي موسى وعدم إفلاح الرسل معه؛ بعث إليه ولده الحسن عليه السلام ومعه عمار بن ياسر، وأرسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى عن منصبه وتعيين قرصة ابن كعب مكانه^(٣). ووصل الإمام الحسن عليه السلام إلى الكوفة فالتأم الناس حوله زمراً، وهم يعربون له عن انقيادهم وطاعتهم، ويظهرون له الولاء والإخلاص، وأعلن الإمام عليه السلام عزل الوالي المتمرد عن منصبه، وتعيين قرصة محله، ولكنّ أبا موسى بقي مصرّاً على موقفه، فأقبل على عمار بن ياسر يحدّثه في أمر عثمان علّه يجد في حديثه فرجة، فيتّهمه بدم عثمان ليتّخذ من ذلك وسيلة إلى خذلان الناس عن الإمام فقال له: «يا أبا اليقظان! أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار؟» فأجابه عمار: «لم أفعل ولم تسؤني»، وعرف الإمام الحسن عليه السلام غايته، فقطع جبل الجدال، وقال له: «يا أبا موسى! لم تثبط عنا الناس؟». وأقبل الإمام يحدّثه برفق ولين لينزع روح الشرّ والعناد

(١) ينظر، تاريخ الطبري (٣/ ٣٩٣ و ٣٩٤).

(٢) الطبري، المصدر السابق.

(٣) القرشي، حياة الإمام الحسن: ١/ ٤٣٤.

عن نفسه قائلاً: «يا أبا موسى! والله ما أردنا إلا الإصلاح، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء». فقال أبو موسى: صدقت بأبي أنت وأمي، ولكن المستشار مؤتمن، فأجابه الإمام (عليه السلام): «نعم». فقال أبو موسى: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب، وقد جعلنا الله (صلى الله عليه وآله) إخواناً، وحرّم علينا أموالنا ودماءنا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١)، وقال (صلى الله عليه وآله): ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾^(٢). فردّ عليه عمّار قائلاً: «أنت سمعت هذا من رسول الله؟». قال أبو موسى: «نعم، وهذه يدي بها قلت». فالتفت عمّار إلى الناس قائلاً: «إنّما عنى رسول الله بذلك أبا موسى، فهو قاعد خير من قائم»^(٣). وبقي أبو موسى مصراً على موقفه يثبّط العزائم، ويدعو الناس إلى القعود وعدم نصره الإمام، فعنّفه الإمام الحسن (عليه السلام) قائلاً: «اعتزل عملنا أيها الرجل، وتنحّ عن منبرنا لا أم لك». وقام الإمام (عليه السلام) خطيباً بالناس فقال لهم: «أيها الناس! أجيئوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد إلى هذا الأمر من ينفر إليه، والله لئن يليه أولو النهى أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتكم، وأنّ أمير المؤمنين يقول: قد خرجت مخرجي هذا ظالماً أو مظلوماً، وأني أذكر الله رجلاً رعى حقّ الله إلّا نفر، فإن كنت مظلوماً أعانني، وإن كنت ظالماً أخذ، والله إنّ طلحة والزبير لأول من بايعني، وأوّل من غدرا، فهل استأثرت بهال أو بدلت حكماً؟ فانفروا وأمروا بالمعروف وانفروا عن المنكر»^(٤). فأجابه الناس بالسمع والطاعة،

(١) النساء: ٢٩.

(٢) النساء: ٩٣.

(٣) حياة الإمام الحسن القرشي: ١ / ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٤) حياة الإمام الحسن: ١ / ٤٣٦ - ١ / ٤٣٧ - ١ / ٤٣٨.

واستجابت الجماهير لدعوة الإمام، وعجّت الكوفة بالنفير ونزحت منها آلاف كثيرة، وقد بدا عليهم الرضا والقبول، وساروا وهم تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام، فانتهوا إلى ذي قار^(١) وقد التقوا بالإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان مقيماً هناك، فسّر بنجاح ولده، وشكر له جهوده ومساعدته.

٥. دور الامام الحسن عليه السلام وقعة الجمل^(٢): هي وقعة وقعت في البصرة عام ٣٦ هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والجيش الذي يقوده طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بالإضافة إلى عائشة التي قيل أنها ذهبت مع جيش المدينة في هودج من حديد على ظهر جمل، وسميت الوقعة بالجمل نسبة إلى ذلك الجمل، وبدون الدخول في تفاصيل الاحداث التي أدت الى هذه الوقعة، اذ ان ما يهمننا في هذا المقام هو تسليط الضوء على دور الامام الحسن عليه السلام في هذه المعركة، فعندما برز عبد الله بن الزبير خطيباً بين اهل البصرة^(٣) ليحرضهم على أمير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب عليه السلام، وبلغ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام خطاب ابن الزبير، فأوعز إلى ولده الإمام الحسن عليه السلام بالردّ عليه، فقام خطيباً، ورد على ابن الزبير رداً بليغاً حيث قال: «قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي وقوله فيه: إنه قتل عثمان، وأنتم يا معشر المهاجرين والأنصار وغيرهم من المسلمين، علمتم بقول الزبير في عثمان، وما كان اسمه عنده، وما كان يتجنّى عليه، وأنّ طلحة يومذاك ركز رايته على بيت ماله وهو حيّ، فأنتى لهم أن يرموا أبي بقتله وينطقوا بذمه؟! ولو شئنا القول فيهم لقلنا. وأما قوله: إنّ علياً ابتزّ الناس أمرهم، فإنّ أعظم حجة لأبيه زعم أنّه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه، فقد أقرّ بالبيعة وادّعى الوليعة، فليأت على ما ادّعاه ببرهان وأنتى له ذلك؟ وأما تعجّبه من تورّد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حقّ

(١) ذي قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يقع بينها وبين واسط، معجم البلدان: ٧ / ٨.

(٢) تاريخ الطبري ٥ / ٥٢٥.

(٣) القرشي، حياة الإمام الحسن: ١ / ٤٤٤.

تورّدوا على أهل باطل! أمّا أنصار عثمان فليس لنا معهم حرب ولا قتال، ولكنّا نحارب راکبة الجمل وأتباعها»^(١). وعندما اندلع القتال بين الطرفين شارك الإمام الحسن عليه السلام في القتال إلى جنب أمير المؤمنين عليه السلام، وحمل رايته وانتصر بها على الناكثين.

ومما أجمع عليه المؤرخون في ذلك أنه لما زحف أمير المؤمنين في كتيبته الخضراء التي جمعت المهاجرين والأنصار، وحوله أولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وكان قد أعطاه الراية، فحمل بها على أنصار عائشة ومضى يتقدم بها حتى ترعزت صفوفهم، فقال له الأنصار: والله يا أمير المؤمنين لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب، فقال لهم أمير المؤمنين: «إين النجم من الشمس والقمر؟ أما إنه قد أغنى وأبلى وله فضله، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى عليه». فقالوا له: يا أمير المؤمنين، إنّنا والله لا نجعله كالحسن والحسين، ولا نظلمهما له ولا نظلمه لفضلهما عليه حقّه، فقال: «إين يقع ابني من ابني بنت رسول الله؟»^(٢). الأمر الذي يوضح المساحة التي كان يشغلها الإمام الحسن عليه السلام في الذود عن الاسلام وآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فكان أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام يدفعه ويندبه لجسام المهام وعسير المواقف، لما كان يتمتع به عليه السلام من فصاحة وبلاغة لسان وقوة في الحجة والاقناع.

٦. دور الإمام الحسن عليه السلام في معركة صفين: وتعرف أيضاً بوقعة صفين: وهي حرب البغاة في الشام التي قادها معاوية بن أبي سفيان خروجاً على خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، وهكذا أيضاً كان دور الإمام الحسن عليه السلام فيها كدوره في وقعة الجمل، بل زاد عليه، فقد برز دوره في مراحل المعركة المختلفة وعلى الشكل التالي:

(١) المصدر السابق، ١ / ٤٤٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣: ٩، ١: ٢٨٣.

• دوره في مرحلة الاستحضارات: حيث قام بتعبئة المسلمين للجهاد وبذل جهده لإحباط مؤامرة التحكيم والاحتجاج على المنادين به، فقد وقف الإمام الحسن عليه السلام خطيباً يعبئ المسلمين لجهاد القاسطين البغاة بقيادة معاوية بن أبي سفيان فقال: «الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له، وإنه مما عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدى شكره ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنما غضبنا الله ولكم، وإنه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم واستحكمت عقدتهم، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، ولا تتخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة، لم يتمنّع قوم قط إلا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم حوائج الذلة، وهداهم إلى معالم الملة» ثم أنشد:

والصلح تأخذ منه ما رضيت به والحرب يلفيك من أنفاسها جرع^(١)
لقد حفل خطابه البليغ بالدعوة إلى الوحدة والتعاون لمحاربة الطغاة البغاة، واستجاب الناس لدعوته فاسرعوا لنصرة الحق والدفاع عن الدين الحنيف.

• دوره في مرحلة القتال: وكان للإمام الحسن عليه السلام دور بارز في حرب صفين، فقد نقل المؤرخون أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عندما نظم صفوف جيشه جعل الميمنة بقيادة الإمام الحسن عليه السلام وأخيه الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن جعفر ومسلم ابن عقيل^(٢)، وذلك للخبرة العسكرية والقتالية التي كان يتمتع بها الإمام الحسن عليه السلام. حيث لم تكن المواجهة في صفين على وتيرة واحدة، فكانت تارة على شكل مناوشات بين الفريقين، وتارة أخرى كانت بصورة التحام كامل بين الجيشين، استمرت لعدة أشهر تكبد فيها الجانبان خسائر كبيرة.

(١) القرشي: حياة الإمام الحسن عليه السلام : ١ : ٤٨٠، الحسيني: سيرة الأئمة الاثني عشر ١ : ٤٩٥.

(٢) مناقب ابن شهر آشوب: ٣ / ١٦٨.

• دوره في مرحلة التحكيم: وما نجم عنه من اضطراب في أوساط جيش الإمام علي عليه السلام، وتلافيا لما قد ينجم من تداعيات رأى الإمام عليه السلام ضرورة أن يدعو شخصاً يتمتع بثقة الجميع واحترامهم ليلقي فيهم خطاباً يتضمّن إبطالاً لحكم أبي موسى الأشعري بالدليل والبرهان، ويبيّن لهم مشروعية القبول بأصل التحكيم، فاختار الإمام عليه السلام ابنه الإمام الحسن عليه السلام فقال له: «قم يا بني، فقل في هذين الرجلين عبد الله بن قيس» يعني: أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص، فقام الإمام الحسن عليه السلام فاعتلى أعواد المنبر، وهو يقول: «أيها الناس! قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنّا بعثنا ليحكم بالكتاب على الهوى، فحكمنا بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمّ حكماً ولكنه محكوم عليه، وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة أنّه خالف أباه إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى، وأخرى أنّه لم يستأمره في نفسه^(١)، وثالثها أنّه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس. وأمّا الحكومة فقد حكم النبي صلى الله عليه وآله سعد بن معاذ في بني قريضة فحكم بما يرضى الله به، ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وآله»^(٢). لقد عرض الإمام الحسن عليه السلام في خطابه الرائع أهم النقاط الحساسة التي هي محور النزاع ومصدر الفتنة، فأبان عليه السلام أنّ المختار للتحكيم إنّما يتبع قوله، ويكون رأيه فيصلاً للخصومة فيما إذا حكم بالحق، ولم يخضع للنزعات والأهواء الفاسدة، وأبو موسى لم يكن في تحكيمه خاضعاً للحق، وإنّما اتّبع هواه فرشّ عبد الله بن عمر للخلافة، مع أنّ أباه كان لا يراه أهلاً لها، مضافاً إلى أنّ الشرط الأساسي في الانتخاب اجتماع المهاجرين والأنصار على اختياره ولم يحصل ذلك له، كما أعرب عليه السلام في خطابه عن مشروعية التحكيم بالأمر الذي أنكرته الخوارج،

(١) وفي رواية ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: ١ / ١٤٤ «أنه لم يستأمر الرجل في نفسه ولا علم ما عنده من رد أو قبول».

(٢) القريشي، حياة الإمام الحسن: ١ / ٥٣٠ - ٥٣٢.

مستدلاً عليه بتحكيم النبي ﷺ لسعد بن معاذ في بني قريضة.

٧. دور الامام الحسن (ع) في معركة النهروان: أذى نفاق وتمرد بعض الجهلاء والمتظاهرين بالتدين إلى أن تتمرد مجموعة كبيرة من جيش أمير المؤمنين (ع) فترفض الانصياع لأوامره، بل ذهب هؤلاء المارقون إلى أبعد من ذلك عندما أصدروا حكماً بتكفير الإمام (ع). وبعد الجرائم التي ارتكبها المارقون في العراق، اتخذوا من «النهر» قاعدة لتمردهم، وكان عبد الله بن الحباب بن الارت والياً عليها من قبل الإمام علي (ع)، فقتلوه وأفراد عائلته، فلما سمع أمير المؤمنين (ع) بذلك خطب أصحابه ونعى إليهم عبد الله بن الحباب وبكاه وقال: «لا تعود بعد قتل العبد الصالح عبد الله ابن الحباب». ثم تجهز للمسير وسار بعسكره حتى وصل إلى مدينة النهروان فلما سمع به القوم أغلقوا باب السور عليهم وتحصنوا، فبعث إليهم عبد الله بن عباس (ع) فخطبهم وذكرهم فلم يفد ذلك، فنهض إليهم الإمام علي (ع) ورفع صوته يخاطبهم محذراً من الفتنة وحاججهم فألجمهم وذكرهم ووعظهم فرجع منهم جماعة عن حربه وأصر الباقون وأعلنوا العناد، فعند ذلك استعد الإمام لحربهم واستعد معه أصحابه للحرب فقال (ع): «لا ينهض لحربهم غيري وغير ولدي». ثم مضى نحوهم ومشى خلفه ولده الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية (ع) فمسك الامام بباب المدينة واقتلعه قالع باب خير والقوم يرمونه وولده بالنبل، وكان لمدينة النهروان أربعة أبواب فقال لولده الحسن (ع): «بني دونك ذلك الباب» وأشار للباب الشرقي فمضى الحسن حيث أمره أبوه، وقال للحسين (ع): «أنت عليك بالباب الغربي، وقال لمحمد: أنت عليك بالباب الجنوبي» فمضوا حيث أمرهم أبوهم وانغمس أمير المؤمنين (ع) في وسط المدينة وحمل عليهم بسيفه ذو الفقار فتركهم بين طريح وجريح ومنهزم.

٨. دور الامام الحسن (ع) في العمل الاستخباري ومكافحة التجسس: وهي نقطة

مهمة تعكس بعد نظر وتحسب من لدن الامام (عليه السلام) خصوصاً بعد أن استلم الخلافة اثر استشهاد أمير المؤمنين الامام علي (عليه السلام)؛ حيث إن معاوية لما علم بوفاة أمير المؤمنين (عليه السلام) وبيعة الناس للإمام الحسن (عليه السلام) دسّ رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الإمام الحسن (عليه السلام) الأمور، فعرف ذلك الإمام فأمر باستخراج الحميري من عند لحام بالكوفة، فأخرج وأمر بضرب عنقه وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم فأخرج وضربت عنقه^(١). ثم كتب الإمام (عليه السلام) إلى معاوية: «أما بعد، فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحبّ اللقاء، لا أشك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله، وبلغني عنك أنك شمتّ بما لم يشمت به ذوو الحجى وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول:

فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تجهّز لأخرى مثلها فكأن قد^(٢)

لقد كانت هذه الحادثة إنذاراً لمعاوية بالحرب وتهديداً له وقطعاً لآماله بالاستيلاء على الكوفة بسلام، وهي تؤشر على حزم وشجاعة وبعد نظر الامام الحسن (عليه السلام).

الإمام الحسن (عليه السلام) ومعاوية - البعد العسكري

بعد أن استلم الإمام الحسن (عليه السلام) السلطة بعد أبيه، قام بأفضل ما يمكن القيام به في ذلك الجوّ المشحون بالفتن والمؤامرات، فأمر الولاة على أعمالهم وأوصاهم بالعدل والإحسان ومحاربة البغي والعدوان، ومضى على نهج أبيه (عليه السلام)، الذي كان امتداداً لسيرة جدّه المصطفى (عليه السلام). وبالرغم ممّا كان يعلمه الإمام الحسن من معاوية ونفاقه ودجله وعدائه لرسالة جدّه وسعيه لإحياء مظاهر جاهليته بالرغم من ذلك كلّ فقد أبى أن يعلن الحرب عليه إلّا بعد أن كتب إليه المرّة بعد المرّة يدعوّه إلى جمع الكلمة وتوحيد أمر

(١) أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبين: ٣٣.

(٢) المصدر السابق.

المسلمين، فلم يُبق له في ذلك عذراً أو حجةً.

ولما عزم الإمام الحسن بن علي عليه السلام على حرب معاوية خرج من الكوفة إلى معسكر النخيلة وخلف مكانه المغيرة بن نوفل بن حارث بن عبد المطلب، وأمره أن يحث الناس على الخروج والالتحاق به في المعسكر، والنخيلة هي قرية الكفل ونخيلات من جهة الغرب إلى الصحراء عبر مجرى نهر الفرات وبين النخيلة ومسجد الكوفة أربعة فراسخ^(١) أي ١٤ كم تقريباً.

و بتاريخ الخامس من ربيع الاول من عام ٤١ هـ خرج الناس أفواجاً تلبية لنداء الخليفة الخامس أمير المؤمنين الإمام الحسن عليه السلام فسار بهم من النخيلة إلى دير عبد الرحمن فمكث هناك ثلاثة أيام كي يتم الجيش، فصاروا أربعين ألفاً بين فارس وراجل فبعث عبيد الله بن عباس وقيس بن سعد في اثني عشر ألف رجل من دير عبد الرحمن إلى حرب معاوية، فقال عليه السلام: «عبيد الله أميركم فإن أصيب فقيس بن سعد على الناس»، وأمر عبيد الله أن يشاور قيساً وسعيداً.

الا أن تقدير الامام عليه السلام للموقف العسكري جعله يقف على احتمالية تحاذل اغلب جيشه بسبب نفاق معظم قادة جيشه وانسياقهم نحو الاغراءات والاموال التي عرضها عليهم معاوية بن ابي سفيان! فخرج الامام الحسن عليه السلام من هناك وتوجه إلى ساباط في المدائن، فأراد امتحان واختبار أصحابه وانجلاء كفرهم ونفاقهم وعدم وفائهم، فجمع الناس وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، فإني والله لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقهم، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له بسوء ولا غائلة، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة. ألا وإني ناظرٌ لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمري ولا تردوا عليّ رأيي، غفر

الله لي ولكم وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا». فنزل من المنبر، وأخذ المنافقون ينظر بعضهم إلى بعض وقالوا: ما ترونه يريد بما قال، نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه، فقام هؤلاء المنافقون وقد كان بعضهم على مذهب الخوارج باطناً وخفية فقالوا: «كفر والله الرجل». ثم شدّوا على فسطاطه وانتهبوه حتى أخذوا مصلاًه من تحته، ثم شدّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله فنزع مطرفه من عاتقه فبقى جالساً متقلداً السيف بغير ردائه ثم دعا فرسه فركبه وأحدقت به طوائف من خاصته وشيعته ومنع من أراد به سوء، فخرج ﷺ إلى المدائن، فلما مرّ في مظلم ساباط بدر إليه رجل من بني أسد يقال له الجراح بن سنان فأخذ بلجامه بغلته وبيده مغول (حديدة تجعل في السوط فيكون لها غلافاً) وقال: «الله أكبر أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل». ثم طعنه في فخذه، وقيل بحربة مسمومة على فخذه فشقه حتى بلغ العظم ثم اعتنقه الحسن ﷺ من الوجع وخراً معاً إلى الأرض، فوثب إليه شيعة الإمام فقتلوه ثم حملوا الإمام ﷺ على سرير إلى المدائن ونزل في بيت سعد بن مسعود الثقفي وكان عامل أمير المؤمنين ﷺ بها فأقرّه الحسن ﷺ على ذلك وكان عمّ المختار^(١).

المعركة الخاسرة

لما كانت الحرب خدعة، كان لغراء المال ومتمعة المناصب والسلطة التي وعد بها معاوية بعض قادة جيش الإمام الحسن ﷺ فضمنوا له تسليم الحسن ﷺ عند دونه منهم أو الفتك به فبلغ الحسن ﷺ ذلك فأدرك الإمام الحسن ﷺ فساد نيات القوم من خلال خذلانهم له وبما أظهره من السب والتكفير له، واستحلال دمه ونهب أمواله، ولم يبق معه من يأمن غوايله إلا خاصته من شيعة أبيه وشيعته، وهم جماعة لا تقوم لأجناد

(١) الإرشاد: ١٩٠، الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ هـ - ١١١١ هـ)، بحار الانوار، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان ١٩٨٣ م، ص ٤٤-٤٨.

الشام، فادرك أن أي مواجهة عسكرية مع جيش معاوية سيكون مصيرها الهزيمة والفشل، وأنها ستكون مبرراً للقضاء على شيعة آل بيت النبوة ﷺ، فصعد الإمام المنبر وقال: «يا عجباً من قوم لا حياء لهم ولا دين، ويلكم ان معاوية لا يفي لأحدٍ منكم بما ضمنه في قتلي، واني أقدر أن أعبد الله ﷻ وحدي ولكني كأني أنظر إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم، يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعله الله لهم فلا يسقون ولا يطعمون، والله لو وجدت صابرين عارفين بحقي غير منكرين ما سلّمت له هذا الأمر لأنه محرم على بني أمية فأفّ وترحاً يا عبيد الدنيا»^(١).

البعد العسكري

لم تكن هدنة الإمام الحسن ﷺ مع معاوية فيها خلاف لنهج أمير المؤمنين ﷺ بل كانت في صميم هذا النهج، ولقد أجاب الإمام الحسن ﷺ على هذا الإشكال بنفسه حينما سأله أبو سعيد عقيصاً، قال قلت للحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ: «يا بن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وان معاوية ضال باغ؟». فقال: يا أبا سعيد ألسْتُ حجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماماً عليهم بعد أبي ﷺ. قلت: بلى.

قال: ألسْتُ الذي قال رسول الله ﷺ لي ولأخي، الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا، قلت: بلى.

قال: فأنا إذن إمام لو قمت وأنا إمام إذا قعدت، يا أبا سعيد علة مصالحتي لمعاوية هي علة مصالحة رسول الله ﷺ لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية أولئك كفّار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفّار بالتأويل، يا أبا سعيد إذا كنت

إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيت من مهادة.

وان كان وجه الحكمة فيما أتيت ملتبساً ألا ترى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»^(١).

ويرد الإمام الحسن عليه السلام على هذه الشبهة بموضع آخر فيقول عليه السلام: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فوالله لأن أسأله وأنا عزيز، خير من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمنّ عليّ فتكون منّة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحي منّا والميت»^(٢). ولعل هناك ما هو أعظم من هذا فمعاوية الذي استحل قتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله كعمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، وحجر بن عدي الكندي، وغيرهم كيف لا يأتي بما هو أعظم من قتل الإمام الحسن عليه السلام، وهو ما صرح به الإمام الباقر عليه السلام في حديثه مع سدير، قائلاً له: «يا سدير أذكر لنا أمرك الذي أنت عليه فإن كان فيه إغراق كففناك عنه، وإن كان مقصراً أرشدناك»^(٣).

ان الصراع الفكري الذي تفاقم بشكل سلبي اثر التحكيم بعد واقعة صفين او معركة البغاة تطورت تداعياته مروراً بمعركة النهروان ثم اغتيال أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام على يد المرادي لعنه الله، كل ذلك انعكست تداعياته على معنويات وانسجام

(١) علل الشرائع: الصدوق: ج ١، ص ٢١١.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج ٢، ص ١٠.

(٣) المدائني، صلح الإمام الحسن، دار الغدير للطباعة والنشر بيروت، ١٩٧٣م، ص ٦٥، أعيان

الشيعة: ٢٠ - ١٩ / ٤.

جيش الإمام الحسن عليه السلام، الذي تجمّعت فيه عدّة اتجاهات مختلفة وعناصر متضادة، تثيرها بعض العصبية القبلية ولا تربطه وحدة الهدف.

وبحنكة القائد العسكري وخبرته القيادية وسبقه للنظر، شعر الإمام عليه السلام بخطورة هذا الموقف بين هذا الخليط الذي يحمل عوامل الانقسام على نفسه، وأمام هذا الموقف الصعب وما سبقه من النكبات والمحن المتتالية، وقف الإمام الحسن عليه السلام متطامناً على نفسه ناظراً في أمره، وإلى أين ستنتهي به هذه المسيرة، باحثاً عن المخرج من هذا المأزق الذي تداعت به معنويات جيشه في (مسكن) وتزلزلت منه قوى جيشه في المدائن، خاصة إذا نُظر بعين الموازنة بين جيشه وجيش عدوه من حيث العدد، في وقت طوّقت موجة الشائعات المتدفقة بمكر معاوية وخبثة جناحي الجيش في المدائن ومسكن، وفصّمت ما تبقى فيه من تماسك، وكانت سبباً في زلزلة فئات كثيرة من غوغاء الناس المتأرجحين بين الطاعة والعصيان ومحبي الفتن والاضطرابات، فلم يبق أمام الإمام الحسن عليه السلام سبيلٌ غير القبول بالهدنة، وترك أمر الحكم لمعاوية فترة من الزمن، ويتبين من خلال التمعّن في بنود معاهدة الهدنة أنّ الإمام عليه السلام لم يقدم أيّ امتياز لمعاوية، وأنّه عليه السلام لم يعترف به رسمياً باعتباره خليفةً وحاكماً للمسلمين، بل إنّها اعتبر الحكم والقيادة حقّه الشرعي، مثبتاً بطلان ادعاءات معاوية بهذا الصدد، ولئن غصّ الإمام المجتبي الطرف عن الخلافة لأسباب دينية ومبدئية، فهو لم يترك الساحة وموارث الرسول صلى الله عليه وآله لتنهب من قبل الجاهليين، بل نجده قد تصدّى لتربية القاعدة التي على أساسها تقوم الدولة وعليها تطبّق أحكام الشريعة^(١)، وليثبت أنّ معاوية ومن ذهب معه وانحاز إليه انما ارادوا الدنيا وخالفوا احكام الدين، وبدون أن يزجّ الناس في حرب، ويحملهم على ما يكرهون من إراقة الدماء وإنّ معاوية كان يخدع الناس بغشاء رقيق من الدين خوفاً من

(١) الشيخ راضي آل ياسين، صلح الحسن، ص ٣٧١-٣٧٢.

رغبة الناس إلى الحسن وأبيه من قبل، وهكذا فعل بعد الهدنة، عندما صعد المنبر في جمع غفير من المسلمين، وقال: «إني ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا...»^(١)!!

وبالجملة: فإنّ هذه الخطّة ثورة عاصفة في سلم لم يكن منه بدّ، أملاه ظرف الإمام الحسن عليه السلام، إذ التبس الحقّ بالباطل، وتسنى للطغيان فيه سيطرة مسلّحة ضارية، ما كان الحسن عليه السلام يبادئ هذه الخطّة ولا بخاتمها، بل أخذها فيما أخذه من إرثه، وتركها مع ما تركه من ميراثه، فهو كغيره من أئمة هذا البيت عليهم السلام يسترشد الرسالة في إقدامه وإحجامه، امتحن بهذه الخطّة فرضخ لها صابراً محتسباً وخرج منها ظافراً طاهراً.

المبحث الثالث

ابعاد وملامح الفكر العسكري للإمام الحسن

ان الموضوع الذي نحن بصددده يكتسب طابعاً فنياً بحثاً، فقد تتبعنا فيما سبق مقاطع من توجيهات وممارسات ميدانية لقائد فذ كان له دور كبير في تثبيت أركان الإسلام، ذلك هو الامام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي تميز وبالإضافة إلى شجاعته الفريدة بالحكمة وبعد النظر وشارك في الاعداد وإدارة المعارك وتوجيه صفحاتها وفق أساليب علمية فنية بحتة، الى جانب قادة مسلمين كان في مقدمتهم والده المرتضى عليه السلام. وسنحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على ابرز وابعاد ملامح الفكر العسكري لدى الامام الحسن المجتبي عليه السلام.

الحث على نشر الدين الاسلامي

يقول الطبرسي: روى علي بن موسى الرضا، عن الحسين بن علي قال: «بينما أمير المؤمنين يخطب و يحثهم على الجهاد اذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله، فقال: كنت رديف رسول الله على ناقته العضباء، ونحن منقلبون عن غزوة ذات السلاسل، فسألته عما سألتني عنه فقال: الغزاة إذا هموا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار فإذا تجهزوا لغزوهم باهى الله بهم الملائكة، فإذا ودعهم أهلوههم بكت عليهم الحيطان والبيوت، ويخرجون من الذنوب كما خرج [تخرج] الحية من سلخها...». وقد شارك آل بيت النبوة عليهم السلام في حروب الاسلام منذ أن اذن الله بذلك في محكم كتابه الكريم بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلُمُوا وَإِنْ

اللَّهِ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿١﴾ فكانت مشاركة السبطين عليه السلام في فتوح أفريقية سنة ٢٧هـ، ^(٢) كذلك في فتوح طبرستان سنة ٣٠هـ، و كان عمر الامام الحسن عليه السلام عندما شارك في تلك الحملات العسكرية الكبيرة بين ٢٤ الى ٢٥ عاما وما تخللته من سفر لمسافات طويلة وما تضمنته من صفحات قتالية استغرقت عدداً من المعارك بين كر وفر ومفاوضات بين المسلمين واعدائهم في بعض مراحلها، كل ذلك يعني أن الجهاد في سبيل الله لرفع راية الاسلام من خلال الفتوح الاسلامية في ارجاء المعمورة، شكل ركنا أساسيا في الفكر العسكري للإمام الحسن عليه السلام، متوخيا من خلال ذلك اعلاء ونشر رسالة جده المصطفى عليه السلام وسيرا على خطى والده المرتضى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام في الذود عن حمى الاسلام ورفع رايته عاليا في الارض والذي قال: «ان الله فرض الجهاد وعظمه وجعله نصره وناصره والله ما صلحت دنيا ولا دين الا به» ^(٣). ان تلك المشاركات الجهادية للإمام الحسن عليه السلام ما كانت لتتم لولا موافقة وحث والده أمير المؤمنين الامام علي عليه السلام الذي كان يشرف ويدير استراتيجية الفتوحات الاسلامية في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وبداية عهد الخليفة عثمان بن عفان، ومن الجدير بالذكر أن هذه المشاركة من لدن الامام الحسن عليه السلام في الفتوحات الاسلامية، حاول العديد من المؤرخين المتقدمين والمتأخرين التعتيم عليها والقاء ظلال ثقيلة من الشك والريبة حولها، فيما ينسب إليه من الاشتراك في فتوح طبرستان

(١) سورة الحج، الآية: ٣٩-٤٠.

(٢) للاستزادة راجع: الأخبار الطوال ص ١٢٣، الإصابة ترجمة ٨٦٥٤، الاستيعاب ج ٣/ ص

٥١٢، فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٥٩، معجم البلدان ج ٢/ ص ١٩٢.

(٣) الحر العاملي، وسائل الشيعة، مصدر سابق، ج ١١، ص ٩. وحول اعلاء شأن الجهاد عند

الامام ينظر: الشريف الرضي (الجامع)، نهج البلاغة، تعليق وفهرسة د. صبحي، خطبة ٢٧، ص ٦٤.

المجلسي، مصدر سابق، ج ٧٩، ص ١٢. المحمودي، مصدر سابق، ص ٣٠٤؛ لجنة الحديث، سنن

الامام علي، مصدر سابق، ص ٤٠٣، مدير، ج ١، ص ٤١٠، ج ٢، ص ٣٢٣، حمادة، ص ٢١.

أو في فتوح أفريقية (تونس)، مع أنّ عدداً من كتب التاريخ التي عدّدت أسماء كثيرة من الشخصيات المشتركة في فتح أفريقية لم تذكره مع اخيه ابي عبد الله الحسين عليه السلام، علماً بأنّهم من الشخصيات التي كان يهم السياسة الزمنية للخلفاء التأكيد على ذكرها في مقامات كهذه، وهذا يدل على محاولات مشبوهة للنيل من دور آل البيت عليهم السلام في الجهاد في سبيل الله ونشر الدين الاسلامي وفق ما أوصى به الرسول محمد عليه السلام من خلال التعظيم على بطولاتهم وشجاعتهم في الحرب والقتال.

الاعداد المعنوي واستنهاض الهمم

ومن الاركان المهمة والبارزة في الفكر العسكري للإمام الحسن المجتبي عليه السلام اهتمامه الكبير واعطاؤه الاسبقية في رفع معنويات الجيش واستنهاض همم المقاتلين لعلمه أن المعنويات من الأمور الحاسمة في تحقيق النصر في المعركة، ومعنويات الجيوش من اساسيات عمل القادة العسكريين الى يومنا هذا في تحقيق المصالح ودرء المخاطر عن كيان الدولة وشعبها وعقيدتها، اذ يقول الامام علي عليه السلام مخاطباً جنوده: «من رد عن المسلمين عادية ماء او نار او عادية عدو مكابر للمسلمين كفر الله ذنبه»^(١). وقد اختار امير المؤمنين الامام علي عليه السلام ابنه الامام الحسن عليه السلام ليستنفر انصاره ومؤيديه من اهل الكوفة ويدعوهم إلى الالتحاق بالجيش ونصرته، بعد أن فشل عدد من الصحابة في استنفارهم ورفع معنوياتهم قبيل واقعة الجمل، فكان له أثر واضح في استنفارهم وحثهم على القتال بقوله: «أيها الناس، أجيئوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه أولو النهي»^(٢)، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتكم»^(٣)، ولبي كثير من أهل الكوفة

(١) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج ١١ / ص ١٠٩.

(٢) أولو النهي: أصحاب العقول.

(٣) تاريخ الطبري ٥ / ٥١٦.

نداء الحسن عليه السلام وعجّت الكوفة بالنفير ونزحت منها آلاف كثيرة، وقد بدا عليهم الرضا والقبول، وساروا وهم تحت قيادة الإمام الحسن عليه السلام، فانتهوا إلى ذي قار^(١) وقد التقوا بالإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حيث كان مقيماً هناك، فسرّ بنجاح ولده، وشكر له جهوده ومساعدته^(٢).. وكان عليه السلام يركز في استنهاض الهمم ورفع المعنويات بالدرجة الأولى على قادة الجند (الضباط) ليكونوا قدوة وأسوة حسنة في الحرص وتنفيذ الواجبات، بل إن سيرته العملية لم تكن إلا تجسيداً حياً لما كان يأمر به بالدفاع عن الأمة وعقيدتها بنفسه.

وفي معركة صفين ضد البغاة، قام الامام الحسن عليه السلام، بتعبئة المسلمين للجهاد وبذل جهده لإحباط مؤامرة التحكيم والاحتجاج على المنادين به، فقد وقف الإمام الحسن عليه السلام خطيباً يعبئ المسلمين لجهاد القاسطين البغاة بقيادة معاوية بن أبي سفيان فقال: «الحمد لله لا إله غيره ولا شريك له، وإنه ممّا عظم الله عليكم من حقه وأسبغ عليكم من نعمه ما لا يحصى ذكره ولا يؤدّي شكره ولا يبلغه قول ولا صفة، ونحن إنّما غضبنا لله ولكم، وإنه لم يجتمع قوم قطّ على أمر واحد إلّا اشتدّ أمرهم واستحكمت عقدهم، فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده، ولا تتخاذلوا، فإن الخذلان يقطع نياط القلوب، وإن الإقدام على الأسنة نخوة وعصمة. لم يتمنّع قوم قطّ إلّا رفع الله عنهم العلة، وكفاهم حوائج الذلّة. وهداهم إلى معالم الملّة»^(٣). وهذا ما يؤكد عليه المفكر الاستراتيجي والباحث في الاستراتيجية العسكرية ليدل هارت بقوله: «إن أضمن شكل من أشكال العمل التي يمكن إدراكها وتصورها وأكثرها فاعلية للانتصار على المدى الطويل، هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة دون لف أو دوران أو قيود أو

(١) ذي قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يقع بينها وبين واسط. معجم البلدان: ٧ / ٨.

(٢) حياة الإمام الحسن: ١ / ٤٣٦. ١ / ٤٣٧. ١ / ٤٣٨.

(٣) القرشي: حياة الإمام الحسن عليه السلام ١: ٤٨٠، الحسني: سيرة الأئمة الاثني عشر ١: ٤٩٥.

تحفظات»^(١). وحسب المدرسة العسكرية الحديثة، فإن الجانب المعنوي يرتبط بعوامل كثيرة معظمها تطور عن واقع الحروب وقواعدها في الماضي، أما البعض الآخر فهو إدخالات حديثة على ضوء التطور الكبير الذي حصل في الأسلحة والفنون والوسائل والأفكار، ومن بين القضايا التي عجزت المدرسة العسكرية الحديثة عن بلوغ مستواها هي تلك الروح التي تحل بها الجندي والقائد الإسلامي وهو يخوض معارك الفتح، والتصدي للكفر والوثنية، وهنا تبدو النقطة المركزية في تقرير مصير المعركة، ألا وهي قيمة الفكرة التي توجه سلوك المقاتل، ومن ثم قيمة أهدافها وغايتها، وكيف يمكن أن تلهب حماس المقاتل حتى يلقي بنفسه على الموت، وبعبارة أوضح إن المقاتل وحتى يؤمن بأهدافه إلى حد التضحية، لا بد أن تكون له رسالة آمن بها، وذاب في قيمتها، وسار على هديها، هذه الرسالة تستملك روح الجندي وعقله، وعندما تبدو هذه المسألة بعيدة عن متناول الفن العسكري وليست هي من اختصاصه، فإن المدرسة العسكرية الحديثة لا تمتلك ما تعالج فيه تأثير الجانب الإيديولوجي، والعقيدة التي تؤثر في سلوك الجنود، لهذا نرى ان مما تميز به الفكر العسكري للإمام الحسن (عليه السلام) الحرص الدائم على رفع المعنويات واستنهاض الهمم قبل المعارك التي شارك بها.

الغاية لا تبرر الوسيلة

ومن ابرز ملامح الفكر العسكري للإمام الحسن (عليه السلام) عدم اتخاذه من الغاية مبررا وسببا لاتباع وسائل واساليب تتعارض أو تتقاطع مع تعاليم وقيم الدين الاسلامي، فهو (عليه السلام) كما في واقع الحياة العملية يعكس في سلوكه وممارساته القيم والمبادئ الاسلامية، فهو في الحرب التي هي استثناء في الشريعة كان يلتزم ويعكس في سلوكه القتالي خلقا اسلاميا رافعا و آداباً وقواعد يراعي استخدامها مهما كان لون العدو وطبيعته العدوانية،

(١) الفكر والحرب، جان غيتون، ص ٧.

فهو ﷺ كان يحرص دائماً على أن لا يكون البادئ في القتال التزاماً بتعاليم والده أمير المؤمنين الإمام علي ﷺ القائل: «لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة للعدو بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم»^(١)، ومن ملامح فكره العسكري في الحرب الوفاء بالعهد، وقد وفى الإمام الحسن ﷺ بعهده مع معاوية بعد الصلح برغم انقلاب معاوية على شروط الصلح والاتفاق، ونجمل بعض مبادئه ﷺ في أثناء المعارك^(٢):

١. عدم المبادأة بالقتال لإثبات الحجة على الخصم مرتين: الأولى بإعلان الخصم الحرب (حرب الناكثين، وحرب القاسطين) والثانية بابتداء القتال من قبل الخصم نفسه.
٢. انتهاج كل الأساليب الممكنة من أجل كسب بعض عناصر الخصم إلى السلم.
٣. التورع عن احراز النصر بوسائل غير صحيحة فالغاية لا تبرر الوسيلة.
٤. عدم إباحة أملاك الخصم ونسائه عند الانتصار، والاقتصار على الغنائم الحربية الموجودة في ساحة المعركة.
٥. عدم قتل الجريح، ولا الأسير، ولا المدبر، ولا المعور (من أظهر عورته) وعدم الإساءة إلى النساء وإن شتمن الاعراض.

(١) نهج البلاغة، ص ٣٧٣.

(٢) عزيز السيد جاسم، من كتاب: علي بن أبي طالب - سلطة الحق

القيادة الميدانية

ربما لا نحتاج إلى سوق الشواهد التاريخية التي تؤكد معايشة الإمام الحسن (عليه السلام) لجنوده وقادته، بل إنه كان في جميع المعارك التي خاضها متواجداً في قلب المعركة، حيث يستخدم القتال ويلتحم الجيشان، ويبدأ صخب المعركة وقعقة السلاح، وقد شارك الإمام الحسن (عليه السلام) في العديد من المعارك والحروب على امتداد حياته الشريفة (عليه السلام)، الأمر الذي يعني أن له خبرة مهمة في الحرب و القتال واساليب تنظيم وقيادة الجيوش، فضلاً عن اساليب استخدامها وتوظيفها لمصلحة الاسلام والمسلمين وهي علامات وملامح تميز بها فكره العسكري، ولما كان من المعلوم عند أهل العقل والمنطق أن الموقع العسكري للمقاتل يختلف باختلاف مؤهلات كل من الجندي والقائد، فالقائد لا بد أن يكون متمتعاً بصفات تؤهله لهذه القيادة، كأن يكون متميزاً بالشجاعة وروح المبادرة والقابلية على الإعداد والتخطيط والقدرة على العمل الجماعي فكيف إذا كان اختيار شخص الإمام الحسن (عليه السلام) قد تم على يد أبيه سيد المتقين وأكبر علماء الأمة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فلولا أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان يتمتع بالصفات التي تليق بالقيادة وتؤهله لهذا الدور لها لما اختاره الإمام علي (عليه السلام)، ولأعترض الجيش على ذلك الاختيار، لكن الذي ظهر في الإمام الحسن (عليه السلام) من العقل والقدرة على الحركة وروح المبادرة أثناء قيادة لأجنحة جيش أبيه أمير المؤمنين علي ابن ابي طالب (عليه السلام) اثناء حروب مقارعة الظلم، وإذا كان من الصعوبة بمكان ضبط العلاقة بين المبادئ الأخلاقية والإنسانية العالية، ومبادئ الحرب وقواعدها في نظرية عسكرية شاملة، أو في سياسة عسكرية ثابتة تخدم المسألة العسكرية في العالم لأن التعارض بين مجموعتي المبادئ قد يكون متسبباً في اضرار عملية على صعيد العمليات العسكرية، فكان الفكر العسكري للإمام الحسن (عليه السلام) متميزاً في دمج وموازنة المبادئ الأخلاقية - بالضرورة - بنهجه واسلوبه العسكري في جميع المواقف القتالية

والحرية التي شهدناها^(١).

سبق النظر

وهي نقطة مهمة تعكس بعد نظر وتحسب من لدن الامام^(ع) في تشخيص واستقراء نوايا العدو، فهو لا يساوي بين الحرب ضد الشرك، والحرب الإسلامية، الداخلية، إن تشخيص الخصم بدقة، والعمل بضوء التشخيص، يعينان تأمين مستلزمات الصراع، وطرائق العمل، والحيلولة دون حصول أخطاء التذبذب والبلبلية الناجمة عن فقدان الرؤية، وكانت رؤيته النافذة في التشخيص والإدانة، لا تقبل اللبس، فهو يمتلك تشخيصاً لطبيعة معاوية بن أبي سفيان مثلاً، فهو يحتفظ بتشخيصه لمعاوية قبل الحرب وأثناءها، ولم يتراجع عنه، والواقع ان طرازاً من هذا السلوك الموقفي لا يتوفر الا للنفوس الكبيرة القادرة على الخروج عن نطاقها الذاتي الى نطاقها الكوني الملتزم، وقد سبق وان ذكرنا حادثة اكتشاف الامام الحسن^(ع) المدسوسين من قبل معاوية في الكوفة والبصرة^(١). فاستقرأ الامام نوايا معاوية ثم كتب الإمام^(ع) إلى معاوية: «أما بعد، فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحب اللقاء، لا أشك في ذلك، فتوقعه إن شاء الله»^(٢). لقد كانت هذه الحادثة إنذاراً لمعاوية بالحرب وتهديداً له وقطعاً لآماله بالاستيلاء على الكوفة بسلام، وهذه الحادثة تعكس سمة مهمة من سمات الفكر العسكري للإمام الحسن^(ع) الا وهي سبق النظر، بالإضافة الى الردع واشعار الخصم بالاستعداد للقاء في أي مواجهة محتملة مستقبلاً.

القدرة على تغيير مجرى الصراع

من ملامح الفكر العسكري للإمام الحسن^(ع) قدرته على تحويل وتغيير مجرى

(١) أبو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبين: ٣٣.

(٢) المصدر السابق.

وطبيعة المواجهة العسكرية الى مواجهات وصراعات من نوع آخر، فالهدنة مع معاوية جاءت في هذا السياق ولم يكن فيها خلاف لنهج أمير المؤمنين (ع) بل كانت في صميم هذا النهج، ولقد أجاب الإمام الحسن (ع) على هذا الإشكال بنفسه حينما قال: «وان كان وجه الحكمة فيما أتيت ملتبساً ألا ترى الخضر (ع) لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى (ع) فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي؛ هكذا أنا سخطتم عليّ بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»^(١). ولما كانت الحرب على رأي فون كلاوزفيتز، مرجع العلم العسكري، بأن الحرب اختبار لجميع قوى الأمة من اقتصادية وتنظيمية، وبأن قبضة اليد (القوة العسكرية) تستمد قوتها من قوة الجسم (المجتمع) الذي يحملها، فقد كان الامام الحسن (ع) أعلم بضعف المجتمع في وقته امام اغراءات وحيل معاوية وما ذهب اليه البعض من قادة جيشه من رغبة في الدنيا وملذاتها والعزوف عن الاخرة فيقول (ع): «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، فوالله لئن أسأله وأنا عزيز، خير من أن يقتلني وأنا أسير، أو يمن علي فتكون منة على بني هاشم إلى آخر الدهر، ومعاوية لا يزال يمن بها وعقبه على الحي منّا والميت»^(٢). ومن خلال استقراء الواقع واستنطاق التاريخ توصل الى قناعة باستخدام استراتيجية الاقتراب غير المباشر في صراعه مع معاوية وما يدعو اليه من انحراف عن الدين وهو صراع لا يقتصر على الحرب من الناحية العسكرية في تخصص مسلكي ضيق، بل يتجاوزها الى آفاق أرحب ومجالات اشمل تبدأ من المناورات السياسية والدبلوماسية والمعارك الاعلامية والنفسية وتصل الى المعارك الايديولوجية حتى ظهرت في النهاية بوصفها قاعدة من قواعد الحياة الانسانية وحقيقة من حقائق الحكمة التي

(١) علل الشرائع: الصدوق: ج ١، ص ٢١١.

(٢) الاحتجاج، الطبرسي: ج ٢، ص ١٠.

تميز بها الفكر العسكري للإمام الحسن (عليه السلام).

من خلال النظر الى كل هدف يتم تحقيقه على انه وسيلة لبلوغ الاهداف التي تليه، وهذا ما ذهب اليه الامام (عليه السلام) معتمدا المرحلية في تنفيذ هذه الاستراتيجية، فحدودها لا يمكن استخدامها لبلوغ اهداف مهمة بوثبات متعاقبة الا اذا كانت الاستراتيجية ستنفذ على مرحلة زمنية طويلة فحول الصراع من ساحة القتال الى صراع ايدولوجي ساحته المدينة المنورة التي اتخذها مقرا له يدعو منها الى دين جده المصطفى (صلى الله عليه وآله)، متصديا لمنهج الانحراف والضلالة الذي كان يدعو اليه معاوية، من خلال عدد من المناظرات مع ابرز رموز نظام معاوية، وبذلك استمر الإمام (عليه السلام) بالجهاد في سبيل الحفاظ على سلامة منهج النبوة ولم شمل شيعة آل البيت (عليهم السلام) وتحصينهم وتوعيتهم وتعبئتهم لمواجهة أخرى مستقبلية مع خط الانحراف والضلالة، مما كلفه الكثير من الرقابة والحصار، وكانت محاولات الاغتيال المتكررة تشير إلى مخاوف معاوية من وجود الإمام (عليه السلام) كقوة معبرة عن عواطف الأمة ووعيتها المتنامي، ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني أمية، ومن هنا صح ما يقال من أن صلح الإمام الحسن (عليه السلام) كان تمهيداً واقعياً لثورة أخيه أبي عبد الله الحسين (عليه السلام). وتوج الإمام المجتبي (عليه السلام) جهاده العظيم هذا والذي فاق الجهاد بالسيف في تلك الظروف العصيبة، باستشهاده مسموماً على يد ألد أعدائه، فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يُبعث حياً.

الخاتمة

استعرضنا فيما سبق لمحات من الفكر العسكري للإمام المجتبي عليه السلام، حيث أكدت هذه اللوحات أن الامام الحسن عليه السلام، كأبيه المرتضى وجده المصطفى قائد عسكري مبدئي، تميز فكره ودوره العسكري القيادي بالالتزام والتمسك بـ «الهداية بأمر الله تعالى» انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾^(١). حيث عكس الامام الحسن عليه السلام في ممارسته القيادة العسكرية حرصاً على تطبيق أحكام الله تعالى على الأمة المسلمة وصيانة الشريعة والنصوص الإلهية من أي تحريف أو تحوير يتصدى له الضالون المضلون، وسار في كل حروبه ومعاركه العسكرية على منهج الأئمة من أهل البيت عليهم السلام في تربية الأمة وتثقيفها على مفاهيم الرسالة وقيمها، ولئن غص الإمام المجتبي الطرف عن الخلافة لأسباب دينية ومبدئية فهو لم يترك الساحة وموارث الرسول صلى الله عليه وآله لتنتهب من قبل الجاهليين، بل نجده قد تصدى لتربية القاعدة التي على أساسها تقوم الدولة وعليها تطبق أحكام الشريعة.

وقد خلف الإمام المجتبي تراثاً عملياً وفكرياً ثراً في جوانب كثيرة من الفكر العسكري من خلال ما تركه من خطب أو وصايا أو احتجاجات أو رسائل أو أحاديث وصلتنا في فروع المعرفة المختلفة، فقد كان الحسن بن علي السبط إلى جانب أبيه امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب عليه السلام في كل ما يقول ويفعل، مما ساعده على

(١) الأنبياء: ٧٣.

الاحاطة بمتطلبات المرحلة التي كانت تعيشها الأمة المسلمة في عصره المحفوف بالفتن والمؤامرات والاختار، وإن المتبّع لجميع مواقف الإمام الحسن عليه السلام يجده باستمرار وبمزيد من الإصرار يشدّ أزر أبيه، ويدافع عن حقّه، ويهتمّ في دفع حجج خصومه، وقد خاض غمرات الحروب في الجمل وفي صفّين، معرّضاً نفسه للأخطار الجسام في سبيل الدفاع عنه عليه السلام وعن قضيتّه، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أملكوا عني هذا الغلام لا يهدّني».

المصادر والمراجع

١. ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ) عزّ الدين عبد الحميد المدائني المشهور ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢. ابن اعثم (ت ٣١٤ هـ) حمد بن محمد بن علي بن أعثم الكوفي، الفتوح، طبعه حيدر اباد سنه ١٩٧٠.
٣. ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ)، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان ١٩٩٧.
٤. ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد ألعكري الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط ١، طبع دار الفكر، (بيروت: ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م).
٦. ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، نشر دار الكتب العلمية (بيروت: ١٩٦٥).
٧. ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، نشر وتوزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.
٨. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م)، تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: يوسف اسعد داغر، ط ٢، دار الكتاب اللبناني، (بيروت: ١٩٦١).
٩. ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) عبد الرحمن بن محمد، المقدمة: دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨ هـ.
١٠. ابن خلكان (ت: ٦٨١ هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، وفيات الاعيان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر - بيروت.
١١. ابن شاکر الكتبي، محمد بن احمد (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م)، عيون التواريخ، ج ١٢، تحقيق فيصل

- السامر ونبيلة عبد المنعم، دار الحرية، (بغداد، ١٩٧٧).
١٢. ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) محمد بن علي السروي المازندراني، مناقب آل أبي طالب: المطبعة العلمية، قم المقدسة.
١٣. ابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجليل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
١٤. ابن عربي، المسامرات، طبعه حيدر اباد سنه ١٨٨٨ - ١٣٠٥ هـ.
١٥. ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ) الإمامة والسياسة: مطبعة مصطفى محمد، مصر.
١٦. ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة: ١٩٧٨.
١٧. ابن منظور (ت ٧١١هـ)، محمد بن مكرم الشهير بابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق روية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤ م.
١٨. ابن منظور (ت ٧١١هـ)، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، (بيروت: ١٣٨٨هـ).
١٩. أبو الحسين البصري (ت ٤٣٦هـ) محمد بن علي بن الطيب، المعتمد: دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٠٣ هـ.
٢٠. أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد، محب الدين الطبري (المتوفى: ٦٩٤هـ) الرياض النضرة في مناقب العشرة، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٢١. أبو الفرج الاصبهاني (ت: ٣٥٦هـ) علي بن الحسين بن محمد المرواني الأموي القرشي، مقاتل الطالبين، تحقيق: السيد أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي.
٢٢. أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥١٠. ٥٩٧هـ)، مناقب أحمد: نشر مكتبة الخانجي، بيروت.
٢٣. أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨هـ) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جَرْدِي الخراساني، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٤. أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ)، الاخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، الناشر: دار إحياء الكتاب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٦٠ م.

٢٥. ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٢٦. أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ) إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان، الأمالي، الناشر: دار الكتب المصرية ن الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م.

٢٧. أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) المسند: دار الفكر، بيروت.

٢٨. أحمد بن محمد بن باكير المكي الشافعي (ت ١٠٤٧) وسيلة المآل في عد مناقب الآل عليهم السلام، مخطوطة.

٢٩. أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة: حقق نصوصه وعلق عليه عادل شوشة، مكتبة فياض، المنصورة، مصر.

٣٠. أعلام الهداية الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، قم، إيران ١٤٢٧ هـ.

٣١. باقر شريف القرشي، حياة الامام الحسن بن علي عليه السلام، مطبعة الآداب، النجف ١٩٦٥.

٣٢. البخاري (ت ٢٥٦هـ) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه المسمى صحيح البخاري، طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، الناشر دار إحياء التراث العربي (بيروت: ١٩٦٥).

٣٣. البزاز (ت ٢٩٢هـ) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، مسند البزاز، نشر مؤسسة علوم القرآن.

٣٤. البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب للنشر، (بيروت: ١٩٨٣).

٣٥. البلاذري (ت: ٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٣٦. بهاء الدين محمد بن إسفنديار، تاريخ طبرستان، ترجمة أحمد محمد نادي، ص ٧٣-٨٠، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ من دار المجلس الأعلى للثقافة.

٣٧. جان غيتون، الفكر والحرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٠.
٣٨. الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين: دار المعرفة، بيروت.
٣٩. الحرّ العاملي: محمد بن الحسن (١٠٣٣-١١٠٤هـ)، وسائل الشيعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠٣هـ.
٤٠. الدولابي (ت ٣١٠هـ) أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي، الذرية الطاهرة، المحقق: سعد المبارك الحسن، الناشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.
٤١. سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) شمس الدين أبو المظفر بن فُزْغَلِي، تذكرة الخواص، الناشر: دار العلوم بيروت. الطبعة: الأولى سنة ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
٤٢. السيد محسن الأمين العاملي، اعيان الشيعة: تحقيق السيد حسن الأمين قدس سره، طبعة دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٤٣. السيوطي، مصطفى بن سعد بن عبده، الرحيباني دمشقي الحنبلي (ت ١٢٤٣هـ)، تاريخ الخلفاء، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، ١٤١١..
٤٤. الشريف الرضي (ت ٤٠٤هـ)، نهج البلاغة: بيروت ١٣٨٧هـ.
٤٥. الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: دار المعرفة، بيروت ١٤٠٢هـ.
٤٦. الشيخ راضي آل ياسين، صلح الحسن عليه السلام، الناشر: منشورات الشريف الرضي، بيروت ١٩٧٩.
٤٧. الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧هـ - ١١١١هـ)، بحار الانوار، مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان ١٩٨٣م.
٤٨. الشيخ محمد حرز الدين، مراقد المعارف في تعيين مراقد العلويين والصحابية والتابعين والرواة والعلماء والادباء والشعراء، تحقيق: محمد حسين الشيخ علي حرز الدين، المنتدى الثقافي العام مكتبة درر العراق، الطبعة: الأولى ١٣٧١هـ.
٤٩. الصدوق (ت ٣٨١هـ) أحمد بن باباويه القمي المعروف بالصدوق، علل الشرائع: تحقيق: السيد محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها، النجف الأشرف ١٩٦٦.
٥٠. الصلابي، الدكتور علي محمد، الحسن بن علي بن أبي طالب شخصيته وعصره، دار المعرفة

بيروت، الطبعة الرابعة (٢٠٠٦م).

٥١. الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

٥٢. الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ) أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، الاحتجاج، تحقيق: السيد محمد باقر الخراسان، الناشر: دار النعمان للطباعة والنشر - النجف الأشرف ١٩٦٦.

٥٣. الطبري (ت: ٣١٠هـ / ٩٢٣م) أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، دلائل الإمامة، الناشر: منشورات مؤسسة الاعلامي للمطبوعات الطبعة: الثانية ١٩٨٨.

٥٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار المعارف، مصر.

٥٥. الطوسي: محمد بن الحسن (٣٨٥-٤٦٠هـ)، الفهرست: جامعة مشهد، إيران ١٣٥١هـ.

٥٦. العاملي، زين الدين بن أحمد (ت: ٩٦٦هـ)، منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، تحقيق: عبد الأمير شمس الدين، الشركة العالمية للكتاب، (بيروت ١٩٨٣).

٥٧. عزيز السيد جاسم، من كتاب: علي بن أبي طالب - سلطة الحق على الرابط الالكتروني <http://www.alnaspaper.com/inp/view.asp?ID=2990>.

٥٨. عمر بن شبة زيد بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (ت: ٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة، عام النشر: ١٣٩٩هـ.

٥٩. لجنة الحديث معهد باقر العلوم (ع)، سنن الامام علي (ع)، المطبعة: اعتداد، الناشر: نور السجاد، قم ١٣٨٠هـ.

٦٠. مالك بن أنس (المتوفى ١٧٩هـ)، الموطأ: دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٣هـ.

٦١. محب الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت: ٦٩٤هـ)، ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، مكتبة القدسي، القاهرة ١٣٥٦هـ..

٦٢. محمد باقر المجلسي (المتوفى ١١١٠هـ) بحار الأنوار: مؤسسة الوفاء، بيروت ١٤٠٣هـ.

٦٣. محمد بن يعقوب الكليني (المتوفى ٣٢٩هـ)، الكافي: دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ.

٦٤. محمود سامي باشا البارودي، كشف الغمة في مدح سيد الأمة، طبعت بمطبعة الجريدة - ١٣٢٧هـ.

٦٥. المدائني (ت: ٢٢٥هـ) محمد بن عبد الله المدائني، صلح الامام الحسن بن علي المجتبى (ع) مع

معاوية، دار الغدير للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٣.

٦٦. مسلم (ت ٢٦١هـ)، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المسمى صحيح مسلم، ط ٢، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء التراث العربي (بيروت: ١٣٩٢هـ).

٦٧. المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣) الإرشاد: منشورات مكتبة بصيرقي، قم المقدسة.

٦٨. المقرئزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، الخطط المقرئزية المسماة بالمواظع والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة بولاق، (القاهرة، ١٩٧٠م).

٦٩. نصر بن مزارحم النقري (المتوفى ٢١٢هـ)، وقعة صفين: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٥هـ.

٧٠. هاشم معروف الحسني، سيرة الأئمة الاثني عشر، الناشر: دار القلم، بيروت، ١٩٨١.

٧١. ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

الإعلام

وأثره في إنكسار جيش الإمام الحسن المجتبي عليه السلام

الباحث

كريم جهاد الحساني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ
بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا
عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١)

صدق الله العلي العظيم

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

الاهداء

إليك أيها الإمام المظلوم في عصره

إليك أيها القائد المهموم في عسكره

إليك أيها المطعون من الإعلام في جيشه

أقدم بضاعتي هذه

الباحث

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإنَّ في خضم الصراع العنيف القائم بين الحق والباطل على هذه الأرض كان ولا يزال قائماً؛ وذلك للتنافر الواضح بينهما، وإن من أهم أدوات هذا الصراع «الإعلام» الذي هو بطبيعة الحال يُوظَّف لخدمة فكرة معينة يؤمن بها أصحابها أو يرون أنها وسيلة جيدة يتحقق بها وجودهم وتقوى شوكتهم وبذلك تتأكد مصالحهم.

لذلك إنَّ الإعلام كان وسيظل مسخراً لتحقيق الغايات الخاصة وخدمة الأغراض المعنية فهو في أدواته التي يخرجُ بها علناً مُحايِد، ولكنه في مضمونه غير مُحايِد، ثم ان هذه الأدوات إذا استُخدمت في خدمة مصالح الحق والخير فإن النتائج من مخرجاتها يصبح نتاجاً بشرياً ذا صبغة واقعية ثارها الطيب، أما إذا كان تسخيرها لخدمة مصالح الباطل والشر، فإن النتائج يكون نتاجاً بشرياً يغلب عليه صفة الخبث.

وحيثُ ان الإعلام كان له تأثيرٌ مهمٌ في جميع ميادين الحياة، فقد اتخذنا من بحثنا هذا تأثيره على الصعيد العسكري في ميدان الحروب، وأثره في تفتت وانكسار الجيوش مهما كانت الشخصيات القيادية التي تتصدر تلك الجيوش، وكان إنمودجنا لحقبة مهمة من تاريخ الحروب الإسلامية جمع بين الجيش العراقي بقيادة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في العراق، والجيش الشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان في الشام.

وليس من المبالغة القول بأن الإعلام لعبَ دوراً كبيراً في تمزيق جيش الإمام الحسن عليه السلام وإنكساره؛ إذ فرض نفسه على الرغم من القيادة الإمامية الإلهية المتمثلة بالحسن بن علي عليه السلام ذلك الإمام الهمام حفيد رسول الله محمد عليه السلام، الوريث والخليفة الحقيقي لهذه الأمة التي خذلتها في ساحة الحرب أمام جيش الشر والطغيان الأموي، مما أدى بالإمام عليه السلام أن يبرم أمام الصلح المعروف وينهي تلك الحرب حفاظاً على البقية الباقية.

وقد اقتضت صورة البحث أن نرسم مقدمة عن الإعلام من حيث تعاريفه اللغوية والاصطلاحية وأدواته المؤثرة في الميادين العامة والحروب خاصة، ثم المعرفة بالمنظومة الاعلامية الأموية وأثرها في أحداث الحرب مع الإمام الحسن عليه السلام، وقد انقسم الى مبحثين:

المبحث الأول: قراءة في الاعلام.

الاعلام لغة واصطلاحاً.

أثر الاعلام المضلل في مآسي الأمة: أدواته... ومؤثراته.

الاعلام في صدر الاسلام.

الاعلام والحرب النفسية في الحروب.

المبحث الثاني: المنظومة الاعلامية الاموية ضد الامام الحسن عليه السلام.

الحرب الباردة وأثر الخطابة الاعلامي.

الوصف العام للجيش العراقي (معسكر الامام الحسن عليه السلام).

الغلبة لمن في المعركة؟ للقائد أم للاعلام.

سقوط القائد الأول (عبيد الله بن عباس).

الاذاعة الاموية واضطراب الجيش.

استمرار الخيانة العسكرية.

المبحث الأول

قراءة في الإعلام

الإعلام لغة واصطلاحاً:

لغةً: بكسر الهمزة، وهو الإخبار بالشيء أو معرفته على حقيقته^(١).

والإعلام مأخوذ من العلم وليس من التعليم كما يقول الراغب الاصفهاني:

الإعلام ما اختص بما كان باخبار سريع، والتعليم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل من أثر في نفس المتعلم^(٢).

ووفق هذا الاستخدام من اللفظ لا بد أن نفرق بين الإعلام والتعليم؛ لأن الإعلام مجرد خبر ينشر على الناس ليعلموا به، أما التعليم فهو أخبار بعلم ليتعلموه، وقد وردت في القرآن الكريم كلمتان مترادفتان لهما صلة بالإعلام وهما: النبأ، والخبر.

فالنبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأً حتى يُضمَّن هذه الأشياء أي الفائدة وحصول العلم وغلبة الظن ويكون صادقاً؛ وحقّه أن يتعرى من الكذب كالمتواتر وخبر الله وخبر رسول الله ﷺ، ولتضمينه معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا يتعدى بالباء أو لتضمينه معنى العلم يقال: أنبأته كذا قال الله

(١) ابن منظور: محمد (ت ٧٧١هـ)، لسان العرب، ط قم - محرم ١٤٠٥هـ، ج ١٢، ص ٤١٨، مادة: (علم).

(٢) الراغب الاصفهاني: الحسين بن محمد (ت ٤٢٥هـ)، المفردات في غريب القرآن، ط الثانية ١٤١٤هـ، ص ٣٤٣.

تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾^(١)، أي خبر صادق غير كاذب^(٢).

لذلك نجد أن الأنباء تأتي بمعنى إخبارك بها لا تعلم لقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾^(٣)، وهو كثير بهذا المعنى، وغالباً ما يكون ناقل النبأ إما خبيراً به أو غير خبير به أي مجرد مشاهد أو سامع أو ناقل أو غيره، وقد يكون ناقله صادقاً أو كاذباً بقوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(٥)، أي بخبر عظيم فثبتوا من صحته حتى وإن غلب الظن على صحته إذ لا بد من اليقين^(٦).

والخبر: هو كل كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته، وهذا التعريف يصدق على كل كلام يؤخذ من غير النظر إلى قائله، والمحدثون استعملوه بمعنى الحديث، وقال جماعة من أهل الاصطلاح: الخبر أعم، والأثر هو الذي يُعبر به عن غير الحديث^(٧).

اصطلاحاً:

هناك تعاريف كثيرة متعددة نحاول منها تحديد ملامح هذا العلم الحديث نعرض لبعض منها:

(١) النمل، ٢٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، ص ٤٨١.

(٣) آل عمران، ٤٤.

(٤) الانعام، ١١٦.

(٥) الحجرات، ٦.

(٦) المفردات في غريب القرآن، ص ٤٨١.

(٧) الزبيدي: محمد (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، ط دار الفكر - بيروت ١٩٩٤م، ج ٦، ص ٣٢٥. أيضاً ينظر: البلاغة والتطبيقات، د. أحمد مطلوب و د. كامل البصير، (ط الاولى - بيروت ٢٠٠٩م)، ص ١٠٥.

١. الإعلام هو كل قول أو فعل قصد به حمل حقائق أو مشاعر أو عواطف أو أفكار أو تجارب قولية أو سلوكية شخصية أو جماعية إلى فرد أو جماعة أو جمهور بغية التأثير سواء أكان الحمل مباشراً أم بواسطة وسيلة اصطلاح على أنها وسيلة إعلام قديم أو حديث^(١).

٢. الإعلام هو تزويد الناس بالاخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدكم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع، أو مشكلة من المشكلات، بحيث يعبر هذا الرأي تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم^(٢).

٣. الإعلام هو إيصال معلومة معينة إلى المتلقي لهدف معين بأسلوب مُعين يخدم ذلك الهدف ويتوقع منه أن يؤثر في المتلقي ويغير من ردود فعله^(٣).

وصفوة القول من هذه التعريفات يمكن التوجيه نحو المحور الأول منه؛ لأنه أدق التعريفات إذ أنه جامعٌ مانع.

أما الهدف بصفة عامة من الإعلام هو محاولة التأثير في الجماهير لتكوين رأي عام حول قضية معينة عن طريق نقل الخبر والنبأ والتعليق والتحليل فضلاً عن أهداف أخرى كالدعائية والعقائدية والتثقيفية، والهدف من كل هذا هو تغيير السلوك العام للجماهير من أجل التوافق للمخططات السياسية الاعلامية.

(١) الشنقيطي: سيد محمد، مفاهيم اعلامية من القرآن الكريم، ط دار الكتب - الرياض ١٩٨٦ م،

ج ١، ص ١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٣) راضي: سمير، الاعلام الاسلامي رسالة وهدف، ط رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة

١٤١٧ هـ، ص ٢٩.

أثر الإعلام المضلل في مآسي الأمة

أدواته ومؤثراته

إن من أُمضى الاسلحة الفتاكة التي تستخدمها الحكومات الفرعونية الطاغوتية ضد الشعوب المستضعفة هو الاعلام المضلل، وخطر السلاح هذا يكفي في انه خفي وغير ظاهر، فالاعلام المضلل قد يكون أبرز أركان النظام الحاكم، وإذا كان هناك أحد مسؤولا عن تسليط الطغاة على الناس فالمضللون الاعلاميون هم المسؤولون قبل غيرهم عن تسليط الطاغوت على الناس.

ففي الوقت الذي نرى فيه الطائرات والدبابات والاسلحة الحديثة الفتاكة الاخرى ذات أبعاد وأحجام معينة وظاهرة التي يتم الحد منها وإيقافها بالصمود والوقوف أمامها، والاستشهاد تحت نيرانها إن استوجب الموقف، ترى بأن سلاح الاعلام يستخدم ضد الانسان من دون أن يحتسب ومن حيث لا يدري، فهو يسلب منه إرادته وبصيرته ومعرفته في الحياة.

وقد أشار سبحانه وتعالى في كتابه الكريم الى الحكومة الفرعونية من حيث الوصف والملاح والأبعاد، قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَّبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِي ۖ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ﴾^(١).

فالطاغوت هنا هو طاغوت الجهل الملبس بالعلم وطاغوت التضليل والتزوير وزخرفة القول، والدليل على ذلك السياق القرآني حيث يقول: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ

عِبَادِي، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿١﴾، فالمراد هنا من الطاغوت هو ما ينبغي على المؤمنين اجتنابه كطاغوت الاعلام المفسد في الارض الذي هو طريق الضلال^(١).
لذلك إنَّ من أدوات التضليل الاعلامي التي تنخر في جسد الأمة وتجلب المآسي لها هي:

١. الثقافة الفكرية الخبيثة والفسادة.
٢. استخدام وسيلة الترغيب والترهيب للسيطرة على فرقاء الأمة.
٣. توجيه وسائل الدس والتزوير.
٤. استعمال أبواق الشياطين والشعراء الغاوين لتغيير الناس وتضليلهم وحشد طاقات الهمج الرعاع في الأمة.
٥. بث الإشاعات والدعايات الكاذبة بين صفوف الأمة لزعة إيمانهم بعقيدتهم.
٦. استخدام أجهزة التجسس الخبيثة، وذلك عن طريق نشر العيون لإشاعة الذعر والارهاب؛ للوصول الى معلومات يمكن توظيفها للدس واختلاق الروايات الكاذبة.

الاعلام في صدر الإسلام:

لا شك في ان الانسانية على اختلاف عصورها قد سعت جاهدة للوصول الى تحرير الانسان من أي ضغط أو إكراه؛ حتى يكون في وسعه إذا ما تجرد من الخوف والجوع وسائر ما يؤثر على إرادته أن يكون حرا طليقا، فيستطيع التعبير عن ذاته، والاستفادة بملكاته في سائر جوانب الحياة التي يعيشها.

وقد كانت التجربة الإسلامية غنية في مجال حرية الرأي والتعبير، وليست مجرد

(١) ينظر: المدرسي: محمد تقى، الاعلام الرسالي والاعلام المضاد، ط ١٤٠٥هـ، ص ٤٤.

نصوص أو أخبار تتساقط، كما هو شأن الفكر اليوناني، وإنما هي أحداث محددة ووقائع ملموسة متواترة على ممارسة التعبير والرأي والقول في السياسة والعلم وسائر شؤون الحياة.

ففي نصوص القرآن الكريم نجد العديد من الآيات التي تحض على حرية التعبير والرأي، منها قوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾^(٣)، وبذلك نجد الدين الاسلامي يستند النظر العقلي، والاعتبار بسنن الله في الخلق^(٤).

أما في الجانب الرسالي التبليغي، فلم تكن بعثة الرسول ﷺ في الجزيرة العربية أمراً عادياً، ولا معجزة خارقة يعفو عليها الدهر بمضي صاحبها الى بارئها، فتدخل عالم النسيان، إذ إنها لم تدخل تلك البعثة الدنيا من ذلك الباب لتخرج منه، فهداية العرب لم تكن أمراً سهلاً؛ بل تحمل الرسول ﷺ في سبيلها المشاق الكثيرة، وبذل كل ما يطيق في سبيل الدعوة الى الله ﷻ، وصبر على الأذى في جسمه وماله وعياله، ولم يدخر وسعاً من أجل ذلك سرا وعلناً، ليلاً ونهاراً.

وقد كان لمنهج النبي محمد ﷺ في تبليغه ودعوته أثر عظيم في ارساء قواعدها، وسرعة انتشارها في المدة الزمنية التي عاشها بعد بعثته صلوات الله وسلامه عليه، فإنها لم تزد على ثلاثة وعشرين عاماً، ولما كان للإعلام (التبليغ) أثر كبير في انتشار الاسلام

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) الكهف: ٢٩.

(٤) ينظر: النجار: عماد، الوسيط في تشريعات الصحافة، ط المصرية ١٩٨٥ م، ص ٤٣. أيضاً: مكاي: د. حسن، أخلاقيات العمل الاعلامي دراسة مقارنة، ط الرابعة - الدار المصرية - القاهرة ٢٠٠٦ م، ص ٤١.

آنذاك، فكانت خصائصه ودوافعه تتلخص في خمسة محاور، هي:

المحور الأول: انه قائم على العقيدة والايان، أي انه (عقيدي)، فهو مرتبط باحكام الاسلام وتعاليمه، وهديه وأخلاقه، فإن أول ما نزل على الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١)، والقراءة مفتاح التعلم، وأول وسائل التبليغ والاعلام؛ بل إن الأمر (اقرأ) هو أمرٌ بالاشهار والاعلان، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، فالتبليغ ونشر الدعوة من أولى واجبات الرسول ﷺ وهو واجب على الأمة الاسلامية.

المحور الثاني: الاعلان عن تبين الاحكام، فهو واجب على كل مسلم بقدر طاقته لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣)، فقد أكد النبي ﷺ وجوب اعلانها بعد التفصيل والاعلام بها وتبليغها بقوله: «بلغوا عني ولو آية»^(٤)، وقوله: «ما ضرَّ الله عبدا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه»^(٥)، وكان يقول صلوات الله وسلامه عليه: «ليبلغ الشاهد الغائب، رب مبلغ أوعى من سامع»^(٦).

(١) العلق: ١ - ٥.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) ابن حنبل: أحمد (ت ٢٤١هـ)، مسند احمد، ط دار صادر - بيروت، ج ٢، ص ١٥٩.

(٥) الكليني: محمد (ت ٣٢٩هـ)، الكافي في الاصول والفروع، تحقيق: علي اكبر الغفاري، ط دار الكتب الاسلامية - طهران ١٣٦٣ش، ج ١، ص ٤٠٣. ابن ماجه: محمد (ت ٢٧٣هـ)، كتاب السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الفكر للطباعة - بيروت، ج ١، ص ٨٤.

(٦) البخاري: محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، ط دار الفكر - بيروت ١٩٨١م،

ولهذا القول أثره العظيم في نمو الاتصال الشخصي وشحن الهمم للتبليغ، كما له أثره الكبير في الاتصال الجمعي أو الجماهيري، وكان رسول الله ﷺ يأمر الوفود التي تغد إليه بأن يحملوا الاسلام الى من خلفهم ويعلموهم كما تعلموا منه صلوات الله وسلامه عليه.

المحور الثالث: انه اعلام مؤثق؛ لأنه مبني على قواعد الثبت والاستيثاق التي أمر الله تعالى بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾^(١)، وقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢)، وقال ﷺ: «من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

المحور الرابع: اعلام منهجي هادف، انه يقوم على منهج الاسلام وبيانه من خلال مصدره الكتاب الكريم، والسنة المطهرة.

المحور الخامس: انه موضوعي، لا يتأثر بميل أو هوى، ويتعد عن النفاق في كل مجرياته، وهو مبني على ركيزة الايمان، الذي مُعلّمه الاول الى الانسانية هو رسول الله ﷺ صاحب العقيدة والتشريع والآداب، وبذلك يكون قد سد باب التحريف والتزييف أو التهويل أو التعمية، فالاعلام الاسلامي موضوعي فيما يبلغ، وبعبارة اخرى موضوعي في رسالته والمرسل والمرسل إليه بعيدا عن الدعاية كل البعد، التي هي دائما تتعمد اخفاء الحقيقة لظروف مكانية أو زمانية، أو تهويلها أو تشويهها من أجل الوصول الى الهدف

ج ٢، ص ١٩١.

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) الحجرات: ٦.

(٣) الكافي، ج ١، ص ٦٢. أيضا: مسلم: بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) صحيح مسلم، ط

دار الفكر - بيروت، ج ١، ص ٨.

الدعائي المطلوب^(١)، مما ابتلى به اعلام العصر الأموي، كما سنتعرف على ذلك من خلال البحث، ولن نجد شيئاً من هذا في الاعلام الاسلامي الحقيقي.

الاعلام والحرب النفسية

هناك تعريفات عديدة تبين ماهية الحرب النفسية، ولكن أشمل تعريف هو ماورد في قاموس الجيش الامريكي إذ ذكر: إن الحرب النفسية هي اجراءات مخططة تصدر من أجهزة دعاية دولة معينة أو مجموعة دول ضد دولة أو دول عديدة^(٢). وبطبيعة الحال هذه الاجراءات تهدف الى التأثير على الافكار والعواطف وتصرفات تلك المجموعة بحيث تبدأ بالتصرف بشكل يخدم الاهداف المرسومة في تلك الاجراءات.

ولايتخذ الإعلام باستعماله سياسة الحرب النفسية الدعاية وسيلةً وحيدة؛ بل هناك وسائل عديدة أخرى يلجأ إليها للوصول الى غايته المنشودة، لكن هناك ارتباطاً وثيقاً بين عملية الإيحاء في الدعاية بأجراءات الحرب النفسية؛ إذ انها تتضمن الى جانب الاجراءات العسكرية والاقتصادية والسياسية^(٣).

ولا تسعى الحرب النفسية دائماً العمل خلال أيام الحرب الساخنة فحسب، بل انها تكون شكلاً من أشكال التحضير للحرب وتوسيعها، فإنها تبدأ بمرحلة زمنية طويلة قبل اعلان الحرب، وتستمر حتى بعد انتهاء الحرب العسكرية، وتمارس حتى ضد شعب البلاد، ويتأكد هذا المبدأ في الممارسات التي قامت بها الاجهزة المختصة في الحرب العالمية

(١) ينظر: الخطيب، د. محمد، أضواء على الاعلام في صدر الاسلام، ط الثانية الرسالة - بيروت ١٩٨٧، ص ١٣-١٦.

(٢) القاموس العسكري للجيش الامريكي، وزارة الدفاع الامريكية، مادة ٣٢٠ اس، ار، ط آب - ١٩٥٠.

(٣) لاينبرغر: باول، الحرب النفسية، ترجمة: محمد الرشيد، ط الثانية كومبات العسكرية - واشنطن ١٩٥٤، ص ٤٠.

الاولى والحرب العالمية الثانية، إذ شنَّ نظام هتلر مثلاً حرباً نفسية على الشعب الألماني من خلال الدعاية الكاذبة ومن خلال ممارسات الرعب، فقال لهم: انه عليهم أن يكونوا المواد للمدافع التي تطلق^(١).

ويتوضح هدف الحرب النفسية من هدفها الرئيس، التحضير للحرب، عن طريق التأثير السياسي والفكري والأدبي على الشعوب الاخرى بوسائل مختلفة منها الدعاية، الرعب، التوتر، الحرب الباردة، وغيرها من الوسائل.

ولعلَّ أبرز تطبيق لاستخدام وسائل الحرب النفسية على المستوى الاسلامي ما قامَ به معاوية عندما استخدم وسائل الحرب النفسية ضد المجتمع الكوفي لضعاف قيادته العسكرية المتمثلة بالإمام الحسن عليه السلام قبل اعلان الحرب؛ لأنه كان عارفاً باحوالهم وانهم سريعو التأثير بـ (الدعايات) من دون فحص ووقوف على واقعها، فهذه الظاهرة تكشف عن انهيار هذا المجتمع أمام الاحداث وعدم الصمود والصلابة والمواجهة، فقد استغل هذه الظاهرة الأمويون عندما أشاعوا في أوساط جيش الإمام عليه السلام أنَّ الحسن صالح معاوية، وحينما سمعوا بذلك ماجوا في الفتنة وارتطموا في الاختلاف، فعمدوا الى أمتعة الامام الحسن عليه السلام فنهبوا، كما اعتدوا عليه قطعوه في فخذه، وغيرها من الأفعال التي قاموا بها^(٢)، وهذا ما سوف نلاحظه جلياً من خلال البحث.

(١) ينظر: أيار: فريد، دراسات في الاعلام والحرب النفسية، ط دار الحرية - بغداد ١٩٧٩، ص ٦٩-٧٠.

(٢) للاطلاع ينظر: الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٢١٠هـ)، تاريخ الامم والملوك، ط الرابعة مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٨٣م، ج ٤، ص ١٢٢. اليعقوبي: أحمد (ت ٢٨٤هـ)، تاريخ اليعقوبي، ط دار صادر - بيروت، ج ٢، ص ٢١٥. ابن كثير: اسماعيل (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، ط الاولى - دار احياء التراث - بيروت ١٩٨٨م، ج ٨، ص ١٤.

المبحث الثاني

المنظومة الإعلامية الأموية ضد الامام الحسن عليه السلام

يُقال إنّ الوسائل الإعلامية تُشكّل في آنٍ واحد صناعة وخدمة عامة ومؤسسة سياسية^(١). وفي الواقع جميعها.

لذلك إنّ السياسة الأموية لم تدّخر وسعاً في ولادة هذه الصناعة والعمل على تشكيل هذه المؤسسة ودعمها بكل الوسائل؛ لأنها تقوم بثبيت عرشها على وجه الأرض، وقد عمدت هذه المنظومة الى اتخاذ عدة وسائل مهما كانت النوعية لاجهاض كل من يقف أمام مصالحها.

وكانت الدعاية هي احدى أهم أدوات هذه المنظومة التي كان من المفترض أن تعتمد على الحقائق إلّا أنها كانت تعتمد على خطط وأسس ومناهج غير واقعية غايتها التسقيط، فكانت الركيزة التي تعتمد عليها أجهزة الدعاية الأموية توحيد الجهد الدعائي نحو التضليل الذي دأبت من خلاله دوماً الى طرق السبل كافة لتحقيق الأهداف، وقد حذّر الامام علي عليه السلام المسلمين من الدعايات المضللة التي ثبتتها أجهزة الإعلام الأموي الداعية الى إبعاد الناس عن أهل البيت عليهم السلام، وقد جاء ذلك في احدى خطبه الرائعة قائلاً: «نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسوله الأقربون وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله في أمته، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل

(١) برتراند، كلودجان، أدبيات الاعلام، ترجمة: رباب العابد، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص ٧.

شي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره لا نتظن تأويله بل نتيقن حقائقه فأطيعونا، فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله ﷻ وبرسوله مقرونة قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١)، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾^(٢)، واحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان فإنه لكم عدو مبين»^(٣).

أليس هذا الإعلام هو الذي بث في الناس أن علياً لا يُصلي، وانه قتل عثمان؟ لقد أخذ هذا الاعلام مداه حتى ان الأمر قد التبس عند عدد من الصحابة، فهذا زيد بن الأرقم يقول لأمير المؤمنين (عليه السلام)، أنشدك الله، أنت قتلت عثمان؟ فأطرق علي ساعة، ثم قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قتلته ولا أمرت بقتله»^(٤).

لذلك إن من الصفات الواضحة التي ارتكزت عليها الدعاية الأموية هي صفة الكذب، وحاولوا من خلال الإذاعة النفاقية تمرير الأحاديث المُلَفَّقة والمزورة في أذهان المسلمين، وكان اعتمادها الأساس في ذلك هو التأثير في الجماهير من خلال اظهار صورة الحدث دون اعطاء تعليل له وابرار المحسوس العنيف على ما هو خاضع للعقل، فإنها لا تقوم على أساس علمي، بل تقوم على لفت السواد الأعظم من خلال التوجيه الى قلوب الناس قبل عقولهم.

(١) النساء، ٥٩.

(٢) النساء، ٨٣.

(٣) المفيد، محمد (ت ١٣هـ)، الامالي، تحقيق: حسين الاستاد ولي، وعلي اكبر الغفاري، ط دار المفيد - بيروت الثانية ١٩٩٣، ص ٣٤٩.

(٤) الحاكم النيسابوري، ابو عبد الله (ت ٤٠٥هـ)، المستدرک على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشي، ط دار المعرفة - بيروت، ج ٣، ص ١٠٦.

ولم يكتفِ الإعلام الأموي باللعب على أوتار البدعة ولزوم الباطل بل بعث الى الأمصار من الجواسيس والعيون مَنْ يحملون إذاعته ويخبرونه باتجاه المجتمع ونيّاته، ومدى اخلاصه لآل البيت عليهم السلام، كما يقومون بعمليات الارهاب والتخويف من أجل شق صف الأمة والوقوف ضد الاسلام الحقيقي المتمثل بمحمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يأل جهداً في سبيل توجيه الضربات الماحقه لهم، ولكل ما يتصل بهم من قريب أو بعيد^(١).

الحرب الباردة ودور الخطابة الإعلامي:

توصف الخطابة بأنها: قدرة التأثير في الآخرين، وقد استغل بعض أبناء البشر منذ القدم هذه القدرة التي وضعها الله فيهم من خلال الملكة البلاغية اللفظية لتشكلاً معاً الخطابة المؤثرة.

وتعدّ الخطبة منذ العصور الأولى من أقوى وسائل الاعلام والدعاية والاتصال بالناس للتأثير في مشاعرهم لإقناعهم بالافكار والعقائد المعينة، وبقي شأنها كذلك في العصر الجاهلي وفي صدر الاسلام وفي الخلافة الأموية وما تلاها من حكومات، وما زالت لحد الآن تلعب دوراً إعلامياً عظيماً^(٢).

والجيش بحد ذاته يحتاج الى قائد، وهذا القائد يجب أن تتوفر فيه بلغة الخطاب التي يكون لها التأثير العميق على حركة الجيش، خاصة في الأزمات التي تتأثر بها القطعات العسكرية، فكانت نتيجته اندفاع المقاتل بحماس خلف هذا القائد الخطيب المفوّه الذي

(١) للاطلاع على الاجراءات التي اتخذها الاعلام الاموي بقيادة معاوية ضد أهل البيت عليهم السلام وأدت الى اشاعة الفرقة بين المسلمين ينظر: ابن أبي الحديد: عبد الحميد (ت ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٤٢. العلوي: محمد (ت ١٣٥٠هـ)، النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، ط الاولى - دار الثقافة - قم ١٤١٢هـ، ص ٢٥٣.

(٢) حمزة، عبد اللطيف، الاعلام في صدر الاسلام، ط دار الفكر - القاهرة، ص ١٦٩.

له تأثير السحر في المقاتلين، وقد اختار الله سبحانه وتعالى أنبياءه بُلغَاء فُصَحَاء بليغي الحُجَّة عظيمي التأثير في مقاتليهم أثناء الحروب، وكان أبلغهم وأفصحهم رسول الله ﷺ، ويكفي للدلالة على هذا موقفه من الأنصار إثر غزوة حنين عندما تَوَجَّه إليهم بكلمات رقيقة صادقة بليغة أنهت في لحظات ما وجدوه في أنفسهم.

لذلك فقد سارَ على هذا المنوال حفيده الامام الحسن (عليه السلام)، فحينما أُذيع خبر تَوَجَّه معاوية بن أبي سفيان بجيشه الجرار وبلوغه جسر منبج^(١)، عمَّ العراقيين الذعر والخوف ووصلت قلوبهم الحناجر، فكان لا بدَّ للإمام الحسن (عليه السلام) أن يزرع الأمل في نفوسهم، ويعيد إليهم العزيمة في القتال، فنادى في عاصمته الكوفة الصلاة جامعة، فصعد المنبر، وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، فإنَّ الله كتبَ الجهادَ على خلقه، وسأه كُرْهًا، ثمَّ قال لأهل الجهاد: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، فلستمَ أيَّما النَّاسِ نائلينَ ما تُحِبُّونَ، إلَّا بالصَّبرِ على ما تَكْرَهُونَ. إنَّه بلغني أنَّ معاوية بلغه أَنَّا كُنَّا أَزْمَعْنَا على المسيرِ إليه، فتحرَّكَ لذلك، فاخرجوا - رحمكم الله إلى مُعَسِّكركُم بالنَّخيلة حتَّى ننظُرُ وتنظروا، ونرى وتروا»^(٣).

ولمَّا أنهى خطبته وجمَ الحاضرون، وأخرست ألسنتهم، واصفرت ألوانهم كأنهم قد سيقوا إلى الموت، وقد أدرك الإمام (عليه السلام) بخبرته التجريبية كراهية الجيش العراقي للحرب، ولمس ميلهم إلى السلم^(٤)، فلم تنفع معهم وسيلته الاعلامية هذه، لا لعلَّة فيه

(١) جسر منبج: بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء، بلد قديم، المسافة بينه وبين حلب يومان. الحموي، ياقوت (ت ٢٢٦هـ)، معجم البلدان، ط دار احياء التراث العربي - بيروت ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٢٠٦.

(٢) الانفال: ٤٦.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح النهج، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط دار احياء الكتب العربية - عيسى الحلبي ١٩٦٢م، ج ١٦، ص ٣٨.

(٤) ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج آثار خطبة الإمام الحسن (عليه السلام) على الناس في الكوفة بعد أن

لا سامح الله؛ بل لكونها بعيدة عن الكذب والتضليل ولقربها من الواقعية التي لم يشأ أن يُخفيها عن العراقيين، على العكس من معاوية الذي حاول اغفال جيشه من معسكر الشام بإشاعة الكذب والافتراءات الاعلامية التي ذكرها في كتبه الى ولاته وعماله قائلاً: «أما بعد: فالحمد لله الذي كفاكم مؤونة عدوكم، وقتلة خليفتمكم، إن الله بلطفه، وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبي طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم فاقبلوا إلَيَّ حين يأتيكم كتابي هذا بجذكم وجهدكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثار وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان والسلام»^(١).

فما كان من عماله إلا أن استبشروا بهذا الخطاب، وأمدوا بكل ما تحتاج إليه الحرب من البعوث والعدة والسلاح^(٢)، هو اثر الخطاب الاعلامي التضليلي الذي كان أكثر وقعا في النفوس الضعيفة من الخطاب الاعلامي الحقيقي.

انتهى منها، قائلاً: ((وإنه في كلامه - ﷺ - ليتخوف خذلان الناس له، قال: فسكتوا فما تكلم منهم أحد، ولا أجاب بحرف. فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال: أنا ابن حاتم! سبحان الله! ما أقبح هذا المقام! ألا تحييون امامكم وابن بنت نبيكم! أين خطباء مضر؟ أين المسلمون؟ أين الخواصون من أهل مصر، الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة، فإذا جد الجد فرواغون كالثعالب، أما تخافون مقت الله ولا عيها ولا عارها. الى أن قال: وقام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ومعل بن قيس الرياحي وزباد بن صعصعة، فأنبوا الناس ولا موهم وحرصوهم)).

المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٩. أيضا ينظر: الأصفهاني، أبو الفرج علي (ت ٣٥٦هـ)، مقاتل الطالبين، ط الثانية - دار الكتاب للطباعة والنشر - قم ١٩٦٥ م، ص ٣٩.

(١) المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٧.

(٢) ذكر ابن أبي الحديد في شرح النهج عن آثار الكتب التضليلية التي أرسلها الى عماله وولاته، قائلاً: ((فاجتمعت العساكر الى معاوية، فسار بهم قاصداً الى العراق)).

المصدر نفسه، ج ١٦، ص ٣٨. أيضاً: مقاتل الطالبين، ص ٣٩.

الوصف العام للجيش العراقي (معسكر الإمام الحسن عليه السلام)

يوصف الجيش بأنه العماد الذي يقوم عليه عرش الدولة، وهو السياج الواقى للشعب من أي اعتداء خارجي، وكذلك المعول عليه في حفظ النظام وسيادة الأمن، هذا إذا كان مخلصاً في دفاعه ومؤمناً بحكومته، أما إذا كان خائناً، فإنه سوف يهزم أمام أي اعلام مُضلل من قبل الأعداء.

ولكي نقف على حال الجيش الذي قاده الإمام الحسن عليه السلام لمحاربة معاوية يجب أن نقرأ الحِثيات التي قام عليها هذا الجيش، إذ لم تقض سياسة الإمام أبي محمد الحسن المجتبى عليه السلام وهي السياسة العامة للبيت المحمدي صلوات الله وسلامه عليهم بإرغام الناس على الدخول في الخدمة العسكرية، فلم يكره الناس على الخروج الى الحرب، وإنما كانت دعوته الى الجهاد كفرض من فروض الله، فمن شاء أن يخرج خرج مؤدياً لما فرض عليه، ومن قعد فإنها يقعد غير ممثل لما أوجبه الله من دون أن ينال عقوبة أو يتعرض للسخط والارهاب كما كان يفعله معاوية في جيش الشام.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد عدد الجيش الذي زحف مع الإمام الحسن عليه السلام، فذكر بعضهم: أنهم كانوا اثني عشر ألفاً من فرسان العرب وقرّاء مصر^(١). وذكر الطبري وغيره انهم كانوا أربعين ألفاً^(٢). أما اليعقوبي فقال انهم تسعون ألفاً^(٣). وقال ابن كثير انهم سبعون ألفاً^(٤). وذهب القرشي إلى ان عدد الجيش كان يربو على أربعين ألفاً^(٥).

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٢. مقاتل الطالبيين، ص ٤٠.

(٢) تاريخ الامم والملوك، ج ٤، ص ١٢٠-١٢٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٨.

(٤) البداية والنهاية، ج ٨، ص ٤٦.

(٥) القرشي، باقر، موسوعة أهل البيت عليه السلام - الإمام الحسن بن علي عليه السلام، تحقيق: مهدي باقر

القرشي، ط الاولى دار المعروف - قم ٢٠٠٩م، ج ١١، ص ٨١.

ومهما كان من الأمر، فإن الاختلاف في عدده ليس بذي خطر؛ لأنَّ الجيش مهما كان عدده كثيراً وخطيراً إذا كان مختلف الأهواء والنزعات لا بد أن ينخزل ولا يحرز فتحاً ولا نصراً؛ لأنَّ الاعتبار في النصر والظفر دائماً هو الاخلاص والايان والعقيدة.

لذلك فقد وصفَ الجيش الذي كان تحت مظلة الإمام الحسن (عليه السلام) انه جيش قد ركز في الفتنة، وماج في الشقاء، إذ وصفه الشيخ المفيد رحمه الله وقسمه الى عناصر، قائلاً:

واستنفر الناس للجهاد فتناقلوا عنه، ثم خفَّ معه أخلاطٌ من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه (عليه السلام)، وبعضهم محكَّمة يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون الى دين^(١).

فمن كان منهم شيعة له ولأبيه فالظاهر أنَّ عددهم قليل في جيشه، والمحكَّمة هم الخوارج الذين ضمَّهم جيش الإمام (عليه السلام)، وكانوا يرمون قتال معاوية بكل حيلة ووسيلة لا إيماناً منهم بقضية الحسن (عليه السلام)، بل كانوا يرون الحسن (عليه السلام) ومعاوية في صعيد واحد، فرأوا أن ينظموا الى جيشه مؤقتاً حتى ينهوا أمره، فإن قضي عليه فيكون أمر الحسن (عليه السلام) سهلاً؛ لأنَّ اغتياله ليس بالعسير عليهم، فقد اغتالوا أباه من قبل.

وضمَّ الجيش فصيلة من الجند لا تؤمن بالقيم الروحية، ولا تُقدس العدل، وإنما كانوا ينشدون مصالحهم وأطماعهم، أما أتباع الرؤساء الذين كانوا أكثر العناصر عدداً في جيش الإمام (عليه السلام)، وأعظمهم خطراً، فمنهم يتبعون زعماءهم ورؤساءهم اتباعاً أعمى لا إرادة لهم ولا تفكير ولا شعور بالواجب، وهم المعبر عنهم بالهجم الرعاع، وكان أغلبهم قد انتمى الى أحد الزعماء على غرار العشائر الموجودة في الوقت الحاضر.

(١) المفيد، محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ)، الارشاد في حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لتحقيق التراث، ط الثانية ١٤١٤ دار المفيد، ج ٢، ص ١٠.

أما الفصيلة الاخرى التي كانت أكثر الفصائل من الجيش تمزقاً متأثرين بالدعايات الاعلامية الاموية من جهة، ودعوة الخوارج من جهة أخرى فهم الشكّاكون حتى وصل معهم الحال أن يشكّكوا في مبدأ أهل البيت عليه السلام، وفي رسالتهم الإصلاحية^(١).

لذلك فقد أدرك الإمام الحسن عليه السلام بخبرته العسكرية كراهية الجيش العراقي للحرب، ولمس ميله الى الدعة والسلام وأبصر وراءه معاوية يستخلص ولاء القادة، ويتنازع ضمائر الزعماء، ويمنّي بالمناصب المهمة، ويلوّح بالوظائف القيادية، ويهدد بالإبادة الشاملة، وينذر بالتصفية الجسدية للمعارضين له من أنصار الامام وأتباع أهل البيت عليه السلام، وكان الرتل الخامس من المنافقين والنفعيين في الكوفة يظهر الولاء للامام، ويضمّر الاخلاص لمعاوية، يزوّده بالأنباء أولاً بأول، ويسرّب اليه دقائق المعلومات السريّة، حتى عاد معاوية ذا علم بكل الحثثات التي تدور حول الامام قبل أن يختمر قرارها، فيعمد إلى إفساده بشكل وآخر، هذا ما دعاه الى استعمال الحرب وهو يحلم بالنصر العسكري، فبادر الى انتهاز كل المظاهر السلبية التي تحياها الكوفة، وعمد الى تضخيمها وهو يتوقع الغنم، مضيفاً اليه الهالة الاعلامية من الاشاعات الكاذبة، والتهويلات المقلقة مما يؤثر به على التوجيه المعنوي للجيش فيضعف عندها المناخ النفسي ويجعله في اهتزاز واضطراب متعاقبين^(٢).

(١) للاطلاع ينظر: ارشاد المفيد، ج ١، ص ١٠. الأربلي، علي (ت ٦٩٣هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، ط الثانية دار الأضواء - بيروت ١٩٨٥م، ج ٢، ص ١٦٢. المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ)، بحار الانوار، ط الثانية مؤسسة الوفاء - بيروت ١٩٨٣م، ج ٤٤، ص ٤٦. الامام الحسن بن علي عليه السلام، القرشي، ج ١١، ص ٨٤-٨٥.

(٢) ينظر: آل ياسين، راضي (ت ١٣٧٢هـ)، صلح الحسن، ط الزهراء - بغداد ١٩٥٣م، ص ١٢٨. الصغير، محمد حسين، الامام الحسن بن علي عليه السلام، ط مؤسسة البلاغ - بيروت ٢٠٠٤م، ص ٨٥.

الغلبة لمن في المعركة؟ للقائد أم للإعلام

القيادة: هي القدرة على التأثير في مجموعة نحو تحقيق رؤية أو مجموعة أهداف^(١).

وقد تطرقت بعض الآيات القرآنية بنحو واضح ودقيق عن أهم السمات التي كان يتوافر عليها القادة الربانيون، سواء كانت سياسية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم صناعية... إلى غيرها من الصفات، ومن تلك الآيات - على سبيل المثال - الآية التي تناولت قصة القائد طالوت، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، إذ يلاحظ ان الجانب القيادي عند طالوت كان يستلزم التوافر على بعض السمات الجسمانية المتميزة البسطة في الجسم نظراً لطبيعة العمل العسكري، وما تتطلبه الظروف الحربية، إلى جانب المعرفة التي قدمها الله على السمات الجسمانية بوصفها القاسم المشترك في كل أنواع الأنشطة القيادية^(٣).

إلى جانب ذلك ثمة آية قرآنية تضمنت أهم سمات وسلوكيات الشخصية القيادية التي خصّها الله سبحانه وتعالى بنبي الرحمة محمد ﷺ، يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ

(١) الساعدي، محمد، ملامح القيادة الناجحة في ضوء منهجية الامام علي بن ابي طالب، ط الاولى ١٤٣٥هـ - قم - ذوو القربى، ص ٤٣.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) ينظر: القمي: علي بن ابراهيم (ت ٣٢٩هـ)، تفسير القمي، تحقيق: طيب الجزائري، ط الثالثة - دار الكتب للطباعة والنشر - قم ١٤٠٤هـ، ج ١، ص ٨١. الطوسي: محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: احمد حبيب قصير، ط الاولى - دار احياء التراث ١٤٠٩هـ، ج ١، ص ٧٢. الرازي: فخر الدين (ت ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، ط الثالثة، ج ٦، ص ١٨٤. الاندلسي: أبو حيان (ت ٧٤٥هـ)، تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، ط الاولى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٢هـ، ج ٢، ص ٢٦٦.

لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ^(١)، إذ تناولت
هذه الآية أخطر السمات، وملامح السلوك القيادي على وجه الإطلاق، وهي كل من:
اللين، الفظاظة، الغلظة، الاستغفار، المشاورة، التوكل^(٢).

وقد أوصى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بأن تتوفر في القائد العسكري
السمات الآتية، وذلك في عهده للقائد الاسلامي الكبير مالك الاشتر، قائلاً: «فَوَلِّ مِنْ
جُنُودِكَ، أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَبِيًّا وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا، يَمَنْ
يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ بِالضُّعْفَاءِ وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ، وَيَمَنْ لَا يَثِيرُهُ الْعُنْفُ
وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ، ثُمَّ الصَّقُ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبَيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ
وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّاحَةِ، فَإِنَّهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ
وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَقَّمَنَّ فِي
نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتُهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ
النَّصِيحَةِ لَكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ، وَلَا تَدْعُ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ أَتَكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا،
فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ. وَلْيَكُنْ أَثَرُ
رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ، بِمَا يَسْعُهُمْ وَيَسَعُ
مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هُمُومًا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ»^(٣).

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) ينظر: الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ)، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة
من العلماء الاخصائيين والمحققين، ط الاولى - مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٤١٥هـ، ج ٢، ص ٤٢٦.
القرطبي: محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ)، الجامع لاحكام القرآن، تحقيق: ابو اسحاق ابراهيم أطفيش، ط
دار احياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٥هـ، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٣) نهج البلاغة: خطب الامام علي عليه السلام، تحقيق وشرح: محمد عبده، ط الاولى - دار الذخائر - قم

١٤١٢هـ، ج ٣، ص ٩١.

فالقائد العسكري وفقاً لرؤية الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام لابد من اتسامه بالسمات الآتية:

١. النصيحة للرموز العقديّة، والنصيحة في هذا المجال تعني الحرص الشديد في تقديم غاية الجهد من أجل حفظ وحماية المبادئ التي يدعو إليها.
 ٢. أن يكون متصفاً بالنزاهة المالية؛ وذلك لتجنب محاولة اختراقه بالاغراء المالي.
 ٣. أن يتسم بالسيطرة على ردود أفعاله والتحكم بها، وتحمل المثيرات الداعية الى الحدة والغضب.
 ٤. أن يكون متصفاً بالقدرات العقلية، والمؤهلات العلمية والتدريبية.
 ٥. أن يعطي الأولوية في اختيار القادة الى ذوي الخبرات والتجارب.
 ٦. أن يكون شجاعاً وهذه من أهم سمات الشخصية العسكرية والأمنية^(١).
- هذه الصفات القيادية وغيرها التي أشار إليها القرآن الكريم وكلام أمير المؤمنين عليه السلام كانت متمثلةً بحفيد رسول الله الحسن بن علي عليه السلام، صاحب القدرات والمؤهلات العقلية والعلمية والمبدئية في آن واحد، وكان جاداً في اعطاء الأولوية الى ذوي الحسب والنسب والنزاهة والتجارب لاختيار القائد المناسب، وهذا ما فعله عند اختيار القائد الأول ابن عمّه عبيد الله بن عباس.

(١) ينظر: شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ٥٢. ملامح القيادة الناجحة، ص ٥٤ - ٥٥.

سقوط القائد الأول:

حاول الاعلام المضلل الأموي تكثيف جهوده من أجل إيجاد حالة الإدبار وانشطار المواقف في صفوف جيش الإمام الحسن (عليه السلام)، كما استطاع الإعلام أن يستميل بعض عناصر هذا الجيش إلى الصف الأموي.

كان الإمام الحسن (عليه السلام) قد أسند مقدّمة الجيش إلى عبيد الله بن العباس؛ لما له من القدرة والحزم ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الرفيع، فهو قد تربى في مدرسة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وحرّياً بأن يخلص ويبدل قصارى جهوده في المعركة؛ لأنه متورّ من معاوية فلقد قتل ولديه بسر بن أبي أرطأة^(١). وجعل الإمام (عليه السلام) الى جانب عبيد الله مشاورين من خلّص أصحابه الباسلين والماهرين وهم: قيس بن سعد بن عبادة^(٢). وسعيد بن قيس الهمداني^(٣)، وجهزه بجيش قدره اثنا عشر ألفاً^(٤).

(١) قال ابن الاثير: بسر بن ارطاة واسمه عمرو بن عويمر، رجل سوء وذلك لما ركبه في الاسلام من الامور العظام، منها ما نقله أهل الاخبار وأهل الحديث من ذبحه عبد الرحمن وقثم ابني عبيد الله ابن العباس بن عبد المطلب وهما صغيران بين يدي أمهما وكان معاوية سيّره الى الحجاز واليمن ليقتل شيعة علي ويأخذ البيعة له.

ابن الاثير: محمد بن محمد (ت ٦٣٠هـ)، اسد الغابة في معرفة الصحابة، ط دار الكتاب العربي - بيروت، ج ١، ص ١٨٠.

(٢) قيس بن سعد بن عبادة الانصاري الخزرجي المدني، صحابي، كان شريف قومه ومن بيت سيادتهم، حمل راية الانصار مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وصحب الامام علياً (عليه السلام) في خلافته، فاستعمله على مصر سنة ٣٦هـ، توفي سنة ٦٠هـ.

الزركلي: خير الدين (ت ١٤١٠هـ)، الاعلام، ط الخامسة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٠م، ج ٥، ص ٢٠٦.

(٣) سعيد بن قيس بن زيد، من همدان فارس، كان خاصاً بالامام علي (عليه السلام)، وقاتل معه يوم صفين، وكان اليه أمر همدان في العراق، توفي سنة ٥٠هـ.

المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٠٠.

(٤) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٤٠.

وانطلق عبيد الله يطوي البيداء مع الجيش حتى انتهى إلى منطقة سينور^(١)، ومنها خرج إلى شاهي^(٢)، فلزم الفرات والفلوجة حتى وصل إلى مسكن^(٣)، فاستقام فيها وقابل العدو وجهاً لوجه، هنالك قام معاوية من خلال عملياته الإعلامية التخريبية من أجل تمزيق وحدة الصف العسكري، فكانت باكورة الدسائس الخطيرة في إفساده مقدّمة جيش الإمام عليه السلام أن بعث الجواسيس، ونشر العيون ليذيعوا الذعر والارهاب، وبث العصيان والتمرد فيها، ويقوموا بخذلان الجيش^(٤).

وكانت دعايتهم ذات طابع واحد وهي: إنّ الحسن يُكاتب معاوية على الصلح فلم تقتلون أنفسكم؟^(٥). وتركت هذه الموجه من الافتراء الإعلامي اضطراباً فظيماً، وخوفاً بالغاً في النفوس، وأحدثت تمرداً شاملاً في جميع الوحدات العسكرية.

وبعد أن أخذ التمرد يسري في جيش عبيد الله عمِل معاوية لاستكمال خطته الاعلامية على مد أسلاك مكره لاسقاط قائد المعسكر عبيد الله بن العباس بأن راسله ليخدعه ويمكر به، فكانت رسالته التي بعثها إليه تنم عن الغدر والخديعة، وهذا ما نصه:

(١) سينور: بالكسر، موضع يقع بين بابل والكوفة.

معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٢) قال صاحب المجدي: شاهي قرية بسواد الكوفة.

العلوي: علي بن محمد (ت ٧٠٩هـ)، المجدي في أنساب الطالبين، تحقيق: احمد المهدي الدماغاني، ط الاولى - سيد الشهداء - قم ١٤٠٩هـ، ص ١٧٠.

(٣) مسكن: بفتح الميم، وكسر الكاف، موضع قريب من أوانا على نهر الدجيل عند دير الجاثليق. معجم البلدان، ج ٥، ص ١٢٧.

(٤) للاطلاع ينظر: مقاتل الطالبين، ص ٦٢. بحار الانوار، ج ٤٤، ص ٥١. الامام الحسن بن علي (الموسوعة)، القرشي، ج ١١، ص ٩٤-٩٥.

(٥) شرح ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٤٢.

«إن الحسن راسلني في الصلح، وهو مُسلّم الأمر إليّ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً، وإلا دخلت وأنت تابع، ولك إن أجبتني الآن أن اعطيك ألف ألف درهم، اعجل لك في هذا الوقت نصفها، وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر»^(١). وتمثل الكذب الصريح، والمكر السافر في قوله: إن الحسن قد راسلني في الصلح، فمتى راسله الامام في الصلح؟؟

فغزا معاوية برسالته مشاعر عبيد الله، فقد أخذ يُطيل التفكير في ارتكاب الجريمة والخيانة، وتمثّلت أمامه المغريات التي عرضها عليه معاوية، فسوّلت له نفسه الأثيمة بالغدر ونكث العهد، وقد خان بذلك ثقل رسول الله ﷺ، وترك حكومة الحق والهدى، فتسلل في غلس الليل الى معاوية ومعه ثمانية الاف من الجيش^(٢). فقد أدت خيانتة الى زعزعة الجيش وتفلل وحداته واضطرابه.

إن هذه الخطة الاعلامية الخبيثة التي سلكها معاوية كانت من أهم الاسباب التي مهدت نجاحه وفوزه بالموقف، وتغلّبه على الاحداث، فقد سببت اندحار الجيش العراقي، وقضت على عزائمه، وفتح هذا السلوك الاعلامي باب الخيانة والغدر على مصراعيها.

الإذاعة الأموية واضطراب الجيش:

بعد هذا الاندحار المفاجيء لمقدمة الجيش أصبحت البقية الباقية منه تُفتش عن قائدها ليُصلي بها صلاة الصبح، ولما علمت خيانتة وغدره والتحاقه بالعدو اضطربت أشد الاضطراب، وماجت في الفتن، وارتطمت بالنزاع والخلاف.

ولما رأى قيس بن سعد بن عبادَة المستشار الأول للقائد الخائن آثار الغدر والخيانة

(١) شرح ابن ابي الحديد، ج ١٦، ص ٤٢.

(٢) ينظر: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٩١.

من الفتن السود قد ضربت أطنابها على الجيش قام فصلى بهم صلاة الصبح، وبعد الفراغ منها قام خطيباً فهدأ روعهم، وأثابهم إلى الصواب والرشاد، قائلاً:

«أيها الناس: لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الجبان، إنّ هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خيراً قط، إنّ أباه عم رسول الله ﷺ خرج يقاتله ببدر، فأسره أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري، فأتى به رسول الله ﷺ فأخذ فداءه فقسّمه بين المسلمين، ... وإنّ هذا ولّاه علي على اليمن فهرب من بسر بن أبي أرتاة، وترك ولده حتى قتلوا، وصنع الآن هذا الذي صنع»^(١).

وملك قيس أحاسيس الجيش وشعورهم بخطابه الاعلامي المؤثر الرصين، فقد رأوا في كلامه منطق الحق، وفي شخصيته صلابة الايمان، وتبين لهم أن عبید الله خلیق بالخيانة، ومظنّة لكل سوء، وأنه لو كان عنده شعور نبيل أو عاطفة انسانية لما هرب من اليمن وترك ولديه بيد الجزار بسر بن أبي أرتاة فقتلها.

وانبرى الجيش بجميع كتائبه فأعلن التأييد والخضوع لمقاتله والكل يهتف: الحمد لله الذي أخرجه من بيننا^(٢)، وتسلم قيس القيادة بنص الإمام ﷺ، وبالترشيح من جميع القوات المسلحة^(٣).

لما علم معاوية بإسناد قيادة الجيش العراقي إلى قيس بن سعد فتح إذاعته الاعلامية من جديد؛ لكي يُنهى على القطعات العسكرية المتبقية، فأرسل عيونَه وخواصّه ينشرون

(١) مقاتل الطالبين، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) قال ابن أبي الحديد: ثم أمرهم - قيس بن سعد بن عبادة - بالصبر والتهوؤ إلى العدو، فأجابوه بالطاعة وقالوا له: انفض بنا إلى عدونا على اسم الله، فنزل فنهض بهم.

شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٤٢. أيضاً للاطلاع ينظر: الامام الحسن بن علي ﷺ، القرشي، ج ١١، ص ٩٨.

الأكاذيب، ويثبّون الارهاب في جميع كتائب الجيش، سواء المقيمة في المدائن أو في مسكن، وكانت تلکم الإشاعات ذات صور وهي:

أولاً: إذاعتهم في (المدائن) بأن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه^(١)، ولم يشك الجيش في صدق هذه الدعاية، فإن عبيد الله بن العباس الذي هو أقرب الناس رحماً بالإمام الحسن عليه السلام قد غدر به وخانه، فكيف بغيره.

ثانياً: الإعلان في (مسكن) عن قيام الإمام الحسن عليه السلام بالصلح مع معاوية^(٢).

ثالثاً: نشر الدعايات الكاذبة في (المدائن) أن قيس بن سعد قد قُتل فانفروا^(٣).

ومرّقت هذه الصور الاعلامية الثلاث أعصاب الجيش، وأماتت نشاطه العسكري، وأصبح متفككاً تسوده الفتن والأهواء، فأوجبته انهياره، وأصبح لا لياقة له في مواجهة الأحداث، ولا قابلية له على الدفاع ورد العدوان الأموي الذي يتمتع بأحسن القابليات وأضخم الطاقات.

الإمام عليه السلام يودّع الكوفة للقتال:

حينما انتهى إلى الإمام الحسن عليه السلام كل هذه الأنباء المؤسفة من الخيانة والغدر واضطراب جيشه اترعت نفسه الشريفة بالآلام والهواجس، فنزح من عاصمته الكوفة

(١) قال اليعقوبي: «وكان معاوية يدس إلى عسكر الحسن من يتحدث أن قيس بن سعد قد صالح معاوية وصار معه».

تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩١.

(٣) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٢١. ابن الجوزي: عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢هـ، ج ٥، ص ١٦٦.

مع نفر من أخلاط الناس، وأخذ في مسيره حتى أتى دير كعب في (مُظلم ساباط) ^(١) فاستقوا فيه، ولما عَلِمَ معاوية وصول القطعات العسكرية بقيادة الإمام الحسن عليه السلام إلى هذه المنطقة، أخذ يَعيثُ فساداً في الجيش من خلال استمرار قنواته الإعلامية الفاسدة، فأرسل عبد الله بن عامر ^(٢) لبيث الخوف والجزع في نفوس العراقيين، فانطلق عبد الله فنادى بأعلى صوته بين صفوف الجيش العراقي: «يا أهل العراق، إنِّي لم أرَ القتال، وإنما أنا مقدِّمة معاوية، وقد وافى الأنبار في جموع أهل الشام، فاقروا أبا محمد - يعني الإمام الحسن عليه السلام - عني السلام وقلوا له: أنشدك الله في نفسك، وأنفس هذه الجماعة التي معك» ^(٣). وحينما سمعوا ذلك داخلهم الخوف والرغبة إلى حد لا سبيل إلى تصويره، وأخذ بعضهم يخذل بعضاً، وسئمو القتال، وكرهوا الحرب.

بعدها إتجه معاوية إلى قناة إعلامية أخرى، وهي مراسلة جمع من الأشراف والوجوه البارزين في العراق لشراء ضمائرهم، فاستجابت تلك النفوس المريضة إلى دعوى معاوية، وانجرفت بديناه الحلوة، وانخدعت بوعوده المعسولة، فأخذت تتهاوى على أعتابه مُلبية طلباته، وممتثلة لأمره في الفتك بالإمام عليه السلام وتسليمه له سراً أو جهراً،

(١) مظلم ساباط: موضع مضاف إلى ساباط التي هي بالقرب من المدائن في العراق.

معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٢.

(٢) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي، أبو عبد الرحمن، ولد بمكة سنة ٤ للهجرة وولي البصرة في أيام عثمان سنة ٢٩هـ، وكانت له عدة فتوحات أشهرها سجستان ونيسابور والطالقان وغيرهما، شهد وقعة الجمل مع عائشة، ولم يحضر وقعة صفين، أرسله معاوية بجيش جرار لمنازلة الامام الحسن عليه السلام في المدائن، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين ثم صرفه عنها فأقام في مكة إلى أن توفي بها سنة ٥٩هـ.

ينظر: الاعلام، ج ٤، ص ٩٤.

(٣) الدينوري، أحمد (ت ٢٨٢هـ)، الاخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، ط الاولى دار احياء

الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠م، ص ٢١٧.

واغتياله وقتله متى أراد ذلك، وقد نصّ على تلك الجهات الصدوق عليه السلام في كلامه، قائلاً: «دس معاوية الى عمرو بن حريث، والاشعث بن قيس، والى حجر بن الحجر، وشبث بن ربعي، دسيساً أفرد كل واحد منهم بعين من عيونه انك ان قتلت الحسن بن علي فلك مائتا ألف درهم، وجند من أجناد الشام، وبنت من بناتي»^(١).

ولكي يكمل معاوية مُسلسلته هذا بعث بتلك الرسائل إلى الإمام عليه السلام ليطلع فيها على خيانة جيشه، وعندما عرضت عليه تلك الرسائل أيقن بفسادهم وتحاذلهم وسوء نياتهم؛ لذلك كان الإمام الحسن عليه السلام حينها لا يتقدم للصلاة إلّا وهو متقلد درعه خشيةً من الفتك به^(٢).

استمرار الخيانة العسكرية :

وعندما نظر الإمام عليه السلام الى هذه الاحداث من حوله وجّه قائداً من كندة^(٣) في أربعة آلاف، وأمره أن يُعسكر بالأنبار، وأن لا يُحدث شيئاً حتى يأتيه أمره، فلما نزل بها عرف معاوية، فوجّه إليه رسولاً وكتب معه: «إنك إن أقبلت إليّ أولئك بعض كور الشام والجزيرة» وأرسل إليه خمسمائة ألف درهم، فقبض الكندي المال وانحاز الى معاوية في مائتي رجل، فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فتأثر وقام خطيباً وهو متذمر ومتألم أشد الألم من ذلك المجتمع الذي جرفته الخيانة، فقال: «هذا الكندي توجّه الى معاوية، وغدر بي وبكم، وقد أخبرتكم مرّة بعد مرة إنه لا وفاء لكم، وأنتم عبيد الدنيا، وأنا مُوجّهٌ رجلاً

(١) الصدوق: محمد (ت ٣٨١هـ)، علل الشرائع، ط الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٦٦م، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) ينظر: ابن شهر آشوب، محمد (ت ٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من اساتذة النجف الاشرف، ط الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٥٦م، ج ٣، ص ١٩٥. أيضاً: كشف الغمة في معرفة الأئمة، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) لم تذكر المصادر اسم هذا القائد، وإنما ورد هكذا: (قائداً من كندة) أو (القائد الكندي).

آخر منكم، وإني أعلم أنه سيفعل بي وبكم ما فعل صاحبكم، ولا يُراقب الله في ولا فيكم»^(١).

وبعث رجلاً آخر من مراد^(٢) في أربعة آلاف، وتقدّم إليه بمراى ومشهد من الناس، واكد عليه، ولكن الإمام عليه السلام أخبره أنه سيغدر كما غدر الكندي، فحلف بالأيمان الموثقة أنه لا يفعل ذلك، وسار حتى انتهى الى الأنبار، فلما علم معاوية به أرسل إليه رسلاً وكتب إليه بمثل ما كتب الى صاحبه، وبعث اليه بخمسمائة الف درهم، ومنّاه أي ولاية أحب من كورة الشام والجزيرة، فانقلب إلى معاوية عليه السلام وأخذ طريقه اليه ولم يحفظ ما أخذ عليه الامام الحسن عليه السلام من العهود.

لقد أدت هذه الخيانات في القيادات العسكرية إلى زعزعة كيان جيش الإمام الحسن عليه السلام واضطرابه، وتفلّل جميع وحداته، وكان أثر اليد الاعلامية الاموية كبيراً في ذلك؛ إذ دس معاوية عيونه في جيش الإمام عليه السلام ليذيعوا أن الزعيم قيس بن سعد قد قُتل، فإنهم حينما سمعوا ذلك نهب بعضهم بعضاً حتى انتهبوا سراق امامهم وقائدهم الامام الحسن عليه السلام، فزعزعوا بساطاً كان الإمام عليه السلام جالساً عليه واستلبوا منه رداءه^(٣).

ولما أرسل معاوية المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن الحكم الى الإمام عليه السلام ليفاوضوا في أمر الصلح، وعند خروجهم من عنده أخذوا يثّثون بين صفوف الجيش الدعايات المغرضة لإيقاع الفتنة فيه قائلين: إنّ الله حقن الدماء بابن بنت رسول الله ﷺ، وقد أجابنا الى الصلح، ولما سمعوا بمقاتلتهم اضطربوا اضطراباً شديداً، ووثبوا

(١) الراوندي، قطب الدين (ت ٥٧٣هـ)، الخرائج والجرائح، تحقيق: مؤسسة الامام المهدي عليه السلام، ط الاولى العلمية - قم ١٤٠٩هـ، ج ٢، ص ٥٧٥.

(٢) لم تذكر المصادر اسم هذا القائد، وانما ورد هكذا: (رجل من مراد) أو (الرجل المرادي).

(٣) تاريخ الامم والملوك، ج ٤، ص ١٢٢. البداية والنهاية، ج ٨، ص ١٤.

على الإمام عليه السلام فانتهبوا مضاربه وأمتعته^(١).

وخيم الجهل على قلوب ذلك الجيش، وبلغ من طيشه وجهله أن بعضهم حكم بتكفير حفيد نبيهم وقائدهم، فلقد انبرى له الجراح بن سنان^(٢) الذي أراد قتله قائلاً: «أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل!»^(٣).

وكان موقف الإمام عليه السلام من هذه الزعازع والفتن السود، موقف القائد الحازم اليقظ؛ إذ جمع الزعماء والوجوه، فأخذ يبين لهم النتائج المرّة والأضرار الجسيمة التي تترتب على الانقلاب إلى معاوية، قائلاً: «ويلكم! والله إن معاوية لا يفي لأحد منكم بما ضمنه في قتلي، وإنني أظنُّ إن وضعت يدي في يده فأسلمه لم يتركني أدينُ بدين جدي عليه السلام، وإنني أقدر أن أعبد الله وحدي، ولكن كأني أنظرُ إلى أبنائكم واقفين على أبواب أبنائهم يستسقونهم ويستطعمونهم بما جعل الله لهم فلا يُسقون ولا يُطعمون، فبعداً وسُحقاً لما

(١) تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢١٥. شرح ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٤١.

(٢) الجراح بن سنان الاسدي: ذكره بهذا العنوان، البلاذري: أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، أنساب الاشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط الاولى - دار التعارف - بيروت ١٩٧٧م، ج ٣، ص ٣٥، واليعقوبي في تاريخه، ج ٢، ص ٢١٥، وأبي الفرج الاصفهاني في مقاتل، ص ٤١، والشيخ المفيد في الارشاد، ج ٢، ص ١٢، والنمازي، علي (ت ١٤٠٥هـ)، مستدركات علم رجال الحديث، ط الاولى - حيدري - طهران، ج ٢، ص ١٣٣. وذكره بعنوان آخر: (سنان بن الجراح): ابن أعثم الكوفي: أحمد (ت ٣١٤هـ)، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، ط الاولى - دار الاضواء - بيروت ١٤١١هـ، ج ٤، ص ٢٨٨، والحاكم النيسابوري في المستدرک، ج ٣، ص ١٧٤ وابن أبي الحديد في شرح النهج، ج ١٦، ص ٢٦ وابن عنبه، أحمد (ت ٨٢٨هـ)، في عمدة الطالب في أنساب أبي طالب، تحقيق: محمد حسن الطالقاني، ط الثانية - الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٦١م، ص ٦٦.

وهو رجلٌ من بني أسد تناول على الامام الحسن عليه السلام وطعنه في فخذه بمعول كان بيده حتى بلغ العظم فصاح الحسن عليه السلام صيحةً وخرَّ عن فرسه مغشياً عليه، فوثب اليه رجل من شيعة الامام الحسن عليه السلام فقتله.

(٣) أنساب الاشراف، ج ٢، ص ٣٥٣، مقاتل الطالبين، ص ٤١، ارشاد المفيد، ج ٢، ص ١٢.

كسبته أيديهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١)»^(٢).

ولم تنفع جميع المحاولات التي بذلها الإمام عليه السلام من أجل استقامتهم وصلاتهم؛ إذ وجد زعماء الجيش انشغال الإمام الحسن عليه السلام بمعالجة جرحه فرصةً إلى الاتصال المفضوح بمعاوية، والتزلف إليه بكل وسيلة.

لذلك إن القنوات الإعلامية الفاسدة التي فتحها معاوية ضد قائد القوات المسلحة للجيش العراقي الإمام الحسن عليه السلام كانت كفيلةً بأن تنال الغلبة في المعركة، وتحصد الكثير من الانتصارات، وتساعد على انحلال الجيش مهما كان حجمه وقوته والقضاء على أصالته، ومن المعلوم أن القوى العسكرية قلب الدولة ومصدر حمايتها، فإذا أصيب بمثل هذه الخطوب والأخطار فهل يتمكن القائد الأعلى أن يحقق أهدافه أو يفتح باب الحرب مع القوى المعادية له؟!

(١) الشعراء، ٢٢٧.

(٢) علل الشرائع، ج ١، ص ٢٢١. بحار الانوار، ج ٤٤، ص ٣٣.

الخاتمة

في غمار هذه الجولة السريعة في بيان جانب من جوانب سيرة الامام الحسن المجتبى (عليه السلام) حاولنا فيها أن نوصل الى للقاريء الكريم الصور الاعلامية التي رسمتها تلك السياسات الاموية في حربها ضد الامام الحسن (عليه السلام)، ويمكن إدراجها في النقاط الآتية:

أولاً: اسهمت القنوات الاعلامية في تضليل المجتمع، وبذلك أصبح خطرها أكثر ضرراً من الاسلحة الفتاكة، فالمضللون الاعلاميون هم المسؤولون قبل غيرهم على تسليط الطاغوت على الناس.

ثانياً: عملت السياسة الاموية على صناعة وتشكيل المنظومة الاعلامية والعمل على دعمها بشتى الوسائل من أجل الحفاظ على السلطة واسقاط محاولات الاعتداء عليها. ثالثاً: من المطالب التي توصل إليها البحث والتي عكست المعالم الاخلاقية لتلك السياسات الاموية محاولة التأثير في الجماهير بأي طريقة كانت.

رابعاً: استعمال العدو ضد الامام الحسن (عليه السلام) جميع أدوات التضليل الاعلامي التي نخرت في جسد مؤسسته العسكرية منها، الثقافة الفكرية الخبيثة والفسادة، واستخدام وسيلة الترغيب والترهيب للسيطرة على فرقاء الامة، واستعمال أبواق الشياطين من الشعراء وغيرهم، فضلاً عن ذلك بث الاشاعات الكاذبة، واستخدام أجهزة التجسس الخبيثة.

خامساً: استمرار الخيانة العسكرية داخل القطعات العسكرية للجيش بسبب ارتفاع الضغط الاعلامي المضاد وتواصله لايقاع الفتنة بين صفوف الجيش مما أدى بنتائجه الوخيمة على زعزعة القيادات برمتها.

سادساً: إنَّ للإعلام الدور الأساس في تغيير الحوادث التاريخية وخير دليل على ذلك النموذج الذي بين أيدينا من مجريات الاحداث التي وقعت للإمام الحسن (ع) فهو أسطع دليل على صحة ذلك.

المصادر والمراجع

- خيرٌ ما نبتدئُ به
القرآن الكريم
اللهم زَيِّنْ به لساني وجَلِّ به وجهي
١. الدينوري، أحمد بن داود، (ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥ م).
الاخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، (ط الاولى دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠م).
 ٢. المفيد، محمد بن النعمان العكبري، (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢ م).
الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام لتحقيق التراث، (ط الثانية دار المفيد - بيروت ١٤١٤).
 ٣. ابن الاثير: محمد بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م).
اسد الغابة في معرفة الصحابة، ط دار الكتاب العربي - بيروت.
 ٤. البلاذري: أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م).
أنساب الاشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط الاولى - دار التعارف - بيروت ١٩٧٧ م.
 ٥. المجلسي، محمد باقر (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩ م).
بحار الانوار، (ط الثانية مؤسسة الوفاء - بيروت ١٩٨٣ م).
 ٦. ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير، (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م).
البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، (ط الاولى - دار احياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٨هـ).
 ٧. الزبيدي، محب الدين محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠ م).
تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، (ط دار الفكر - بيروت ١٩٩٤ م).

٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٢١٠هـ / ٨٢٦م). تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، (ط مؤسسة الاعلمي - بيروت - لبنان).
٩. اليعقوبي، أحمد بن يعقوب، (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م). تاريخ اليعقوبي، (ط دارصادر - بيروت).
١٠. الطوسي: محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م). التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير، (ط الاولى - دار احياء التراث ١٤٠٩هـ).
١١. الاندلسي: أبو حيان (ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م). تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (ط الاولى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٢هـ).
١٢. القمي: علي بن ابراهيم (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١). تفسير القمي، تحقيق: طيب الجزائري، (ط الثالثة - دار الكتب للطباعة والنشر - قم ١٤٠٤هـ).
١٣. الرازي: فخر الدين (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م). التفسير الكبير، (ط الثالثة).
١٤. القرطبي: محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م). الجامع لاحكام القرآن، تحقيق: ابو اسحاق ابراهيم أطفيش، ط دار احياء التراث العربي - بيروت ١٤٠٥هـ.
١٥. الراوندي، قطب الدين سعيد بن هبة الله (ت ٥٧٣هـ / ١١٧٨م). الخرائج والجرائح، تحقيق: مؤسسة الامام المهدي عليه السلام، (ط الاولى العلمية - قم ١٤٠٩هـ).
١٦. ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، (ط دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي ١٩٦٢م).
١٧. البخاري: أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ / ٨٨٠م). صحيح البخاري، (ط دار الفكر - بيروت ١٩٨١م).
١٨. النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، (ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م). صحيح مسلم، (ط دار احياء التراث الاسلامي - بيروت - ١٤٢٠هـ).

١٩. الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي، (ت ٣٨١هـ / ٩٩١م).
 علل الشرائع، (ط الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٦٦م).
 ٢٠. ابن عنبه، جمال الدين أحمد بن علي الحسيني (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م).
 عمدة الطالب في انساب أبي طالب، تحقيق: محمد حسن الطالقاني، (ط الثانية - الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٦١م).
 ٢١. ابن أعثم الكوفي: أبو محمد أحمد بن أعثم (ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م).
 الفتوح، تحقيق: علي شيري، (ط الاولى - دار الاضواء - بيروت ١٤١١هـ).
 ٢٢. الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب، (ت ٣٢٩هـ / ٩٤١م).
 الكافي في الفروع والاصول، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، (ط الخامسة - طهران ١٣٦٣هـ).
 ٢٣. الاربلي، علي بن عيسى بن أبي الفتح، (ت ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م).
 كشف الغمة في معرفة الأئمة، (ط دار الاضواء - بيروت ١٩٨٥م).
 ٢٤. ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم المصري، (ت ٧٧١هـ / ١٣٩١م).
 لسان العرب، (ط قم - محرم ١٤٠٥هـ).
 ٢٥. العلوي: علي بن محمد، (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م).
 المجدي في أنساب الطالبين، تحقيق: احمد المهدي الدامغاني، (ط الاولى - سيد الشهداء - قم ١٤٠٩هـ).
 ٢٦. الطبرسي: الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م).
 مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: لجنة من العلماء الاخصائيين والمحققين، (ط الاولى - مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٤١٥هـ).
 ٢٧. الحاكم النيسابوري، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ / ١٠١٤م).
 المستدرک على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشي، (ط دار المعرفة - بيروت).
 ٢٨. ابن حنبل، أحمد بن حنبل، (ت ٢٤١هـ / ٨٥٦م).
 مسند أحمد، (ط دار صادر - بيروت - لبنان).
 ٢٩. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م).

- معجم البلدان، (ط دار احياء التراث العربي - بيروت ١٩٧٩ م).
٣٠. الاصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م).
- مقاتل الطالبين، تقديم و اشراف: كاظم المظفر، (ط الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٦٥ م).
٣١. ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني، (ت ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م).
- مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من اساتذة النجف الاشرف، (ط الحيدرية - النجف الاشرف ١٩٥٦ م).
٣٢. الراغب الاصفهاني: الحسين بن محمد (ت ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م).
- المفردات في غريب القرآن، (ط الثانية ١٤١٤ هـ).
٣٣. ابن الجوزي: عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م).
- المنتظم في تاريخ الامم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، (ط الاولى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٢ هـ).
٣٤. خطب الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، (ت ٤٠ هـ / ٦٠٠ م).
- نهج البلاغة، تحقيق وشرح: محمد عبده، (ط الاولى - دار الذخائر - قم ١٤١٢ هـ).
- المراجع الحديثة:
١. مكايي، الدكتور حسن عماد، (معاصر).
 - أخلاقيات العمل الاعلامي دراسة مقارنة، (ط الرابعة - الدار المصرية - القاهرة ٢٠٠٦ م).
 ٢. الخطيب، الدكتور محمد عجاج، (معاصر).
 - أضواء على الاعلام في صدر الاسلام، (ط الثانية الرسالة - بيروت ١٩٨٧).
 ٣. الزركلي: خير الدين (ت ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م).
 ٤. الاعلام، (ط الخامسة - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٠ م).
 ٥. راضي، سمير بن جميل، (معاصر).
 - الاعلام الاسلامي رسالة وهدف، (ط رابطة العالم الاسلامي - مكة المكرمة ١٤١٧ هـ).
 ٦. المدرسي، آية الله السيد محمد تقي المدرسي، (معاصر).
 - الاعلام الرسالي والاعلام المضاد، (ط ١٤٠٥ هـ).

٧. حمزة، عبد اللطيف حمزة، (معاصر).
- الاعلام في صدر الاسلام، (ط دار الفكر - القاهرة).
٨. القرشي، باقر شريف القرشي، (ت ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م).
- الامام الحسن بن علي (الموسوعة)، تحقيق: محمد مهدي القرشي، (ط الاولى - دار المعروف-قم ١٤٣٠هـ).
٩. الصغير، د. محمد حسين الصغير، (معاصر)..
- الامام الحسن بن علي ؑ (ط مؤسسة البلاغ - بيروت ٢٠٠٤م).
١٠. مطلوب و البصير، د. أحمد مطلوب و د. كامل حسن البصير، (معاصر ان).
- البلاغة والتطبيق، (ط الاولى - بيروت ٢٠٠٩م).
١١. أيار، د. فريد أيار (معاصر).
- دراسات في الاعلام والحرب النفسية، (ط دار الحرية - بغداد ١٩٧٩).
١٢. آل ياسين، راضي بن عبد الحسين بن باقر، (ت ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م).
- صلح الحسن ؑ، (ط الزهراء - بغداد ١٩٥٣م).
١٣. الشنقيطي: سيد محمد .
- مفاهيم اعلامية من القرآن الكريم، (ط دار الكتب - الرياض ١٩٨٦م).
١٤. الساعدي، محمد عبد الرضا، (معاصر).
- ملاحم القيادة الناجحة في ضوء منهجية الامام علي بن ابي طالب، (ط الاولى - ١٤٣٥هـ - قم - ذو القري).
١٥. العلوي، محمد بن عقييل بن عبد الله العلوي (ت ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م).
- النصائح الكافية لمن يتولى معاوية، (ط الاولى - دار الثقافة - قم ١٤١٢هـ).
١٦. النجار، عماد عبد الحميد، (معاصر).
- الوسيط في تشريعات الصحافة، (ط المصرية ١٩٨٥م).
- المراجع الاجنبية:
١. برتراند، كلودجان برتراند، (معاصر).
- أدبيات الاعلام / ديونتولوجيا الاعلام، ترجمة: رباب العابد، (ط المؤسسة الجامعية للدراسات

والنشر والتوزيع).

٢. لاينبرغر باول، (معاصر).

الحرب النفسية، ترجمة: محمد الرشيد، (ط الثانية كومبات العسكرية واشنطن ١٩٥٤).

٣. وزارة الدفاع الامريكية.

القاموس العسكري للجيش الامريكي، (ط آب - ١٩٥٠ م).

آليات الحجاج اللغوية
في
وصايا الإمام الحسن عليه السلام
الروابط الحجاجية والتوجيه الحجاجي أنموذجان

الأستاذ المساعد الدكتور

عبد الإله عبد الوهاب هادي العرداوي

أولاً: الإطار النظري

١. الروابط الحجاجية:

ارتبط مفهوم الروابط في عدة دراسات بالمباحث النحوية والدلالية من دون النظر إلى وظيفتها الحجاجية والتداولية، إذ عدّ بعض الدراسين (إنّ دورها لا يتجاوز الربط بين الجمل والقضايا، أما بعدها الحجاجي والتداولي فقد برز مع ديكر في إطار صياغته للتداولية المدججة، وهي النظرية التداولية التي تشكل جزءاً من النظرية الدلالية)، إذ لم يغفل ديكر وزميله في أثناء صياغتهما لـ (النظرية الحجاجية في اللغة) هذا الجانب المهم الذي يتركز في ابنية اللغة بوصفها ظاهرة لغوية مهمة جداً لها ارتباط بطريقة مباشرة في توجيه الحجاج من خلال إحداث الانسجام في داخل الخطاب، والدفع باتجاه تحقيق الإقناع عبر استمالة المتلقي وتوجيهه نحو الغاية التي يريدها المتكلم بمعنى أنها عناصر لغوية تلعب دوراً أساسياً في اتساق النص وانسجامه، وربط اجزائه شكلاً ومضموناً من أجل تحقيق الوظيفة التوجيهية الحجاجية للملفوظات.

وبحسب تصور ديكر فقد أشار شكري المبخوت إلى تنوع أشكال الربط الحجاجي، بقوله: إذا كانت الوجهة الحجاجية محددة بالبنية اللغوية، فإنها تبرز في مكونات ومستويات مختلفة من هذه البنية، فبعض هذه المكونات يتعلق بمجموع الجملة، أي هو عامل حجاجي في عبارة ديكر، فيقيدها بعد أن يتم الإسناد فيها، ومن هذا النوع نجد النفي والاستثناء المفرغ والشرط والجزاء وما إلى ذلك مما يغيّر قوة الجملة دون محتواها (الخبر)، ونجد مكونات أخرى ذات خصائص معجمية محددة تؤثر في

التعليق النحوي، وتوزع في مواضع متنوعة من الجملة الحجاجية اللغوية، ومن هذه الوحدات المعجمية حروف الاستئناف بمختلف معانيها، والأسوار (بعض، كل، جميع) وما اتصل بوظائف نحوية مخصوصة كحروف التقليل، أو ما تخوض لوظيفة من الوظائف مثل (قط) أو (أبداً).

ومن هنا ميّز أبو بكر العزاوي بين الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية (فالروابط الحجاجية تربط بين قولين أو بين حجتين على الأصلح (أو أكثر) وتسد لكل قول دوراً محدداً داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة).

كما فصل العزاوي القول في طبيعة هذه الروابط وقسمها على أقسام هي:

الروابط المدرجة للحجج (حتى، بل، لكن، مع ذلك، لأن...).

الروابط المدرجة للنتائج (إذن، لهذا، بالتالي...).

الروابط التي تدرج حججاً قوياً (حتى، بل، لكن، لا سيما...).

روابط التعارض الحجاجي (بل، لكن، مع ذلك...).

روابط التساوق الحجاجي (حتى، لا سيما...).

من خلال ما سبق تبين أن الروابط اللغوية تسهم في انسجام الخطاب وتماسكه من خلال ربطها بين القيمة الحجاجية لقول ما وبين النتيجة، أي الربط بين قضيتين وترتيب أجزاء القول، ومنحها القوة المطلوبة بوصف هذه الأشياء حججاً في الخطاب.

لقد أثرت هذه الروابط تأثيراً كبيراً في أدلة الحجاج في وصايا الإمام الحسن عليه السلام بالخاصية الاقناعية والتأثيرية وهذا ما سنراه في الإطار التطبيقي.

٢. التوجيه الحجاجي:

التوجيه الحجاجي من المصطلحات التي تتداخل عندها علوم معرفية متعددة منها المنطق والنحو واللسان مما أدى هذا إلى الاتساع والتشابك، بل والتعدد في الموصلات المعرفية التي تعمل على محاثة هذا المصطلح إلى الأهمية التي يشكلها بوصفه يمثل الابدولية الوظيفية والانجازية للغة، ويكون العصب الحسي الناقل للإيعاز الإدراكي من القائل عبر المقول (المضمون الجملي) إلى المتلقي.

ان الذي نصبو اليه في هذه المقاربة لمصطلح التوجيه، هو التوجه الذي تبناه اللسانيون المحدثون في فهم هذا المصطلح والعناية القصوى بتحليل ما يقوم به المتكلم حينما يتكلم، وقد ادت دراسة القوة الانجازية لأفعال الكلام إلى دراسة الموجهات (علاقة الموجهات بأفعال اللغة)، فقد عرفه مارتن بقوله: التوجيه حكم على حكم اي انه حكم من الدرجة الثانية... وهو ما من شأنه ان يجعل مجال التوجيه مجالا شاسعا، فقولنا: (هو يعدو سريعا) هو قول موجه، ذلك ان قولنا (يعدو) حكم هو نفسه محكوم عليه بحكم آخر من قولنا: (سريعا)، هذا يعني ان كل قول عادي هو قول موجه.

يدخل فعل التوجيه ضمن واحد من أنواع الأفعال اللغوية التي صاغها سورل وقد سماها بالأفعال التوجيهية وتتحد بانها (كل المحاولات الخطابية التي يقوم بها المرسل بدرجات مختلفة للتأثير في المرسل اليه ليقوم بعمل معين في المستقبل) وبذلك تتعدد أفعال الانجاز و التوجيه، ومنها الأوامر والطلبات والاقتراحات ولكي يحقق المرسل فعل التوجيه في الخطاب فانه يستعين بأدوات أخرى وآليات مختلفة منها أساليب الأمر والنهي والتحذير والإغراء والروابط والعوامل الحجاجية، وذلك بالاستناد إلى دور السياق والمقام، فالأفعال التوجيهية تعبر عن توجه المرسل إلى ان ينفذ المرسل اليه بعض الافعال في المستقبل، كما انها تعبر عن رغبة المرسل او امنيته بان يكون خطابه

او بان تؤخذ ارادته التي انطوى عليها خطابه على انها هي السبب الرئيس او الدافع الحقيقي في الفعل الذي سوف يأتي به المرسل اليه مستقبلا.

ان الموجهات اللغوية محملة بطاقة حجاجية يتم توظيفها من الباث فتكون قادرة على توجيه الملفوظ تبعاً لقصدية الكلام ومتطلبات التلقي والتوصيل اذ يقف المخاطب بخطابه عند عتبات اشارية موجهات يستدعيها ويوظفها بما ينسجم وتوجيه القول من جهة، وتوجيه الملتقي الى عمل ما من جهة اخرى.

ومن هنا نجد طبيعة الخطاب التي حفلت بها وصايا الإمام الحسن (ع) قد تميزت ببناء استراتيجية توجيهية تتكئ على هدف التوجيه وبما يتلاءم وطبيعتها المقامية والسياقية، اذ من خلالها يقوم المرسل بتوجيه المرسل اليه عبر اللغة وبها سعياً منه الى توجيه الملتقي نحو فعل مستقبلي معين، لذلك نجد وصايا الإمام الحسن (ع) قد تشكلت فيها مجموعة من الموجهات الحجاجية التي تبغي الاقناع والتأثير ومن ثم توجيه الملتقي نحو عمل ما او تركه عن طريق (الاقناع والإذعان).

وقد وردت في الوصايا مجموعة من الموجهات اليقينية معتمدين في ابرازها على مجموعة من العوامل والوحدات اللغوية التي تقوم بوظائف حجاجية التي يعرفها موشلر وروبول بانها: (الآثار الظاهرة في الخطاب) فهي بارزة للعيان في بنية الملفوظ ولها قيمة توجيهية في هذا الملفوظ باتجاه النتيجة وتقويتها، اذ انها لا تربط بين متغيرات حجاجية، اي بين حجة ونتيجة او بين مجموعة حجج كما يحصل مع الروابط الحجاجية، ولكنها تقوم بحصر الإمكانيات الحجاجية وتقيدتها، اي ان العامل الحجاجي يعمل على إظهار (الموضع) في الملفوظ، وبدوره يعمل هذا الموضع على تحديد الاتجاه التأويلي الصحيح للوصول الى النتيجة النهائية التي يكون لها الدور الرئيس في إحداث التوجيه.

ومن خلال ما سبق تبين ان التوجيه الحجاجي تتجسد وظيفته من خلال العوامل
الحجاجية على حمل المخاطب بها على الاقتناع وترك الشك والتردد والإنكار، فضلا عن
إمكانيتها في حصر الإمكانات التأويلية والقصدية الدلالية، كذلك تضيق الفجوة بين
المتكلم والمتلقي وتجنب الجدل بينهما، وهذا ما سنراه واضحا في الإطار التطبيقي.

ثانياً: الإطار التطبيقي:

١. الروابط الحجاجية:

يعد خطاب الإمام الحسن عليه السلام مدونة تراثية فكرية، فهو من أعرق النصوص الأدبية وأفصحها، وهذا ديدن أئمة أهل البيت عليهم السلام ومنهم الإمام الحسن عليه السلام، ومن ذلك الخطاب الثر رسائله التي تشكل مقاربة إصلاحية في الدين والدولة بنيت على أسس تبليغية على وفق مقدمات خطابية تواصلية تجاور الناس عبر بوابة الإقناع والتأثير في المتلقي، واعتماد استراتيجيات توجه عقل المخاطب وروحه وضميره بعيداً عن العنف والإكراه والمغالطة.

ورسائل الإمام الحسن عليه السلام يمكن مقاربتها حجاجياً من خلال دورها في إقناع الآخر والتأثير فيه، فقد توافرت في هذه الرسائل مجموعة لا بأس بها من الروابط التي تميزت بفاعليتها الحجاجية، وتوجيه دلالة المحاجة، لذلك سوف نعمل في هذه الأوراق البحثية إلى إعطاء صورة مكثفة لأهم الروابط الحجاجية التي ترد في هذه الرسائل معتمدين في تقسيمها وفق ما يأتي:

١. روابط التعارض الحجاجي.

٢. روابط التساوق الحجاجي.

٣. روابط التعليل الحجاجي.

٤. روابط العطف الحجاجي.

١. روابط التعارض الحجاجي:

١. روابط التعارض الحجاجي: الرابط الحجاجي (لكن):

وهي من الأدوات النحوية التي حددها العلماء العرب لنفي كلام واثبات غيره، وهي (حرف استدراك، ومعنى الاستدراك ان تنسب حكماً لاسمها يخالف المحكوم عليه قبلها، كأنك لما أخبرت عن الأول بخبر خفت ان يتوهم من الثاني، مثل ذلك فتداركت بخبره سلباً أو إيجاباً... ولا تقع لكن إلا بين متنافيين بوجه ما) ومن هذا المنطلق، فإن هذه الأداة تقيم علاقة ربط بين قولين متناقضين أو متنافيين هو من الناحية الحجاجية ربط حجاجي تداولي بين المعطى والنتيجة.

وتدل الخطاطة الحجاجية الموضحة التي قدمها أصحاب النظرية الحجاجية للأداة (لكن) إلى: أن التلفظ بأقوال من نمط (أ لكن ب) يستلزم أمرين:

١. إن المتكلم يقدم (أ) و (ب) بوصفهما حجتين، الحجة الاولى موجهة نحو نتيجة معينة (ن)، والحجة الثانية موجهة نحو النتيجة المضادة لها أي (لا ن).

٢. إن المتكلم يقدم الحجة الثانية بوصفها الحجة الأقوى وبوصفها توجه القول أو الخطاب برمته.

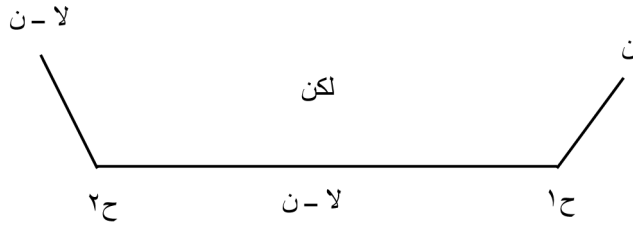
من هذه الخطاطة، نجد ان وظيفة (لكن) ومثلها (بل) الحجاجيتين تعمل على قلب الفرضية بين ما يتقدم الرابط وما يتبعه، فما يسبق الرابط (لكن) يتضمن حجة (أ)، (ظاهرة) تخدم نتيجة (ضمنية) متوقعة (ن)، وما بعد الرابط يتضمن حجة (ب)، (ظاهرة) تخدم نتيجة (ضمنية) مضادة (لا ن) للنتيجة السابقة (ن)، وهنا يكون دور الرابط الحجاجي (لكن) في الربط بين قولين متنافيين من جانب، وإعطاء الحجة الثانية التي تأتي بعده بالقوة اللازمة التي تجعلها أقوى من الحجة الأولى التي سبقت الرابط

ونتيجة لذلك فقد عمل الرابط على توجيه القول بمجمله نحو النتيجة المضادة (لا ن).

وقد ورد ذكرها في وصايا الامام الحسن عليه السلام في قوله: «فيا ليتني كنت عندك أذب عنك كما يذب عنك أنصارك بقتل الأعداء، ولكن هذا الأمر يكون وأنت وحيد لا ناصر لك منا» الذي نلاحظ فيه الرابط الحجاجي (لكن) قد عمل تعارضاً حجاجياً بين ما تقدم وما تأخر عنه، فالقسم الأول الذي سبق الرابط قد تضمن حجة تخدم نتيجة ضمنية (ن) من قبيل ان الإمام الحسن عليه السلام (يتمنى ان يكون مع الامام الحسين عليه السلام كي يذب عنه كما يذب أنصار الامام الحسين عليه السلام بقتل الأعداء)، اما القسم الثاني الذي جاء بعد الرابط فقد تضمن حجة تخدم نتيجة مضادة للنتيجة السابقة (لا ن) أي تخدم نتيجة أن الامام الحسين عليه السلام يكون وحيداً في وقعة الطف لا ناصر له، وربما يعترض علينا معترض بالقول: ان الاشتراك في (لكن) يقتضي وقوعها بين متنافيين بوجه ما فلا يجوز وقوعها بين متوافقين، لكننا نقول: ان قول الإمام الحسن عليه السلام واقع في سياق (ليت) التي تفيد التمني فدلّ على ان (أذب) ممتنعة التحقق لعدم وجود الامام الحسن عليه السلام في وقعة الطف مع الامام الحسين عليه السلام لاستشهاده قبله بزمن معلوم، فلما قال «ولكن هذا الأمر الطف يكون وأنت وحيد لا ناصر لك منا» علامة إثبات ما فهم إثباته وهو سبب «أذب عنك كما يذب عنك أنصارك بقتل الأعداء» الذي يقتضي نفي (أذب) بدلالة الوحدة وخذلان الناصر فيصبح المعنى (ولكن الامام الحسن عليه السلام لم يذب لانه لم يكن عند الامام الحسين عليه السلام) وبذلك يكون ما قبل (لكن) منفيًا وما أحدثه الرابط انها هو استدراك وهو رفع ما يتوهم ثبوته.

ومنه قوله عليه السلام: «ولكن لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»^(١) فهذا القول معطوف على ما قبله، ومن ثم يستدعي زخماً حجاجياً ممزوجاً

بالحتمية التي يدرك كونها كلاهما عليه السلام فالإمام عليه السلام يعطف بالرباط الحجاجي (لكن) مع ما تأخر عنه نتيجة مضادة للنتيجة السابقة (لا-ن) اذ يمكننا اعادة ترتيب القول فيكون الملفوظ الحجاجي كالآتي (فيا ليتني كنت عندك أذب عنك كما يذب عنك أنصارك بقتل الأعداء، ولكن لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) فحتمية استشهاد الامام الحسن عليه السلام تلقي بظلالها الحجاجية على النتيجة السابقة مما يكسبها فيضا من التعارض الحجاجي الذي يوجه القول برمته الى أبعاد غيبية يدركها آل البيت عليهم السلام. وفي كل ما سبق، مبعثه محايدة أيولوجية تغذيها أدلة تداولية راسخة، ويمكن لنا توضيح هذه المداولة الحجاجية من خلال هذه الخطاطة البيانية الآتية:



٢. روابط التساوق الحجاجي: الرابط الحجاجي (حتى) :

يبرز الرابط الحجاجي (حتى) بوصفه علامة حجاجية فارقة، ويكتسب هذا الرابط أهميته من علاقته الواضحة والقوية مع المعنى الضمني والمضمّر، إذ ان دورها لا يقتصر على إضافة معلومة جديدة إلى سياق الجملة كما لو تقول: (جاء زيد) فتكون (حتى زيد جاء) إذا كان مجيء زيد غير متوقع، بل ان دور هذا الرابط يتمثل في إدراج حجة جديدة تردف الحجة التي تسبقها وتساوقها، والحجتان تخدمان نتيجة واحدة

لكن بدرجات متفاوتة من حيث القوة الحجاجية^(١)، فتساوق الحجتان في رفق النتيجة بالطاقة الحجاجية المؤثرة، ولكن تبقى الحجة التي يأتي بها الرابط (حتى) هي أقوى من الحجة التي سبقتها، أي ان يكون ما بعدها غاية لما قبلها، ولذا أقرّ ديكرو بان (الحجة المربوطة بواسطة هذا الرابط ينبغي ان تنتمي إلى فئة حجاجية واحدة، أي انها تخدم نتيجة واحدة والحجة التي ترد بعد هذا الرابط تكون هي الأقوى، لذلك فان القول المشتمل على الأداة (حتى) لا يقبل الابطال والتعارض الحجاجي)^(٢) وقد توافرت في وصايا الإمام الحسن عليه السلام الرابط حتى وهو في دلالات متعددة في مقام واحد فتستعمل للتعليل وللغاية، كما في قوله: «فانشدك بالله وبالقراءة التي قرب الله ﷻ منك، والرحم الماسة من رسول الله ان لا تهرق في محجمة من دم حتى نلقى رسول الله، فنختصم اليه»^(٣) فالرابط الحجاجي (حتى) في هذا المثال ينظر إليه من زوايتين من اجل تحقيق غايات اقناعية فمرة يقرأ من زاوية (سببية) أي ان ما قبلها علة وسبب وحجة لما بعدها فيكون مرادفًا لـ (كي) التعليلية فيكون المثال «ان لا تهرق في محجمة من دم كي نلقى رسول الله، فنختصم اليه» وهنا يمكن ان نعد ما قبله حجة وما بعده نتيجة فالامام عليه السلام يقدم حجته بان لا تهرق في محجمة من دم بعد استشهاده.

فضلاً عن ذلك فقد تستعمل (حتى) للغاية فتكون مرادفة لـ (إلى) فحكم ما بعدها يكون مخالفاً لحكم ما قبلها فيتقرر الحكم قبل (حتى) في عدم اهراق محجمة من دم، أي تكون الحجة التي بعدها غاية لما قبلها، وهما في كل الاحوال يخدمان نتيجة واحدة، وتبقى الحجة التي ترد بعد (حتى) هي الأقوى حجاجياً.

(١) ينظر: اللغة والحجاج: ٢٧.

(٢) اللغة والحجاج: ٧٣.

(٣) أمالي الطوسي: ١٦٠، وبحار الأنوار: ٤٤ / ١٥٢.

ونظير قوله في تحقيق غايات اقناعية للتعليل وللغاية في مقام واحد، قوله ﷺ: «يا أخي اذا أنا مت، فغسلني وحنطني وكفني، واحملني الى جدي ﷺ حتى تلحدني الى جانبه»^(١) ويتوالى هذا الاتساق الحجاجي في تحقيق الغايات الاقناعية للتعليل وللغاية بما يضمني على الخطاب انصهارا حجاجيا وتأثيرا نفسيا ملموسا يوضع كله في بوتقة واحدة تمثل الحواضن الايمانية الراسخة والايدلوجيات المعرفية الغيبية، يقول الامام الحسن ﷺ: «فان منعت من ذلك فبحق جدك رسول الله، وأبيك أمير المؤمنين، وأمك فاطمة الزهراء ان لا تخاصم أحدا، واردد جنازتي من فورك الى البقيع، حتى تدفني مع أُمِّي»^(٢).

٣. روابط التعليل الحجاجي: الرابط الحجاجي المتمثل بـ (لام التعليل) :

من أدوات الربط التي تدخل على الفعل المضارع فيكون ما بعدها علة لما قبلها، ويقال لهذه اللام: لام العلة، ولام السبب، ولام كي؛ لأن معنى التعليل فيها راجع إلى معنى الاختصاص، فإذا قلنا: جئتكم للإكرام، دلت اللام على ان المجيء مختص بالإكرام إذ الإكرام سببه دون غيره^(٣) فهذا الرابط يستعمله الامام الحسن ﷺ من أجل التسويغ أو التعليل لفعله فهو نتيجة الدعوى التي يقصدها المرسل، فعليه هي من الروابط التي تربط بين النتيجة والحجة لدعم النتيجة وتسويغها، ومن ذلك قوله ﷺ وهو يوصي ابنه القاسم: «انك اذا رأيت عمك الحسين في كربلاء فلا تترك البراز والجهاد، ولا تبخل عليه بروحك، وكلما نهاك عن البراز عاوده ليأذن لك في البراز، لتحظى في السعادة الأبدية»^(٤)

(١) بصائر الدرجات: ٣٠٤، ودلائل الامامة: ١٦٠، والهداية الكبرى: ١٨٦، وبحار الأنوار: ٢١٤/٤٠.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: ١٠٩.

(٤) مدينة المعاجز: ٣/٣٦٧، ومستدرک الوسائل: ٦/١٥٥ ح ٥، وبحار الأنوار: ٦٥/٢٠٦.

ويمكن تحليل المثال حجاجياً كالآتي:

النتيجة: فلا تترك البراز والجهاد، ولا تبخل عليه بروحك

الرابط الحجاجي: لام التعليل.

الحجة ١: ليأذن لك في البراز.

الحجة ٢: لتحظى في السعادة الأبدية .

فالمثال أعلاه يبرز متوالية حجاجية تراتبية من خلال الرابط (لام التعليل) في توجيه القول وتبرير النتيجة وتعليلها لبيان حجج الخطاب واقامتها ومفادها: فلا تترك البراز والجهاد، ولا تبخل عليه بروحك، وكلما نهاك عن البراز عاوده حتى يأذن لك في البراز، حتى تحظى في السعادة الأبدية.

٤. روابط العطف الحجاجي:

تتسق مجموعة من الحروف ببعد حجاجي مهم من خلال ربطها بين الحجج والنتائج والتنسيق بينهما من اجل التعليل والتفسير والتسويق، ومن هذه الروابط أحرف العطف: (ثم، الفاء، الواو) إذ انها تقوم بدور حجاجي كبير، فالملاحظ انها تقوم بالربط بين قضيتين (حجتين) لنتيجة واحدة، ووصفهما سلباً حجاجياً يُخضع هذه الحجج إلى تراتبية معينة بحسب قوتها في دعم النتيجة النهائية، فانها تسهم أيضاً في بداعة المعنى المقصود ولا سيما إذا استعمل كل حرف واستغلت وظيفته في الموضع المناسب، فذلك يزيد من الاثبات على المعنى من جهة، ويلقي على الخطاب نوعاً من التنظيم والانسجام مرة أخرى^(١) وفي هذا المورد سنحاول ان نبين عمل هذه الروابط في وصايا الامام الحسن (عليه السلام)، وبيان مستوى دعمها لعمل المحاجة:

(١) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر (رسالة ماجستير): ٩٣.

٤. أ. الرابط الحجاجي (ثم) :

هي من حروف العطف التي تفيد التراخي والمهلة بين قضيتين متباعدتين، فضلاً عن إفادتها الترتيب بين الحجج، ومثالها قوله عليه السلام: «يا أخي اني أوصيك بوصية فاحفظها، فاذا أنا مت فهيتني، ثم وجهني الى رسول الله، لاجدد به عهداً، ثم اصرفني الى فاطمة، ثم ردي، فادفني بالبقيع»^(١) فالحجج التي أقامها الإمام عليه السلام متتالية ومرتبة تنسق وتنسجم مع ما يريده الامام عليه السلام من ترتيب لقائه بعد استشهاده، وقد أفادت (ثم) في إقامة هذه التراتبية في عرض الحجج وبحسب سياقاتها، وحقيقة (ثم) هنا دالة على التراخي والمهلة للربط بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذه المهلة مرتبطة بالزمن الحقيقي/الظاهر ومقترنة بزمن نفسي/مضمّر/ غيبي مفعم بالأحاسيس الى الراحة الأبدية.

٤. ب. الرابط الحجاجي (الفاء) :

من حروف العطف التي تضطلع بمهمة حجاجية، إذ انها تربط بين النتيجة والحجة من أجل التعليل والتفسير فهي أداة ربط تفيد التعليل والاستنتاج في الخطاب الحجاجي التداولي، ومن ثم فهي تجمع بين قضيتين متباعدتين في الدلالة على التقارب بين الأحداث، فضلاً عن الدلالة على الترتيب والاتصال، وأكثر ورودها كون ما بعدها أو المعطوف بها متسبباً عما قبله^(٢).

ومن أمثلتها ما روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «فلما دخلت عليه قال: «هل حدث الا خير» قلنا: (أجب أبا محمد) فعجل عن شسع نعله فلم يسوه، فخرج معي

(١) بصائر الدرجات: ٣٠٤، ودلائل الامامة: ١٦٠، والهداية الكبرى: ١٨٦، وبحار الأنوار: ٢١٤/٤٠.

(٢) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة دراسة حجاجية: ١٢٤.

يعدو»^(١) فهنا نجد الرابط (الفاء) قد عمل على الترتيب والاتصال/ التسارع في تلبية الدعوى (الاجابة) من دون مهلة، إذ أفادت التعقيب مباشرة خلافاً لما تفيدته (ثم) من معنى التراخي فكان ما قبلها علّة وسبباً لما بعدها.

ومنها قوله ﷺ: «يا أخي اني أوصيك بوصية فاحفظها، فاذا أنا مت فهيئني»^(٢) فنلاحظ فيه ان (الفاء) قد ربط بين الحجة والنتيجة فكان ما بعدها من حجة قد عللت وفسرت النتيجة التي سبقت الرابط، فكان معنى التعقيب يضيفي على النص مزيداً من الاتساق التداولي وأدجلة الخطاب المعرفي.

٤. ج. الرابط الحجاجي (الواو):

يشير هذا الرابط إلى وظيفة الجمع بين قضيتين (حجتين) ويستعمل حجاجياً بوصفه رابطاً عاطفياً يعمل على ترتيب الحجج ووصل بعضها ببعضها الآخر، بل يعمل على رص الحجج وتماسكها وتقويتها، فضلاً عن التدرجية أو السلمية في ترتيب الحجج وعرضها^(٣).

ومن الشواهد في نص وصايا الإمام الحسن ﷺ، قوله: «علم الله انكم خير خلقه، فاصطفى منكم محمداً، واختار محمد علياً، واختارني علي للامامة، واخترت أنا الحسين»^(٤).

فالرابط الحجاجي (الواو) قام بالربط والوصل بين الحجج، وعمل ايضاً على

(١) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٤، والعوالم: ٧٨.

(٢) بصائر الدرجات: ٣٠٤، ودلائل الامامة: ١٦٠، والهداية الكبرى: ١٨٦، وبحار الأنوار: ٤٠ / ٢١٤.

(٣) ينظر: رسائل الإمام علي ﷺ في نهج البلاغة دراسة حجاجية: ١٢٣.

(٤) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٤، والعوالم: ٧٨.

ترتيبها، بالشكل الذي يضمن تقوية النتيجة المطروحة ودعمها، وهي (علم الله انكم خير خلقه) كما عمل على حصول الترادفية في النتيجة الواحدة، وهذا الربط النسقي بين الحجج قد أضفى سلّمية تدرّجية باتجاه الحجة الأقوى بشكل أفقي، أي عكس السلم الحجاجي.

«ن» علم الله انكم خير خلقه

ق ٤ واخترت أنا الحسين

ق ٣ واختارني علي للإمامة

ق ٢ واختار محمد عليا

ق ١ فاصطفى منكم محمدا

وهنا يتضح ان الحجة الأولى هي الحجة الأقوى موازنة بالحجج التي سبقتها لخدمة النتيجة المعروضة لورودها في أعلى السلم الحجاجي.

ومن شواهد (الواو) الحجاجية، قوله ﷺ: «فان منعت من ذلك فبحق جدك رسول الله، وأبيك أمير المؤمنين، وأمك فاطمة الزهراء ان لا تخاصم أحدا، واردد جنازتك من فورك الى البقيع، حتى تدفني مع أُمِّي»^(١).

فالحجج المترادفة قد اتسقت واتحدت باتجاه دعم النتيجة المطروحة وتقويتها بقوة الرابط (الواو) الذي أفاد التعليل والتبرير لمضمون النتيجة «فان منعت من ذلك» كما اشتغل الرابط على التراتبية، وإدراج الحجج بشكل أفقي بحيث يتضح ان الحجة الأولى هي الحجة الأقوى لخدمة النتيجة المطروحة لوقوعها في أعلى السلم الحجاجي.

(١) بصائر الدرجات: ٣٠٤، ودلائل الامامة: ١٦٠، والهداية الكبرى: ١٨٦، وبحار الأنوار: ٢١٤/٤٠.

«ن» فان منعت من ذلك

ق ١ فبحق جدك رسول الله

ق ٢ وأبيك أمير المؤمنين

ق ٣ وأمك فاطمة الزهراء

٢ / التوجيه الحجاجي:

يتضح التوجيه الحجاجي في وصايا الامام الحسن عليه السلام من خلال مجموعة من
الموجهات اليقينية الاثباتية:

الموجهات اليقينية:

يرى عبد الله صولة: ان الموجهات اليقينية تعد الضمان لحقيقة الكلام ولإمكان ان
يكون هذا الكلام مقنعا على الرغم من اصطباغه بالذاتية ذلك ان الاقناع يحصل لدى
المتلقي بمجرد ان القضية المعروضة عليه جاءت موجهة توجيه اثبات^(١). وقد تجسدت
الموجهات اليقينية في مجموعة من العوامل الحجاجية التي تعطي تطمينات الى المتلقي
بإمكانية تصديق بنية الملفوظ الذي وردت فيه.

لقد تضمنت وصايا الإمام الحسن عليه السلام العديد من الموجهات اليقينية الاثباتية والتي
منها:

أولاً: القسم

يعد القسم نوعاً من انواع الفعل الكلامي الذي يوجه القول توجيهاً يقينياً اثباتياً
يلجأ اليه المتكلم لتوكيد كلامه فهو اذ يثبت القول ويوجهه يجعل في الوقت نفسه الحجة

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم: ٣٢٠.

على المخاطب ويلزمه بها، وفي ذلك يقول القشيري: «ان الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدھا، وذلك ان الحكم يفصل باثنين، اما بالشهادة واما بالقسم فذكر تعالى في كتابه النوعين حتى لا يبقى لهم حجة»^(١).

وفي ضوء ذلك يجب القول ان ما كل مقسم به يكون حجة على صحة الدعوى، وانما تكون الحجة الناتجة عن صحة الدعوى متوقفة على اعتبار المخاطب الذي اتى من اجله القسم^(٢)، لهذا ذكر القشيري في شروط القسم: «ولا يكون القسم الا باسم معظم»^(٣)، اي كون المقسم به يقع ضمن الحواضن المعرفية الثقافية التي يتوافق معها المتكلم والمتلقي والتي تمثل حيثيات ايمانية وعرفية مسلم بها، ان الدلالة الكلية للقسم لا تتجه نحو القسم بذاته فحسب، وانما الغاية منها تحقيق المغزى التوصيلي الذي يطمح الى دفع المتلقي إلى الوثوق بكلام الباث، ومن ثم يكون وجوده ضروريا لانتاج الإقناع او لاحتمال حصوله على الأقل^(٤)، برز اسلوب القسم في وصايا الامام الحسن عليه السلام عبر مجموعة من العوامل الحجاجية مثلث المقسم به وهي توجه الملفوظ وجهة حجاجية، وحمل المتلقي على التصديق والاقناع بها في حالتي النفي والاثبات للدعوى، وبذلك انقسمت التراكيب اللغوية المتضمنة لأسلوب القسم في الوصية من الناحية الحجاجية على قسمين:

أ. العامل الحجاجي:

دل العامل الحجاجي على الشيء المقسم به، ومن مميزاته انه يؤثر في التركيب حتى

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ١٣٣.

(٢) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٣٠ - ١٣١.

(٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢ / ٤٥٠.

(٤) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٣١.

ينهض في الخطاب بوظيفة الحجاج، كما يعمل على توجيه الملفوظ وإثباته وجعله مما يحمل على انه واقع لا محالة، ذلك ان للمقسم به قوة في تحقيق قيمة الكلام التأثيرية، انه يمثل المعلوم القديم الذي لا يمكن ان يقبل^(١)، ويمكن ان نرى العامل الحجاجي من خلال وروده في وصايا الامام الحسن عليه السلام وكما يأتي:

- «فوالله ما أذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير اذنه»^(٢).

- «والله لوددت ان نفسي ذهبت قبل ان اسمع منك هذا الكلام»^(٣).

وقد اكتسبت هذه العوامل / المقسم به حجاجيتها في توجيه الإثبات من حصول اجماع ضمني في قبولها ورسوخها بحيث يمثل حلقة وصل بين طرفي الخطاب، وهذا الإجماع نتاج العظمة التي يحملها المقسم به / الله والتي تبرز من خلال هذه العوامل الحجاجية التي بدورها تحيل على ايدولوجيات معجمية ناتجة عن الدلالات المحيطة في المقسم به، فالحمولات الدلالية والاقتضائية للعامل الحجاجي في القسم يقوم بوظيفة حجاجية في الحواضن والمنظومات العقدية للمخاطب (القسم بالله) لذلك يتم طلبه في الخطاب سعياً من الباحث لحصول الاستقرار والاطمئنان الروحي وعدم التردد من طرف المقابل في قبول القضية/ الدعوى من حيث تحقيق الصدق والإثبات اليقيني مما يجعل المتلقي يقتنع بمضمون جواب القسم، فالدور الحجاجي الذي يمارسه القسم يمثل في توجيه المقول والقول معا في ثنائية نسقية، اي يعمل على توجيه فحوى الكلام وإبراز مدى مصداق حضور الذات القائلة في كلامها المنطوق، وانفتاحها على أبجديات المتلقين، وأبجديات إيمانهم، اذ ينطلق من مكوناتها ويعتمد عليها ليقيم الحجة على صحة

(١) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم: ٣٢٢.

(٢) أمالي الطوسي: ١٦٠.

(٣) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٥، والعوامل: ٧٨.

القضايا التي يعرضها عليهم ويوجهها توجيها اقناعيا مخصوصا وتأثيرا ملموسا.

وقد اتضحت أدوات القسم المحددة لجملة القسم/ العامل الحجاجي في وصايا الإمام الحسن (عليه السلام) من خلال حروف القسم (الواو) و (الفاء).

ب. الدعوى:

هي المقسم عليه/ جواب القسم، وتمثل البؤرة التي جاء القسم ليلسط الضوء عليها بوصفها المعلومة الجديدة التي من شأنها ان ترد، كما انها القضية التي يتم حولها الجدل والاختلاف فتحاول ان تستجمع قواها، وتفرض نفسها امام الرياح العاتية عبر تحصينها داخل الاسوار ثم درء معاول التنفيذ عنها بواسطة القسم فهي كالعارية^(١) وقد تشكلت الدعوى/ جواب القسم في عدة انماط لغوية تركيبية:

١. النمط الخبري المثبت:

يتضح جواب القسم في صيغة نمط خبري مثبت في المثال الآتي:

- «والله لوددت ان نفسي ذهبت قبل ان اسمع منك هذا الكلام»^(٢).

٢. النمط الخبري المنفي:

يمثل جواب القسم النمط الخبري المنفي في المثال الآتي:

- فوالله ما أذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير اذنه^(٣).

(١) نظر: رسائل الامام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة - دراسة حجاجية - : ١٣٢.

(٢) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٥، والعوالم: ٧٨.

(٣) أمالي الطوسي: ١٦٠.

الطاقة الحجاجية للقسم:

تنتفح تراكيب الأنماط للدعوى على آفاق دلالية وتداولية واسعة لا تقف عند حدود الطاقة التعبيرية لدلالة النمط اذ تبين الملفوظات المؤكدة بالقسم محاولة المتكلم لإقناع الخصم بوسم خطابه بأعلى درجات التأكيد، ومن ثم يصبح للملفوظ درجة حجاجية عالية^(١) فأساس الطاقة المولدة للإقناع هو ما ينهض له المقسم به من دور مهم في توجيه الملفوظات وإثباتها وجعلها مما يحمل على انها واقعة لا محالة^(٢) وبعبارة أخرى ان قوة المقسم به «تعمل على تحقيق قيمة الكلام التأثيرية سواء أكانت هذه القيمة متحققة ام كانت متصورة»^(٣).

كما تكشف الملفوظات المؤكدة بالقسم عن صورتين متعارضتين تنفتح في وصية الإمام الصادق عليه السلام اذ تزيد درجة إثبات الدعوى بارتفاع درجة الإنكار، وتطابق الجمل بأنماط مقامية مختلفة تتمايز بموقف المخاطب من فحوى القضية انطلاقا من مجرد التردد في قبول هذه الفحوى إلى الإنكار التام، فكلما ازداد الإنكار احتيج إلى مضاعفة التوكيد^(٤)، وتظهر هذه الدعوى في اشكال بنيوية متباينة، وذلك حتى تكون منسجمة ومتطابقة مقاميا، وكما يأتي:

١. الطبقة المقامية الأولى:

وهي الطبقة التي يكون فيها المخاطب جاهلا بالمعلومة التي يقصد اعطاء إيائها او

(١) ينظر: الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة - دراسة تداولية - (اطروحة دكتوراه): ٢٥١.

(٢) ينظر: رسائل الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة - دراسة حجاجية -: ١٣٤.

(٣) المرجع نفسه: ١٣٤

(٤) ينظر: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، البنية التحتية او التمثيل التداولي انموذجا:

يعد المتكلم ان مخاطب يحملها، اي المعلومة لا تدخل في القاسم الإخباري المشترك بين المتكلم والمخاطب^(١)، وتتمثل في الملفوظ الآتي:

- «والله لو ددت ان نفسي ذهبت قبل ان اسمع منك هذا الكلام»^(٢).

فقد مثلت الدعوى/ جواب القسم في المثالين المعلومة التي يجهلها المخاطب بالنسبة للمتكلم لذا يلجأ الأخير إلى إثباتها والسعي للحصول على اليقين واستقرار ثبوتيتها في ذهن المتلقي، وكأن المتكلم يدفع بالمخاطب الى الوثوق بكلامه حين يقدم له معلومة يجهلها فيعمل (المتكلم) على تأكيدها بأعلى درجات الإثبات.

٢. الطبقة المقامية الثانية:

هي الطبقة المقامية التي يتوافر فيها المخاطب على المعلومة التي يعدها المتكلم معلومة غير واردة، ويعمل المتكلم على تصحيحها للمخاطب^(٣).
وتتمثل في المثال الآتي:

- «فوالله ما أذن لهم في الدخول عليه في حياته بغير اذنه»^(٤).

ان النماذج السابقة هي جواب القسم على القضايا التي يعرضها المتكلم، وهي أصلاً أجوبة لاسئلة مقدرة ومفترضة يتم الرد عليها بطريقة لا يمكن ردها أو إنكارها.

ثانياً: القصر

القصر في اللغة، يعني: الحبس، وفي الاصطلاح: «تخصيص أمر بأمر بأسلوب معين

(١) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩.

(٢) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٥، والعوامل: ٧٨.

(٣) ينظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية: ٢٩ - ٣٠.

(٤) أمالي الطوسي: ١٦٠.

اي حبسه عليه وجعله ملازماً له»^(١) وهو أداة توكيد وتخصيص وكلما قويت الحاجة اليهما كان القصر ابلغ^(٢) ودلالة التوكيد في القصر ان يكون بنفي الغير واثبات الحكم للموضوع، ويكون صريحاً بحرف (النفي) و (الا) وضمناً ب (انها)، وامر الاختصاص، فهو اختصاص احد العنصرين دون غيره بالآخر، ومن ثم تأكيد النسبة بينه وبين الآخر^(٣).

ان الأقوال التي تتضمن هذه العوامل الحجاجية (أدوات القصر) هي في حقيقتها قائمة على ثنائية النفي والإثبات من حيث السلوك الحجاجي والوجهة الحجاجية، كما انها تبين الاختلاف بين الدلالة الإخبارية والدلالة الحجاجية، فمعنى هذه الأدوات الإخباري لا يضمحل، لكن الذي يحصل هو التعديل في الوظيفة الحجاجية للقول، اي الإمكانيات الحجاجية التي يتيحها الملفوظ، اذ ان من وظائف هذا القصر هو تقليص الاستنتاجات التأويلية وتحديد المسار الصحيح في خريطة القول والذي ينبغي ان يسير فيه الخطاب، وبعبارة اكثر دقة وضع حد لتعدد الاحتمالات في شأن المفاهيم الناجمة عن قول ما^(٤).

ومن مدارس مدونة وصايا الإمام الحسن عليه السلام نلاحظ تحقيق أسلوب القصر عبر مجموعة من العوامل الحجاجية التي عملت على تعديل القيمة الحجاجية للأقوال (قيمة الإثبات / قيمة التخصيص)، فضلاً عن قدرتها على توجيه المخاطب وإقناعه بضرورة انجاز شيء ما على وفق موجهات القول، ومن هذه العوامل (ما... إلّا، لا... إلّا، إنما).

(١) رسائل الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٣٩.

(٢) ينظر: البلاغة العربية - علم المعاني - ١٦١.

(٣) ينظر: البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني: ٢ / ١٣٦.

(٤) ينظر: رسائل الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٤٠.

١. القيمة الحجاجية للعامل (لا.... إلّا) و (ما... إلّا) :

يقوم هذان العاملان بتوجيه القول بالنفي والإثبات بناء على مقتضى الإنكار والشك والتوهم الحاصل من المخاطب، الأمر الذي يجعل المتكلم يلجأ الى هذه الأدوات لما لها من إمكانية حجاجية في توجيه المخاطب وإقناعه، وكما في النماذج الآتية:

- «يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له»^(١).

- «فما أحد أولى بقربه مني الا ان تمنع من ذلك فلا تسفك محجمة دم»^(٢).

ففي هذه النماذج نجد الإمام الحسن عليه السلام قد ألزم من أوصاه بقاعدة التقييد وحصر مسار الجائز عنده وقيده بواسطة العامل الحجاجي (لا... الا) و (ما... الا) اللذين عملا على وظيفتين حجاجيتين هما:

التصريح بالنفي الواضح من الجملة الاولى وتعيينه، واقصاء مفاهيم اخرى قد تخطر في ذهن المتلقي، اذ ان وجود النفي دون القصر يسبغ على النص تعدد التأويلات او الإمكانات الاستنتاجية المحتملة، والثانية: هي تأكيد المفهوم المقصور عليه، اذ بواسطة تلغى المفاهيم والتأويلات الأخرى التي قد يتصورها المتلقي والتي تعمل على الإخلال بالنظام الدلالي الذي يدخل في بوتقة النظام العقدي للإسلام، فوجود القصر في هذه الأداة حدد المقصود ووجه ذهن المتلقي الى قبوله من دون سائر المقاصد، كما ان الإعلان بالمقصود عليه من شأنه ان يسد الأبواب امام الغير، فالوظيفة للجملة الثانية في علاقتها بالجملة الاولى هي علاقة التوكيد والبيان والتفسير.

(١) أمالي الطوسي: ١٩٥.

(٢) بصائر الدرجات: ٣٠٤، ودلائل الامامة: ١٦٠، والهداية الكبرى: ١٨٦، وبحار الأنوار:

٢. القيمة الحجاجية للعامل الحجاجي (انما) :

ذكر الجرجاني ان (انما) يؤتى بها كخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به^(١) كما انها تأتي «إثباتاً لما يذكر وتوكيداً له، ولايضاح له ما تقدم انك تقول: للرجل (انما هو اخوك، وانما هو صاحبك القديم) لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع بصحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، الا انك تريد تنبيهه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب»^(٢)، وهذا الكلام واضح من الجرجاني على ان العامل الحجاجي (انما) قد اشتغل على تحديد (الموضع) الذي هو مجموعة مبادئ مشتركة بين الناس وإبرازه، كما انه حدد المسلك التأويلي الذي ينبغي للمتلقي التزامه للوصول الى النتيجة، فالمخاطب لا يجهل (الموضع)، بل يقر به؛ لانه فكرة عامة مشتركة، وبعد قدح العامل تقع عملية التوجيه الحجاجي وتقويته باتجاه النتيجة، وهو ما عبر عنه الجرجاني بـ (التنبيه) اي التوجيه في معنى من معانيه^(٣).

وتمثل النموذج الذي يسوقه الإمام الحسن عليه السلام بنية قصرية موغلة في الحجاج، ومحقة قوى انجازية تدفع بالمخاطب نحو الاقتناع او الدحض.

- يا محمد بن علي اني لا أخاف عليك الحسد، وانما وصف الله تعالى به الكافرين.^(٤)

فالوجهة الحجاجية للمثال المذكور تروم تغذية المتلقي للدخول في الاجواء العقدية التي يقدمها الامام الحسن عليه السلام ويحصر قاعدة الاستنتاجات الضمنية التي يمكن ان يبثها المتلقي، وذلك عبر ثيمة لغوية (انما) التي تعبر عن غاية المتكلم، وتأكيد الحقيقة وإقرارها في نفس المتلقي من اجل تقوية التوجيه الحجاجي نحو النتيجة.

(١) ينظر: دلائل الاعجاز: ٣٢٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٣٢٧.

(٣) ينظر: رسائل الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة: ١٤٣.

(٤) بحار الانوار: ٤٤ / ١٧٥، والعوامل: ٧٨.

الخاتمة

كان من منن الله علينا ان يسر لنا انجاز هذا البحث، والنظر في الحجاج بوصفه منهجاً مؤطراً لتحليل الخطاب عبر بنيته وأساليبه، وبعد ان انتهينا من الاشتغال في الخطوات الاجرائية لهذا المنهج في مدونة تراثية هي: وصايا الإمام الحسن (عليه السلام)، لابد لنا ان نللم شتات بحثنا، ونعرضها بشيء من التكثيف بما يأتي:

- اعتمد المنجز النصي في خطابه على الحجاج اللغوي بوصفه ظاهرة لغوية نجدها في كل قول، وفي كل خطاب بحسب ديكرو.

كشفت لنا المدونة عن بعض الآليات اللغوية الحجاجية من خلال الاعتناء بحروف الربط، وحسن اختيارها، واماكن تواجدها في النفس من اجل توجيه الكلام نحو آفاق واضحة يرومها الباحث منذ البداية، وهذا ما يعرف بـ (الروابط الحجاجية).

كان دور الروابط الحجاجية في سياق الكلام التأثير والاقناع، وانتقاء مواضعها في الخطاب النصي من اجل هذه الغاية، وتوصيل المقاصد الحجاجية التي يريد، لذلك أعطى الإمام الحسن (عليه السلام) هذه الروابط اللغوية دوراً كبيراً في تأدية المعنى، وانسجام الكلام لتنحصر وظيفتها الحجاجية داخل اللغة مما يمنح الخطاب دفعةً قوياً ومؤثراً.

- وبرزت لنا المدونة عن بعض الموجهات اللغوية التي تقوم بوظيفة حجاجية سمحت بتوجيه الملفوظ بحسب قصدية المتكلم، ومناسبات التلقي، ومن ثم توجيه المتلقي نحو القيام بفعل ما او تركه (الاقناع او الاذعان).

- لقد اندرجت هذه الموجهات اللسانية ضمن الموجهات اليقينية، فكانت الهدف من الحضور الموجهات اليقينية في المدونة هو إثبات الأمور المنكرة، وحمل المخاطب على الاقتناع بها وترك الشك بها، وكما قويت درجة الإنكار ضعف المتكلم عوامل التوكيد.
- عد القسم أساس الأفعال الكلامية ومن المؤكدات التي تتحقق من خلال مجموعة من العوامل الحجاجية والتي حصل إجماع ضمني على حجيتها وقوتها وتأثيرها.
- وظف الإمام الحسن عليه السلام أسلوب القصر بصيغته المعروفة بوصفه من الأساليب اللغوية الحجاجية التي توجه القول توجيه توكيد إثبات.

ثبت المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإتيقان في علوم القرآن، السيوطي (ابو الفضل جلال الدين ت ٧١١هـ) تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، ط ١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
- استراتيجيات الخطاب - مقارنة تداولية - عبد الهادي بن ظافر الشهري، ط ١، دار الكتب الجديدة المتحدة، ٢٠٠٤م.
- الأمالي، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية/ مؤسسة البعثة، ط ١، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، قم ١٤١٤هـ.
- أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، د. حمادي صمود، ط ١، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس ١٩٩٨م.
- بحار الأنوار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ) تحقيق: محمد باقر البهبوني، ط ٢، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فرخ (الصفار) (ت ٢٩٠هـ) تصحيح وتعليق: الحاج ميرزا حسن كوجة باغي، مطبعة الأحمدي، طهران، ١٤٠٤هـ.
- البلاغة العربية علم المعاني، وليد ابراهيم قصاب، دار القلم، دبي ١٩٩١م.
- البيان في روائع القرآن - دراسة لغوية واسلوبية للنص القرآني، د. تمام حسان عالم الكتب - القاهرة ١٩٩٣م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، المرادي (بدر الدين حسن بن قاسم) تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.
- الحجاج مفهومه ومجالاته، حافظ اسماعيل علوي وآخرون، ط ١، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن ٢٠١٠م.
- الحجاج في القرآن الكريم - من خلال اهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة، ط ٢، دار الفارابي، بيروت، لبنان ٢٠٠٧م.

- الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الاثير، يعمرانن نعيمة (رسالة ماجستير) كلية الاداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر ٢٠١٢م.
- الخطاب الحجاجي السياسي في كتاب (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة - دراسة تداولية، ابتسام بن خراف (اطروحة دكتوراه) كلية الاداب والعلوم الانسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر ٢٠١٠م.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط١، دار المدني، السعودية ١٩٩١م.
- دلائل الامامة، محمد بن جرير الطبري (ت القرن الرابع الهجري) تحقيق: قسم الدراسات الاسلامية/ مؤسسة البعثة، ط١، قم ١٤١٣هـ.
- رسائل الامام علي عليه السلام في نهج البلاغة - دراسة حجاجية، رائد مجيد جبار الزبيدي، (اطروحة دكتوراه) كلية الاداب، جامعة البصرة ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
- العوامل، الامام الحسين عليه السلام الشيخ عبد الله البحراني (ت ١١٣٠هـ) تحقيق: مدرسة الامام المهدي عليه السلام، ط١، مطبعة أمير، قم ١٤٠٧هـ.
- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية - البنية التحتية او التمثيل الدلالي التداولي، د.احمد المتوكل، دار الامان، المغرب ١٩٩٥م.
- اللغة والحجاج، ابو بكر الغزاوي، ط١، العمدة في الطبع، المغرب ٢٠٠٦م.
- مدينة المعاجز، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧هـ) تحقيق: مؤسسة المعارف الاسلامية، ط١، نشر مؤسسة المعارف الاسلامية، قم، ١٤١٤هـ.
- مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠هـ) تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، ط٢، منشورات مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت، لبنان ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معالم السبطين في أحوال الحسن والحسين عليه السلام، الشيخ محمد مهدي الحائري (ت ١٣٨٤هـ)، مطبعة أمير، قم، ط١، ١٤١٩هـ.
- معالم لدراسة تداولية حجاجية للخطاب الصحافي الجزائري المكتوب ما بين ١٩٨٩م-٢٠٠٠م، عمر بلمخير، (اطروحة دكتوراه) كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٥م-٢٠٠٦م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (أبو الفضل جلال الدين ٧١١هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٧٣م.

- الملفوظية، جان سيرفوني، ترجمة: قاسم مقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سورية ١٩٩٨ م.
- الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي (ت ٣٣٤هـ)، ط ٤، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤١١هـ - ١٩٩١ م.
- الوظائف التداولية في اللغة العربية، احمد المتوكل، دار الثقافة، ط ١، الدار البيضاء ١٩٨٥ م.

الصلح الحسني

بين الحفاظ على المجتمع الاسلامي وتسليط الوثنية الاموية

دراسة مقارنة

م. علاء ابراهيم زروق الموسوي

المبحث الاول

الولاية مشروع إصلاح وهداية

إن الولاية هي مشروع اصلاح وهداية وقد بين الإمام الحسن عليه السلام ذلك عندما خطب بالناس قائلاً: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ لَمَّا فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْفَرَائِضَ لَمْ يَفْرَضْ ذَلِكَ عَلَيْكُمُ لِحَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهِ، بَلْ رَحْمَةٌ مِنْهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... ففرض عليكم الحج والعمرة وإقام الصلاة... والولاية لنا أهل البيت، وجعلها لكم باباً لتفتحوا به أبواب الفرائض، ومفتاحاً إلى سبيله، ولولا مُحَمَّدٌ ﷺ وَأَوْصِيَاؤُهُ كُنْتُمْ حَيَارَى لَا تَعْرِفُونَ فَرَضاً مِنَ الْفَرَائِضِ، وَهَلْ تَدْخُلُونَ دَاراً إِلَّا مِنْ بَابِهَا»^(١).

فلقد جعل الإمام الحسن عليه السلام مسألة الولاية والخلافة مفتاحاً لشرائع دين الله، وباباً لقبول فرائضه وطاعاته، وهل يوجد أجلى وأوضح من هذا الكلام من الإمام عليه السلام.

وفي خطبة أخرى له عليه السلام عندما عبأ جيشه للحرب خطبهم فقال: «أما بعد، فو الله إني لأرجو أن أكون بحمد الله ومنه، وأنا أنصح خلقه لخلقه... ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم، فلا تخالفوا أمري ولا تردوا علي رأيي، غفر الله لي ولكم، وأرشدني وإياكم لما فيه محبته ورضاه، إن شاء الله»^(٢).

(١) القندوزي، سليمان بن ابراهيم، ينابيع المودة لذوي القربى، تحقيق: علي جمال اشرف الحسيني (ط١، دار الاسوة، ايران، ١٤١٦هـ) ج٣/ ص٣٦٥.

(٢) ابن شهر آشوب، شير الدين أبو عبد الله محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب (المطبعة الحيدرية، العراق - النجف ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م) ج٣/ ص١٩٥.

ومن ما تقدم نرى ان الإمام الحسن (عليه السلام) لا ينطلق في قراراته من رؤية آنية وإنما من رؤية كونية تحدد مهامه، وهذه الرؤية واحدة من بدء بعثة محمد (عليه السلام) إلى ظهور المهدي المنتظر (عليه السلام)، فالرسول والأئمة (عليهم السلام) لم تحملهم الأمة المسؤولية وإنما حملوها بأمر من الله (عليه السلام)، فكان إمداد السماء لهم بالتسديد والتأييد والتعزية والتسليية أمراً ضرورياً، من هنا كانت رؤية رسول الله (عليه السلام)، لأولئك القردة الذين كانوا ينزون على منبره ونزول قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^(١)، ولم يكن شيء من هذه السياقات محجوباً لا عن الإمام علي (عليه السلام)، ولا عن الإمام الحسن (عليه السلام) فعمل وفق هذه الرؤية حين عقد صلحاً مع إمام البغاة وهادنه.

المؤرخون وحربهم ضد الامام الحسن (عليه السلام)

لم ينصف محترفو التاريخ السطحي من عرب ومستشرقين الامام الحسن (عليه السلام) هذا الإمام الذي أظهره التاريخ (الفولكلوري) كرجل مسالم، يهوى الراحة ويتقي الشدائد، لقد رأينا كيف أن الإمام الحسن (عليه السلام) كان تواقاً لردم الواقع على بني أمية، لو توفرت له الشروط الضرورية.

يقول: (روايت م رونلدس): «فإن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية العقلية لقيادة شعبه بنجاح»^(٢)، ويذكر (فيليب حتي) في كتاب (تاريخ العرب): «إن الحسن كان أميل إلى البذخ والترف منه إلى الحكم والإدارة»^(٣). ويمر (عباس محمود العقاد) على موضوع الصلح، فيلقي عليه نظرة قصيرة جداً،

(١) الإسراء: ٦٠.

(٢) روايت م رونلدس، عقيدة الشيعة، مؤسسة المفيد، بيروت، ١٩٤٦، ص ٧٧.

(٣) فيليب حتي، تاريخ العرب، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور (ط ١)، مؤسسة الاعلمي،

بيروت ١٩٦٥ م) ص ٢٠٥.

قريبة لا تنفذ إلى الأعماق ولا تستوعب الملابسات، ويخلص أخيراً إلى نتيجة مزدوجة: فهو يرى الحسن عليه السلام معذوراً في ما صنع (قبوله الصلح)، ولكنه يتهم قيادته بالضعف، إذ يقول: «أن الحرب لطلوها وشدتها قد أنهكت الجنود، وأجهدت القوى، وإن الحسن عليه السلام لما رأى هذه الظاهرة في جنوده صمم على إلقاء السلاح؛ لأنه لا يستطيع أن يخوض غمار الحرب بقوى مرهفة... ولئن كان في هذا عذر للحسن عليه السلام عما صنع، فإنه يدل كذلك على قصور في القيادة، فإن الحرب قد أجهدت جيوش خصمه كما أجهدت جيوشه، والقائد القوى يملك أن يستعيد معنويات جيشه بالخطب الملهبة وبالأعمال المشجعة»^(١).

هذه نظرة (العقاد) التي ألقاها على هذه المرحلة الدقيقة من التاريخ، وهذا حكمه فيها، وإن دلت على شيء فإنما تدل على نظرة البسطاء الذين يبصرون ما بين أيديهم ثم لا يلتفتون إلى ما حول ولا إلى ما وراء.

في حين نجده في كتاب (موسوعة العقبريات الإسلامية) يقول ما لا يفعل، إذ يؤكد على تحليل الحادثة التاريخية بما يقبله العقل ويطابق الواقع، إذ يقول: «وما علينا إذا أردنا أن نمتحن حادثة تاريخية أو سلسلة من الحوادث التاريخية، إلا أن نسأل أنفسنا: كيف ينبغي أن تحدث؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع، فذلك هو الامتحان الصادق، وما نستخلصه منه هو الصواب كأصدق ما يمكن أن يصوره تاريخ الحوادث لمن لم يشهدا شهادة العيان»^(٢).

(١) ينظر: كريم، فارس حسون، الروض النضير في معنى حديث الغدير، (ط١)، مؤسسة أمير المؤمنين عليه السلام للتحقيق، قم، ١٤١٩ هـ) ص ٢٤١.

(٢) (العقاد، عباس محمود، موسوعة العقبريات الإسلامية، (دار المعارف، بيروت، د.ت) ج ١/ ص ٤٧٥.

أمّا كيف ترسم لنا الحادثة التاريخية على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع؟ فهذا ما لم يفصح عنه العقّاد.

وأرى أن أيسر السبل هو التجرّد عن الرواسب والشوائب حين القراءة، ثمّ البدء بالسؤال الذي طرحه العقّاد بأن نسأل أنفسنا كيف ينبغي أن تحدث؟

ولعل هذا التصور الساذج للتاريخ من قبل المؤرخين والكتاب ومنهم (رواية، وفيليب حتي، والعقاد) والمبني على الوعي بالقشور، ونقل الأخبار من دون الحفر فيها، هو الذي ترك المسلمين بكل طوائفهم يعيشون حالة الصراع والشتات الى الآن.

ولكي نبين لهؤلاء وأمثالهم من محترفي التاريخ السطحي من عرب ومستشرقين بأنهم ليسوا سوى نقلة ميكانيكيين للمعلومات التاريخية الرسمية، وبأن عقولهم اقل شأنًا من ان تدرك الحكمة في سياسة الإمام الحسن (عليه السلام) لا بد أن نوضح ثلاثة أمور مفصلية ومهمة دعت الإمام (عليه السلام) الى الصلح وهي:

أولاً: إن عمل الإمام (عليه السلام) موجه بحكمة ربانية.

ان النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) يعملون بأجندة ربانية، وبرناجمهم يتفق مع أحكام الشريعة كما نفهمها نحن في بعض الاحيان، لكنه أحياناً يختلف عما نفهم، ففي عمل النبي (صلى الله عليه وآله) والمعصوم (عليه السلام) لا بد أن نعرف مقاصد الله تعالى وخطته لمستقبل الإسلام والبشرية، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١)، فقال الرسول (صلى الله عليه وآله) بوحى من الله تعالى: «أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق»^(٢).

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) الحر العاملي، محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، (ط ٢،

مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم المشرفة، ١٤١٤ هـ / ج ٢٧ / ص ٣٤

إن الائمة عليهم السلام يفهمون وجه الحكم بأوسع وأعمق مما نفهمه نحن، فكيف يصح أن نحكم على عملهم وهدفهم بفهمنا الناقص؟ مع أن عملهم مُحْطَطٌ ومُوجَّهٌ من ربهم، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَّ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، وهو صنع بلغ أقصى درجات الإعجاز والإتقان كما نرى في هذا الكون الواسع.

وبما أن الله هو الموجه والمدير لعمل الإمام عليه السلام فكل قول أو فعل يقوم به يصب في مصلحة الدين والحفاظ على المسلمين، ومن هذا المنطلق قال الإمام الحسن عليه السلام مخاطباً أبا سعيد عندما قال له: يا بن رسول الله لم داهنت معاوية وصالحته وقد علمت أن الحق لك دونه وإن معاوية ضال باغ؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «يا أبا سعيد أأستحجة الله تعالى ذكره على خلقه وإماما عليهم بعد أبي عليه السلام؟ قلت بلى قال: أأست الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي: الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا؟ قلت بلى قال: فانا إذن إمام لو قمت وأنا إمام إذ لو قعدت.... يا أبا سعيد إذا كنت إماما من قبل الله تعالى ذكره لم يجب أن يسفه رأيي فيما أتيت من مهادنة أو محاربة وإن كان وجه الحكمة فيما أتيت ملتبسا، ألا ترى الخضر عليه السلام لما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار سخط موسى عليه السلام فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل»^(٢).

ثانياً: لا يمكن أن يُتخذ أي إجراء سياسي في تلك الظروف غير الصلح للحفاظ على ارواح المسلمين وأجدى للأمة.

إن الإمام الحسن عليه السلام أغمد السيف وأعلن الهدنة، ليتمكن بذلك الناس أن يروا

(١) النمل: ٨٨.

(٢) الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، علل الشرائع، (النجف، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م) ج ١ / ص ٢١١.

الحكم الأموي على سجيته رأي عين، وأن يبرز أمامهم بخصائصه وأهدافه عارياً مفضوحاً دون طلاء ولا تزويق للناس كافة وليس للعراقيين فقط، ولا للمصريين والحجازيين واليمنيين معهم، بل حتى لأهل الشام، فقد كانت المخادعات والمخاتلات الأموية تستر عليهم وجه الحقيقة طول أيام الحروب، ومكن الناس كلهم شاميههم وعراقيهم أن يستمعوا إلى الحاكم الأموي الأعلى في يوم (ساباط) ذاته وهو يفضح خطته، ويعلن هدفه، ويكذب دعاواه الطويلة العريضة التي خادع الناس بها طوال السنين، فيقول لهم: «إنه لم يقاتلهم ليصوموا ولا ليصلوا ولا ليحجوا ولا ليزكوا، لم يقاتلهم ليقيم ركناً من أركان الإسلام هم تاركوه، إنه قاتلهم ليتأمر عليهم، فأعطاه الله ذلك وهم كارهون»^(١) هذه هي غاية معاوية، وكل ما سواها فوسيلة، وكل تلك الأعمال والاقوال منه، ومن عماله وبطانته، تشرح المجمل، وتضع النقاط، وتكشف المستور من مناهج هذه الدولة.

ومواقف الحسن عليه السلام وأقواله وسيرته إلى جنب ذلك تُعرف الناس سبيل الهدى الذي اجتنبوه، ومناهج العدل الذي خذلوه، والناس تسمع وتبصر وتعي وتزن، بملء أسماعها وأبصارها وأذهانها وعقولها.

فأي إجراء سياسي يمكن ان يتخذ في تلك الظروف غير الصلح للحفاظ على ارواح المسلمين وأجدى للأمة.

وكان أثره المستقبلي اكبر أذ ترنح بناء الدولة الاموية عند الضربة التي سددها شقيقه وخليفته الإمام الحسين عليه السلام ثم هوى الصرح وتكدك البناء.

ولشد ما ظلم هذا الإمام، فلا أبوه امتدحوه لما قام بقتل رؤوس النفاق ولا ابنه

(١) ينظر: المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (ط ٢)، دار المفيد للطباعة والنشر، لبنان- بيروت، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م) ص ١٤.

عذروه لما قبل الصلح وهو له كاره.

ثالثاً: إن هؤلاء المؤرخين لم يحققوا ويبحثوا في خلفيات الصلح وملابساته.

فلكى تفهم الأسباب التى فرضت الصلح على الإمام الحسن عليه السلام، لا بد من إجراء جرد وتحقيق في خلفيات هذا الصلح، فكيف يتوقع أهل الغباء التاريخي، أن يقوم الإمام الحسن عليه السلام بالحرب بجيش منهار، فالجرب مع معاوية هي حرب مع الدنيا كل (الدنيا) بأيديولوجيتها القبلية والاقتصادية، لقد دخل الدين المحض مع الدنيا المحضة في صراع الاستحقاق.

وخلفيات الصلح، التى يمكن تلخيصها في الآتي:

١. الكثرة العددية في جيش معاوية، يقابله تحاذل بعض الافراد في جيش الإمام الحسن عليه السلام ^(١).
٢. خضوع تام في جيش الشام، تقابلها انشقاقات وتجزئة داخل جيش العراق ^(٢).
٣. دعم مالي قوي وهائل المتمثل بشراء الذمم لعناصر الجيش الأموي، تقابله الحالة الايمانية في صفوف جيش العراق ^(٣).
٤. جهل مطبق في جيش الشام، يقابله وعي متفاوت في جيش العراق، الجهل

(١) ينظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار (ط٢)، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م) ج ٤٤ / ص ٥١، وفي الغارات ص ٦٤٤ وابن أبي الحديد، شرح النهج، ج ١٦ / ص ٤٢، وراجع أعيان الشيعة ج ٤ / ص ٢٢.

(٢) ينظر، الاصفهاني، ابو فرج، مقاتل الطالبين (ط٢)، النجف الاشرف، طبع المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م)، ص ٣٩.

(٣) ينظر: المجلسي، المصدر السابق، ج ٤٤ / ص ٦٠ عن الكشي. / وقاموس الرجال ج ٦ / ص ٢١٦ عن الفضل بن شاذان في بعض كتبه.

الشامي الذي يؤدي إلى التمحور المضاعف حول معاوية، والوعي المبتور الذي يؤدي إلى هروب جيش العراق وعدم استجابته للإمام الحسن عليه السلام ^(١).

٥. الخيانات المتكررة من قبل قواد جيش العراق وكان اعظمها ما نقلها الرواة من ان الامام أسند مقدمة قيادة جيشه لعبيد الله بن العباس الذي وتره معاوية بابنيه ليكون ذلك داعية اخلاص له، و حينما التقى جيشه بجيش معاوية، مد إليه معاوية أسلاك مكره فمناه بمليون درهم يدفع نصفه في الوقت والنصف الآخر إذا التحق به، وسال لعاب عبيد الله فاستجاب لدنيا معاوية ومال عن الحق فالتحق بمعسكر الظلم والجور ومعه ثمانية آلاف من الجيش ^(٢)، غير حافل بالخيانة والعار، ولا بالأضرار الفظيعة التي ألحقها بجيش ابن عمه، فقد تفللت جميع وحداته وقواعده، ولم تقتصر الخيانة على عبيد الله، وانما خان غيره من كبار قادة ذلك الجيش، فالتحقوا بمعاوية، وتركوا الامام في أرباض ذلك الجيش المنهزم يصعد آهاته وآلامه.

كل هذا جعل معنويات الجيش العراقي تنهار، وتلتبس الاستقرار، وحطام الدنيا وكان الإمام عليه السلام يدرك هذا الواقع الذي يعج بهذه المتناقضات، وقد قالوا في وصف جيش الإمام الحسن عليه السلام: «خف معه أخلاط من الناس، بعضهم شيعة له ولأبيه عليه السلام، وبعضهم محكمة ^(٣)، يؤثرون قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع في الغنائم، وبعضهم شكاك، وبعضهم عصبيّة، اتبعوا رؤساء قبائلهم، لا

(١) المفيد، الإرشاد، ج ٢ / ص ١٠ وراجع: البحار ج ٤٤ / ص ٤٦ و ٥٦ والامين، أعيان الشيعة (دار التعارف سنة ١٤٠٠ هـ) ج ٤ / ص ٢٠ / ابن الصباغ، والفصول المهمة ص ١٤٣ و (ط دار الكتب التجارية) ص ١٦١ / الاربلي، كشف الغمة، ج ٢ / ص ١٦٥
(٢) ينظر، المفيد، الإرشاد، ج ٢ / ص ١٣ وشرح النهج للمعتزلي ج ٦ / ص ٤٢ وتاريخ يعقوبي ج ٢ / ص ٢١٤.
(٣) المحكمة. الخوارج. انظر «الملل والنحل ١: ١٠٦» و«القاموس المحيط - حكم - ج ٤ / ص ٩٨»

يرجعون إلى دين»^(١).

ولم تقتصر محنة الامام وبلاؤه في جيشه على ذلك، وإنما تجاوز بلاؤه إلى ما هو أعظم من ذلك، فقد قام بعض افراد الجيش بأعمال رهيبة بالغة الخطورة، وهي:

- الاعتداء على الامام، إذ قام الرجس الخبيث الجراح بن سنان بطعن الإمام ﷺ في فخذه بمغول^(٢) فهوى الامام جريحا، وحمل إلى المدائن لمعالجة جرحه^(٣)، وطعنه شخص آخر بخنجر أثناء الصلاة، كما رماه شخص بسهم أثناء الصلاة إلا أنه لم يؤثر فيه شيئا^(٤) وأيقن الامام أن أهل الكوفة جادون في قتله واغتياله، وأصيب ذلك الجيش بدينه وعقيدته، فقد رموا حفيد نبيهم وريحانته بالكفر و المروق من الدين، فقد جابهه الجراح بن سنان رافعا عقيرته قائلا: «أشركت يا حسن كما أشرك أبوك»^(٥)، وكان هذا رأي جميع الخوارج الذين كانوا يمثلون الأكثرية الساحقة في ذلك الجيش.

- الخيانة العظمى التي قام بها بعض زعماء ذلك الجيش انهم راسلوا معاوية وضمنوا له تسليم الامام أسيرا أو اغتياله متى رغب وشاء^(٦) واقض ذلك مضجع الامام فخاف ان يؤسر ويسلم إلى معاوية فيمن عليه، ويسجل بذلك يدا لبني أمية على الأسرة النبوية، كما كان ﷺ يتحدث بذلك بعد ابرام الصلح.

- عمد أجلاف أهل الكوفة إلى نهب أمتعة الامام وأجهزته فنزعوا بساطا كان

(١) المفيد، الإرشاد، ج ٢، ص ١٠

(٢) المغول: آلة تشبه السيف.

(٣) المفيد، الإرشاد، ص ١٧٠.

(٤) القرشي، حياة الإمام الحسن، ج ٢/ ص ١٠٢ - ١٠٥.

(٥) القرشي، المصدر السابق، ج ٢/ ص ١٠٣.

(٦) القرشي، المصدر السابق، ج ٢/ ص ١٠٠.

جالسا عليه كما سلبوا منه رداءه^(١). هذه بعض الاحداث الرهيبة التي قام بها ذلك الجيش الذي تمرس في الخيانة والغدر.

فالجيش الذي يفعل ذلك بقائده وسيده، هل يمكن أن يضحي بالغالي والنفيس امتثالاً لأمره ونصرةً لقضيته.

أما معاوية فمعه جيش قوي متماسك، يلتقي معه في الأهداف، وفي السلوك، وفي الولاء، وقد تربى على يده، وعلى نهجه، وله نفس طموحاته، وعين أهدافه، ويمكن له الولاء والحب.

وله أيضاً جانب كبير من أهل العراق وفي جيش الإمام الحسن عليه السلام بالذات، ممن اشترى ضمائرهم أو أنهم من أنصاره، والموالين له مباشرة، أو يلتقون معه في الأهداف، أو في المطامع، حتى وصل الامر بأكثرهم أن يكتب إلى معاوية: «أنا معك، وإن شئت أخذنا الحسن أسيراً وبعثناه إليك»^(٢).

الإمام الحسن عليه السلام بين المعادلة الإسلامية والجاهلية

واضافة الى ما تقدم كانت معاول الفتنة والهدم تضرب جسد الأمة من كل جانب، فالأمراض الفكرية والأخلاقية تنهش فيها وقد اجتمع الدعاة إلى دولة القردة على كلمة سواء، هي هدم دولة أئمة الحق من آل محمد بكل ما لديهم من وسائل الاقناع والتشويه والتمويه والإغراء والاغتيال والفساد هكذا كانت الصورة، فلا مفر من هدنة، والصراع سيمتد قرونا وقرونا ولم يأت بعد أوان حسم الصراع، والمهمة العاجلة أمام الإمام الحسن عليه السلام في تلك الحقبة هي الحفاظ على إمامة الخط الإلهي الرباني داخل جسد الأمة

(١) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، (دار صادر، بيروت، د.ت): ج ٢ / ص ٢١٤.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٤٤ / ص ٤٥.

وأن ينتشلها من مواتها، ويردها بكاريزمية إلى الطريق السليم وإلى الوجهة الصحيحة، وكذلك الحفاظ على من يمثلون الامتداد للخط الرسالي الإلهي، لا إهلاكهم في جولة صراع معلومة النتائج سلفا، فالأمر يحتاج إلى تحقيق القدر الضروري من مصالح الإسلام والمسلمين، وتجنب الدمار الشامل لمكتسبات سنين من الكفاح الرسالي.

منطقتان يواجهان الإمام الحسن عليه السلام

وقف الإمام الحسن من هذه الفتن السود موقف الحازم اليقظ الذي تمثلت فيه الحكمة بجميع رحابها ومفاهيمها، فرأى أنه أمام منطقتين:

الأول: منطق الثورة والحرب

ان الثورة على الواقع الأموي يعني فتح باب الحرب مع معاوية، وهو على يقين لا يخامره أدنى شك ان الغلبة ستكون لمعاوية، فأما أن يُقتل هو وأصحابه وأهل بيته الذين يمثلون القيم الاسلامية، ويخسر الاسلام بتضحيتهم قاداته ودعاته من دون ان تستفيد القضية الاسلامية اي شيء، فان معاوية بحسب قابلياته الدبلوماسية يحمل المسؤولية على الإمام (عليه السلام)، ويلقي على تضحيته الف حجاب، أو انه يؤسر فيمن عليه معاوية، فتكون سبة على بني هاشم وفخرا لبني أمية.

الثاني: منطق الإصلاح

واذا لم تنجح الثورة والحرب فإنه لا يُفَرِّط في منطق الإصلاح، وهو أن يصلح معاوية فيحفظ للإسلام رجاله ودعاته، ويبرز في صلحه واقع معاوية، ويكشف عنه ذلك الستار الصفيق الذي تستر به، وقد اختار (عليه السلام) هذا الامر على ما فيه من قذى في العين وشجا في الحلق، وكان معاوية مدركاً أن الإمام الحسن (عليه السلام) بقي وحده في الميدان، وأن جيشه لا يعدو كونه نموراً من ورق، يعشعش الرعب والتمزق في أعماقها، وأدرك أن الصلح إنما كان لأن الإمام (عليه السلام) لم يجد عليه عوناً، فهو صلح من موقف ضعف، ضعف في الأمة، يقول المؤرخون: إن الإمام (عليه السلام) جمع جيشه فعرض عليهم الحرب أو السلم، فتعالت الأصوات من كل جانب وهم ينادون «البقية البقية يا بن رسول الله»^(١).

لقد استجابوا للذل، ورضوا بالهوان، ومالوا عن الحق، وقد أيقن الامام (عليه السلام) أنهم قد فقدوا الشعور والاحساس، وانه ليس بالمستطاع أن يحملهم على الطاعة وبكرهم على الحرب فاستجاب - على كره ومرارة - إلى الصلح.

(١) المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج ٤٤ / ص ٢١ / ٥. وفي أسد الغابة ٢: ١٤، وفي مختصر تاريخ دمشق: ج ٧ / ص ٣٥ - ٣٦.

لقد كان الصلح أمراً ضرورياً يحتمه الشرع، ويلزم به العقل، وتقضي به الظروف الاجتماعية الملبدة بالمشاكل السياسية، فان من المؤكد أنه لو فتح باب الحرب لمني جيشه بالهزيمة، ومنيت الأمة من جراء ذلك بكارثة لا حد لأبعادها.

ولأهمية الصلح وآثاره الايجابية المرجوة لمصلحة الإسلام والمسلمين أشار الإمام محمد الباقر عليه السلام إليها بقوله: «والله للذي صنع الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس»^(١).

الصلح

تعد شروط الصلح مصداقاً لحفظ الدين وأحكامه وشرائعه ومفاهيمه وقيمه من خلال الحفاظ على من يمثلون الخط الرسالي الالهي من الشيعة والموالين وضمان ما يمكن ضمانه من مصلحة الإسلام والأمة، فقد جسدت تلك البنود التي خلدها التاريخ والتي كانت الفاصل بين الحق والباطل بين سياسة الإمام الحسن عليه السلام التي قامت على حفظ دماء المسلمين وأموالهم وكرامتهم وبين سياسة معاوية التي قامت على سفك الدماء ونقض العهود وعلى الرشوة وشراء الذمم.

إن الشروط التي وقّع عليها معاوية قد جاءت على غاية من الأهمية والخطورة، وسوف نصنفها كلاً حسب موضوعه، الا اننا سوف نسلط اضواء التحليل على الشرط الذي يخص موضوع بحثنا وهو الحفاظ على المجتمع المسلم وما يخص ذلك هو الشرط المتعلق بالشيعة وأمانهم، ومن جملة شروط معاهدة الصلح:

(١) الكليني، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق، الأصول من الكافي، صححه وعلق عليه: علي أكبر الغفاري (ط ٣، دار الكتب الاسلامية، طهران، ١٣٨٨ هـ) ج ٨ / ص ٣٣٠.

الشرط المتعلق بالحكم:

- إن الإمام الحسن عليه السلام يسلم الأمر لمعاوية على أن يكون له الأمر من بعده، فإن حدث به حدث فللحسين^(١)، وليس لمعاوية أن يعهد لأحد من بعده^(٢).

- الشرط المتعلق بحكم معاوية:

- وأن يعمل معاوية بكتاب الله وسنة رسوله^(٣)، وزاد بعضهم: سنة الخلفاء الراشدين، وبعضهم زاد: سنة الخلفاء الصالحين، واستثناء مال بيت مال الكوفة فلا يسلم إلى معاوية، وأن لا يسمى الإمام الحسن عليه السلام معاوية: أمير المؤمنين، وأن لا يقيم عنده شهادة^(٤).

- الشرط المتعلق بالإمام علي وأولاده عليهم السلام:

- أن يترك سب الإمام علي عليه السلام ولا يذكره إلا بخير، وعلى معاوية أن يحمل إلى الإمام الحسين عليه السلام في كل عام ألفي ألف درهم، وأن لا يبغى للحسن وللحسين، ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة، وأن يفضل بني هاشم في العطاء والصلوات على

(١) ابن الصباغ، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي، الفصول المهمة في معرفة احوال الائمة عليهم السلام، (المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٦٢م)، ص ١٦٣، وعمدة الطالب، ص ٦٧، وحياة الإمام الحسن عليه السلام للقرشي ج ٢ / ص ٢٨٧.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٦ / ص ٢٢، والفصول المهمة، ص ١٦٣، والفتوح لابن أعثم المجلد الثاني ج ٤ / ص ٢٩١، وتاريخ مدينة دمشق، ج ١٣ / ص ٢٦٥، والإمامة والسياسة، ج ١ / ص ١٨٤.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٦ / ص ٢٢ عن المدائني. وراجع: الفتوح المجلد الثاني ج ٤ / ص ٢٩١، وأضاف إلى ذلك: سنة الخلفاء الصالحين أيضاً ويلاحظ هنا: المغزى الذي يرمي إليه هذا التقييد بكلمة المهتدين أو بكلمة الصالحين!!

(٤) الصدوق، علل الشرائع، ج ١ / ص ٢١٢، المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤ / ص ٢، ومستدرك الوسائل، ج ١٣ / ص ١٨٠.

بنى عبد شمس، وأن يفرق في أولاد من قتل مع علي عليه السلام في الجمل وصفين ألف ألف درهم، وأن يجعل ذلك من خراج دار ابجر د^(١). وفي نص آخر: أن يكون له خراج دار ابجر د^(٢).

- الشرط المتعلق بالشيعه وأمانهم وهو:

إن الناس آمنون حيث كانوا، أسودهم وأحمرهم، وأن يحتمل هفوات الناس، وأن لا يتبع أحداً بما مضى.

وأن لا يأخذ أهل العراق بإحنة، وعلى أمان أصحاب الإمام علي عليه السلام أينما كانوا، وأن لا ينال أحداً من شيعة الإمام علي عليه السلام بمكروه، وأن يكون أصحاب علي وشيعته آمنين على أنفسهم، وأموالهم، ونسائهم، وأولادهم، وأن يوصل لكل ذي حق حقه، وأن لا يخيف أحداً في أفق من الآفاق^(٣).

نقول: إن الإمام الحسن عليه السلام استطاع عن طريق الصلح أن يحفظ دماء الشيعة المخلصين وحقهم في الحياة، فعن فضيل بن مرزوق قال: أتى مالك بن ضمرة الحسن ابن علي فقال: السلام عليك يا مسخم وجوه المؤمنين، قال: «يا مالك لا تقل ذلك إني

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤ / ص ٣.

(٢) هي كلمة فارسية أصلها: داراب كرد.

(٣) كل هذه الشروط تجدها متفرقة في كثير من كتب التاريخ والحديث والتراجم ومنها: الفتوح ابن أعثم المجلد الثاني ج ٤ / ص ٢٩١ - ٢٩٢ متناً وهامشاً، وشرح نهج البلاغة، بن أبي الحديد ج ١٦ / ص ٣٦ و ٤٤ / والأخبار الطوال، ص ٢١٨، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ / والإصابة ج ٢ ص ١٢ و ١٣ / ومقاتل الطالبين ص ٦٦ و ٦٧، والفصول المهمة، ابن الصباغ ص ١٦٣، والكامل في التاريخ ابن الأثير ج ٣، ص ٤٠٥، وتذكرة الخواص ص ١٩٨، والبحار، ج ٤٤ / ص ٢ و ٣ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٣ و ٥٦ و ٦٥، ومعالي السبطين، ج ١ / ص ٣٨ - ٣٩. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، الأميني، ج ١١ / ص ٦ وغيرها.

لما رأيت الناس تركوا ذلك إلا أهله خشيت أن تحتشوا عن وجه الأرض فأردت أن يكون للدين في الأرض ناع^(١)

- عن زيد بن أسلم، قال: دخل رجل على الحسن عليه السلام بالمدينة وفي يده صحيفة، فقال: «ما هذه»؟ قال: «من معاوية يعد فيها ويتوعد». قال: «قد كنت على النصف منه». قال: «أجل ولكنني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفاً أو ثمانون ألفاً أو أكثر من ذلك أو أقل كلهم تنضح أوداجهم دما كلهم يستعدي الله فيم أهريق دمه»^(٢).

ومن خلال هذا البند أصبح أي تعامل غير إنساني مع الشيعة يمثل دليلاً على سقوط أطروحة وادعاءات معاوية ونقضه للمواثيق، فجميع البشر يدركون أن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تستمر إذا لم يتم الالتزام بالعهود والمواثيق، فمن لا يلتزم بها، فإنه يصادم البداهة، ولا بد من إدانته؛ لأنه بنظر الناس جميعاً يعبث بسلامة الحياة الإنسانية، وهو ما لا يمكن السماح ولا الرضا به، في أي من الظروف والأحوال.

ورب سائل يسأل: أن الشيعة لم يسلموا بعد الصلح، من ظلم معاوية وبني أمية، حيث تتبعهم زياد بن أبيه، وغيره من ولاة معاوية، تحت كل حجر ومدر، وألحقوا بهم أكبر الأذى، فما فائدة الصلح إذن؟

للجواب نقول: إنه كان ظلماً مفضوحاً، فاقداً لأي مبرر، ولا يمكن أن يتسبب بأي تضليل أو شبهة؛ لأن هذه الخسائر في السلم قد جاءت على سبيل نكث العهد، ونقض العقد، فهي إذن لم تكن بلا ثمن، بل صار ثمن دم الشيعي هو اكتشاف الناس للخائن والغادر، ووعيم حقيقة هؤلاء الظالمين، ووضوح بطلان دعاواهم، وفضح مكائدهم،

(١) ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق: علي شيري (دار الفكر، لبنان - بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٦ م)، ج ١٣ / ص ٢٠٣.

(٢) ابن عساکر، المصدر السابق، ج ١٣ / ص ٢٠٥.

وإدراك أنهم غادرون ظالمون ناكثون للعهود، وليسوا أهلاً لما يدعونه من إمامة وخلافة.

هل حقق الإمام الحسن عليه السلام هدفه؟

والسؤال الذي يتبادر هنا هو: هل حقق الإمام الحسن عليه السلام هدفه من خلال الصلح وهو:

– حفظ الدين ومفاهيمه وقيمه، وضمان ما يمكن ضمانه من مصلحة الإسلام والأمة.

نقول: إن الشروط التي وقَّع عليها معاوية من حيث لا يشعر تصب في مصلحة الإمام الحسن عليه السلام وتحقيق هدفه وإن كان على المدى البعيد فكيف؟

إن الحفاظ على الشريعة الإسلامية من أهم الأهداف التي توخاها الإمام عليه السلام من صلحه، لكي لا تبطل الشريعة بالتحريف والضياع، بسبب الأوضاع السياسية والأهواء والعوامل الأخرى التي كانت السبب في تنازل الإمام عليه السلام، فقد قال عليه السلام مخاطباً أبا سعيد: «يا أبا سعيد، علة مصالحتي لمعاوية، علة مصالحة رسول الله عليه السلام لبني ضمرة وبني الأشجع ولأهل مكة، حين انصرف من الحديبية، أولئك كفار بالتنزيل ومعاوية وأصحابه كفار بالتأويل»^(١).

لقد تمثل الإمام عليه السلام، مشهد الحديبية، يوم قبل الرسول عليه السلام بالصلح مع المشركين، فرأى أن ذلك أمر ضروري أيضاً مع أبنائهم اليوم؛ لأن ميزان القوى غير متكافئ من جانب ومن جانب آخر عرف عليه السلام أن قتال معاوية قد يؤدي إلى الغدر به أو أسرهِ والتطاول عليه وهو إمام الناس وحجتهم ولأنه عدل القرآن لذلك قال: «والله لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً، والله لئن أسأله وأنا عزيز، أحب إلى من

أن يقتلني وأنا أسير أو يمن علي فتكون سبة على بني هاشم إلى آخر الدهر ولعاوية لا يزال يمن بها هو وعقبه على الحي منا والميت»^(١). هذا من جانب.

ومن جانب آخر حقق الإمام الحسن عليه السلام هذا الهدف وبجدارة من خلال بند الصلح الذي يقول: أن لا يقيم الحسن عليه السلام عند معاوية شهادة.

ولبيان ذلك نقول: أن هذا الشرط يعني أحد أمرين، أو كليهما:

أولهما: إن معاوية لا يملك صفة العدالة المشترطة في القاضي، إلى حد أنه يصبح غير مأمون حتى على القضاء بأبسط الأحكام ومن لا يُؤْمَنُ على مثل ذلك وهو خليفة المسلمين فسوف تثار حوله عدة أسئلة وهي:

١. كيف يكون له مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلافته في تعليم الدين وفي بيان شرائعه، وفي التصدي للشبهات، وحل المعضلات؟

٢. كيف تكون قراراته نافذة في اختيار الإمام الذي يجلس في مقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويحكم الأمة باسمه؟

٣. كيف يكون له التصدي للقضاء بين الناس، ولقيادة الجيوش، واتخاذ القرارات الخطيرة والحساسة التي تمس مصير الأمة وحياتها ومستقبلها في الصميم، فضلاً عن أن يتصدى للإجابة على دقائق المسائل الفقهية، والاعتقادية وغيرها؟

٤. كيف يؤمن على دماء الناس وأموالهم، وأعراضهم، وعلى دينهم، ومستقبلهم؟
الثاني: أن يكون قد شرط عليه ذلك بسبب جهله بأحكام القضاء، ومن كان جاهلاً حتى بمثل هذه الأمور البسيطة، التي هي من شؤون الحاكم فسوف تثار أيضاً حوله

(١) الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، الاحتجاج، تعليق: محمد باقر الخرسان (منشورات دار النعمان، العراق، النجف الأشرف، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) ج ٢ / ص ١٠.

عدة أسئلة وهى:

١. اذا كان جاهلاً بالقضاء هل يكون عالماً بسائر القضايا الحساسة، والمصيرية، والمعقدة، والتي تحتاج إلى المزيد من التعمق في الشريعة، وأحكامها؟

٢. هل يصح تفويضها إليه، وإعطاؤه مقام رسول الله ﷺ، ووظائفه باستثناء الوحي الإلهي وهو على هذه الصفة من الجهل بأبسط مسؤوليات النبي ﷺ؟

٣. هل يمكن أن يكون الأمين عليها؟ والمصيب في قراراته فيها؟

٤. ومن كان بهذا المستوى من الجهل، أو عدم الأمانة وقلة الدين كيف يمكن أن يفى بتعهداته ويعمل بالكتاب والسنة؟

وبعد هذا: سوف تُبطل الإجابة عن هذه الأسئلة أية شرعية لما يدّعيه معاوية لنفسه من مقامات، وتبطل معه كل شرعية للحكم الأموي الذي يركز إليه في مشروعيته إلى مشروعية، إنها تبطل ذلك بشكل استدلالي، يبين فيه فقدان معاوية للمؤهلات الأساسية التي تفيد في توهم أن له حقاً في ذلك.

وبذلك يتضح: أنه ﷺ قد حفظ التشيع والإسلام كله، وسلب من بني أمية، ومن كل مناوئيه، كل ما يدّعون أنه لأنفسهم، وأظهر أنهم طغاة بغاة، يريدون التوسل بالباطل إلى طمس الحق، وإزالة معالمه.

- أما بالنسبة لضمان مصلحة الإسلام والأمة.

إن هذه الشروط جعلت معاوية في موقع الغاصب لمقام لا حق له فيه، وهو مقام خلافة النبوة، وإنها دليل قاطع على أن ليس لمعاوية ولا لبني أمية في هذا الأمر من نصيب، وذلك لأنه قد أظهر أن معاوية مفتقد أدنى شرائط التصدي لمثل هذا المقام

الخطير.

وغني عن القول: أن الإمام عليه السلام قد أدرج في هذا الصلح شروطاً ما، يحفظ بها دماء الناس، ويمس مستقبل ومصير الأمة وبه يكون حفظ الدين كله، ومعاوية قد قبل هذه الشروط، وسجل التاريخ ذلك عليه، وربما كان معتمداً على ما عقد العزم عليه من النكت للعهد، بعد الوصول إلى ما يريد، فإذا أقر على نفسه بذلك، فإن ذلك يوفر على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم الكثير من الجهد، لإقناع الناس، الذين تغرهم المظاهر، وتؤثر عليهم الدعاوى العريضة، فإن وضوح فقدان المؤهلات والمواصفات يمكن أن يفهمه الناس، وأن يدركوا ما يترتب عليه بسهولة.

وبذلك قلل الإمام عليه السلام من خسائر الانهيار وخسائر الصلح وحقق مكاسب وان كان على المستوى البعيد؛ إذ إن هذا الصلح يصب في مصلحة الدين والحفاظ على المسلمين.

المبحث الثانى

معاوية يدخل الكوفة

وصف المؤرخون حالة معاوية عند موافقة الإمام الحسن عليه السلام على الصلح بأنه (كاد يطير فرحاً) ^(١).

قال المفيد فى الإرشاد: «سار معاوية حتى نزل بالنخيلة، وكان ذلك يوم جمعة فصلى بالناس ضحى النهار فخطبهم وقال فى خطبته: إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا تصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكنى قاتلتكم لتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون!! ألا وإني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها له» ^(٢)، وبذلك أعلن معاوية نكته للصلح جملة وتفصيلاً.

تسليط الوثنية الاموية

وتسليط معاوية على الامة وحكمها بسياسة البطش والجروت فاستهان بمقدراتها وكرامتها، وقد أدلى بتصريح عبّر فيه عن كبريائه وجبروته فقال: «نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع» ^(٣).

(١) الذهبى، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) : ج ٣، ٢٧٧، وإمتاع الأسماع: ج ٥/ ص ٣٥٨، ونهاية الإرب/ ٤٣٩٩.

(٢) المفيد، الإرشاد، ج ٢/ ص ١٥

(٣) النويرى، أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الإرب فى فنون الأدب، (الهيئة المصرية العامة للكتاب،

وسار عماله وولاته على خطى سياسته سياسة البطش والجبروت اذ اعطاهم الشرعية في ذلك فقد خطب عتبة بن أبي سفيان بمصر فقال: «يا حاملي الأم أنف ركبت بين أعين، إني إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسي لكم، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقياً عليكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتنقص للسلف، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذ جدتم بالمعصية»^(١).

ومثلت هذه القطعة من خطابه مدى أحقاده على الأمة وتنكره لجميع قيمها وهو لا يرى حلاً لأزماتها إلا بسفك الدماء وإشاعة الجور والارهاب، اما بسط العدل ونشر الدعة والرفاهية بين الناس فلم يفكر به ولا دار بخلده ولا في خلد واحد من الحكام الأمويين.

فتحولت الخلافة الإسلامية من طاقتها الأصلية ومفاهيمها البناءة إلى ملك عضوض مستبد لا ظل فيه للعدل، ولا شبح فيه للحق، قد تسلطت الطغمة الحاكمة من بني أمية على الأمة وهي تمعن في اذلالها ونهب ثرواتها، وارغامها على المعبودية، يقول بعض الكتاب: «ونجم عن زوال الخلافة الراشدة وانتقال الخلافة إلى بني أمية نتائج كبيرة، فقد انتصرت أسرة بني أمية على الأسرة الهاشمية، وهذا كان معناه انتصار الأرستقراطية القرشية، وأصحاب رؤوس المال والمضاربات التجارية على أصحاب المبادئ والمثل، لقد كان نصر معاوية هزيمة لكل الجهود التي بذلت للحد من طغيان الرأسمالية القرشية، هزيمة لحلف الفضول، وهزيمة للدوافع المباشرة لقيام الاسلام

القاهرة، د.ت) السفر السادس، ص ٧.

(١) تهذيب الكامل للمبرد: ج ١ / ص ١٧.

وحربه على الاستغلال والظلم، هزيمة للمثل والمبادئ، ونجاح للحنكة والسياسة المدعومة بالتجربة والمال، ولقد كان لهذه الهزيمة وقع مفجع على الاسلام وأجيال المسلمين^(١).

يقول المستشرق (نيكلسون): «واعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسها معاوية انتصاراً للاستقرارية والوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء، والتي جاهدتها رسول الله ﷺ حتى قضى عليها، وصبر معه المسلمون على جهادها ومقاومتها حتى نصرهم الله، وأقاموا على أنقاضها دعائم الاسلام ذلك الدين السمح الذي جعل الناس سواسية في السراء والضراء، وأزال سيادة رهط كانوا يحتقرون الفقراء، ويستذلون الضعفاء، ويتزنون الأموال»^(٢).

وعلى أي حال فقد فجع العالم الاسلامى - بعد الصلح - بكارثة كبرى فخرج من عالم الدعة والامن والاستقرار إلى عالم مليء بالظلم والجور فقد أسرع معاوية بعد أن استتب له الامر إلى الاستبداد بشؤون المسلمين، وارغامهم على ما يكرهون، وهذه بعض الخطوط الرئيسية في ادارة شؤون البلاد والعباد.

سياسة معاوية الادارية :

واقام معاوية قواعد حكمه على تفريق كلمة المسلمين وتشيت شملهم، وبث روح التفرقة بينهم، ايماناً منه بان الحكم لا يمكن أن يستقر له الا في تفكك وحدة الأمة، وإشاعة العداء بين أبنائها، يقول العقاد: «وكانت له - اي لمعاوية - حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها، واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين،

(١) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، (ط٤)، مؤسسة الامام المجتبى، ايران، قم، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م) ج ٢ / ص ١١٧.

(٢) القرشي، حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، ج ٢ / ص ١١٧.

وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائب على التفرقة والتخذيّل بين خصومه بالقاء الشبهات بينهم، وإثارة الإحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه.. كان لا يطيق ان يرى رجلين ذوي خطر على وفاق، وكان التنافس الفطري بين ذوي الاخطار مما يعينه على الايقاع بهم^(١).

وأحسّى معاوية العصبية القبلية وفصم عرى الاخوة الاسلامية التي عقد أواصرها الرسول الكريم ﷺ، لبناء دولته، ولإشغال الناس بالصراع القبلي عن التدخل في الشؤون السياسية، وابعادهم عما كان يقوم به من ظلم وجور، يقول المؤرخون: إنه عمد إلى إثارة الأحقاد القديمة ما بين الأوس والخزرج محاولاً بذلك التقليل من أهميتهم، واسقاط مكانتهم امام العالم العربي والاسلامي.. كما تعصب لليمنيين على المضربين، وأشعل نار الفتنة فيما بينهم حتى لا تتحد لهم كلمة تضر بمصالح دولته.

وحفلت مصادر التاريخ ببوادر كثيرة من ألوان التناحر القبلي الذي اثاره معاوية وعماله مما أدى إلى انتشار الضغائن بين المسلمين، وقد عانى الاسلام من جراء ذلك أشد ألوان المحن فقد أوقف كل نشاط مثمر له وخولف ما كان يدعو له النبي ﷺ من التآخي والتعاطف بين المسلمين.

الخداع والدهاء:

لقد كان الخداع من ذاتيات معاوية، ومن العناصر المقيمة لسياسته، وأقام دولته على المخاتلة والخداع والدهاء، فلا ظل للواقع في اي تحرك من تحركاته السياسية، فما كان مثل ذلك الضمير المتحجر ان يعي الواقع أو يفقه الحق، وقد حفل التاريخ بصور كثيرة من خداعه، وهذه بعضها:

(١) العقاد، عباس محمود، معاوية في الميزان (مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٩٦٦م)، ص ٦٤ .

- لما دس معاوية السم إلى الزعيم الكبير مالك الأشتر اقبل على أهل الشام فقال لهم: «إن عليا وجه الأشتر إلى مصر فادعوا الله أن يكفيكموه، فكانوا كل يوم يدعون الله على الأشتر، وقال معاوية لما بلغه الخبر: يا بردها على الكبد! إن الله جنودا منها العسل»^(١).

- وقد بهر ولده يزيد حينما بويع وكان الناس يمدحونه فقال لأبيه: «يا أمير المؤمنين ما ندرى انخدع الناس أم يخدعوننا». فأجابه معاوية: «كل من أردت خديعته فتخادع له حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته»^(٢).

لقد اسس معاوية قواعد حكمه على الخداع وغدّى به أهل مملكته حتى نشأ جيل كانت هذه الظاهرة من أبرز ما عرف منه.

اضطهاد الموالى:

وبالغ معاوية في اضطهاد الموالى واذلالهم، وقد رام ان يبيدهم إبادة شاملة، يقول المؤرخون: قال زياد: دعا مُعاوية الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال: إنى رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد طعنت على السلف، وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسُّلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارّة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف: أرى أن نفسي لا تطيب، يُقتل أخى لأمي وخالي ومولاى! وقد شاركناهم وشاركونا في النسب فظننتُ أنى قد قُلتُ عنهم، وأطرق معاوية، فقال سمرة بن جندب: إجعلها لى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ إلى ما تريد منه! فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر، قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائفٌ وأتيت أهلى

(١) الأمينى، عبد الحسين احمد، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، (دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م) ج ١١ / ص ٦٢.

(٢) المبرد، الكامل: ج ٢ / ص ٦٣٦.

حَزِينًا. فلما كان بالغداة أرسل إليّ فعلمتُ أنه أخذ برأيي وترك رأي سَمُرَةَ^(١).

ولم يعي معاوية ومن سار في ركابه المنطق المشتق من واقع الاسلام وهديه الذي أمر ببسط المساواة والعدل بين جميع الناس من دون فرق بين قومياتهم.

وعلى أي حال فقد أدت هذه السياسة العنصرية إلى إشاعة الأحقاد بين المسلمين واختلاف كلمتهم، كما أدت إلى تجنيد الموالي لكل حركة ثورية تقوم ضد الحكم الأموي وكانوا بالأخير هم القوة الفعالة التي أطاحت بالأمويين وطوت معالمهم وآثارهم.

تغيير الواقع الاسلامي:

وعمد معاوية إلى تغيير الواقع الاسلامي المشرق الذي تبنى الحركات النضالية والقضايا المصيرية لجميع الشعوب، فأهاب بالمسلمين أن لا يقرؤا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم، ولقد أراد معاوية اقبار هذا الوعي الديني، وإماتة الشعور بالمسؤولية فأوعز إلى لجان الوضع التي ابتدعها ان تفتعل الأحاديث على لسان الرسول ﷺ في الزام الأمة بالخضوع للظلم، والخنوع للجور، والتسليم لما يقترفه سلطانها من الجور والاستبداد وهذه بعض الأحاديث:

١. روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال لأصحابه: «انكم سترون بعدي اثره، وأمورا تنكرونها. قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، واسألوا الله حقكم»^(٢).

٢. روى البخاري بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رأى من أميره شيئاً يكره

(١) الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد (ط دار الكتاب العربي سنة ١٣٨٤ هـ)

ج ٣/ ص ٤١٣.

(٢) - أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، صحيح

البخاري، (دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م) ج ٨/ ص ٨٧.

فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»^(١).

٣. روى البخاري بسنده عن مسلمة بن زيد الجعفي أنه سأل رسول الله ﷺ فقال له: يا نبي الله أرأيت ان قامت علينا امراء يسألونا حقهم، ويمنعوننا حقنا فما ترى؟ فاعرض ﷺ عنه فسأله ثانيا وثالثا والرسول معرض فجذبه الأشعث بن قيس، فقال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا فان عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم»^(٢).

٤. روى البخاري بسنده عن عجرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائنا ما كان»^(٣).

إلى غير ذلك من الموضوعات التي خدرت الأمة، وشلت حركتها الثورية، وجعلتها قابعة ذليلة تحت وطأة الاستبداد الأموي وجوره، وقد هب الإمام الحسين عليه السلام الثائر الأول في الاسلام إلى اعلان الجهاد المقدس ليوثق الأمة من سباتها ويعيد للإسلام نضارته وروحه النضالية التي انحسرت في عهد الحكم الأموي.

الاستخفاف بأحكام الشريعة الاسلامية:

واستخف معاوية بأحكام الشريعة الاسلامية، ولم يعن بجميع ما جاء به الاسلام من الاحكام فاستعمل أواني الذهب والفضة، وشرب الخمر، وأباح الربا، وعطل الحدود، وقد ألغيت معظم الاحكام الاسلامية في أغلب أدوار الحكم الأموي، وفي ذلك يقول الشاعر الاسلامي الكمي:

(١) البخاري، المصدر السابق، ج ٨ / ص ٨٧.

(٢) البخاري، المصدر السابق، ج ٢ / ص ١١٩.

(٣) البخاري، المصدر السابق، ج ٢ / ص ١٢١.

وعطلت الاحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنحل
 أهل كتاب نحن فيه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
 كأن كتاب الله يعني بأمره وبالنهي فيه الكوذني المركل^(١)
 فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتام حتام العناء المطول
 وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا لأجور من حكامنا الممثل^(٢)

يذكر ابو حنيفة في شرح الاخبار: قيل لمعاوية - لما تغلب على الأمر - لو سكنت المدينة، فهي دار الهجرة، وبها قبر النبي ﷺ فقال: «قد ظلمت إذاً وما أنا من المهتدين»^(٣).

معاوية يشرب الخمر

أخرج إمام الحنابلة أحمد في مسنده من طريق عبد الله بن بريدة قال: دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش ثم أتينا بالطعام فأكلنا، ثم أتينا بالشراب فشرب معاوية ثم ناول أبي ثم قال: ما شربته منذ حرمه رسول الله ﷺ ثم قال معاوية: «كنت أجهل شباب قريش، وأجودهم ثغراً، وما شيء كنت أجده له لذة كما كنت أجده وأنا شاب غير اللبن أو إنسان حسن الحديث يحدثني»^(٤).

معاوية يأكل الربا

أخرج مالك والنسائي وغيرهما من طريق عطاء بن يسار: أن معاوية باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها، فقال له أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ عن مثل هذا

(١) الكوذني: البليد.

(٢) ابن أبو الحديد، القصاصد العلويات السبع أو الروضة المختارة شرح القصائد الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي (منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، د.ت) ص ٦٤.

(٣) النعمان، أبو حنيفة بن محمد التميمي المغربي، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، تحقيق: محمد الجلال (مؤسسة النشر الاسلامي، ايران، قم، د.ت) ج ٥/ ص ١٦٥، الحديث [٤٩٧].

(٤) ابن حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل (دار صادر، بيروت، د.ت) ج ٥/ ص ٣٤٧.

إلا مثلاً بمثل، فقال معاوية: ما أرى بهذا بأساً.

فقال له أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية؟ أنا أخبره عن رسول الله ﷺ وهو يخبرني عن رأيه، لا أسألك بأرض أنت بها، ثم قدم أبو الدرداء على عمر بن الخطاب عنه فذكر له ذلك فكتب عمر إلى معاوية: أن لا تبع ذلك إلا مثلاً بمثل، ووزنا بوزن^(١).

معاوية يعطل حدود الله

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الاسلامية ما ذكره الماوردي وآخرون: أن معاوية أتى بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد من بينهم فقال:

يميني أمير المؤمنين أعيدها بعفوك أن تلقى نكالا بينها
يدي كانت الحسناء لو تم سترها ولا تعدم الحسناء عينا يشينها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة إذاما شمالي فارقتها يمينها

فقال معاوية: كيف أصنع بك؟ قد قطعنا أصحابك، فقالت أم السارق: يا أمير المؤمنين إجعلها في ذنوبك التي تتوب منها، فخلى سبيله، فكان أول حد ترك في الاسلام^(٢).

استلحاق زياد:

ومن مظاهر استخفاف معاوية بالقيم الاسلامية استلحاقه زياد ابن ابيه، والصاقه بنسبه من دون بينة شرعية، وانما اعتمد على شهادة أبي مريم الخمار، وهو مما لا يثبت

(١) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر، سنن النسائي (ط١)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠ م) ج ٧/ ص ٢٧٩، وراجع: موطأ مالك ج ٢، ص ٥٩، اختلاف الحديث للشافعي هامش كتابه الأم: ج ٧/ ص ٢٣، وسنن البيهقي ج ٥/ ص ٢٨٠.

(٢) ابن كثير، ابو الفداء اسماعيل الدمشقي، البداية والنهاية، (دار الكتب العلمية، لبنان، د.ت) ج ٨/ ص ١٤٥، وفي الأحكام السلطانية، ص ٢١٩.

به نسب شرعي، وقد خالف بذلك قول رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(١). لقد قام بذلك انطلافاً وراء أهدافه السياسية، وتدعيماً لحكمه وسلطانه ولما كان يعرف عن زياد من قسوة وغلظة وفجور، وقد كتب اليه الإمام الحسين عليه السلام يوبخه على ذلك^(٢).

نشر الخلاعة والمجون:

وعرف معاوية بالخلاعة والمجون، يقول ابن أبي الحديد: «كان معاوية أيام عثمان شديد التهتك موسوما بكل قبيح، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلا خوفا منه الا انه كان يلبس الحرير والديباغ ويشرب في آنية الذهب والفضة، ويركب البغال ذوات السروج المحلات بها - أي بالذهب - وعليها جلال الديباغ والوشي، وكان حينئذ شابا وعند نزق الصبا، وأثر الشبيبة وسكر السلطان والامرة، ونقل الناس عنه في كتب السيرة انه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام... ولا خلاف في أنه سمع الغناء، وطرب عليه، ووصل عليه أيضا»^(٣).

ولم يكتف بذلك فقد وعمد إلى إشاعة الدعارة والمجون في الحرمين للقضاء على قدسيتهما واسقاط مكانتهما الاجتماعية في نفوس المسلمين، يقول العلائي: «وشجع الأمويون حياة المجون في مكة والمدينة إلى حد الإباحة، فقد استأجر طوائف من الشعراء والمختن من بينهم عمر بن أبي ربيعة لأجل أن يمسحوا عاصمتي مكة والمدينة بمسحة لا تليق، ولا تجعلهما صاحلتين للزعامة الدينية».

(١) البخاري، صحيح البخاري، ج ٥ / ص ١٩٢، سنن أبي داود، ج ٢ / ص ٢٨٢، ح ٢٢٧٣،

(٢) الطبرس، الاحتجاج، ص ٢٩٧، ورجال الكشي، ص ٣٢، وراجع الحسين عليه السلام سماته

وسيرته، ص ١٢٩.

(٣) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٣.

وقد قال الأصمعي: دخلت المدينة فما وجدت الا المخنثين، ورجلا يضع الاخبار والطرف^(١) وقد شاعت في يثرب مجالس الغناء، وكان الوالي يحضرها ويشارك فيها^(٢)، وانحسرت بذلك روح الأخلاق، وانصرف الناس عن المثل العليا التي جاء بها الاسلام، وسادت اللذة واللهو في المجتمع العربي، وتهالك الناس على الفسق والفجور.

لقد كانت سيرة الأمويين في جميع أدوارهم امتدادا لسيرة معاوية الذي أشاع حياة اللهو والخلاعة في البلاد للقضاء على أصالة الأمة، وسلب وعيها الديني والاجتماعي.

سياسته الاقتصادية :

ولم تكن لمعاوية أية سياسة اقتصادية في المال حسب المعنى المصطلح لهذه الكلمة، وانما كان تصرفه في جباية الأموال وانفاقها خاضعاً لرغباته وأهوائه فهو يهب الثراء العريض للقوى المؤيدة له ويحرم العطاء للمعارضين له، ويأخذ الأموال ويفرض الضرائب كل ذلك بغير حق.

إن من المقطوع به انه لم يعد في حكومة معاوية اي ظل للاقتصاد الاسلامى الذي عالج القضايا الاقتصادية بأرور الوسائل وأعمقها، فقد عنى بزيادة الدخل الفردي، ومكافحة البطالة، وإذابة الفقر، واعتبر مال الدولة ملكا للشعب يصرف على تطوير وسائل حياته، وازدهار رخائه، ولكن معاوية قد أشاع الفقر والحاجة عند الأكثرية الساحقة من الشعب، وأوجد الرأسمالية عند فئة قليلة راحت تتحكم في مصير الناس وشؤونهم.

وأشاع معاوية الحرمان في بعض الأقطار التي كانت تضم الجبهة المعارضة له فنشر فيها البؤس والحاجة حتى لا تتمكن من القيام بأية معارضة له، وهذه بعض المناطق

(١) العلابي، عبدالله، سمو المعنى في سمو الذات، ص ٣٠.

(٢) الأندلسي، العقد الفريد، ج ٣/ ص ٢٤١.

التي قبلها بالاضطهاد والحرمان:

١. يثرب:

سعى معاوية لإضعاف يثرب فلم ينفق على المدنيين أي شيء من المال وجهد على فقرهم وحرمانهم؛ لأنهم من معاقل المعارضة لحكمه، وفيهم كثير من الشخصيات الحاقدة على الأسرة الأموية والطامعة في الحكم.

يقول ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة): انه أجبرهم على بيع املاكهم فاشتراها بأبخس الأثمان، وقد ارسل القيم على املاكه لتحصيل وارادتها -يريد الأموال التي كانت لمعاوية- فمنع منها، وأزاحه أهل المدينة عنها، وكانت أموالا اكتسبها معاوية، ونخيلا يجد منها ألف وسق^(١) وستين ألفاً، ودخل نفر من قريش والأنصار على حاكمهم عثمان بن محمد، وقالوا له: قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية أثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا قط درهما فما فوقه، حتى مضنا الزمان، ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها، فأغلظ لهم عثمان في القول، وأغلظوا له، فقال لهم: لاكتبن إلى أمير المؤمنين بسوء رأيكم، وما أنتم عليه من كمون الأضغان القديمة، والأحقاد التي لم تنزل في صدوركم، فافترقوا على مودة، ثم اجتمع رأيهم على منع ابن ميثاء القيم عليها، فكف عثمان بن محمد عنهم، وكتب بأمرهم إلى يزيد بن معاوية^(٢).

ووفد على معاوية الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري فلم يأذن له بتحقيقاً وتوهيناً به فانصرف عنه، فوجه له معاوية بستائة درهم فردها جابر وكتب إليه:

واني لاختار القنوع على الغنى إذا اجتماعا والماء بالبارد المحض

(١) الوسق: مائة وعشرون قدحا مصرية.

(٢) الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة، (ط٣)، دار الكتب العلمية، لبنان، ٢٠٠٩م) ج ١/ ص ١٧٦.

وأقضى على نفسى إذ الامر نابى وفى الناس من يقضى عليه ولا يقضى
والبس أثواب الحياء وقد أرى مكان الغنى الا أهين له عرضى
وقال لرسول معاوية: «قل له: والله يا بن آكلة الأكباد لا تجد فى صحيفتك حسنة
أنا سببها أبدا»^(١).

وانتشر الفقر فى بيوت الأنصار، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم
على شراء راحلة يستعين بها على شؤونهم، ولما حج معاوية واجتاز على يثرب استقبله
الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة فقال لهم: «ما منعكم من تلقى كما يتلقانى
الناس؟»

فقال له سعيد بن عباد: «منعنا من ذلك قلة الظهر، وخفة ذات اليد، والحاح
الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا». فقال له معاوية باستهزاء وسخرية: «أين أنتم
عن نواضح المدينة؟».

فسدد له سعيد سهما من منطقته الفياض قائلا: «نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة
ابن أبي سفيان»^(٢).

لقد قضت سياسة معاوية بنشر المجاعة فى يثرب وحرمان أهلها من الصلة والعطاء
وقد أوعز إلى الحكومة المركزية فى يثرب برفع أسعار المواد الغذائية فيها حتى تعم فيها
المجاعة، وقد ألمع إلى ذلك يزيد فى رسالته التى بعثها للمدنيين ووعدهم فيها بالإحسان
ان خضعوا لسلطانهم، وقد جاء فيها: «ولهم على عهد أن اجعل الحنطة كسعر الحنطة

(١) المسعودى، أبو الحسن على بن الحسين بن على، مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط ٢)،
دارالهجرة، إيران - قم، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، ج ٣ / ص ١١٦.

(٢) البلاذرى، أحمد بن يحيى، أنساب الأشراف، (ط مؤسسة الأعلمى - بيروت - لبنان،
١٣٩٧هـ) ج ١ / ص ٧٣.

عندنا، والعطاء الذي يذكرون أنه احتبس عنهم في زمان معاوية فهو علي أن أخرجه لهم وفرا كاملاً^(١).

وقد جعل معاوية الولاة على الحجاز تارة مروان بن الحكم، وأخرى سعيد بن العاص وكان يعزل الأول ويولي الثاني، وقد جهدا في اذلال أهل المدينة وفقرهم.

٢. العراق:

اما العراق فقد قابله معاوية بالمزيد من العقوبات الاقتصادية باعتباره المركز الرئيسي للمعارضة، والقطر الوحيد الساخط على حكومته، وكان واليه المغيرة بن شعبة يحبس العطاء والأرزاق عن أهل الكوفة، وقد سار الحكام الأمويون من بعد معاوية على هذه السيرة في اضطهاد العراق وحرمان أهله، فان عمر بن عبد العزيز أعدلهم لم يساو بين العراقيين والشاميين في العطاء، فقد زاد في عطاء الشاميين عشرة دنانير ولم يزد في عطاء أهل العراق^(٢)، لقد عانى العراق في عهد الحكم الأموي أشد ألوان الضيق مما جعل العراقيين يقومون بثورات متصلة ضد حكمهم.

٣. مصر:

ونالت مصر المزيد من الاضطهاد الاقتصادي فقد كتب معاوية إلى عامله وردان مولى عمرو: «ان زد على كل امرئ من القبط قيراطاً» فأنكر عليه عامله وكتب إليه: «كيف أزد عليهم وفي عهدهم ان لا يزداد عليهم»^(٣)، وشمل الضيق الاقتصادي سائر الأقطار الاسلامية ليشغلها عن معارضة حكمه.

(١) الدينوري، الإمامة والسياسة، ج ١ / ص ١٥١.

(٢) الاندلسي، العقد الفريد، ج ٤ / ص ٢٥٩.

(٣) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجد

(مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م) القسم ١، ص ٢٥٥.

الشام فى رخاء

وبينما كانت البلاد الاسلامية تعاني الجهد والحرب نجد الشام فى رخاء شامل وأسعار موادها الغذائية منخفضة جدا؛ لأنها أخلصت للبيت الأموي، وعملت على تدعيم حكمه فكان الرفاه يعد فيها شائعا، اما ما يؤيد ذلك فهي رسالة يزيد التي ذكرناها قبل قليل، وقد حملوا أهل الشام على رقاب الناس كما ألمع إلى ذلك مالك بن هبيرة فى حديثه مع الحصين بن نمير، يقول له: «هلم فلنبايع لهذا الغلام - اي خالد بن يزيد - الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، فقد عرفت منزلتنا من أبيه فإنه كان يحملنا على رقاب العرب»^(١).

شل الحركة الاقتصادية؛

وشلت الحركة الاقتصادية فى جميع أنحاء البلاد فخربت الزراعة والتجارة، وأصيب الاقتصاد العام بنكسة شاملة نتيجة تبذير معاوية واسرافه، وقد أعلن ذلك عبد الله بن همام السلولى فقد كتب شعرا فى رفاع وألقاها فى المسجد الجامع يشكو فيها الجور الهائل والمظالم الفظيعة التي صبها معاوية وعماله على الناس وهذه هي الأبيات:

الا أبلغ معاوية بن صخر	فقد خرب السواد فلا سوادا
أرى العمال اقساء علينا	بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك ان تدارك بالدنيا	وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعا ابدا هواه	يخرب من بلادته البلادا

(١) الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الامم والملوك (دارالمعارف، لبنان، د.ت). ج ٤/

إذا ما قلت أقصر عن هواه تمادى في ضلالتة وزادا^(١)
 فبلغ الشعر معاوية فعزله، وقد صور السلوي بهذه الأبيات سوء الحالة الاقتصادية
 وتسلب الولاة على ظلم الرعية ودعا السلطة إلى عزله واقصائهم عن وظائفهم فقد
 جهدوا في خراب السواد وامتصوا الدماء، واتبعوا الهوى، وظلوا عن الطريق القويم.
 هذه بعض معالم سياسة معاوية الاقتصادية التي فقدت روح التوازن وأشاعت
 البؤس والحرمان في البلاد.

السياسة المالية

- استخدام المال في تدعيم ملكه:

واستخدم معاوية الخزينة المركزية لتدعيم ملكه وسلطانه، واتخذ المال سلاحا يمكنه
 من قيادة الأمة ورئاسة الدولة، يقول الهندي: «وكانت الثروات التي جمعها معاوية من
 عماله على الشام يبذرهما هو وبطانته على جنوده المرتزقة الذين ساعدوه بدورهم على
 اخفات كل همسة ضدهم»^(٢).

وكانت هذه السياسة غريبة على المسلمين لم يفكر فيها أحد من الخلفاء السابقين،
 وقد سار عليها من جاء بعده من الخلفاء الأمويين، فاتخذوا المال وسيلة لدعم سلطانهم،
 يقول الدكتور محمد مصطفى: «وكان من عناصر سياسة الأمويين استخدام المال سلاحا
 للإرهاب، وأداة للتقريب فحرموا منه فئة من الناس، وأغدقوه أضعافا مضاعفة لطائفة
 أخرى ثمننا لضمايرهم، وضمانا لصمتهم»^(٣).

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٥ / ص ٥٢.

(٢) الهندي، مير علي، روح الاسلام، ص ٢٩٦.

(٣) مصطفى، محمد، اتجاهات الشعر العربي، ص ٢٧.

- المنح الهائلة لأسرته:

ومنح معاوية الأموال الهائلة لأسرته فوهبهم الثراء العريض^(١)، وذلك لتقوية مركزهم، وبسط نفوذهم على العالم الاسلامي، في حين أشاع اليأس والحرمان عند أغلب فئات الشعب.

- هبات الأموال لمؤيديه وعماله:

وأغدق معاوية الأموال الهائلة على المؤيدين له والمنحرفين عن الامام أمير المؤمنين وقد أسرف في ذلك إلى حد بعيد، فبذل الأموال وأقطع القطائع فأطعم عمرو بن العاص خراج مصر، وإقطاعه ذا الكلاع^(٢)، وجعله طعمة له ما دام حيا، وذلك لتعاونه معه على مناجزة الامام أمير المؤمنين عليه السلام رائد الحق والعدالة في الأرض.

وعندما منيت الخزينة المركزية بعجز مالي خطير نتيجة الاسراف في الهبات لشراء الذمم والأديان ولم تتمكن الدولة من تسديد رواتب الموظفين، اضطر معاوية إلى أن يكتب لابن العاص راجياً منه أن يسعفه بشيء من خراج مصر الذي جعله طعمة له فقد جاء في رسالته: «اما بعد: فان سؤال أهل الحجاز، وزوار أهل العراق قد كثر علي، وليس عندي فضل من أعطيات الجنود فأعني بخراج مصر هذه السنة» ولم يستجب له ابن العاص وراح ينكر عليه، ويذكره بأياديته التي أسداها عليه وقد اجابه بهذه الأبيات:

معاوي إن تدركك نفس شحيحة	فما ورثتني مصر أمي ولا أبي
وما نلتها عفوا ولكن شرطتها	وقد دارت الحرب العوان على قطب
ولولا دفاعي الأشعري وصحبه	لألفيتها ترغو كراغية السقب

(١) النعمان، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، ج ٢ / ص ٩٦.

(٢) النعمان، المصدر السابق، ج ٢ / ص ١٠٤.

ولما قرأ معاوية الأبيات تأثر منه، ولم يعاوده بشيء من امر مصر^(١)، ويقول ابن عبد ربه: «قدم يزيد بن منبه من البصرة على معاوية، وهو أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة، وكانت ابنة يعلى عند عتبة بن أبي سفیان، فلما دخل على معاوية شكاه دينه، فقال: يا كعب أعطه ثلاثين ألفاً، فلما ولى، قال: وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى»^(٢)، لقد وهب له هذه الأموال الضخمة جزاءً لمواقفه ومواقف أخيه الذي أمد المتمردين في حرب الجمل بالأموال التي نهبها من بيت مال المسلمين، وقد حفل التاريخ ببيادر كثيرة من هبات معاوية للقوى المنحرفة عن الامام ﷺ، والمؤيدة له.

- تبرير معاوية لسفاهته:

ويرى معاوية ان أموال الأمة وخزینتها المركزية ملك له يتصرف بها حيث ما شاء بقوله: «الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما اخذ من مال الله فهو لي، وما تركته كان جائزاً إلي». ^(٣)

وهذا المنطق بعيد عن روح الاسلام، وبعيد عن اتجاهاته فقد قنن أسسه الاقتصادية على أساس ان المال مال الشعب، وان الدولة ملزمة بتنميته وتطويره، وليس لرئيس الدولة وغيره ان يتلاعب باقتصاد الأمة وينفقه على رغباته وأهوائه، فان ذلك يؤدي إلى إذاعة الحاجة ونشر البطالة ويعرض البلاد للأزمات الاقتصادية... لقد اعتبر الاسلام الفقر كارثة اجتماعية ووباءً شاملاً يجب مكافحته بكل الطرق والوسائل، وليس للخليفة ان يصطفي من مال الأمة اي شيء، هذا هو رأي الاسلام، ولكن معاوية - بصورة لا تقبل الجدل - لم يع ذلك، فتصرف بأموال المسلمين حسب رغباته وأهوائه.

(١) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، ص ٢٢٢.

(٢) الاندلسي، العقد الفريد، ج ١ / ص ٢٩٩ وج ٢ / ص ٦٨.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣ / ص ٤٣.

- شراء ذمم الرجال ودينهم:

وفتح معاوية بابا جديدا في سياسته الاقتصادية وهو شراء الأديان وخيانة الذمم، فقد وفد عليه جماعة من اشراف العرب فأعطى كل واحد منهم مائة الف وأعطى الحتات عم الفرزدق سبعين ألفا، فلما علم الحتات بذلك رجع مغضبا إلى معاوية فقال له: فضحتني في بني تميم أما حسبي صحيح أولست ذا سن أولست مطاعا في عشيرتي قال معاوية بلى قال فما بالك خسست بي دون القوم فقال إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان وكان عثمانيا قال وأنا فاشترمني ديني فأمر له بتمام جائزة^(١) لقد خسرت هذه الصفقة التي كشفت عن مسخ الضمائر وتحولها إلى سلعة تباع وتشترى.

- مصادرة أموال المواطنين:

واضطر معاوية بعد اسرافه وتبذيره إلى مصادرة أموال المواطنين ليسد العجز المالى الذي منيت به خزينة الدولة، وقد صادر مواريث الحتات عم الفرزدق فأنكر عليه الفرزدق وقال يهجوه:

أبوك وعمي يا معاوي أورثا تراثا فيحتاز التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات اخذته وميراث صخر جامد لك ذائبه^(٢).

وسار ولاية معاوية على هذا المسار وأصبحت الولاية في عهد معاوية مصدراً من مصادر النهب والسرقة، ومصدراً للشراء وجمع الأموال واستعمل زياد بن ابيه حارثة ابن بدر الغداني على (سرق) من الأهواز، فشيعة الناس ومعه أبو الأسود الدؤلي، فلما انصرف عنه مشيعوه قال له أبو الأسود:

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٠ / ص ٢٧٩.

(٢) ابن عساكر، المصدر السابق، ج ١٠ / ص ٢٧٧.

أحار بن بدر قد وليت اماره فكن جرذا فيها تحون وتسرق
وباه تميماً بالغنى ان للغني لسانا به المرء الهيوبه ينطق
ولا تحقرن يا حار شيئا أصبته فحظك من ملك العراقيين سرق^(١)
وقد عانى المسلمون ضروبا شاقة وعسيرة من جور الولاة وظلم الجباة، فقد تمسروا
بالسلب والنهب، ولم يتركوا عند أحد من الناس فضلا من المال الا صادروه.

وأوعز معاوية إلى زياد بن أبيه ان يصطفي له الذهب والفضة فقام زياد مع عماله
بإجبار المواطنين على مصادرة ما عندهم من ذلك وارساله إلى دمشق وقد ضيق بذلك
على الناس، وترك الفقر آخذا بخناقهم، وفرض معاوية على المسلمين ضريبة النيروز
ليسد بها نفقاته، وقد بالغ في ارهاق الناس واضطهادهم على أدائها، وقد بلغت فيما
يقول المؤرخون عشرة ملايين درهم^(٢) وهي من الضرائب التي لم يألفها المسلمون، وقد
اتخذها الخلفاء من بعده سنة فأرغموا المسلمين على أدائها.

- جباية الخراج:

اما جباية الخراج فكانت خاضعة لرغبات الجباة وأهوائهم، وقد سأل صاحب أخنا
عمرو بن العاص عن مقدار ما عليه من الجزية فنهره ابن العاص وقال له وهو مشير الى
الكنيسة: «لو أعطيتني من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك انما أنتم خزانة لنا
إن كثر علينا كثرنا عليكم، وإن خفف عنا خففنا عنكم»^(٣)، وهدمت هذه الاجراءات
الظالمة جميع قواعد العدل والمساواة التي جاء بها الاسلام.

(١) البلاذري، أنساب الأشراف ج ١٢ / ص ١٩٥

(٢) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي (دار مكتبة الحياة - بيروت. - لبنان، د.ت)

ج ٢ / ص ٢٢

(٣) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان (دار إحياء التراث

العربي، بيروت - لبنان، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م) ج ١ / ص ١٢٤.

الخاتمة

أغمد الإمام الحسن عليه السلام السيف وأعلن الهدنة، ليتمكن بذلك الناس أن يروا الحكم الأموي على سجيته رأي عين، وأن يبرز أمامهم بخصائصه وأهدافه عارياً مفصوحاً دون طلاء ولا تزويق للناس كافة وليس للعراقيين فقط، ولا للمصريين والحجازيين واليمنيين معهم، بل حتى لأهل الشام، فقد كانت المخادعات والمخاتلات الأموية تستر عليهم وجه الحقيقة طول أيام الحروب، ومكّن الناس كلهم شاميههم وعراقيهم أن يستمعوا إلى الحاكم الأموي الأعلى في يوم (ساباط) ذاته وهو يفصح خطته، ويعلن هدفه، ويكذب دعاواه الطويلة العريضة التي خادع الناس بها طوال السنين، فيقول لهم: «إنه لم يقاتلهم ليصوموا ولا ليصلوا ولا ليحجوا ولا ليزكوا، لم يقاتلهم ليقم ركناً من أركان الإسلام هم تاركوه، إنه قاتلهم ليتأمر عليهم، فأعطاه الله ذلك وهم كارهون» هذه هي غاية معاوية، وكل ما سواها فوسيلة، وكل تلك الأعمال والاقوال منه، ومن عماله وبطانته، تشرح المجل، وتضع النقاط، وتكشف المستور من مناهج هذه الدولة.

فالذي يمعن النظر في حكم معاوية يتيقن أنه لم يكن على شيء من الإسلام ويهوله هذا المقدار من قوى الشر والاحتيال التي تألف منها أسلوبه في حكم الناس، فهو أسلوب مكيافيلي خالص لا ينقصه شيء من تفاصيل المكيافيلية المجرمة والنهب و الترويع والتقتيل، أسلوب يتفجر بكل ما يخالف الكتاب والسنة من كل منكر في الاسلام، قتلاً للأبرار، وهتكاً للأعراض، وسلباً للأموال، وسجناً للأحرار، وتشريداً للمصلحين،

وتأييداً للمفسدين الذين جعلهم وزراء دولته، كابن العاص، وابن شعبة، وابن سعيد، وابن أرتأة، وابن جندب، وابن السمط، وابن الحكم، وابن مرجانة، وابن عقبة، وابن سمية الذي نفاه عن أبيه الشرعي عبيد وألحقه بالمسافح أبيه أبي سفيان ليجعله بذلك أخاه، يسلطه على الشيعة في العراق، يسومهم سوء العذاب، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، ويفرقهم عبيد، تحت كل كوكب، ويحرق بيوتهم، ويصطفي أمواهم، لا يألو جهداً في ظلمهم بكل طريق.

واراد الإمام الحسن عليه السلام بقبوله للصلح ان يفضح اسلوب معاوية ويهدي الناس لسبيل الهدى الذي اجتنبوه، ومناهج العدل الذي خذلوه، والناس تسمع وتبصر وتعي وتزن، بملء أسماعها وأبصارها وأذنانها، فأى إجراء سياسي يمكن ان يتخذ في تلك الظروف غير الصلح للحفاظ على ارواح المسلمين وأجدى للأمة.

وكان أثره المستقبلي اكبر إذ ترشح بناء الدولة الاموية الوثنية عند الضربة التي سددها شقيقه وخليفته الإمام الحسين عليه السلام ثم هوى الصرح وتدكدك البناء.

ومهما يكن من أمر، فالمهم أن الحوادث جاءت تفسر خطة الحسن عليه السلام وتجلوها، وكان أهم ما يرمي اليه سلام الله عليه، أن يرفع اللثام عن هؤلاء الطغاة، ليحول بينهم وبين ما يبيتون لرسالة جده من الكيد، وقد تم له كل ما أراد، حتى برح الخفاء، وآذن أمر الأموية بالجلاء، والحمد لله رب العالمين.

المصادر

القرآن الكريم

١. اتجاهات الشعر العربي، محمد مصطفى.
٢. أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري.
٣. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي.
٤. الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري.
٥. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المفيد.
٦. الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
٧. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي.
٨. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل الدمشقي بن كثير.
٩. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان.
١٠. تاريخ العرب، فيليب حتي.
١١. تاريخ الامم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
١٢. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي.
١٣. تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي بن عساكر.
١٤. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي.
١٥. تهذيب الكامل، المبرد.
١٦. حياة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، باقر شريف القرشي.
١٧. روح الاسلام، مير علي الهندي.
١٨. الروض النضير في معنى حديث الغدير، فارس حسون كريم.

١٩. سمو المعنى في سمو الذات، عبد الله العلايلي.
٢٠. سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي.
٢١. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي.
٢٢. شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي.
٢٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد.
٢٤. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري.
٢٥. الأصول من الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني.
٢٦. عقيدة الشيعة، روایت م رونلدس.
٢٧. علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق.
٢٨. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.
٢٩. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، عبد الحسين أحمد الأميني.
٣٠. فتوح البلدان، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري.
٣١. الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة عليهم السلام، علي بن محمد بن أحمد المالكي المكي بن الصباغ.
٣٢. القصائد العلويات السبع أو الروضة المختارة، ابن أبي الحديد.
٣٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي.
٣٤. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل.
٣٥. معاوية في الميزان، عباس محمود العقاد.
٣٦. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي.
٣٧. مقاتل الطالبين، أبو فرج الأصفهاني.
٣٨. مناقب آل أبو طالب، شير الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن شهر آشوب.
٣٩. موسوعة العبقريات الإسلامية، عباس محمود العقاد.
٤٠. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويري.
٤١. ينابيع المودة لذوي القربى، سليمان بن إبراهيم القندوزي.

الشاهد القرآني
في خطب الإمام الحسن عليه السلام
دراسة موضوعية

أ.م.د فضيلة عبوسي محسن العامري

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

أما بعد

اهتمَّ الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) اهتماماً كبيراً بالأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهو اهتمام نابع من إدراكه (عليه السلام) بأنه يتحمل المسؤوليات نفسها التي يتحملها النبي (صلى الله عليه وآله) مع مراعاة الفارق بين النبوة والإمامة، وقد اتضح ذلك في خطبه وكلماته التي وجهها إلى الحكام والرعية، فضلاً عن أنه كان واعظاً للسلاسة في عصره إذ كان يذكّر الحكام والأمراء بالتقوى وعدم ظلم الرعية، مستمداً آراءه من النظرية الدينية القائمة على القرآن والسنة الصحيحة، آخذاً بنظر الاعتبار مؤثرات عصره التي اتسمت بالتغيير والأحداث الخطيرة المفزعة التي واجهته (عليه السلام) بعد أن تقلد زمام الحكم الطاغية معاوية بن أبي سفيان (عليه لعائن الله)، فوقف الإمام الحسن (عليه السلام) موقف الحازم اليقظ للأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية ليتسنى له إدارة البلاد بعقريّة يستند فيها إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وعند تصفّح خطب الإمام الحسن (عليه السلام) فإننا لم نجد نصّاً يخلو من الشاهد القرآني نصّاً أو مضموناً، لذا جاء البحث بعنوان (الشاهد القرآني في خطب الإمام الحسن (عليه السلام) دراسة موضوعية) وقد تألف من مقدمة وتمهيد ومطلبين، تناولت في المطلب الأول الاقتباس من القرآن الكريم وكان فيه أمران تضمن

الأول: التصريح بنسبة الشاهد القرآني والوظيفة التي خرج اليها، في حين تضمن الأمر الثاني عدم التصريح بنسبة الشاهد القرآني والوظيفة التي خرج اليها، أما المطلب الثاني فقد تناولت فيه التضمين من المعاني القرآنية والأغراض الوظيفية التي خرج اليها، وقد سبق المطلبين تمهيد تناولت فيه التعريف بالشاهد في اللغة والاصطلاح مفهوماً، ومن ثم ختمنا البحث بأهم النتائج التي توصلنا اليها، معتمدين في ذلك على عدد من المصادر والمراجع التي تتعلق بخطب الإمام الحسن عليه السلام.

التمهيد

التعريف بالشاهد في اللغة والاصطلاح مفهوماً

(الشاهد في اللغة له معان عدة كلها تتعلق بالمفهوم الحسي الذي يتعلق بالحضور الفعلي قولاً وهيأة، ومن ثم الإدلاء بالشهادة أو الشهادة على الغير وهي ترتبط غالباً باللسان حتى قيل من معاني الشاهد اللسان، والعالم الذي يمتلك ما يبينه للآخر من طريق الشهادة، فقد جاء في اللغة (الشاهد العالم الذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَهُ شَهِدَ شَهَادَةً ومنه قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ (المائدة/ ١٠٦)، أي الشهادة بينكم شهادة اثنين، وشَهِدَ فلان على فلان بحق فهو شاهد وشهيد، وشَهِدَهُ شُهوذاً أي حَضَرَهُ فهو شاهدٌ ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (البروج/ ٧)، أي حُضُور وهو في الأصل مصدر، والشاهدُ والشَّهيد الحاضر والجمع شُهَدَاء، وشَهِدَ الأمر والمِصْرَ شَهَادَةً فهو شاهدٌ من قَوْمٍ شُهِدَ، وقوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾ (الأحزاب/ ٤٥)، أي على أُمّتكَ بالإبلاغ والرسالة، وشَهِدَ الشاهدُ عند الحاكم أي بين ما يعلمه وأظهره يدل على ذلك قوله شاهدين على أنفسهم بالكفر، والشَّاهدُ اللسان من قولهم لفلان شاهد حسن أي عبارة جميلة والشاهد المَلَكُ^(١)؛ فالشاهد في اللغة بمعنى الحاضر، وفي الاصطلاح (عبارة عما كان حاضراً في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره فإن كان الغالب عليه العلم فهو شاهد العلم وإن كان الغالب عليه الحق فهو شاهد الحق)^(٢) أما الشاهد في الاصطلاح اللغوي فهو جملة من كلام العرب أو ما جرى مجراه، كالقرآن الكريم، تتسم بمواصفات معينة^(٣)، وتنقسم الشواهد من حيث موضوعاتها

إلى الشواهد المعجمية، والشواهد النحوية، وشواهد النقد والبلاغة والعروض، وتنقسم من حيث أنواعها الأدبية إلى:-

١. الشواهد القرآنية.

٢. شواهد الحديث النبوي الشريف.

٣. شواهد الشعر والرجز.

والذي يتعلق بموضوع البحث هو الشواهد القرآنية، ومن المعلوم أن الشاهد القرآني يستعمل من قبل اللغويين وخاصة ما يتعلق بالقراءات القرآنية، وهناك اختلاف بين اللغويين فالكوفيون يحترمون القراءات القرآنية فعندهم (لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق، وإن الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر)^(٤)، في حين أن البصريين طعنوا على بعض القراءات القرآنية فأخذوا منها ما يوافق قواعدهم النحوية، ورفضوا ما لا يوافقها، ووصفوا بعضها بالشذوذ، فقدموا القاعدة على النص القرآني الذي هو كلام الله ﷺ فهو (أفصح الكلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشأذه)^(٥)؛ من حيث القراءات القرآنية، هذا الشاهد القرآني عند اللغويين، أما الشاهد القرآني الذي يتعلق بموضوع البحث فنقصد به الشاهد المقتبس من القرآن الكريم في معناه أو في معناه ومبناه الذي وقع في خطب الإمام الحسن عليه السلام والذي خرج إلى أغراض وظيفية أشادت بفضل أهل البيت عليه السلام وسمو مكانتهم وحقوقهم التي خصهم الله سبحانه وتعالى بهم.

المطلب الأول

الاقتباس من القرآن الكريم

الاقتباس في اللغة من القبس (شُعْلَةٌ من نارٍ تَقْبِسُهَا وَتَقْتَبِسُهَا أَي تَأْخُذُ من مُعْظَمِ النَّارِ، وَقَبَسْتُ النَّارَ وَاقْتَبَسْتُ رَجُلًا نَارًا أَوْ خَيْرًا، وَقَبَسْتُ الْعِلْمَ وَاقْتَبَسْتُهُ)^(٦)، فأصله طلب القبس وهو الشعلة ثم استعير لطلب العلم والهداية^(٧) ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد/ ١٣).

أما الاقتباس في الاصطلاح فهو تضمين الكلام -نثرا أو نظما- شيئا من قرآن أو حديث^(٨).

ولم يتعد البلاغيون في تعريف الاقتباس عن التعريف الاصطلاحي، فهو عندهم أن يضمن الكلام شيئا من القرآن أو الحديث لا على أنه منه^(٩)، فالأقتباس يكون بالأخذ من القرآن الكريم أو الحديث النبوي مفردة أو جملة أو آية، ولسعة الموضوع فقد اقتصر البحث على الاقتباس من القرآن الكريم والذي تمثل بالشاهد القرآني، ومن المواضع في خطب الإمام (ع) التي وظف فيها التصريح بالشاهد القرآني لأغراض كان الإمام يرمي بها للتأكيد من وصولها إلى ذهن السمع وتحقيق الأثر المطلوب الذي فيه نفع الدنيا والآخرة، لذا تناولت في هذا المطلب أمرين:

الأول: التصريح بنسبة الشاهد

صرح الإمام الحسن عليه السلام بنسبة الشاهد القرآني إلى الله سبحانه وتعالى في بعض المواضع من خطبه التي خرجت إلى أغراض وظيفية من أهمها:

١. الوعظ والإرشاد:

وبدا الاقتباس واضحاً في كلامه عليه السلام بعد كلامه في الوعظ والإرشاد بالتصريح بنسبة الآية الكريمة إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً: «يا بن آدم لم تنزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فجد بما في يدك لما بين يديك، وإن المؤمن يتزود، والكافر يتمتع»، وكان عليه السلام يتلو بعد هذه الموعظة قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة/ ١٩٧).

٢. الدعوة إلى التقوى:

ومن كلامه الذي صرح فيه بنسبة الآية القرآنية إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً عليه السلام: «وأوصيكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه، والتقوى باب كل توبة، ورأس كل حكمة، وشرف كل عمل بالتقوى، فاز من فاز من المتقين قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ وقال: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فاتقوا عباد الله واعلموا من يتق الله يجعل له مخرجاً من الفتن، ويسدده في أمره، ويهيئ له رشده، ويفلحه بحجته، ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً»^(١٠).

وهنا يظهر الأثر القرآني واضحاً فقوله عليه السلام الذي تقدم ذكره مقتبس من قوله تعالى:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ (النبا/ ٣١)، وقوله تعالى ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الزمر/ ٦١)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الكهف/ ١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء/ ٦٩).

٣. التوجيه الإنساني:

وقد اتخذت هذه العبارة عنواناً لإحدى حكمه (عليه السلام) والتي صرح فيها بنسبة الشاهد القرآني إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً (عليه السلام): «أيها الناس: إنه من نصح الله وأخذ قوله دليل هدى للتي هي أقوم وفقه الله للرشاد، وسدده للحسنى، فإن جار الله آمن محفوظ، وعدوه خائف مخذول، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر، واخشوا الله بالتقوى، وتقربوا إلى الله بالطاعة، فإنه قريب مجيب. قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾» (البقرة/ ١٨٦).

٤. الاحتجاج:

صرح الإمام (عليه السلام) بنسبة الشاهد القرآني إلى الله سبحانه وتعالى في محاجة الآخر وبيان ما تميز به أهل البيت (عليهم السلام) عن غيرهم من الصفات التي تبعث على الطمأنينة والثقة، مع بيان ما خص الله به تعالى آل البيت (عليهم السلام)، وفضلهم على غيرهم قائلاً (عليه السلام):

«... فلم يزل أبي وقى جدي بنفسه، وفي كل موطن يقدمه جدي لكل شدة، يرسله ثقة منه وطمأنينة إليه»^(١١)، وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (الواقعة/ ١٠-١١).

٥. التصريح باسم سورة من القرآن الكريم:

صرح الإمام عليه السلام باسم السورة في خطبته التي يبين فيها ما اختص به أهل البيت عليهم السلام من الإيمان والتصديق و الذكر في القرآن الكريم قائلاً: «... فكان أبي أول من آمن، وصدق الله ورسوله، وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيه المرسل»^(١٢): ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَئِنَّ أَهْلَ مَوْعِدِهِ فَلَئِنَّكَ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (هود/ ١٧)، وقوله عليه السلام: «وقد قال له جدي عليه السلام حين أمره أن يسير الى مكة في موسم الحج بسورة براءة سر بها يا علي، فإني أمرت بها أن لا يسير بها إلا أنا أو رجل مني وأنت فأبي من جدي، وجدي من الله»^(١٣).

٦. التصريح بنسبة الآية القرآنية إلى الله سبحانه وتعالى في بيان فضل أهل البيت عليهم السلام، وسبقهم إلى الإيمان ومن ثم تفضيلهم على المتأخرين قائلاً عليه السلام: «... فكان أبي سابق السابقين وأقرب المقربين إلى الله وإلى رسوله، وذلك أنه لم يسبقه إلى الإيمان أحد غير خديجة عليها السلام فكما أن الله عليه السلام فضل السابقين على المتأخرين، فضل سابق السابقين»^(١٤)، وقد قال الله عليه السلام: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (التوبة/ ١٩).

٧. التصريح بنسبة الآية إلى القائل مع ذكر القول له في مواضع:

الأول: ما يخص آية المباهلة التي أنفرد بها أهل البيت عليهم السلام المخصوصون بالذكر من الله سبحانه وتعالى دون غيرهم؛ فقد (حكى قصة المباهلة عن عظيم منزلة أهل البيت، وسمو مكانتهم، وأنهم أفضل خلق الله وأحبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنه لا يداني فضلهم أحد من العالمين)^(١٥)؛ لذا وجدنا الإمام يصرح بالركنين (القائل والمخاطب) معاً تأكيداً وتنبيهاً إلى القارئ والسامع قائلاً عليه السلام: «... وقال تعالى لجدي حين جحدته كفره أهل الكتاب وحاجوه»^(١٦): ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران / ٦١)، ونلاحظ أن الإمام عليه السلام لم يذكر أول الآية بنصها بل ذكرها بمضمونها في حين نصها هو ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ (آل عمران / ٦١)، وهذه دلالة واضحة على عمق الثقافة القرآنية التي تتقف بها الإمام عليه السلام حتى صار مضمونها مشابهاً لنصها مع حفظ مقام القائل وهو الله سبحانه وتعالى في الاحتفاظ بالنص القرآني المقتبس الذي يشيد بفضل أهل البيت عليهم السلام فقد روى الجمهور بطرق مستفيضة أن آية المباهلة نزلت في أهل البيت عليهم السلام وأن أبناءنا إشارة إلى الحسين، ونساءنا إلى فاطمة، وأنفسنا إلى علي^(١٧).

والثاني: في آية التطهير وهي من آيات الله البينات الدالة على عصمة أهل البيت وعلى طهارتهم من الزيف والآثام، وقد أجمع ثقة الرواة أنها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة عليها السلام، والحسين عليه السلام، ولم يشاركهم أحد في هذه الفضيلة^(١٨).

وقد جمع الإمام الحسن عليه السلام في خطابه بين الاستشهاد بالنص القرآني والسنة النبوية، فقد قال الإمام عليه السلام متابعاً كلامه السابق: «فأخرج جدي معه من الأنفس أبي، ومن البنين أنا وأخي الحسين، ومن النساء أُمِّي فاطمة، فنحن أهل ولحمه ودمه ونفسه، ونحن منه وهو منا، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ

وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب/ ٣٣)، فلما نزلت هذه جمعنا جدي وأخي وأمي وأبي في كساء خيربي في حجرة أم سلمة رضي الله عنها فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(١٩).

الثالث: صرح الإمام عليه السلام بنسبة الشاهد إلى القائل والمخاطب في خطبته بعد البيعة قائلاً: «أما بعد أيها الناس فإن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا، وإن لهذا الأمر مدة، والدنيا دوّل، وإن الله عز وجل يقول: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾»^(٢٠)، فقد جاء الخطاب مقتبساً أي من القرآن الكريم من سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء/ ١٠٩)، وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (الأنبياء/ ١١٠)، وقوله تعالى ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (الأنبياء/ ١١١)

٨. الترغيب والترهيب والتذكير:

جاء ذلك في بيان ما خص به الله تعالى أهل البيت عليهم السلام، حين قال الرسول ﷺ في حجة الوداع الأخيرة في السنة العاشرة من الهجرة وأشاع بين الوافدين لبیت الله الحرام أن هذا الالتقاء هو آخر العهد بهم قائلاً: «إني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً»، وجعل يطوف على الجماهير ويعرفهم بما يضمن لهم السعادة والنجاح قائلاً: «يا أيها الناس، إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي...»^(٢١)؛ لذا عندما خطب الإمام الحسن عليه السلام ذكر بذلك قائلاً عليه السلام: «أيها الناس لو أذكر الذي أعطانا الله تبارك وتعالى وخصنا به من الفضائل في كتابه، وعلى لسان نبيه لم أحصه، وأنا ابن البشير النذير، وأنا ابن السراج المنير الذي جعله رحمة للعالمين، وأقسم لو تمسكت الأمة بالثقلين لأعطتهم السماء قطرها، والأرض بركتها، ولأكلوا نعمتها خضراء

من فوقهم ومن تحت أرجلهم من غير اختلاف بينهم الى يوم القيامة»^(٢٢)، قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (المائدة/ ٦٦)، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف/ ٩٦).

٩. بيان فضل أمير المؤمنين (عليه السلام):

فقد خطب خطبة بين فيها فضائل أمير المؤمنين في الليلة التي قبض فيها (عليه السلام) قائلاً: «...إنا من أهل بيت افترض الله تعالى مودتهم في كتابه فقال عز من قائل: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ (الشورى/ ٢٣)، والحسنة مودتنا أهل البيت»^(٢٣)

١٠. النهي عن الظواهر السلبية في المجتمع:

صرح الإمام الحسن (عليه السلام) بنسبة الشاهد القرآني الى الله سبحانه وتعالى في وصيته لأخيه محمد بن الحنفية قائلاً: «يا محمد بن علي إني أخاف عليك الحسد، وإنما وصف الله به الكافرين فقال الله ﷻ: ﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مَّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة/ ١٠٩)، ولم يجعل الله للشيطان عليك سلطاناً»^(٢٤)

الثاني: عدم التصريح بنسبة الشاهد لأغراض وظيفية منها

١. الوظيفة العقلية:

ونلاحظ أن الإمام (عليه السلام) لم يصرح بنسبة الشاهد القرآني الى الله تعالى في الوظيفة العقلية في الحوار الذي دار بينه (عليه السلام) وبين جنادة عن مرضه الذي مات فيه، فقد ورد في كلامه (عليه السلام): «عن جنادة بن أمية قال: دخلت على الحسن بن علي (عليه السلام) في مرضه الذي توفي فيه.... فقلت يا مولاي مالك تعالج نفسك؟ فقال: يا عبد الله: بماذا أعالج الموت؟

قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون»^(٢٥) ففيه إشارة إلى قوله تعالى ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة/ ١٥٦)، ومن هنا يظهر أثر الدلالة الإيجائية التي يعرف أثرها المتلقي والسامع، ولكون القول بالاسترجاع معروفاً لدى الجميع، وفيه إشارة إلى قدرة الله سبحانه وتعالى في خلق الكون وتوحيد الله سبحانه وتعالى، ومن الممكن للسامع أن يميز كلام الله سبحانه وتعالى عن كلام الآخرين، لذا لم يخل عدم التصريح بالنسبة إلى القائل.

٢. الوظيفة العبادية:

ومن المواضيع التي لم يصرح الإمام عليه السلام بنسبة الآية إلى الله سبحانه وتعالى في معرض الاحتجاج على الآخر بالنص القرآني في بيان خصوصية أهل البيت عليهم السلام، وبيان بعض الوظائف العبادية التي يجب العمل بها ترغيباً ففيها من الثواب المضاعف عند الله تعالى قائلاً عليه السلام: «... وجعل الله الصلاة في مسجد نبيه بألف صلاة من بين سائر المساجد إلا المسجد الحرام لمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾... قالوا يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد. فحق على كل مسلم أن يصلي علينا مع الصلاة على جدي فريضة واجبة، وأحل الله خمس الغنيمة لرسوله وأوجبها في كتابه، وأوجب لنا من ذلك ما أوجب له، وحرّم عليه الصدقة وحرّمها علينا، نزهنا مما نزهه وطيب لنا ما طيب له، كرامة أكرّمنا الله بها، وفضيلة فضلنا على سائر عباد»^(٢٦)، فاستعمل الإمام عليه السلام الخطاب المباشر لبيان صلة القربى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي جمعت الخصائص المشتركة التي تصاحبهم مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الصلوات ومن حرمة الصدقات، ومن استحقاقهم خمس الغنيمة في كل فضلهم الله تعالى على غيرهم وكرمهم على سائر عباد؛ ولا شك في ذلك أبداً فهو موثوق بالنص القرآني وقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٣. بيان فضل أهل البيت (عليهم السلام):

نجد أن الإمام (عليه السلام) لا يصرح بنسبة الآية إلى الله (تعالى)، وهو يتحدث عن فضائلهم (عليهم السلام) قائلاً: ﴿وَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه/ ١٣٢) يأتينا جدي كل يوم عند طلوع الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت يرحمكم الله، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (٢٧)

ومما ورد من ذلك في وصيته لأخيه الحسين (عليه السلام) قائلاً: ﴿...وَأَنْ تَدْفِنَنِي مَعَ جَدِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنِّي أَحَقُّ بِهِ وَبَيْتِهِ مِمَّنْ أَدْخَلَ بَيْتَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَلَا كِتَابَ جَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ (الأحزاب / ٥٣).

٤. التنبيه والتحذير:

لم يصرح الإمام (عليه السلام) بنسبة الآية إلى قائلها سبحانه وتعالى في خطابه محذراً إياهم في قوله: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَارْجِعُوا إِلَيْهِ، هِيَاهُ مِنْكُمْ الرُّجْعَةُ إِلَى الْحَقِّ، وَقَدْ صَارَ عَمَكُمُ النُّكُوصُ وَخَامَرَكُمُ الطُّغْيَانُ وَالْجُحُودُ﴾ ﴿أَنْزَلِ مُكُومَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ (هود/ ٢٨)، والسلام على من اتبع الهدى (٢٨).

ومن خطبه (عليه السلام) التي أفادت التنبيه على بعض التصرفات الخاطئة التي أدت إلى النتائج السلبية، وصرح بها بالشاهد القرآني قوله (عليه السلام): ﴿وَقَدْ كَانَ مِنْ نَقْضِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بَيْعَتَهُمَا وَخُرُوجَهُمَا بِعَائِشَةَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ وَهُوَ ضَعْفُ النِّسَاءِ وَضَعْفُ رَأْيِهِنَّ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء / ٣٤).

المطلب الثاني

التضمنين في الخطب من المعاني القرآنية

من المعروف عن التضمنين هو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء^(٢٩)، ولا يقتصر التضمنين على الشعر بل يشمل النثر فقد عرفه ابن الأثير بأن: «يضمن الشاعر شعره والناثر نثره كلاماً آخر لغيره قصداً للاستعانة على تأكيد المعنى المقصود ولو لم يذكر ذلك التضمنين لكان المعنى تاماً وربما ضمن الشاعر البيت من شعره بنصف بيت أو أقل منه»^(٣٠)، وأرى أن التضمنين لا يقتصر على الأمثال والحكم والأشعار من كلام الآخرين بل يشتمل على النصوص التي تتضمن المعاني القرآنية التي ترتبط بالنص القرآني من حيث المعنى وتخالفه من حيث اللفظ؛ فالتضمنين (يجعل للنص الحاضر له المقدرة على منح المتلقي قراءةً جديدة، فيفضي به إلى فضاءات دلالية، وتجليات جمالية تمكّنه من سبر غوره، وإن كان الأمر يحتاج إلى شيء من التدقيق وإعمال الفكر)^(٣١).

وقد وظف الإمام الحسن عليه السلام التضمنين من معاني القرآن الكريم لأغراض منها:

١. التحذير والتنبيه:

ومن التضمنين قوله ﷺ: «واعلموا علماً يقينا أنكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى، ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه، ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه، فإذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف»^(٣٢)؛ ففيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ

يَكْفُرُ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ (البقرة / ١٢١)

٢. بيان ما خصص الله تعالى به أهل البيت عليهم السلام من الفضائل:

قال الإمام الحسن عليه السلام بعد الحمد والثناء والصلاة على رسوله ﷺ: «إنا أهل بيت أكرمنا الله واختارنا، واصطفانا، واذهب عنا الرجس، وطهرنا تطهيراً، ولم يفترق الناس فرقتين إلّا جعلنا الله في خيرهما من آدم إلى جدي محمد ﷺ»^(٣٣)، فقد جاء قول الإمام عليه السلام متضمناً قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب / ٣٣)، وهنا يظهر الأثر القرآني بالغاً في خطاب الإمام عليه السلام بحيث أدى إلى امتزاج المعنى القرآني في ألفاظه حتى صارت تحمل معناها في المضامين وتخالف الشكل في الألفاظ، وهذا ليس ببعيد في بيت نشأ فيه الإمام الحسن عليه السلام يزيق العلم زقاً فهو ابن من، وسبط من، وأخو من؟

ومما ورد في بيان منزلة أهل البيت وفضائلهم قوله ﷺ: «أيها الناس اعقلوا عن ربكم، إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»، فنحن الذرية من آدم، والأسرة من نوح، والصفوة من إبراهيم، والسلالة من إسماعيل، وآل محمد نحن، فيكم كالسما المرفوعة والأرض المدحوة والشمس الصاحية، وكالشجرة الزيتونة، لا شرقية ولا غربية التي زيتها النبي ﷺ وعلي فرعها، ونحن والله ثمرة تلك الثمرة، فمن تعلق بغصن من أغصانها: نجا ومن تخلف عنها فإلى النار هوى»^(٣٤)، وهذه الخطبة جاءت متضمنة في معانيها آيات من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران / ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران / ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا

مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةِ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ (النور / ٣٥)

٣. التكرار والتوكيد:

كرر الإمام الحسن عليه السلام مضمون آية التطهير في أكثر من خطبه، لكننا وجدنا الإمام عليه السلام قد ذكر خطبة قصيرة الألفاظ بليغة المعاني، متضمنة آية التطهير، وذلك لما عزم على تسليم الأمر لمعاوية قائلًا عليه السلام: «أيها الناس إنما نحن أمراؤكم وضيغانكم، ونحن أهل بيت نبيكم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»^(٣٥)، وتكرر مضمون الآية الكريمة في كلام الإمام عليه السلام لعمرو بن العاص عندما لقيه في الطواف «... وإني من قريش كواسطة القلادة يعرف حسبي، ولا أدعي لغير أبي، وأنت من تعلم ويعلم الناس، تحاكت فيك رجال قريش، فغلب عليك جزارها، ألأمهم حسبا وأعظمهم لؤما، فإياك عني فإنك رجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيرا»^(٣٦).

٤. تشريع الفرائض:

نجد أن الإمام الحسن عليه السلام جمع بين التصريح بالنسب الى الشاهد القرآني وبين التضمين في حكمة تشريع الفرائض قائلًا عليه السلام: «... ثم قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى/ ٢٣)، واعلموا أن من يبخل المودة فإنما يبخل عن نفسه، أن الله هو الغني وأنتم الفقراء إليه، فاعملوا من بعد ما شئتم، ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيَسْئَلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣٧)، ويلاحظ على

خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) أنه قد جاء متضمناً العديد من معاني الآيات القرآنية، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (التوبة / ١٠٥)، وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر / ١٥)، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف / ١٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة / ١٩٣).

٥. الحث على الجهاد:

خطب الإمام (عليه السلام) في الحث على الجهاد قائلاً: ﴿أما بعد فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: اصبروا إن الله مع الصابرين﴾ فقد جاء الخطاب متضمناً قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال / ٤٦)

٦. التذليل:

نلاحظ في بعض خطب الإمام الحسن (عليه السلام) التذليل وهو ختامها بأي من القرآن الكريم من غير التصريح بالقائل لعرض أفكار مختزلة في الآية التي يختم بها الكلام^(٣٨) ؛ ومن ذلك قوله (عليه السلام) رداً على من تحاسر عليه: «...سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(٣٩)، فقد جاء الخطاب متضمناً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل / ١٢٨).

ومنه في كتابه الى معاوية: «...وإن أنت أبيت إلا التهادي في غيك، سرت بالمسلمين

فحاكمتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»^(٤٠) فقد تضمن ختام الخطاب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (الأعراف / ٨٧) .

الخاتمة ونتائج البحث

١. بدا الأثر القرآني واضحاً في خطب الإمام الحسن عليه السلام، ولا غرابة في ذلك فهو نشأ في بيت نزل فيه الوحي على الأصل الثابت سيد الكائنات النبي محمد عليه السلام.
٢. إن التربية والتنشئة الاجتماعية الصالحة التي تستند إلى تعاليم الشريعة السمحاء لها الأثر الكبير في صقل شخصية الفرد منذ ولادته ومروراً بمراحل حياته المختلفة، وقد نمت شخصية الإمام الحسن عليه السلام وامتزجت بآثار التربية الدينية والثقافة القرآنية التي صقلت جذورها بالأم فاطمة الزهراء عليها السلام، والأب أمير المؤمنين عليه السلام فتكاملت في شخصية الإمام الحسن عليه السلام عوامل السمو والرفعة والتكامل.
٣. تمثل خطب الإمام الحسن عليه السلام صورة مشرقة من علمه عليه السلام أظهرت ثمرة النبوة، ومعدن الرسالة في كثير من المواضع التي عالجتها الخطب.
٤. على الرغم من الظروف العصيبة التي أحاطت بالإمام الحسن عليه السلام، والمواقف التي أجبرته على قبول بعض الأمور من أجل تحقيق الصالح العام؛ فإن ذلك لم يمنعه من الاحتجاج والتذكير بين حين وآخر بما امتاز به أهل البيت عليهم السلام من ميزات لا يمتلكها الآخر مهما بلغ من العلو الدنيوي الزائل المتمثل بولاية معاوية الحكم؛ لذا وجدنا في خطب الإمام عليه السلام كثيراً من النصوص القرآنية المقتبسة التي تثبت فضلهم على غيرهم، ومكانتهم التي خصها الله تعالى بهم.
٥. أرى أن الإمام عليه السلام قد أبدع في اقتباس الشاهد القرآني بدليل تكرار الشاهد

القرآني في أكثر من خطبة، ولكن بأساليب مختلفة بين الاقتباس والتضمين، وفي توظيفات مختلفة منها الوظيفة العبادية، والوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالوعظ والإرشاد، والتحذير والتنبيه والتذكير في آن واحد.

٦. أكثر الإمام من الشاهد القرآني في خطبه؛ لأن القرآن الكريم يمثل المعجزة البالغة والحجة الدامغة التي لا يستطيع الآخر رفضها أو إنكارها، أو التستر عليها، فصار الشاهد القرآني دليلاً معلوماً لدى المتلقين على اختلاف مستوياتهم بأن أهل البيت عليهم السلام هم المتطهرون وهم المخصوصون بأية المباهلة، وهم المخصوصون بغدير خم، وهم المخصوصون بالولاية سبطاً بعد سبط حتى ظهور القائم المهدي عليه السلام.

الهوامش

١. ينظر: لسان العرب، ابن منظور: ٢٣٨/٣.
٢. التعريفات، الجرجاني: ١٦٤، وينظر: التعاريف، المناوي: ٤٤٠.
٣. ينظر: الشاهد اللغوي، يحيى عبد الروؤف جبر: ٢٦٥.
٤. معاني القرآن، الفراء: ١/١٤، وينظر: الصاحبى، ابن فارس: ١١.
٥. خزنة الأدب، البغدادى: ٤.
٦. العين، الخليل: ٨٦/٥.
٧. ينظر: التعاريف، المناوي: ٨١.
٨. ينظر: التعاريف، المناوي: ٨١.
٩. الايضاح، الخطيب القزويني: ٣٨١.
١٠. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٢٧.
١١. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٥٥.
١٢. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٥٥.
١٣. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٥٥.
١٤. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٥٦.
١٥. حياة الامام الحسن (عليه السلام) دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي: ٩١.
١٦. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن (عليه السلام)، السيد مصطفى الموسوي: ٥٦.
١٧. ينظر: تفسير الجلالين: ٣٥/١، تفسير الكشاف، الزمخشري: ١/١٤٩، التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٢/٦٩٩، صحيح الترمذي: ٢/١٦٦، سنن البيهقي: ٧/٦٣، مسند أحمد بن حنبل: ١/١٨٥، حياة الامام الحسن بن علي (عليه السلام) دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي: ٨٨/١.
١٨. ينظر: التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٦/٧٨٣، صحيح مسلم: ٢/٣٣١، جامع البيان، الطبري: ٢٢/٥، مسند الامام أحمد بن حنبل: ٤/١٠٧، سنن البيهقي: ٢/١٥٠، حياة الامام الحسن

بن علي عليه السلام دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي: ١/ ٨٤.

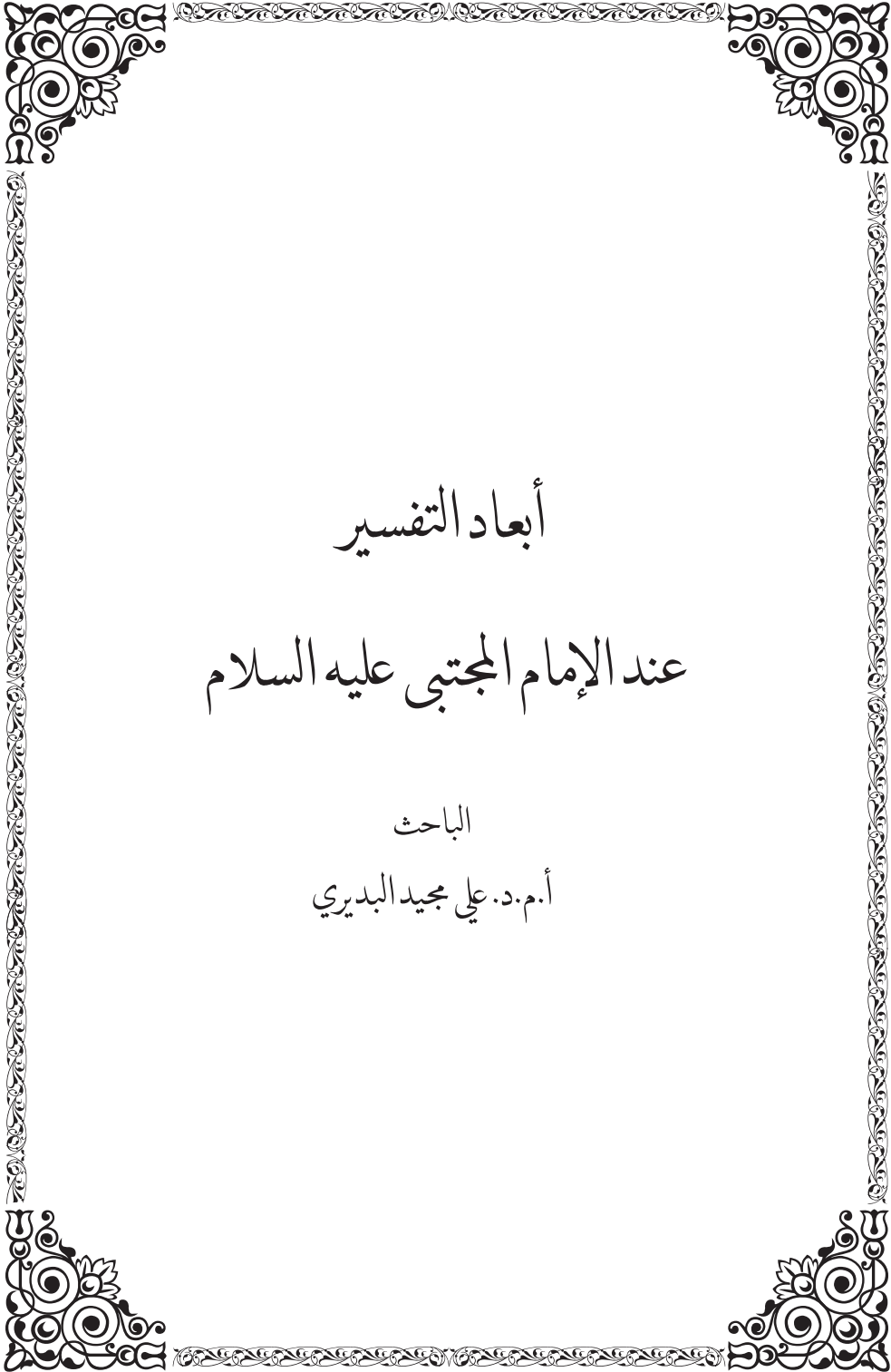
١٩. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٧.
٢٠. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٩٢.
٢١. صحيح الترمذي: ٢/ ٣٠٨، حياة الامام الحسن بن علي عليه السلام دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي: ١/ ١١٤.

٢٢. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٧.
٢٣. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ١٦.
٢٤. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٣١.
٢٥. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٢٧.
٢٦. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٦.
٢٧. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٧.
٢٨. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٧.
٢٩. الايضاح، الخطيب القزويني: ٣٨٣.
٣٠. المثل السائر، ابن الأثير: ٢/ ٣٢٦.
٣١. الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة دراسة اسلوية، د. كاظم عبد فريح الموسوي: ٢٠٦.
٣٢. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٢٥.
٣٣. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٥٥.
٣٤. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٧٢.
٣٥. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٤٩.
٣٦. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٩١.
٣٧. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٣٦- ٣٧.
٣٨. ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة، د. عباس الفحام: ٤٤٠.
٣٩. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ٧٠.
٤٠. الروائع المختارة من خطب الامام الحسن عليه السلام، السيد مصطفى الموسوي: ١٠١.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
١. الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون: عباس علي حسين الفحام، ط١، لبنان، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م.
٢. الاقتباس والتضمين في نهج البلاغة دراسة أسلوبية: د. كاظم عبد فريح المولى الموسوي، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
٣. الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩هـ)، شرح د. محمد عبد المنعم خفاجي، جزآن، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط٣، ١٩٨٩م.
٤. التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، تحقيق عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٥. تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ط١، دار الحديث - القاهرة.
٦. التوقيف على مهمات التعاريف: محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، ط١، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - بيروت، ١٤١٠هـ.
٧. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبو جعفر، (د.ط)، (د.ت).
٨. حياة الإمام الحسن بن علي عليه السلام دراسة وتحليل: باقر شريف القرشي، ط٣، مط. الآداب، النجف، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
٩. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
١٠. الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن عليه السلام: السيد مصطفى الموسوي، ط١، القاهرة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
١١. سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد

- القادر عطا، مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
١٢. الشاهد اللغوي: يحيى عبد الرؤوف جبر، مجلة النجاح للأبحاث، مج ٢، العدد ٦، ١٩٩٢م.
١٣. الصاحبى في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، الصاحب بن عباد، تحقيق: عبد السلام هارون، مط. عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٦١هـ.
١٤. صحيح مسلم بشرح النووي: مسلم بن الحجاج ابو الحسين القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.
١٥. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، (ت ١٧٥ هـ) تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.
١٦. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
١٧. لسان العرب، ابن منظور، (ت ٧١١هـ) بيروت، ١٩٥٦م.
١٨. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير مجد الدين المبارك محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري الشافعي (٦٠٦هـ) قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي ود. بدوي طبانة، دار النهضة مصر.
١٩. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
٢٠. معاني القرآن: أبو زكريا يحيى الفراء، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.



أبعاد التفسير عند الإمام المجتبي عليه السلام

الباحث
أ.م.د. علي مجيد البديري

مقدمة

تعد موضوعة عناية الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام بالقرآن الكريم، وإضاءاته التفسيرية لآياته وأحكامه وآدابه، من الموضوعات التي لم يتوقف عندها الباحثون طويلاً، إذ غلبت معاينة الأبعاد الأخرى في شخصية الإمام، كإمامته عليه السلام ودوره في مواجهات التحديات والمشكلات التي ظهرت في عصره، على هذا الجانب الهام من حياته وعطاءه، وربما يكون السبب في ذلك هو ما قامت به السلطة الأموية من أفعال التغيب والتعتيم والمحو لكل ما يتصل بآل البيت عليهم السلام من خبر أو فعل أو قول، انعكس في قلة النصوص الواردة عنه عليه السلام في هذا المجال، فضلاً عن دفع هذه السلطات الناس بطرائق شتى وموجهات كثيرة صوب قنوات بعيدة عن خط العترة ومدرستها، وتوظيف كل ما من شأنه أن يدفع بهذه القنوات إلى الصدارة والشيوع، عبر الترويج لها وتهيئة الظروف الملائمة لانتشارها وتقبلها.

ومن هنا تكون معاودة قراءة هذا الجانب وتأمله والإفادة منه حاجة ملحة وضرورية في مجال البحث والدراسة، ويعزز من هذه الضرورة في وقتنا الراهن ما شهده النشاط التفسيري للقرآن الكريم من تعدد في المدارس والاتجاهات، وتنوع في مناهج المقتربات المعرفية التي اقترحت آليات نقدية حديثة في التعاطي مع النص القرآني ودراسته، أفرزت في بعض نماذجها البحثية ابتعاداً كبيراً عما أراده القرآن للإنسان من صلة وتواصل معه، وليست هذه الدراسة بالرائدة في مجالها، ولا تدعي ذلك مطلقاً، بل هي بمثابة القراءة التمهيدية لهذا الجانب الهام في حياة الإمام المجتبى عليه السلام، تسعى

إلى الانضمام مع مجمل المحاولات التي سبقتها في هذا المجال، علها تشرف بتقديم مفتتح تمهيدي لدراسة هذه الموضوعة بطريقة أعمق وأكثر تفصيلاً، ومنه وحده سبحانه السداد والتوفيق.

التفسير لغةً واصطلاحاً:

لا يتجاوز المعنى اللغوي لكلمة التفسير في كتب اللغة ومعاجمها دلالاته على الكشف، والإيضاح، والبيان للشيء، والفَسْرُ: البيان، فَسَّرَ الشيءَ يفسِّره بالكسر وتَفَسَّرَ بالضم فَسَّراً وَفَسَّرَهُ: أبانه... وقوله ﷺ: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣)، الفَسْرُ: كشف المَعْطَى والتَفْسِيرُ كشف المراد عن اللفظ المُشْكِل، واستَفْسَرْتُهُ كذا، أي سألتَه أَنْ يُفَسِّرَهُ لي. (١)

أما اصطلاحاً فقد عرفه الإمام الزركشي (ت ٧٩٤هـ) بأنه: (علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه، وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ) (٢) وعرفه الجرجاني (ت ٨١٦هـ) في التعريفات بقوله: (توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه دلالة ظاهرة) (٣).

وعرفه السيد أبو القاسم الخوئي (ت ١٩٩٢م) بأنه: «إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز، فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان، ولا على شيء لم يثبت أنه حجة من طريق العقل، أو من طريق الشرع للنهي عن اتباع الظن، وحرمة إسناد شيء إلى الله بغير إذنه». (٤)

المرحلة التأسيسية للتفسير في عهد النبي الأكرم ﷺ

يُعدُّ النبي ﷺ المفسر الأول للقرآن الكريم؛ فهو قد تكفل بتوضيح الآيات وبيانها للمسلمين عامة ولأصحابه خاصة، وقد كانت جهوده ﷺ مرهونة بمدى تقبل

المسلمين، ومستوى وعيهم واستعدادهم العقلي والفكري لذلك، ومن هنا رأى البعض أن تطبيقه ﷺ للقرآن تطبيقاً عملياً في حياته، جعل من حاجة المسلمين إلى تفسير القرآن الكريم غير كبيرة، فهم كانوا يعيشون معاني القرآن ويسعون إلى تطبيقه والعمل بآياته، فضلاً عن أن النبي تكفل ببيان مجمل القرآن وتوضيحه لمشكله وغير ذلك من مثل بيانه لمواقيت الصلاة وعدد ركعاتها وكيفيةها، وبيانه لتفاصيل مناسك الحج.^(٥) غير أن هذا الرأي لا يلقى قبولاً لدى البعض الآخر من الباحثين؛ فالصحيح من الرأي هو أنه ﷺ قد بين لأمته، ولأصحابه على وجه الخصوص جميع معاني القرآن الكريم، وشرح لهم جل مراميها، محدداً مقاصده الكريمة، عبر البيان بالنص، أو ببيان تفاصيل أصول الشريعة وفروعها^(٦)، وهذا ما نراه في العدد الكبير من النصوص الشريفة المروية عنه ﷺ عن طريق أهل البيت عليهم السلام، الأمر الذي يفسر ضمور هذا المنقول لدى مفسري المذاهب الأخرى من مدرسة الصحابة، فعلى سبيل المثال يرى جلال الدين السيوطي أن الذي صح من هذا المنقول عنه ﷺ قليل جداً، بل في غاية القلة إذ بلغت ما يقرب من مئتين وخمسين حديثاً في التفسير، مأثوراً عن النبي ﷺ بالنص.^(٧) وهو أمر حتمي لعدم اعتماد ما ورد عن النبي من طريق أهل البيت عليهم السلام وإهمالهم له.

ويكفي لبيان سعة مساحة الوارد عنه ﷺ ضم «سيرته الكريمة و سنته في الشريعة، و احاديثه الشريفة في اصول الدين و فروعه و معارف الاسلام و دلائل الاحكام... إلى ذلك العدد القليل، في الظاهر، لأصبح التفسير المأثور عن عهد الرسالة في حجم كبير وفي كمية ضخمة، كان الرصيد الاو في للتفسير الواردة في سائر العصور، أضف الى ذلك ما ورد عن طريق أهل البيت عليهم السلام من التفسير المأثور المسند الى جدهم الرسول ﷺ وهو عدد وفير، يضاف الى ذلك الكثير الوارد عن غير طرقهم، فإنها تكون مجموعة كبيرة من التفسير المستند الى صاحب الرسالة، لها شان في عالم التفسير عبر

القرون»^(٨).

وقد كان ذلك لأن الفرائض والسنن والاحكام انما جاءت في القرآن بصورة إجمال في أصل تشريعاتها، أما التفصيل والبيان فقد تمثل في السُّنة التي هي بيان رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته طيلة حياته الكريمة، فكانت السُّنة إلى جنب القرآن تفسيراً للمواضع المجملة فيه، وشارحة للمبهم الغامض منه.^(٩)

الإمام الحسن المجتبى ﷺ والقرآن الكريم

يكشف حديث الثقلين الذي يعد من أفضل ما روي عن الرسول الأكرم ﷺ في بيان علاقة العترة بالقرآن عن صورة الامتداد الواضح للرعاية الإلهية لخطى الإنسان في الحياة الدنيا عبر إمامتين متكافئتين هما: إمامة القرآن، وإمامة الائمة من أهل البيت ﷺ، بل هما إمامة واحدة وبصيرة واحدة، لا تهتدي إليها عيون منقادة لاستبصارات متفرقة مرهونة بواقع قلق، وحقيقة مضطربة لشخصيات تحيط بها علامات الاستفهام، وتلجمها الغفلة وعدم الدراية.

ولذا فإن الحديث حول صورة القرآن الكريم في كلمات الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ يكاد يكون من نافل القول، لعظم معطيات حديث الثقلين، وعمق الأبعاد التي يوضحها، والتي من أبرزها: المساواة بين أهل البيت ﷺ والقرآن الكريم من حيث المقام والقدسية، وتطابق مرجعية أهل البيت ﷺ للمسلمين في مختلف مستويات حياتهم مع مرجعية القرآن الكريم، وبعد الولاء لأهل البيت ﷺ والارتباط بهم والتمسك بهديهم، يقول أمير المؤمنين علي ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى طهرنا، وعصمنا، وجعلنا شهداء على خلقه، وحجة في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا، لا نفارقه، ولا يفارقنا»^(١٠) وقد أشبع الباحثون والعلماء هذا الأمر بحثاً، وتبياناً، وتحقيقاً، وتأملاً من جميع جوانبه.^(١١)

ولِد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام في الخامس عشر من شهر رمضان المبارك في السَّنة الثالثة من الهجرة النبوية في المدينة المنورة ^(١٢)، وقام الرسول صلى الله عليه وآله بإجراء سنن الولادة عليه، وضمَّه إلى صدره ثمَّ رفع يديه بالدعاء قائلاً: «اللهم إني أعيدُ وذريَّته من الشيطان الرجيم...». ثمَّ سمَّاه (الحسن) وأخبر أنَّ الله صلى الله عليه وآله قد سمَّاه بذلك. ^(١٣)

وامتدَّ عمره الشريف ثمانية وأربعين سنة قضى سبعاً منها أو تزيد مع جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وقضى ثلاثين منها مع أبيه أمير المؤمنين عليه السلام فأخذ العلم عن جدِّه رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام، إذ كان ملازماً للنبي في أغلب أوقاته، يستمع أحاديثه ويشهد موافقه، على الرغم من السنين القليلة التي عاشها الإمام عليه السلام برعاية النبي صلى الله عليه وآله إلا أن ذلك لم يشكل نقصاً تكوينياً في عمره الشريف، ذلك أنه بقي يمتاح من علم امتداد النبوة الطبيعي المتمثل في والده أمير المؤمنين عليه السلام فبقي مصاحباً له طوال حياته، وكانت آخر وصايا أمير المؤمنين: «.. الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم» ^(١٤). نصب عينيه في جميع أدوار حياته ومواقفه، فنهض بدور الإمامة لعشر سنين مستعينا بالله صلى الله عليه وآله، جاعلاً من الاستمرار في الخط الذي رسمه أمير المؤمنين عليه السلام منهجاً له، وهو امتداد الخط الرسالي الذي صدع به رسول الله صلى الله عليه وآله، فلم يقبل من أحد بيعة إلا على شرط الكتاب والسنة.

ويعد من نافل القول الحديث عن فضائل الإمام الحسن عليه السلام وأخلاقه الكريمة فهو كبقية أهل البيت الطاهرين ملتقى الفضائل والاخلاق الكريمة وهو لا يخرج عن إطار الإرادة الإلهية و الوظيفة الشرعية بكل تصرفاته الاختيارية، فأهل البيت عليهم السلام لا يتجاوزون الدور المحدد لكل واحد منهم من قبل الله تعالى، ولا يصدر عنهم الا ما تقتضيه المصلحة العامة في الحاضر او المستقبل، وهذا يختلف من شخص لآخر باختلاف العوامل الموضوعية التي تحكم الساحة وتملي الموقف المعين الذي تقتضيه طبيعة المرحلة

وتحتمه المقتضيات الراهنة.^(١٥)

من المعروف أن المجتبى عليه السلام أحد من نزلت فيهم آية التطهير وآية المباهلة وآية المودة وسورة الدهر وهو من الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ في أمته، وأمر بالتمسك بهما، وأخبر أنهما لن يفترقا حتى يردا عليه الحوض، ومن هذه النصوص قول النبي ﷺ: «أما الحسن فان له هيبتي وسؤدي»^(١٦)، وقال ﷺ فيه وفي أخيه الإمام الحسين عليه السلام: «الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة»^(١٧)، و«ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا»^(١٨).

والإمام عليه السلام أعبد أهل زمانه على الإطلاق، حيث تكون كل أفعاله عبادة لله تعالى عندما تصدر منه على وفق الإرادة الإلهية، وهذا هو السر في تميز أهل البيت عليه السلام وتفوقهم على غيرهم بالعبادة بمعناها المتعلق بالعبادات الخاصة المعهودة، وبكل الصفات الكمالية، مثلما كان جدهم الأعظم الرسول الأكرم ﷺ كذلك، من أجل أن تتم الحجة وتحقق غاية البعثة وهدف الرسالة.

عن المفضل بن عمر قال: «قال الصادق عليه السلام: حدّثني أبي عن أبيه عليه السلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم، وكان إذا حجّ حجّ ماشيا وربما مشى حافيا، وكان إذا ذكر الموت بكى، وإذا ذكر القبر بكى، وإذا ذكر البعث والنشور بكى، وإذا ذكر الممر على الصراط بكى، وإذا ذكر العرض على الله تعالى ذكره شهق شهقة يغشى عليه منها، وكان إذا قام في صلاته ترتعد فرائضه بين يدي ربّه ﷻ، وكان إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم ويسأل الله الجنة ويعوذ به من النار، وكان عليه السلام لا يقرأ من كتاب الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلّا قال: لبيك اللهم لبيك، ولم ير في شيء من أحواله إلّا ذاكر الله سبحانه»^(١٩) وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف في لوح مكتوب يدور معه حيث دار من بيوت أزواجه قبل أن ينام وهو في الفراش.^(٢٠)

لا شك في اختلاف علم أهل البيت عليهم السلام عن علم غيرهم من ناحية كيفية حصوله ومصدره، وهو الالهام الإلهي بمعنى ان الله سبحانه كان يلهم كل واحد منهم العلم بأي شيء تقتضي المصلحة أن يعلم به، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يوجّه الأنظار إلى إمامة ولده الحسن عليه السلام ومقامه السامي وخصائصه وكفاءته العلمية والسياسية والادارية والاجتماعية، فقد كان يسأله عن المسائل المختلفة أمام مرأى ومسمع الملائكة من أصحابه، فيجيب عليها بأجوبة شافية، وقد تركزت أسئلته على مسائل هامة في جميع مجالات الحياة تتعلق بعلاقة الإنسان مع نفسه ومع المجتمع، لتكون أجوبته نبراساً للمؤمنين باعتبارها صادرة من شخصية متكاملة معصومة مكلفة بإمامة وقيادة الأمة. ^(٢١)

وقد شهد عثمان بن عفان بعلم الإمام الحسن عليه السلام وحكمته، فقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام ما مفاده أن رجلاً مرّ بعثمان بن عفان وهو قاعد على باب المسجد فسأله عن علم الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر عليهم السلام فقال عثمان: «ومن لك بمثل هؤلاء الفتية أولئك فطموا العلم فطموا وحازوا الخير والحكمة» ^(٢٢)، وقال محمد بن إسحاق: «ما تكلم عندي أحد كان أحبّ إليّ إذا تكلم أن لا يسكت من الحسن بن علي». ^(٢٣)

وقال محمد بن طلحة الشافعي: «كان الله تعالى قد -رزقه يعني الإمام الحسن عليه السلام - الفطرة الثابتة في إيضاح مرشد ما يعانیه ومنحه الفطرة الصائبة لإصلاح قواعد الدين ومبانيه وخصّه بالجليلة التي درت لها أخلاق مادتها بصور العلم ومعانيه» ^(٢٤). وقال الحافظ إسماعيل بن كثير: «أحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوي آرائهم» ^(٢٥). وكتب إليه الحسن البصري: «أما بعد فإنكم معشر بني هاشم الفلك الجارية واللجج الغامرة والأعلام الشاهرة، أو كسفينة نوح عليه السلام التي نزلها المؤمنون ونجا فيها المسلمون» ^(٢٦). وقد تتلمذ على يديه مجموعة كبيرة من الفقهاء والعلماء ورواة الحديث، وروى عن الإمام الحسن المئات من الصحابة والتابعين ^(٢٧).

عاش الإمام عليه السلام حياة حافلة بالجهاد في خضم تيارات متعددة من الأمويين والخوارج وغيرهم، وقد شكلت الكثير من التحديات عائقاً أمام المخططات الإلهية التي كان الإمام الحسن عليه السلام يسعى لإنجازها، لعل من أبرزها عدم رسوخ فكرة النص على إمامته أو نزولها إلى الساحة، فهي لم تكن مألوفة ولا معروفة لدى الجمهور الذي عاصره الإمام الحسن عليه السلام، لذا لم يتعامل معه الجمهور على أنه إمام ومفترض الطاعة، وكذلك نتج عن تولي الإمام الحسن عليه السلام بعد أبيه أمير المؤمنين عليه السلام مجابهة الانحراف الأموي أن شكك ضعاف الدين والنفس في رسالية المعركة، حيث نظر إليها الكثير على أنها معركة بين البيت الهاشمي والبيت الأموي، وليست معركة رسالية.^(٢٨)

حتى كانت شهادته عليه السلام مسموماً في السابع من شهر صفر سنة خمسين للهجرة، وكان قد دسَّ إليه السمَّ معاوية بن أبي سفيان، ودفن عليه السلام في بقيع الغرقد بعد أحداث مؤلمة وقعت أثناء تشييع جنازته.

البعد التعريفي للتفسير:

تمثل كلمات الإمام في هذا الباب مدخلاً مهماً في تفسير القرآن ومعرفته، وبيان قداسته، وأهمية التمسك به، والتفكير في آياته وفهمها ومعرفة مداليلها، ثم الحث على ضرورة اقتران ذلك كله بالعمل به واتخاذ إماماً وهادياً، فليس العبرة في حفظ كلماته وإجادة تلاوته لفظاً، بل أن ذلك ليس بفضل ولا امتياز لصاحبه إن لم يكن مقروناً بالفهم والتدبر والعمل، فالبعد العملي في العلاقة مع القرآن الكريم بُعدٌ في غاية الأهمية، وهو الغاية من مقاصد القرآن وأحكامه، يقول الإمام الحسن عليه السلام: «ما بقي في الدنيا بقية غير هذا القرآن فاتخذوه إماماً يدلکم على هداکم، وإن أحق الناس بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرؤه».^(٢٩)

وقال: «إن هذا القرآن يجيء يوم القيامة قائداً وسائلاً يقود قوماً إلى الجنة أحلوا

حلاله وحرّموا حرامه وآمنوا بمتشابهه، ويسوق قوماً إلى النار ضيعوا حدوده وأحكامه واستحلوا محارمه»^(٣٠) ومن كلام له عليه السلام في موضع آخر: «إن هذا القرآن يجيء يوم القيامة فيه مصابيح النور وشفاء الصدور، فليجل جال بضوئه، وليلجم الصفة قلبه، فإن التفكير حياة القلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور»^(٣١).

نلاحظ التأكيد هنا على إمامة القرآن وقيادته للإنسان، بنسخته (المتحققة) عبر من «يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويؤمن بمتشابهه» في مقابل نسخته (المضيعة) من قبل «المضيعين لأحكامه، والمستحلين لحرامه»، وقيادته وإمامته التي توضحها كلمات الإمام لا تُسقط الإنسان في حالة نمطية من التلقي السلبي لحضور موجودات الكون، بل تدفعه إلى التفكير والتأمل في كل العناصر التكوينية للأشياء والظواهر والأحداث وربطها ربطاً وظيفياً بسياقاتها، كي يتسنى للإنسان إدراك التحولات الحاصلة فيها وتأمل المصائر التي تنتهي إليها، وتكون خطواته في هذه الحياة خطوات صاحب البصيرة المستنيرة، الذي يعلم أين يضع قدمه، وإلى أين يوصله الطريق، وهي بصيرة قرآنية، تزيد من تعلق الإنسان بربه تبارك وتعالى، وتجعل مشروع ما يطلبه متحققاً إن عاجلاً أو آجلاً ف«من قرأ القرآن كانت له دعوة مجابة إما معجلة وإما مؤجلة»^(٣٢) كما يقول الإمام عليه السلام في كلمة له.

على أن التدبر في القرآن الذي يحث عليه الإمام لا يعني التصدي لتفسيره من قبل الجميع من غير شروط أو ضوابط ومؤهلات؛ وهو ما يشير إليه عليه السلام بقوله: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٣٣)، فلا بد من الدخول إلى فعل التدبر عبر قنواته الصحيحة كي لا ينحرف المتدبر بمداليل الآيات إلى مقاصد بعيدة عن روح النص وحقيقته، ويكون ذلك من خلال الاستعانة بقراءات المفسرين المؤهلين في هذا المجال، والانتقال معهم إلى أسرار النص القرآني ومعارفه الإلهية العظيمة.

البعد العملي للتفسير:

إن استحضر الإمام ﷺ لآية من الآيات في موقف ما، ليس استجلاباً قسرياً للنص القرآني من سياقه الخاص واستحضاره في سياق جديد من دون مناسبة أو اتفاق كبير بين السياقين، فالبعد العملي للقرآن هو بعدٌ تفسيري له، ونقلٌ لمفاهيمه إلى ساحة الممارسة والعمل، ويتجلى في هذا المجال وجه من وجوه البعد العملي، للعلاقة مع القرآن الكريم، وتجسيد الإمام ﷺ لهذا الجانب من أبعاد التفسير نتيجة حتمية ترتكز لمعطيات حديث الثقلين المبارك الذي تقدمت الإشارة إليه، وعلى هذا يكون من الطبيعي جداً أن يحظى النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ بالمرتبة الأولى والقصوى في معرفة القرآن، وهي معرفة مُعاشية ومُعَاينة؛ لأن القرآن هو جوهر ذات النبي، وآله تبعاً له، ثم يليه من يليه تبعاً لسعته الوجودية والفكرية. (٣٤)

من ذلك ما نراه في موقف الإمام الحسن ﷺ حين خطب الناس فقال في خطبته: «أنا من أهل البيت الذين أفترض الله مودتهم على كل مسلم، فقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ (الشورى: ٢٣) واقراراً بالحسنة مودتنا أهل البيت». (٣٥)

وهنا يعتمد الإمام السياق في تحديد دلالة (الحسنة)، مما يجعل هذه الدلالة منسجمة من دون تعسف في التفسير. مع مضمون الجزء الأول من الآية، وهو الحث على مودة آل النبي ﷺ، ولا يحتاج القارئ المتأمل لهذه الآية الكريمة طول عناء في فهم مدى إحاطة فعل (المودة) المفروضة من الله تبارك وتعالى على الأمة الإسلامية بمفردة الحسنة.

وعلى مستوى السياق التاريخي الذي ينتمي إليه موقف الإمام الحسن ﷺ هنا، نلاحظ الحضور الحجاجي للآية وهو حضورٌ يستجلي ديمومة العلاقة بين الثقلين المباركين، كما أنه يفضح المنكرين لملازمة العترة للقرآن، والمبتعدين عن المنع الصافي

لرسالة المحمدية، بشكل يمتد ليربط ماضي هذا الانحراف بحاضره، ومن جانب آخر يبقى فعل (الزيادة) الذي تشير إليه الآية الكريمة يمثل إنعاشاً مستمراً لطلب المودة لأهل البيت عليه السلام، و تعضيداً للشعور بالانتماء إليهم، الذي هو عنوان هوية المؤمن الحقيقي.

وهذا مما نقرؤه في كلمات أخرى للإمام عليه السلام من خطبة له يقول فيها: «نحن حزب الله المفلحون و عترة رسول الله عليه السلام الأقربون، وأهل بيته الطاهرون الطيبون، وأحد الثقلين اللذين خلفها رسول الله عليه السلام والثاني كتاب الله، فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه والمعول عليه في كل شيء لا يخطئنا تأويله بل نتيقن حقايقه فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الأمر مقرونة ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٨) ﴿رُدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّكَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾. (النساء: ٨٣) (٣٦)

يحتج الإمام الحسن عليه السلام بالقرآن على الذين لديهم صمم عقلي، فانقلبت لديهم المفاهيم واختلطت عليهم الأمور، وهنا كان الإمام أَمَامَ بصيرتين؛ بصيرة الناس العوام التي لم تعد تعي حقيقة ما يحدث وتتعامى عن رؤية الحق، وتؤكد عبر مواقفها حالة الضلالة والتيه، وبصيرة الخواص من المحبين المهتدين، التي تقرأ القرآن في فعل الإمام وحرركاته وسكناته، وتراه متجسداً أمامها بكل مفاهيمه ودلالاته، البصيرة الأولى حافلة بالموت والثانية نابضة بالحياة.

و إذا ما تأملنا مواقف الإمام عليه السلام وفق تسلسل خطي زمنيّاً، وتأملنا كلماته، وجدنا فيها انسجماً كبيراً وتطابقاً واضحاً مع مقتضى الحال، أو متطلبات السياق والحدث، وليس ذلك بالأمر الغريب؛ مادام النص القرآني الذي تحتفي به كلمات الإمام، يتسم بانفتاح آفاقه الرحبة أمام حاجات البشر المتعددة والمتجددة، ومادام الإمام هو القرآن

الناطق.

و لا ينحصر هذا التجلي للحضور القرآني في مواقف الإمام عند المسائل الكبيرة فقط، بل يتعداها إلى دقائق الأمور، وتفاصيل بعض الآداب والأخلاق؛ فعن خيثمة بن أبي خيثمة قال: كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له يا بن رسول الله لم تلبس أجود ثيابك فقال: «إن الله جميل يحب الجمال فأتجمل لربي وهو يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) فأحب أن ألبس أجمل ثيابي». ^(٣٧)

لم يهمل القرآن الكريم دقائق الأمور واعتنى ببيان الحال المرجو لها، على نحوين: تفصيلي وإجمالي، والأخير كما في الآية الكريمة، حيث تتعدد مصاديق الزينة، وقد تكفل الأئمة عليهم السلام ببيانها فهم أهل الذكر، وهم أعلم الناس بدلالاته، ومن ذلك ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام من تفسيره للزينة بالغسل، ومن هنا يجد القارئ فرقاً كبيراً بين رؤية أهل البيت عليهم السلام وبين رؤية غيرهم فقد جاء في الدر المنثور: أخرج العقيلي وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١) قال: «صلوا في نعالكم»، على الرغم من أن حديث الإمام الحسن عليه السلام مروي أيضاً من طرق أهل السنة كما يذكر السيد الطباطبائي في تفسيره ^(٣٨)

ويستقي الإمام عليه السلام من القرآن مفرداته، في دعائه ومناجاته، وفي ذلك تمام التلذذ بالقرب من المولى تبارك وتعالى، إذ يجعل من كلام الله وسيلته المبسوطة بين يدي الله جل شأنه، ومن ذلك قوله عليه السلام في دعاء له: «اللهم يا من جعل بين البحرين حاجزاً وبرزخاً وحجراً محجوراً يا ذا القوة والسلطان يا علي المكان كيف أخاف وأنت أمني وكيف أضام وعليك متكلي، فغطني من أعدائك بسترِكَ وأظهرني على أعدائي بأمرِكَ وأيدي بنصرِكَ، إليك الملجأ ونحوك الملتهج، فاجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، يا كافي أهل الحرم من أصحاب الفيل والمرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، إرم من

عاداني بالتنكيل، اللهم إني أسألك الشفاء من كل داء والنصر على الأعداء والتوفيق لما تحب وترضى يا إله من في السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى بك أستشفي وبك أستعفي وعليك أتوكل ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٧).^(٣٩)

يعتمد الإمام عليه السلام في دعائه أسماء الله جل جلاله وأفعاله الدالة على القدرة والقوة المطلقة في خلقه، التي تحيل إلى آيات بينات من القرآن الكريم، تتضمن بدورها عدة مفاهيم وقيم عقائدية، فقد أكد على التوجه إلى قوة الله وسلطانه ومنعته في جميع الأمور والأحوال، وتأمل تجليات هذه القدرة في أحداث كبرى وقعت، وذكر تفاصيلها القرآن الكريم مضامين سورة الفيل.

ولا تخفى المضامين التربوية التي يريد الإمام تضمينها في دعائه، جاعلاً منها دروساً إرشادية وتعبوية للمؤمن في حياته، من اعتماد كتاب الله مناراً ومرشداً في الحياة، فهو كفيل بهداية من انقطعت بهم السبل في خضم المآهات، وفي الدعاء كذلك ما هو مسكوت عنه وغير مصرح به، يمكن أن نفهم من ملامحه الدعوة إلى استشعار ضيق الدنيا والتعالي على شوائدها التي لا تتسع لشيء من أمانى النفوس التواقفة للإصلاح والتغيير، وفي دعائه عليه السلام حثٌّ على استشعار التسديد الإلهي للصابرين وتأنيده لهم؛ فلا يدعهم لوحدهم ولا يتركهم لطاقتهم المحدودة إنما يمدّهم حين تنقطع بهم السبل، ويجدد عزيمتهم حين تتوالى عليهم المحن والشدائد.

ومن أمثلة الدعوة إلى استحضار النص القرآني الكريم في شتى الأحوال نقرأ نصين للإمام عليه السلام يتضمن الأول دروساً تأملية لواقع الإنسان وعلاقته بالزمن، وتوجيهاً لوعي المؤمن في ضرورة الانتباه لطبيعة هذه العلاقة، وكيفية استثمارها في التوجه إلى الله تعالى والتزود من الخيرات طلباً لرحمته ولطفه، فيقول عليه السلام: «يا بن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فخذ مما في يديك لما بين يديك، فإن المؤمن يتزود

والكافر يتمتع، وكان ﷺ يتلو بعد هذه الموعظة ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ (البقرة: ١٩٧).^(٤٠)

أما النص الثاني فيروى في مجال بيان تواضعه ﷺ حين (مرّ على فقراء وقد وضعوا كسيرات على الأرض وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها، فقالوا له: هلم يا بن بنت رسول الله إلى الغداء، فنزل وقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ»، وجعل يأكل معهم حتى اكتفوا والزاد على حاله ببركته ﷺ ثم دعاهم إلى ضيافته وأطعمهم وكساهم)^(٤١). مستحضراً صورة المستكبرين المذمومة في آيات كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ (النحل: ٢٣).

من هنا يقدّم الإمام ﷺ منهجاً للإنسان المؤمن في فهم النص القرآني، وطريقة لاستحضار معانيه وقيمه وإشراقاته، والخروج برسالته إلى الواقع في الحياة اليومية، مؤكداً بذلك طبيعة هذه الرسالة، فهي إنما تجسد سلوكاً أخلاقياً عملياً من جانب، ومن جانب آخر تبرز حقائق مؤكدة لاقتراحات وافتراضات على أن يكون المتلقي المؤمن فاعلاً في إفادته من النص القرآني، جاعلاً دروسه مكوناً رئيساً من مكونات ثقافته ووعيه، إن العلاقة بين الإمام والنص القرآني قائمة على أنها تعبير يهدف إلى الأخذ بالآفاق الواسعة لقدرات القرآن ومعطياته الكثيرة، وتوظيفها في اكتشاف الواقع والمجتمع والثقافة الإنسانية، وتحليل ما يستجد فيها من أحداث وإشكاليات.

البعد البياني للتفسير:

لا يخفى تماثل هذا البعد في بعض ملامحه مع البعد السابق، و من نماذج تفسيره ﷺ للقرآن: تفسير قوله تعالى: ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ (الفتح: ٢٩) أنه ﷺ قال: «استوى الإسلام بسيف علي ﷺ». ^(٤٢) وعنه ﷺ إنه سئل عن قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩) فقال: «يقول ﷻ: إنا كل شيء خلقناه لأهل النار بقدر أعمارهم». ^(٤٣)

وهنا يعمد الإمام عليه السلام إلى جعل عبارته التفسيرية بمثابة الميّن للآية الكريمة، مركّزاً في ذلك إلى حقائق تاريخية تمتد إلى زمن النزول، وإلى مفاهيم عقائدية تتعلق بتجسّم أعمال الإنسان يوم القيامة على هيئة عذاب أو نعيم، بل أن تفسيره في هذا الموضع يُعدّ مما يُستشهد به في هذا المجال، ومن مصادر التأسيس لمفهوم تجسّم الأعمال.

وروى الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي في تفسير الوسيط ما يرفعه بسنده: «أن رجلاً قال: دخلت مسجد المدينة فإذا أنا برجل يُحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والناس حوله، فقلت له: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ (البروج: ٣) فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدث فقلت له: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فقال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتهما إلى غلام كأن وجهه الدينار وهو يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت: أخبرني عن ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ فقال: نعم، أما الشاهد فمحمّد صلى الله عليه وآله وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ (الأحزاب: ٤٥) وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (هود: ١٠٣) فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان قول الحسن أحسن». (٤٤)

لقد انطلق الإمام عليه السلام في تحديده لمفهومي ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ من القرآن نفسه بطريقة يجعل لها المشتغلون بالدراسات القرآنية ومناهج التفسير منهجاً تفسيرياً منفرداً هو (تفسير القرآن بالقرآن)، ويعدّونه من أهم المناهج وأفضلها؛ لأنه يستند إلى معطيات الكتاب العزيز، بصورة وصفها إمام الهداية أمير المؤمنين عليه السلام بجملة بليغة ودالة، قوله قاصداً القرآن الكريم: «ينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض» (٤٥).

ومن ذلك ما قاله بعد مقتل أمير المؤمنين عليه السلام: «.. وأنا من أهل البيت الذي افترض

الله مودتهم على كل مسلم، فقال تبارك وتعالى لنبِيِّه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ (الشورى: ٢٣). فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت^(٤٦)، ولا يخفى هنا البعد الحجاجي الذي يفيد منه عليه السلام في تفسيره للآية الكريمة، ملمحاً إلى نصوص نبوية شريفة حددت المخصوصين بالمودّة، ويحيي تفسير الإمام للحسنة معضداً لدلالة المودّة وخصوص القربى بها، في سياق قرآني واحد.

خاتمة

بعد هذه الوقفة السريعة والمتواضعة جداً يمكن لنا أن نحاول تحديد أبعاد تفسير القرآن الكريم في أحاديث الإمام المجتبي عليه السلام؛ فقد رأينا عليه السلام ينطق عبر تجليات تكامله الإنساني في جميع مساراته: العقلية، والروحية، والعملية، ولذا لا نجد تكاملاً بهذا المعنى الشمولي إلا في حياة النبي وآله (صلوات الله عليهم)، ومن هنا كان المظهر الأول من مظاهر هذه الحياة هو حياة المعرفة التي هي عين العمل، والتي تجلت في ما يلي:

١- لقد شكّل البعد العملي لتفسير النص القرآني إطاراً مرجعياً لكل مواقف الإمام في تعاطيه مع الأحداث الصعبة التي مر بها، ويعود اختلاف القراءات لمواقف الإمام ووقوع البعض منها في سوء الفهم والاستيعاب إلى خلل في المنطلقات واضطراب في آليات القراءة؛ إذ كيف يصل القارئ إلى واقع هذه المواقف وحقيقتها، ويستنتق دلالاتها ويفيد من دروسها وهو فقير العدة.

٢- إنَّ مواقف الإمام لا تجسد النص القرآني في دلالاته العامة فحسب، وإنما تستعيد ضمناً سياقه الخاص، وتفيد من معطيات هذا السياق عبر الإحالة غير المصرح بها إليه، وسيكون حضور النص القرآني حضوراً منسجماً متناغماً مع الحدث الراهن بشكل تفسيري، حين يتداخل النص مع الحدث في مستويات كبيرة وعديدة.

٣- بنية الحجاج عند الإمام قائمة على هذا الاستيعاب الكبير للواقع وللآخر المخاطب، ولذلك تنعدم المسافة الفاصلة بين زمن نزول النص القرآني وزمن استحضاره واستنطاقه والاستشهاد به، وهو ما لا نجده قائماً إلا في العلاقة ما بين الثقلين الكبارين: القرآن والعتر الطاهرة عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين

الإحالات

١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، دار صادر - بيروت، ط ١: مادة (فسر)، ٥، ٥٥٥، مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٦: ١: ٢١١، وتهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٢: ٤٠٧.
٢. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار إحياء الكتب العربية ط ١، الأولى ١٣٧٦هـ، ١: ١٣.
٣. معجم التعريفات: أبو الحسين علي بن محمد الجرجاني، تح: محمد صديق المنشاوي؛ دار الفضيلة بيروت: ٦٧.
٤. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، دار التوحيد للنشر الكويت، ط ٤، ١٩٧٩م: ٤٢١.
٥. ينظر: علوم التفسير، د. عبد الله شحاته، دار الشروق القاهرة، ط ١، ٢٠٠١: ١٤.
٦. التفسير والمفسرون، الشيخ محمد هادي معرفة، منشورات الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية، ط ١، ١٤١٨هـ: ١٧٩.
٧. ينظر الإتيان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م، ٤، ١٨٠ و ٢١٤ ٢٥٧.
٨. التفسير والمفسرون ١٧٩ - ١٨١
٩. التفسير والمفسرون ١٨١
١٠. أصول الكافي أصول الكافي تأليف: ثقة الاسلام الكليني، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان / ط ١، ٢٠٠٥: ١٩٠-١٩١.
١١. ينظر على سبيل المثال: الإمامة وأهل البيت عليهم السلام النظرية والاستدلال، السيد محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، ط ٣، النجف الأشرف، ٢٠٠٩: ١٨٩، حيث ذكر المؤلف هذه الأبعاد، وبحث في مطالب أخرى كثيرة تخص الموضوع.

١٢. جلاء العيون: الشيخ محمد باقر المجلسي، منشورات دار السرور، ١، ٢٩٧.
١٣. بحار الأنوار، العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء بيروت، ١٤٠٤ هـ: ٣، ٢٣٨.
١٤. نهج البلاغة، خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تح: د. صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة، قم، د.ت: ٤٢١، ٤٢٢، ٤٧.
١٥. جدير بالذكر أن من أهم الدراسات التي تناولت أدوار أئمة الهدى بعد النبي ﷺ دراسة السيد محمد باقر الصدر رحمته الله المعنونة: أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف، دار التعارف للمطبوعات بيروت، د.ت.
١٦. بحار الأنوار: ٤٣، ٢٦٣.
١٧. جلاء العيون، ١: ٣١٨.
١٨. صلح الحسن عليه السلام، الشيخ راضي آل ياسين، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٩٩٢م: ٣١.
١٩. الأمالي، الشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة قم، ١٤١٧ هـ: ١٥٠ / ٨، مجلس ٣٣.
٢٠. ينظر: البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث بيروت، ١٤٠٨ هـ، ٨: ٤٢.
٢١. ينظر مثال على ذلك: الدر النظيم: جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين قم، ٥٠٥.
٢٢. بحار الأنوار، ٤٣: ٣٣٢، ح ٤.
٢٣. البداية والنهاية، ٨: ٣٩.
٢٤. مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليهم السلام، محمد بن طلحة الشافعي، مؤسسة ام القرى بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ٢: ٦.
٢٥. البداية والنهاية، ٨: ١٦.
٢٦. تحف العقول، حسن بن شعبة الحراني، جماعة المدرسين قم، ١٤٠٤ هـ، ١٦٦.
٢٧. يُنظر: رجال الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤١٥ هـ: ٩٣ وما بعدها، وكذلك أسد الغابة، عز الدين أبو الحسن بن الأثير، دار إحياء التراث بيروت، ١: ٤٨٨.
٢٨. ينظر: المجتبى عليه السلام بين وميض الحرف ووهج القافية، مشترك، ملتقى القطيف الثقافي، ١٦.

٢٩. إرشاد القلوب، أبو محمد الديلمي، منشورات الشريف الرضي قم، ٧٩.
٣٠. المصدر السابق، الصفحة نفسها.
٣١. بحار الأنوار، ٩٢، ١١٢: ٣٢، ح ٣٥.
٣٢. بحار الأنوار، ٩٢: ٢٠٤، ح ٣١.
٣٣. ينظر: فهم القرآن، جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٨، ١، ٢٦٥.
٣٤. إرشاد القلوب: ٧٩.
٣٥. بحار الأنوار، ٢٣٢ ح ٢٥١ ح ٢٦.
٣٦. مروج الذهب، المسعودي، دار الفكر- بيروت، ١٤٠٩ هـ: ٣: ٩٠ وكذلك الأمالي: الشيخ المفيد، جماعة المدرسين قم ١٤٠٣ هـ، ٣٤٩.
٣٧. مجمع البيان، الطبرسي، دار المعرفة بيروت، ١٤٠٨ هـ: ٤: ٦٣٧. وكذلك: وسائل الشيعة، الحر العاملي، إيران - طهران ١٤٠٣ هـ: ٢: ٣٣١، ح ٦.
٣٨. ينظر: الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تح: الشيخ إياذ باقر سلمان، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٦ م: ٨: ٧٧.
٣٩. مهج الدعوات، السيد علي بن موسى بن طاووس، دار الذخائر قم، ١٤١١ هـ: ٢٩٧، وكذلك: بحار الأنوار، ٩٤، ٣٧٣.
٤٠. كشف الغمة في معرفة الأئمة: علي بن عيسى الأربلي، دار الأضواء بيروت، ١٩٨٥ م: ١/ ٥٧٢، وكذلك بحار الأنوار، ٧٨: ١١٢.
٤١. بحار الأنوار، ٤٣: ٣٥١، ح ٢٨.
٤٢. بحار الأنوار، ٣٦: ١٨٠، ح ١٧٤.
٤٣. التوحيد، الشيخ الصدوق، دار المرتضى بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م: ٢٩٨- ٢٩٩ ح ٣٠.
٤٤. كشف الغمة في معرفة الأئمة، علي بن عيسى الأربلي، دار الأضواء بيروت، ١٩٨٥ م: ١، ٥٤٣.
٤٥. نهج البلاغة، ١٩٢.
٤٦. بحار الأنوار، ٢٣: ٢٣٢.

مصادر الدراسة

١. الإتقان في علوم القرآن: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤ م.
٢. إرشاد القلوب: أبو محمد الديلمي، منشورات الشريف الرضي، قم.
٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين أبو الحسن بن الأثير الجزري، دار إحياء التراث بيروت.
٤. أصول الكافي تأليف: ثقة الاسلام الكليني، دار المرتضى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان ط١، ٢٠٠٥
٥. الأمالي: الشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة قم، ١٤١٧هـ
٦. الأمالي: الشيخ المفيد، جماعة المدرسين قم ١٤٠٣ هـ.
٧. الإمامة و أهل البيت عليهم السلام النظرية والاستدلال: السيد محمد باقر الحكيم، مؤسسة تراث الشهيد الحكيم، ط٣، النجف الأشرف، ٢٠٠٩م.
٨. أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف: السيد محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات بيروت، د. ت.
٩. بحار الأنوار: العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤ هـ.
١٠. البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث بيروت، ١٤٠٨ هـ.
١١. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار إحياء الكتب العربية ط١، ١٣٧٦هـ.
١٢. البيان في تفسير القرآن: السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، دار التوحيد للنشر الكويت، ط٤، ١٩٧٩م.
١٣. تحف العقول: حسن بن شعبة الحراني، جماعة المدرسين قم، ١٤٠٤ هـ.
١٤. التفسير والمفسرون: الشيخ محمد هادي معرفة، منشورات الجامعة الرضوية للعلوم

- الإسلامية، ط ١، ١٤١٨ هـ.
١٥. تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهرى الهروي، أبو منصور، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦. التوحيد: الشيخ الصدوق، دار المرتضى بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م.
١٧. جلاء العيون: الشيخ محمد باقر المجلسي، منشورات دار السرور.
١٨. الدر النظيم: جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم.
١٩. رجال الشيخ الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤١٥ هـ.
٢٠. صلح الحسن عليه السلام: الشيخ راضي آل ياسين، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٩٩٢ م.
٢١. علوم التفسير: د. عبد الله شحاته، دار الشروق القاهرة، ط ١، ٢٠٠١ م.
٢٢. فهم القرآن: جواد علي كسار، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠٠٨ م.
٢٣. كشف الغمة في معرفة الأئمة: علي بن عيسى الأربلي، دار الأضواء بيروت، ١٩٨٥ م.
٢٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي، دار صادر - بيروت، ط ١.
٢٥. المجتبى عليه السلام بين وميض الحرف ووهج القافية: مشترك، ملتقى القطيف الثقافي.
٢٦. مجمع البيان: الطبرسي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٨ هـ.
٢٧. مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان، ١٩٨٦ م.
٢٨. مروج الذهب: المسعودي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩ هـ.
٢٩. مطالب السؤول في مناقب آل الرسول عليه السلام: محمد بن طلحة الشافعي، مؤسسة ام القرى بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ.
٣٠. معجم التعريفات: أبو الحسين علي بن محمد الجرجاني تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، بيروت.
٣١. مهج الدعوات: السيد علي بن موسى بن طاووس، دار الذخائر قم، ١٤١١ هـ.
٣٢. الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تح: الشيخ إياد باقر سلمان،

دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

٣٣. نهج البلاغة، خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تح: د. صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة، قم، د. ت .

٣٤. وسائل الشيعة: الحر العاملي، إيران- طهران ١٤٠٣ هـ .

الحِكمَةُ القِيَادِيَّةُ

عِنْدَ الإِمَامِ الحَسَنِ المَجْتَبَى عَلَيْهِ السَّلَام
وَتَجَلِّيَاتُهَا عِنْدَ السَّيِّدِ السِّيسْتَانِيِّ دَامَ ظِلُّهُ

الباحث

م. حيدر محمد هناء حميد الشلاه

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي هدى عباده نحو الخير والصواب، وصلى الله على نبيه المصطفى الذي أرسله بالهدى وأنزل عليه الكتاب، وعلى آله الطيبين الطاهرين الأطياب، وعلى كل من اهتدى بنهجهم من دون شك ولا ارتياب.

وبعد، فإن الإسلام لم تحفظ أحكامه، ولم يستمر قوامه إلا بوجود قادة عظام، كانت لهم رؤية ثاقبة ونظرة بعيدة، فكانت الصعاب تذلل بين أيديهم، بما لديهم من حكمة وصبر وأناة.

من هذا المنطلق يهدف البحث الحالي إلى التعرّض لقضية في غاية الأهمية، ألا وهي الحكمة القيادية وآثارها البالغة في مصير الأمة، والحفاظ على دينها، ودمائها وكافة حقوقها وكيانها ومستقبلها.

ولتحقيق هدف البحث فقد اختير مواقف تتجلى فيها الحكمة في قيادة الإمام الحسن المجتبيؑ، وتحليلات هذه المواقف في كيفية تعامل السيد السيستاني مع الأحداث المعاصرة، وما لها من آثار كبيرة في حفظ الرسالة الإلهية من الضياع، وحقن دماء المسلمين، في وقت تكالبت فيه قوى الشر والطغيان من أجل النيل من الإسلام والمسلمين، بإشاعة الفتن والأباطيل والشبهات وغير ذلك، فضلاً عن إظهار الإسلام للغير بصورة قبيحة مشوهة، فكان أن تصدّى كل من هذين العظميين ليزيح غبار

الظلم والطغيان والزيف، ويظهر الإسلام للعالم بصورته الناصعة المشرقة، وبذلك وقف التاريخ منحنيًا يسجل بأحرف من نور، أمام تلك القرارات الحكيمة والشجاعة والحاسمة التي أصدرها كل من الإمام الحسن المجتبي عليه السلام والسيد السيستاني دام ظله، ليعرف الناس جميعاً على اختلاف دياناتهم وقومياتهم ومذاهبهم ومشاربهم، الوجه الحقيقي للإسلام، ولتعرف ذلك الأجيال اللاحقة.

وقد جاءت أهمية البحث من جوانب عدة، فقد اشترك كل من الإمام الحسن المجتبي عليه السلام والسيد السيستاني دام ظله في محاور ثلاثة، المحور الأول: خطورة المرحلة التي عاشها الإمام الحسن عليه السلام ويعيشها السيد السيستاني دام ظله، المحور الثاني: قمة الإبداع والمهارة في اتخاذ القرار المناسب في أحلك الظروف، المحور الثالث: المظلوميات العديدة كان من بينها، الضبائية التي وجهت حول هاتين الشخصيتين، والشبهات التي أثرت حولها من أعداء الإسلام.

وربّ سائل يقول: كيف يمكن أن نقيس بين الإمام المعصوم وغيره من الناس، أو نوازن بين شخصيتهما؟ فنقول: إنّنا لسنا بصدد عرض موازنة أو مقايضة أبداً بأي وجه من الوجوه؛ لأنّ هذا أمر مرفوض وغير وارد مطلقاً في معتقداتنا، فقد جاء في الرواية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال لجابر الأنصاري: «يا جابر، إنّ أهل بيت لا يقاس بنا أحد، من قاس بنا أحداً من البشر فقد كفر..»^(١).

وإنّما هدف البحث هو عرض أنموذجين بارزين، أحدهما إمام معصوم، والآخر إنسان غير معصوم، ولكنّه وصل باجتهاده الفقهي، وبمجاهدته النفسية والروحية إلى

(١) نوادر المعجزات مناقب الأئمة الهداة عليهم السلام، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (توفي في القرن الرابع الهجري)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ط ١، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم المقدسة إيران، ١٤١٠هـ، ص ١٢٤.

مراتب الاجتهاد العليا والمرموقة والمتميزة حتّى صار مرجعاً أعلى للأمة ليكون كل منهما حجة على الناس بحسب شأنه ومكانته، ولتستخلص منهما الأمة العبر والدروس النافعة لصالح دنياها وآخرها.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يتكوّن من تمهيد ومبحثين، وخاتمة، أمّا التمهيد فقد بيّنا فيه قيادة الأمة ومراحلها، وفي المبحث الأول الحكمة القيادية للإمام الحسن المجتبي (عليه السلام)، وجاء المبحث الثاني لبيان تجليات حكمة الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام) في مواقف السيد السيستاني (دام ظلّه)، أمّا الخاتمة فقد عرض فيها الباحث أهم نتائج البحث.

وقد بذل الباحث جهده في الحصول على المصادر والمراجع المهمة التي أفاد منها الباحث، وختاماً نرجو ان نكون قد وفّقنا في عرض صورة مشرقة من صور الاسم الأصيل، وندعو الله تعالى أن يسدّد خطانا إن كان صدر منا خطأ أو سهو، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

تمهيد

قيادة الأمة ومراحلها

تعتقد طائفة الشيعة الإمامية بأن قيادة الأمة مهمة ترعى من لدن الله جل جلاله، فهم يؤمنون بأن الله تعالى كما حدد وعيّن للأمة النبي والرسول محمدًا ﷺ، فإنه هو الذي يحدد الإمام وينص عليه؛ وليس الناس هم الذين يحددون الإمام كما يعتقد بعض المسلمين، لأنّ الناس قاصرون عن تحديد الأصلح، والتاريخ شاهد على ذلك، فالشيعة الإمامية يعتقدون أنّ الإمام يعيّن بالنص الإلهي وليس بالشورى ولهم على ذلك أدلتهم المحكمة التي ذكرت في كتب العقائد والمناظرات قديماً وحديثاً، وفي ضوء ذلك فهم يرون أنّ الإمامة منصب إلهي كمنصب النبوة؛ لأنّ الإمام وظيفته كوظيفة النبي فكلاهما يمثل الحكم الإلهي على الأرض، ولا يصدر عنهما إلّا ما يريد الله تعالى.

وقد بدأت مرحلة الإمامة سنة ١١هـ، بعد رحيل النبي محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وقد أوصى النبي ﷺ مراراً وتكراراً على أنّ الإمام من بعده هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وألزم الأمة باتباعه، وإلا فإنّ مصيرها الضلال، قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١)، وقال ﷺ: «علي إمامكم وخليفتي عليكم من بعدي»^(٢) وقال ﷺ: «إنّ عدد أوصيائي من بعدي عدد نساء بني إسرائيل وكانوا اثني

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ١٤٠. الخلاف، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله، ٤٦٠هـ،

تحقيق: جماعة من المحققين، قم المقدسة، ج ١، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧هـ. ص ٢٧.

(٢) الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله، ٤٦٠هـ، مطبعة الخيام، قم

عشر»، وقال عليه السلام: «فاطمة ثمرة فؤادي وبعلمها نور بصري والأئمة من ولدها أمناء ربي وحبل ممدود بينه وبين خلقه من اعتصم بهم نجا ومن تخلف عنهم هوى»^(١) وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام في الليلة التي كانت فيها وفاته: «يا علي سيكون بعدي اثنا عشر إماماً ومن بعدهم اثنا عشر مهدياً، فأنت يا علي أول الاثني عشر إماماً سبّاك الله تعالى في سمائه علياً، المرتضى، وأمير المؤمنين، والصدّيق الأكبر، والفاروق الأعظم، والمأمون، والمهدي، فلا تصح هذه الأسماء لأحد غيرك.... وأنت خليفتي على أمتي من بعدي، فإذا حضرته الوفاة فسلمها إلى ابني الحسن البر الوصول فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابني الحسين الشهيد الزكي المقتول، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه سيد العابدين ذي الثغفات علي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد الباقر، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه جعفر الصادق، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه موسى الكاظم، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الرضا، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد الثقة التقي، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه علي الناصح، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه الحسن الفاضل، فإذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه محمد المستحفظ من آل محمد عليه السلام...»^(٢).

وهكذا تواصلت هذه المرحلة بالوجود المباشر والمبارك للإمام المعصوم بين الأئمة سنة ٢٦٠هـ، فكان الأئمة الاثنا عشر يتعاقبون قادة على الأئمة إماماً بعد إمام تنفيذاً لوصية النبي صلى الله عليه وآله نقلاً عن الله تعالى الذي قال في محكم كتابه العزيز: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

المقدسة، ١٤٠٠هـ. ص ٢٠٣.

(١) كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨هـ)،

انتشارات مهدوي، أصفهان، ج ١، د. ت. ص ٨.

(٢) الغيبة، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق: عباد الله الطهراني علي أحمد

ناصح، مطبعة بهمن، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم المقدسة - إيران، ط ١، ١٤١١هـ. ص ١٥١.

وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١)

وقد شاءت الإرادة الإلهية أن تنتهي كيفية الحكم بوجود الإمام المعصوم ظاهراً بين الأمة، وحلت محلها ما عرف فيما بعد بالنيابة الخاصة؛ أو السفارة، ويقصد بها تحديد الإمام لنائب خاصّ محدد ترجع إليه الأمة في شؤون دينها، وتستهدي به في قضاياها وشؤونها الحرجة، فيصّرُها الطريق، وينقذها عند الضيق، وقد بدأت مدة السفارة أو النيابة الخاصة سنة ٢٦٠هـ، بالسفير الأول عثمان بن سعيد العمري، وبعد وفاته، تولى السفارة ابنه محمد بن عثمان العمري، وبعده الحسين بن روح النوبختي، وأخيراً علي بن محمد السمری، الذي ختمت به مرحلة السفارة أو النيابة الخاصة، وذلك سنة ٣٢٩هـ، وقد عرفت هذه المرحلة بمرحلة الغيبة الصغرى.

وقد حدث ذلك في إمامة الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليه السلام الإمام المهدي المنتظر عليه السلام بسبب غيبة الإمام عليه السلام لأسباب عديدة التي من أبرزها استهداف الظلمة لهذا الوجود المقدس، وقلة الوعي الجماهيري بأهمية القائد الرباني للاستفادة من بركات وجوده، وهذا ما يعانيه القادة الربانيون الرساليون في كل زمان ومكان، ولما تفاقمت الأحداث وتآزمت، حدثت الغيبة الكبرى، وهي مرحلة جديدة في قيادة الأمة يكون فيها الإمام المعصوم غائباً، ويكون له نواب عامون وليسوا خاصين كما في الغيبة الصغرى، وهؤلاء النواب العامون هم مراجع التقليد الذين تنتهي إليهم زعامة المسلمين، وقد أشار إلى ذلك الإمام المهدي عليه السلام في توقيعه الأخير للسفير الرابع علي بن محمد السمری حينما قال له: «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم»^(٢)، وهذه المرحلة بدأت منذ سنة ٣٢٩هـ، وهي

(١) الحشر: ٧.

(٢) الفصول العشرة، أبو عبد الله محمد بن النعمان بن المعلم العكبري البغدادي المعروف بالشيخ

مستمرة إلى حين الظهور المبارك للإمام المهدي عليه السلام.

لقد جرت المشيئة الإلهية أن لا يخلو العالم من قيادة حكيمة مخلصه مرتبطة بالله تعالى^(١) ارتباطاً حقيقياً لا تسيّرهما المصالح والرغبات، والغرائز والشهوات، وهذه القيادة إما أن تتمثل بالإمام المعصوم أو تتمثل في نائبه الخاص، أو العام.

ومما لا شك فيه أن نائب الإمام المعصوم (المرجع الديني) يصل إلى هذه المرتبة العليا بعد أن ينال الدرجات العلمية العالية من جهة، ويتألق بالرياضات الروحية الصافية، عند ذلك يهبه الله تعالى تلك المنزلة ويجعل قلوب الناس تهوي إليه، وتستجيب لكلامه، والمرجع الديني بما يمتلكه من معرفة ودراية بنصوص القرآن الكريم، وروايات السنة الشريفة، وتسديد إلهي يستطيع إدارة شؤون الأمة، وتدبير أمورها.

من هذا المنطلق ارتأى الباحث أن يقدم هذه الدراسة التي يربط فيها بين ما صدر من مواقف تاريخية من الإمام الحسن المجتبي، وما يصدر اليوم من مواقف مشابهة من السيد السيستاني بوصفه مرجعاً دينياً معاصراً يستفيد من الإرث التشريعي الإسلامي الزاخر لمعالجة ما يكتنف الأمة من مشكلات معقدة، فيصف لها الحلول الناجعة التي تحفظ للإسلام رسالته، وللإنسانية كرامتها ودماءها وحقوقها، وهذا عين ما فعله الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أثناء حكومته المباركة.

المفيد (ت ١٤١٣هـ)، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٩٩٣م. ص ١٠. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (٥٤٨هـ)، ج ٢، تحقيق وتعليق: السيد محمد باقر الخرسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق - النجف الأشرف، ١٩٦٦م. ص ٢٨٣.

(١) منية الطالب في شرح المكاسب، موسى بن محمد النجفي الخونساري (ت ١٣٦٣هـ)، ج ٢، ط ١، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران - قم المقدسة، ١٤١٨هـ. ص ٢٣٥.

المبحث الأول

الحكمة القيادية عند الإمام الحسن المجتبيؑ

المطلب الأول:

سيرة الإمام الحسن المجتبيؑ

الإمام الحسنؑ:

الإمام الحسن بن علي بن أبي طالبؑ، وأمه سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وعليهم)، ولنا أن نقول أن هذا النسب هو أقصر نسب في التاريخ، نظراً لشهرته وشرفيته وأفضليته، وقد وصف الشعراء والأدباء هذا النسب الرفيع والمجد، منهم وصفهم قول الشاعر:

من لم يكن علوياً حين تنسبه	فما له في قديم الدهر مفتخر
مطهرون نقيّات ثيابهم	تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا
فالله لما برا خلقاً فأتقنه	صفّاكم وأصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملاء الأعلى وعندكم	علم الكتاب وما جاءت به السور ^(١)

(١) الأبيات للشاعر أبي نؤاس، وهو من شعراء العصر العباسي، وقد ذكرت هذه الأبيات في مصادر عدة منها: عيون أخبار الرضاؑ، الشيخ الصدوق (٣٨١هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، ج ١، مطبعة الأعلمي، لبنان-بيروت، ١٩٨٤م. ص ١٥٥. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب (٥٨٨هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، ج ٣، مطبعة الحيدرية، العراق-النجف الأشرف،

ولد ﷺ في المدينة ليلة النصف من شهر رمضان سنة ثلاث للهجرة، وهو بكر أبويه، وقد أخذه النبي ﷺ فور ولادته، فأذن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ثم علق عنه، وحلق رأسه، وتصدق بزنة شعره فضة فكان وزنه درهماً وشيئاً، وأمر فطلي رأسه طيباً، وسُنَّت بذلك العقيقة والتصدق بوزن الشعر، وسماه (حَسَنًا)، ولم يعرف هذا الاسم في الجاهلية، وكنّاه (أبا محمد)، ولا كنية له غيرها، أمّا القابه الشريفة فهي: (السيط، والسيد، والزكي، والمجتبي، والتقي).^(١)

أمّا أخلاقه ﷺ فقد كان أشبه الناس برسول الله ﷺ خلقاً وخلقاً وهياً وهدياً وسؤداً، ولذا كان في شأله آية الانسانية الفضلى، ما رآه أحد إلّا هابه، ولا خالطه انسان الا أحبه، ولا سمعه صديق أو عدو وهو يتحدث أو يخطب فهان عليه ان ينهي حديثه أو يسكت.^(٢)

١٩٥٦م. ص ٤٧٤.

(١) ينظر، تثبيت الإمامة، قاسم بن إبراهيم البرسي (ت ٢٤٦هـ)، تحقيق: صالح الورداني، ط ١، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٩٩٨م، ص ٦٩، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، الشيخ جعفر السبحاني، ط ١، مؤسسة الإمام الصادق ﷺ، إيران - قم المقدسة، ١٤٢١هـ، ص ١٤١.

(٢) الروض النضير في معنى حديث الغدير، فارس حسون كريم، ط ١، مطبعة دانش، إيران - قم، ١٤١٩هـ. ص ٢٤٨.

المطلب الثاني :

مقومات الحكمة القيادية عند الإمام الحسن المجتبي عليه السلام

توافرت في شخصية الإمام الحسن عليه السلام مجموعة من المقومات التي مكّنته فيها بعد أن يقود الأمة الإسلامية خير قيادة، بل جعلته يؤسس لنموذج رائع في إدارة المواقف الصعبة والحرّة لمن يأتي من بعده من قادة الأمة والكيفية التي يتعاملون بها مع تلك المواقف، وفيما يأتي نبيّن أهم تلك المقومات:

١. ولادته عليه السلام في حياة جده الرسول الأكرم محمد ﷺ، ومعيشته في كنفه المبارك سبع سنوات من عمره الشريف، وكانت تلك السنوات على قلّتها، كافية لأن تجعل منه الصورة المصغرة عن شخصية الرسول الأكرم ﷺ، حتى ليصبح جديراً بذلك الوسام العظيم، الذي حباه به جده، حينما قال عليه السلام مخاطباً الإمام الحسن عليه السلام: «أشبهت خلقي وخلقي»^(١)، زد على ذلك ما لصحبة العظماء من الأثر الروحي على الإنسان، فمن عاشر كبيراً، وصاحب عظيماً، فيشرق عليه من نوره، ويلفح عليه من عطره المعنوي ما تغنى به نفسه، وتسمو به ذاته، فضلاً عما ذكره النبي ﷺ إذ يقول: «أما الحسن فإن له هيبتي وسؤدي، وأما الحسين فله جودي وشجاعي»^(٢)، ونظراً لعناية النبي ﷺ بمستقبل الأمة ولما لديه من رؤية واستشراف لأثر هذا الوليد المبارك، وما سيضطلع به من مهمة قيادية فهو الممثل للإرادة الإلهية في الأرض فقد عني كثيراً برعايته وإعداده للمهام

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ٣، ص ١٨٥.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: محمد باقر البهبودي، ج ٤٣،

ط ٢، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، ١٩٨٣ م. ص ٢٦٣.

الجسيمة التي تنتظره.

٢. معاشته لأبيه المرتضى علي بن أبي طالب عليه السلام وهو باب علم مدينة رسول الله، واشتراكه مع أبيه في حياته السياسية والعسكرية، وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، إذ خاض تلك المعارك وأخذ تلك الفتن مجرداً من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الإسلام.^(١)

زيادة على ذلك فإن ما مرّت من أحداث مختلفة ومتأزمة على الإمام علي عليه السلام، وما لاقاه من الأصحاب والأعداء، وكيف كان يتعامل معها بمنتهى الحكمة والحنكة، فإن ذلك كله كوّن لدى الإمام الحسن عليه السلام موروثاً معرفياً زاخراً يمكنه من مواجهة أي موقف مهما اشتد أو صعب.

٣. المنزلة السامية التي منحها الله تعالى للإمام الحسن وأخيه الحسين عليهما السلام كما صرّحت بذلك العديد من الآيات القرآنية، نزلت في حقه وبيان فضله، ومن أشهرها آية المباهلة^(٢)، التي يقول فيها الله جل وعلا: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ

(١) الحياة السياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، د. ط، د. ت. ص ٨٧.

(٢) ينظر، تفسير السمعاني، السمعاني (ت ٤٨٩ هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط ١، مطبعة دار الوطن، السعودية - الرياض، ١٩٩٧ م، ص ٣٢٧. زاد المسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، ط ١، ج ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧ م، ص ٣٣٨. أحكام القرآن، ابن العربي (٥٤٣ هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج ١، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ص ٣٦٠. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١ هـ)، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم إطفيش، ج ٤، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ١٩٨٥ م، ص ١٠٤.

لَعَنَتَ اللَّهُ عَلَى الْكَاذِبِينَ^(١)، زيادة على كثير من المواقف التي لا يمكن تجاهلها أو على الأقل لا يمكن تشويهها، أو التعتيم عليها بيسر وسهولة.

٤. المرتبة الرفيعة التي منحه إياها جده المصطفى ﷺ في ضوء رعايته له في مواقف عديدة، وأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: «لو كان العقل رجلاً لكان الحسن»^(٢).

٥. اشتراكه مع أخيه الحسين ﷺ في بيعة الرضوان، قال الشيخ المفيد (رضوان الله تعالى عليه) عن الحسنين عليهما الصلاة والسلام: «وكان من برهان كمالهما ﷺ، وحجة اختصاص الله تعالى لهما، بعد الذي ذكرناه من مباهلة النبي ﷺ بهما، بيعة رسول الله لهما، ولم يبايع صبيّاً في ظاهر الحال غيرهما»^(٣).

٦. وصية أبيه الإمام علي عليه السلام به على أنه الإمام من بعده: تعد من أجلى مؤهلاته ومقوماته القيادية، فقد أوصى إليه أبوه عليه السلام عند وفاته قائلاً: «يا بني أنت ولي الأمر وولي الدم»^(٤)، وأشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ودفع إليه الكتاب والسلاح ثم قال له: «يا بني أمرني رسول الله أن أوصي إليك، وأن

(١) آل عمران: ٦١

(٢) مائة منقبة، محمد بن أحمد القمي (٤١٢هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام بإشراف السيد محمد باقر بن المرتضى الموحد الأبطحي، ط ١، مطبعة أمير، إيران - قم، ١٤٠٧هـ، ص ١٣٦. ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٩٤هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، ج ٢، ط ١، مطبعة دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ، ص ٣٣٣.

(٣) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام، ج ٢، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٩.

(٤) الأصول من الكافي، ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٩هـ)، ط ٥، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مطبعة الحيدري دار الكتب الإسلامية، إيران - طهران، ١٣٦٣ش. ص ٢٩٩.

أدفع اليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ رسول الله ودفع إليّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن أمرّك، إذا حضر كالموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين»^(١).

٧. مواقفه عليه السلام: إذ لم يقتصر في تصديه للمغرضين والحاquدين، والوقوف في وجه سياساتهم تلك بحزم وصلابة على مواقف الحجاج فحسب، بل ظهر له العديد من المواقف التي تؤكد أهليته للقيادة وذلك في كثير من المناسبات والمواقف الحساسة، منها إلقاءه الخطبة بأمر من أبيه بعد وقعة الجمل، التي قال بعدها الإمام علي عليه السلام: «بني أثبت على القوم حجتك، وأوجب عليهم طاعتك، فويل لمن خالفك»^(٢). وغير ذلك كثير مما يطول به المقام بذكره، وقد ذكرت في مصادر كثيرة.^(٣)

(١) المصدر نفسه. ص ٢٩٧.

(٢) العدد القوي لدفع المخاوف اليومية، علي بن يوسف الحلبي (ت ٧٠٥هـ)، ط ١، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف السيد محمود المرعشي، مطبعة سيد الشهداء، إيران - قم المقدسة، ١٤٠٨هـ. ص ٣٢.

(٣) أعلام الهداية الإمام الحسن عليه السلام، تصحيح: ابن عاشور، ط ١، دار الأميرة، لبنان - بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٩٠-١١٥.

المطلب الثالث:

الحكمة القيادية عند الإمام الحسن المجتبيؑ:

وقد تجلت الحكمة القيادية للإمام الحسنؑ في مواقف كان من بينها:

١. خطبته في صبيحة اليوم الذي قبض فيها أمير المؤمنينؑ، وقد تضمّنت - على قصرها - أموراً مهمة، فكانت مُنعطفاً في تاريخ الإسلام ليس له مثيل قبله ولا مثيل بعده.^(١)

٢. تنبيه الأمة الإسلامية على عظم منزلة أمير المؤمنينؑ وذكر فضائله العظيمة، ليعرف الناس مدى عظمة المصاب بفقد هذا الرجل ومقدار الخسارة التي حلّت بالعالم، ومنها تعريف الناس بشخصيته مشيراً بذلك إلى كونه من المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس، ومَن افترض الله على العباد مودتهم، وينبئهم على ما يجب عليهم اتجاهاه، فكانت هذه الخطبة نداء الحقّ إلى المجتمع الإسلامي، ولعل الهدف من ذكر هذه الأمور هو تعزيز عقيدة بعض الناس بإمامهم، ورفع الشبهات عن البعض الآخر.

٣. ترتيب الحكومة في نفس اليوم، فقد جاء في التاريخ أنّه بعد مبايعته مباشرة، رتّب العمال وأمر الأمراء وجنّد الجنود وفرّق العطايات وخصّ الجنود بعطية خاصّة فكان أوّل من سنّ ذلك وتبعه من بعده.

٤. الكشف عن جاسوسين أرسلهما معاوية إلى البصرة والكوفة وقتلها، ثم إرساله

(١) موسوعة أهل البيتؑ، الشيخ هادي النجفي، ج ٧، ط ١، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٥٤.

كتاباً إلى معاوية أعلمه فيه بالjasوسين وكانت ضربة غير محتملة لمعاوية؛ إذ كيف كشف هذين الجاسوسين بهذه السرعة وقتلها مع كون أحدهما في الكوفة والآخر في البصرة، والمستفاد من الروايات أنه لم يعلمه أحد بذلك وهذه هي أول صفة تلقاها معاوية من الإمام الحسن عليه السلام ولذا لم يتحمل فأرسل إلى ولاية البلاد المسيطر عليها بإرسال الجيوش إليه ليقاتل الإمام الحسن عليه السلام.^(١)

٥. التحرك لحرب معاوية بمجرد سماعه بحركة معاوية للحرب، فوضع الخطة العسكرية اللازمة لمجابهة جيش معاوية، فقدم للجيش مقدّمة في اثني عشر ألفاً، وولّى عليهم عبيد الله بن العباس ثم قيس بن سعد، والأمانة المترتبة التي جعلها الإمام الحسن عليه السلام كاشفة عن مدى حنكته العسكرية والسياسية، فلو أمر عليهم واحداً فبمجرد سقوطه ضاع الجيش وتفلل، وهذا الأمر يؤكد أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان عازماً على محاربة الطغمة الأموية واستئصالها، ولكن القوم خذلوه.^(٢)

٦. اختبار أصحابه ليعرف مقدار طاعتهم له، وليعرفهم أنفسهم ويليقي الحجة عليهم، فألقى عليهم خطبة قصيرة تضمّنت الحث على طاعته وعدم مخالفة أمره وإنه ناظر لما فيه الخير والصالح لهم.

٧. قبول الإمام الحسن عليه السلام الصلح بعد عرض معاوية عليه ذلك، فمعاوية هو الذي طلب الصلح من الإمام الحسن عليه السلام لدوافع كثيرة أهمّها:

(١) ينظر: أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، ج ١، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان-بيروت، د.ت، ص ٥٧٠.

(٢) ينظر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: محمد باقر البهبودي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة الوفاء، لبنان-بيروت، ١٩٨٣م، ص ١٣٥.

أ. إن الصلح بنظره يعطيه الشرعية في تسلّطه.

ب. إسكات الإمام الحسن عليه السلام عن حقّه.

ج. خوفه من نتائج الحرب التي قد تؤدي بحياة الكثير من أنصاره بل بحياته، وهو خلاف غرضه كما أشار إلى ذلك وهو في جواب عمرو بن العاص بقوله: «لا نخلص من قتلهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام»^(١).

د. خوفه من أن قتل الإمام الحسن عليه السلام في الحرب يوجب قيام العالم الإسلامي عليه حيث قتل سيّد شباب أهل الجنة وابن النبي محمد عليه السلام.

وقبل الإمام الحسن عليه السلام الصلح بشروط دقيقة، وبمقتضاها يعمل طبق الضوابط الشرعية ويحافظ على أهل بيت النبوة وشيعتهم في أنحاء الدولة الإسلامية، وسدّ احتياجاتهم المالية والأمنية ورفع السبّ عن أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّ الحكم يكون للإمام الحسن عليه السلام بعده، فإن لم يكن فلاخيه الإمام الحسين عليه السلام، وإن لم يكن فليس له تنصيب من قبله بل يكون ذلك بيد المسلمين.

وانّما اشترط هذه الشروط ليكشف بذلك عن حقيقة معاوية الخبيثة وكلامه المزيف، وليثبت للتاريخ أنّ معاوية هو عدو الله ورسوله وأهل بيته الذي لا يخاف من الله فنقض العهد وقال بعد ذلك: «إنّ كل شرط اشترطته للحسن فهو تحت قدمي»^(٢).

ومع ذلك لم يتخلّ الإمام الحسن عليه السلام عن الصلح لأنّه ليس للدنيا وإنّما هو لصالح الأُمة وكفّ بعضهم عن بعض على حدّ تعبير الإمام عليه السلام، وبذلك حقق الصلح هدفاً

(١) ترجمة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط ١، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، لبنان-بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٨٥.

(٢) جواهر التاريخ، الشيخ علي الكوراني العاملي، ج ٣، ط ١، د. ط، ١٤٢٦هـ، ص ٥٠.

عظيماً كان يمثل شبهة حقيقية لدى العديد من المسلمين وهي أن معاوية خليفة شرعي يمثل رسالة الله تعالى في الأرض، وأن هدفه نشر هذه الرسالة في ربوع الأرض، فكان السبيل الوحيد لكشفه هو الصلح، الذي أدى به إلى أن يقول بكل صراحة متبجحاً أمام المسلمين: «إني والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وأنتم لها كارهون»^(١)

وقد تصوّر البعض واهماً أنّ الإمام الحسن عليه السلام أراد بصلحه أن يخلد إلى الدعة، ويؤثر العافية والراحة، كما طوحت بالبعض الآخر من شيعة الإمام عليه السلام الحماسة فتمنوا عليه لو وقف في جهاد معاوية فوصل إلى الحياة من طريق الموت، وفاز بالنصر والفتح من الجهة التي انطلق منها صنوه يوم الطف إلى نصره العزيز، وفتحه المبين.

لقد برهن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام في صلحه مع معاوية على حكمته العالية في قيادة المسلمين فقد عزم معاوية بن أبي سفيان على تنفيذ خطته الأموية، وقد وقف الحسن عليه السلام من دهائه ومكره إزاء خطر فظيع، يهدد الإسلام باسم الإسلام، ويطغى على نور الحق باسم الحق، فكان في دفع هذا الخطر، أمام أمرين لا ثالث لهما: إمّا المقاومة، وإمّا المسالمة، وقد رأى أنّ المقاومة تؤدي لا محالة إلى فناء هذا الصف المدافع عن الدين وأهله، والهادي إلى الله تعالى، وإلى صراطه المستقيم، إذ لو غامر الحسن عليه السلام يومئذ بنفسه وبأهلأشميين وأوليائهم، فواجه بهم القوة التي لا قبل لهم بها مصمماً على التضحية، تصميم أخيه يوم الطف لانكشفت المعركة عن قتلهم جميعاً، ولانتصر النهج الأمويّ بذلك نصراً تعجز عنه امكانياتها، ولا تنحسر عن مثله أحلامها وأمنياتها، إذ يخلو بعدهم لها الميدان، تمنع في تيهها كل إمعان، وبهذا يكون الإمام الحسن عليه السلام - وحاشاه

(١) مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تقديم وإشراف: كاظم المظفر، ط ٢، دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، ١٩٦٥م، ص ٤٥.

- قد وقع فيما فر منه على أقبح الوجوه، ولا يكون لتضحيته أثر لدى الرأي العام الا التنديد والتفنيد.

لأن الإمام لو اعتذر الحسن يومئذ بأن معاوية لا يفي بشرط، ولا هو بمأمون على الدين ولا على الامة، لما قبل العامة يومئذ عذره، اذ كانت مغرورة بمعاوية، ولم تكن الاموية يومئذ سافرة بعيوبها سفوراً بيناً بها يؤيد الحسن أو يخذل معاوية كما أسلفنا بيانه من اغترار الناس بمعاوية وبمكانته من أولي الامر الاولين^(١).

ومن الغريب بقاء الناس في عشواء غماء من هذا الصلح الى يومهم هذا، على الرغم من البيّنات العقلية والنقلية التي أفصحت عن سر ذلك الصلح وفلسفته.

والواقع أنّ صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية، من أشد ما لقيه أئمة أهل البيت عليهم السلام من هذه الامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد لقي به الإمام الحسن عليه السلام محناً يضيق بها الوسع، لا قوة لاحد عليها الا بالله عز وجل، لكنه عمل بها صابراً محتسباً، وخرج منها ظافراً بما يبتغيه من النصح لله تعالى، ولكتابه عز وجل، ولرسوله، ولخاصة المسلمين وعامتهم، وهذا الذي يبتغيه ويحرص عليه في كل ما يأخذ أو يدع من قول أو فعل.

مما تقدّم نستطيع بوضوح أن ندرك أنّ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام تعامل مع الأحداث التي جرت في عصره بمنتهى الحكمة والوعي القيادي، وكان هدفه من ذلك حفظ الرسالة الإلهية، ودفع الشبهات والغموض عنها، وكذلك حقن دماء المسلمين وصون دمائهم وحقوقهم، وبذلك يكون قد قدّم للقادة الرساليين من بعده تجربة واقعية ناجعة يمكنهم الاستفادة منها، وتوظيفها إذا ما واجهتهم مواقف مشابهة.

(١) ينظر: صلح الحسن عليه السلام، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، د.ط، د.ت، ص ١٠.

المبحث الثاني

تجليات الحكمة القيادية للإمام الحسن المجتبي

عند السيد السيستاني

بعدما تقدّم الكلام في المبحث الأول عن نزر يسير من المواقف القيادية التي تنبئ بصورة واضحة جليّة عن الحكمة العالية التي يضطلع بها الإمام الحسن المجتبي، نحاول في هذا المبحث الإفادة من هذه المواقف وربطها بواقعنا المعاصر لنجعلها أكثر حيوية من جهة، ولنضع أمام الإنسانية تجربة واقعية استنار أصحابها بفكر أهل البيت فكتب لهم التوفيق والنجاح، ألا وهم علماء الدين، ولا غرابة في ذلك فعلماء الدين هم أفضل من يفهم حقيقة الأئمة المعصومين ويدرك فلسفة قراراتهم وحكمتها، وخير من يمثل علماء الدين ومراجع المسلمين في عصرنا الحالي هو سماحة السيد السيستاني، لذا ارتأينا أن نرى تجليات الحكمة القيادية عند السيستاني في ضوء بعض مواقفه القيادية، وقد توخينا في كل ما طرحناه سابقاً وما نطرحه في هذا المبحث الاختصار، مراعاة للإيجاز بما يتناسب وطبيعة البحث، وسنحاول بداية بيان بعض المطالب التي لها صلة بموضوع البحث، وذلك فيما يأتي.

المطلب الأول:

المرجعية الدينية

مفهوم المرجعية: المرجعية من الناحية اللغوية مركبة من المرجع وياء النسب وتاء المبالغة وأصل كلمة المرجع هو رجع أو الرجوع بمعنى عاد إلى كان من البدء.^(١)

أمّا من الناحية الاصطلاحية، وهي: (الجهة المتولية بشؤون الأمة أو الطائفة بإجماعها وبيدها الإدارة لتدبير أحوالها وأوضاعها).^(٢)

أمّا المرجع الديني: فهو المجتهد العادل الذي يرجع إليه الناس للفتوى لعبادتهم ومعاملاتهم.^(٣)

والمرجع الديني في المذهب الشيعي الإمامي يعد نائب الإمام المعصوم في زمان الغيبة الكبرى وهذا الكيان الديني الذي خلفه الإمام الغائب جاء بحسب حديث الإمام المهدي المنتظر عليه السلام،^(٤) «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م، ص ٣٤٢.

(٢) باب مدينة علم الفقه، علي محمد رضا كاشف الغطاء، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٣٥٨.

(٣) الأصول العامة للفقه المقارن، محمد تقي الحكيم، ط١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م، ص ٥٦٣. محمد جواد مغنية، فقه الإمام الصادق، ج ٦، دار القلم، بيروت - لبنان، ١٩٧٥م، ص ٣٧٩.

(٤) المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨-١٩٦٨ (تاريخ سياسي)، د. حيدر نزار السيد سلمان، ط١، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٨.

حجتي عليكم وأنا حجة الله»^(١).

المرجع الأعلى: يطلق لقب المرجع الأعلى على أكبر المجتهدين علماً ومقلدين وخبرة، وهو حائز على إقرار المراجع والمجتهدين الكبار الآخرين.^(٢) واليوم يطلق هذا اللقب بكل جدارة على سماحة السيد السيستاني دام ظلته لكونه يمتلك المؤهلات والاستحقاقات كافة التي تجعله يوصف بها.

تشكل المرجعية الدينية في النجف الأشرف أعلى سلطة روحية دينية للشيعة في كل أنحاء العالم، وهي ترتبط ارتباطاً عقائدياً بالمذهب الشيعي الإمامي.^(٣) فهي الحافظة للإسلام وكيان المسلمين وتدافع عن حقوقهم وترعى مصالحهم وتدير المدارس الدينية ومراكز التعليم والثقافة، وتعد الفقهاء والنواب الحاصلين على أذونات شرعية، ومراجع التقليد، كما تنهض المرجعية الدينية بمهمة إعداد القادة الروحانيين القادرين على الوقوف دون انهيار المسلمين وخرابهم في العقيدة والفكر والمحافظة على هويتهم ودينهم والدفاع عنه أمام الحكومات والسلطات، وتقوم بمهمة تفقيه المسلمين وتوعيتهم بالدين.^(٤)

(١) وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، الحر العاملي، تصحيح محمد الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ، ٢٧/ ١٤٠.

(٢) ينظر: الإسلام الشيعي والدولة، محمد رضا جليلي، ترجمة: د. علي الخطيب، ط ١، دار المحجة البيضاء، لبنان-بيروت، ١٩٩٧م، ص ٣٣.

(٣) التفتيح في شرح العروة الوثقى (التقليد)، علي الغروي، ط ١، مؤسسة تراث الإمام الخوئي، إيران، ١٤١٣هـ، ص ١٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧.

المطلب الثاني :

مرجعية السيد السيستاني دام ظلّه :

• السيد السيستاني :

هو السيد علي بن السيد محمد باقر بن السيد علي بن السيد محمد، ولد سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، ونشأ في أسرة علمية دينية ملتزمة، كانت من الأسر الحسينية العلوية التي تسكن مدينة أصفهان، بدأ في الخامسة من عمره بتعلّم القرآن الكريم، ثم دخل (مدرسة دار التعليم الديني) لتعلم القراءة والكتابة ونحوها، فتخرج فيها متعلماً كذلك فن الخط، وفي عام ١٣٦٠هـ بدأ بتوجيه من والده بدراسة مقدمات العلوم الحوزوية، وفيها أتمّ كتب المقدمات ومنها كتاب (شرح الألفية) للسيوطي، و (المغني) لابن هشام و (المطوّل) للتفتازاني و (شرح اللمعة الدمشقية) و (القوانين)، والسطوح العالية، ومنها كتاب (الرسائل) و (المكاسب) و (الكفاية) كما قرأ جملة من الكتب الفلسفية منها كتاب (شرح المنظومة) للسبزواري، و (شرح الإشراف)، و (الأسفار) و (شرح الإلهام)، كما حضر بحوث الخارج للمرحوم الميرزا مهدي الأشتياني، والمرحوم الميرزا هاشم القزويني (قدس سرهما) وذلك سنة (١٣٦٥هـ).^(١)

وفي أواخر عام (١٣٦٨هـ) هاجر إلى قم المقدسة لإكمال دراسته، فحضر عند العلمين السيد حسين الطباطبائي البروجردي في الفقه والأصول، والسيد محمد الحجة

(١) الإمام السيستاني أمة في رجل، حسين محمد علي الفاضلي، ط ١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م. ص ٧٣.

الكوهمكيري في الفقه فقط.

وفي أوائل عام (١٣٧١هـ) هاجر من مدينة قم إلى النجف الأشرف، فوصل إلى مدينة كربلاء المقدسة في ذكرى أربعينية الإمام الحسين عليه السلام، ثم نزل النجف الأشرف فسكن مدرسة البخارائي العلمية، وحضر بحوث العلمين الشهيرين آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي والعلامة الشيخ حسين الحلي (قدس سرهما).^(١)

وفي أواخر عام (١٣٨٠هـ) كتب له أستاذه آية الله العظمى السيد أبي القاسم الخوئي، وأستاذه آية الله العظمى الشيخ حسين الحلي (قدس سرهما) شهادتين ببلوغ درجة الاجتهاد، كما كتب شيخ محدثي الشيعة الشيخ آغا بزرك الطهراني صاحب كتاب الذريعة الى تصانيف الشيعة شهادة أخرى يطري فيها مهارته في علمي الحديث والرجال، وفي أوائل عام (١٣٨١هـ) بدأ بإلقاء محاضراته في (الدرس الخارج) في الفقه في ضوء كتاب (المكاسب) للشيخ الأنصاري، وأعقبه بـ (شرح العروة الوثقى)، فأتى عدة أبواب فقهية منه.

أمّا في علم أصول الفقه فقد بدأ بإلقاء محاضراته في عام (١٣٨٤هـ) وأكمل دورته الثالثة في عام (١٤١١هـ)، وقد سجّلت محاضراته جميعها في عام (١٣٩٧هـ).

إنّ شخصية السيد السيستاني رحمته الله وتوجهاتها تشبه إلى حد ما شخصية أستاذه السيد الخوئي وتوجهاتها العلمية إذ يمكن القول أنّ مرجعية السيد السيستاني رحمته الله هي الامتداد المماثل لمرجعية السيد الخوئي^(٢)، أمّا مؤلفاته فقد بلغت (٤٤) مؤلفاً^(٣).

(١) المصدر نفسه، ص ٧٤-٧٥.

(٢) المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨-١٩٦٨ (تاريخ سياسي)، د. حيدر نزار السيد سلمان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، لبنان-بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٩.

(٣) ينظر، الإمام السيستاني أمة في رجل، ص ٨٦-٨٧.

سماته وخصائصه الشخصية والعلمية :

اتسم سماحة السيد السيستاني دام ظلّه بجملة خصال كوّنت معالم شخصيته التي استطاعت أن تنفذ إلى قلوب الملايين، بعد أن عاجلت بخلقها الرفيع وأدبها الربّاني العديد من المشاكل التي واجهت الأمة، وتجاوزت العديد من صراعاتها الراهنة، ومن أهمّ سماته الشخصية:

١. الانصاف واحترام الرأي الآخر.
٢. الأدب في الحوار.
٣. الخلق التربوي.
٤. الورع والتقوى.
٥. الإنتاج الفكري.
٦. الربط بين الفكر الحوزوي والثقافات المعاصرة.
٧. الإبداع والتجديد.
٨. إلمامه بمقتضيات عصره.
٩. النظرة الاجتماعية للنص.
١٠. المقارنة بين المدارس الفكرية والفقهية المختلفة.^(١)

(١) ينظر، الإمام السيستاني أمة في رجل، ص ٧٥-٧٦.

المطلب الثالث:

تجليات الحكمة القيادية للإمام الحسن المجتبي

عند السيد السيستاني

تعد شخصية السيد السيستاني من الشخصيات القلائل التي كوّنت مفصلاً يستدعي التوقف عنده والبحث في طبيعة ومكونات هذا العالم الذي يتمتع بخصائص روحية ومثالية عالية، طالما حث عليها أهل البيت حتى جعلت منه عالماً ربانياً بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، فكان رجل العلم والتقوى والحكمة والدراية، رجل المواقف الصعبة والثابتة على حقن الدماء رجل الاعتدال في زمن التعصب وإثارة الفتن، رجل الإسلامية قلباً وقالباً، مرّ بمختلف المواقف الحرجة فكان السيد الكبير والعالم الصبور النحرير، والورع المحتسب، والزاهد التقي والمحترم لآراء الآخرين، عشق العلم والمعرفة فقدّس حرية الرأي والكلمة البناء الهادفة إلى إظهار الحقيقة وجلاء الشبهات.^(١)

إنّ الوقوف على أعتاب هذه الرموز الكبير والقامات الشاخنة من أمثال ساحة السيد السيستاني لا يمكن لمثل هذا البحث الموجز أن يحيط بمواقفه الخالدة، وآرائه السديدة، وقراراته الصائبة، ومنجزاته العديدة، لذا سنكتفي بذكر بعض المواقف التاريخية لهذه الشخصية العظيمة تحاكي ما جرى في عهد الإمام الحسن المجتبي، ويمكن لبحث آخر أن يجري دراسة مماثلة لبحث العلاقة بين مواقف الرسول الأكرم

(١) ينظر، الإمام السيستاني أمة في رجل، ص ٩.

وتجلياتها عند السيد السيستاني رحمته الله، وهكذا مع سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام.

ومراعاة للاختصار سنكتفي بذكر أربعة مواقف تاريخية لساحة السيد السيستاني رحمته الله، جرت عقب أحداث عصيبة كادت تعصف بالأمة الإسلامية عموماً، والشعب العراقي بنحو خاص، وهي:

١. المطالبة بكتابة الدستور العراقي وإجراء انتخابات بعد تغيير النظام بعد عام ٢٠٠٣ م.

يعد السيد السيستاني رحمته الله من المراجع المعتدلين والواقعيين الذين يكيّفون المواقف الدينية مع الوقائع السياسية على الأرض، فهو لم يتعامل مع قوات الاحتلال ورفض لقاء الحاكم المدني في العراق (بول بريمر) على الرغم من إلحاح الأخير وتوسيط عدد كبير من السياسيين العراقيين كان آخرهم مسعود البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، وفي الوقت نفسه لم يدع إلى مقاومة قوات الاحتلال بالعنف، وإنما اكتفى بموقف سياسي لا يضعف العملية السياسية التي جرت في العراق بتشكيل مجلس الحكم في ١٣ / ٧ / ٢٠٠٣ م، ولكي يتناغم مع شعار الأمريكي في العراق لإقامة الديمقراطية في العراق، وقد كان على رأس الأهداف التي يروم ساحة السيد السيستاني رحمته الله تحقيقها هو كتابة دستور عراقي بأيدٍ عراقية، ورفض رفضاً قاطعاً قبول دستور مستورد من الخارج يحمل أفكاراً صهيونية استعمارية يهودية بصبغة إسلامية بحجة عدم إمكانية كتابة دستور بأيدٍ عراقية؛ لأنّ البلد يعيش حالة من الفوضى ولا يمكن حصر أفراد الذين يعوّل عليهم للمشاركة في الانتخابات.^(١)

في ظل هذه الأجواء بادر ساحة السيد السيستاني رحمته الله بحلّه الفريد الفذ وبخطوته

(١) النصوص الصادرة عن ساحة السيد السيستاني رحمته الله في المسألة العراقية، إعداد: حامد الخفاف، ط ٥، دار المؤرخ العربي، لبنان-بيروت، ٢٠١٤. ص ٣٧-٥١.

الجريئة التي راهن العديد على فشلها لصعوبة تطبيقها في تلك الظروف العصيبة، وأصر سماحته على ضرورة إجراء الانتخابات، ولما سئل عن آلية حصر أعداد أبناء الشعب العراقي، فأجاب بأنّ هناك سبيلاً ناجحاً لذلك وهو اعتماد البطاقة التموينية التي كانت قبل ذلك معتمدة من لدن الأمم المتحدة في برنامج النفط مقابل الغذاء، وبذلك تكون هذه الإحصائية جاهزة ودقيقة ومعترفاً بها عالمياً ولا يمكن ردّها، وبالفعل تم قبولها من الأطراف جميعاً داخلياً وخارجياً.

وفعلاً أجريت الانتخابات وكتب الدستور بأيدٍ عراقية، وإن كان ما حصل لا يلبي مستوى الطموح، ولكنه أهون وأفضل بكثير ممّا أريد له.

إنّ ما مرّ به المجتمع الإسلامي في العراق عام ٢٠٠٣م هو شبيه إلى حد كبير بما مرّ به المجتمع الإسلامي في العراق في بداية حكم الإمام الحسن عليه السلام، وهناك تشابه كبير في القرارات التي اتخذها الإمام الحسن عليه السلام آنذاك وتجلياتها في قرارات السيد السيستاني دام ظله الذي أفاد كثيراً بلا شك من ذلك السبط المبارك عليه السلام.

فالإمام الحسن عليه السلام بادر أولاً إلى إقامة حكومة، والسيد السيستاني دام ظله طالب بإجراء انتخابات لإقامة حكومة.

والإمام الحسن عليه السلام عندما أدرك أن الواقع لا يؤهله لمقاومة الطرف الآخر المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان فلجأ إلى الصلح الذي يتناغم مع سياسة معاوية والذي يكتبه الإمام عليه السلام بنفسه والذي يمثل وثيقة تاريخية ملزمة للطرفين المتعاقدين والغرض منها حفظ الرسالة الإلهية بكشف السياسة الأموية الغاشمة، وحقن دماء المسلمين وابعادهم عن حرب تسفك دماءهم ولا يجنون منها إلّا الخيبة والخسران والذل والهوان، والسيد السيستاني دام ظله دعا لكتابة الدستور بطريقة تتناغم مع سياسة الطرف الآخر (المحتل

الأمريكي) وهي الطريقة الديمقراطية التي تتيح للشعب اتخاذ قراراته بنفسه وبحريته، فلذلك طالب بكتابة الدستور بأيدٍ عراقية كما كتب الصلح بيد الإمام (عليه السلام)، وبذلك تمكن السيد السيستاني (رحمته الله) من تحقيق مطلبه بكشف السياسة الأمريكية المخادعة من جهة، وكتابة البنود التي تتناسب والتشريع الإسلامي بالقدر المتيقن من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أن سماحة السيد السيستاني (رحمته الله) كان يعمل بقوتين القوة الأولى ما يمتلكه من خبرة ومعرفة ودراية منبثقة من استيعابه للموروث الكبير من القرآن الكريم وسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته المعصومين (عليهم السلام)، ورواياتهم الشريفة، فضلاً عن ثقافته الواسعة، واطلاعه الفياض، والقوة الثانية هي التسديد الإلهي الواضح والمتجلي في دقة قراراته، وحكمتها وخطورتها ونجاحها.

٢. إصداره لفتوى الجهاد الكفائي بعد أحداث سقوط الموصل في سنة ٢٠١٤م.

قد توافرت في هذا القرار ما توافرت في غيره من القرارات المصيرية للسيد السيستاني (رحمته الله)، وهي اتصافها بالخصائص الآتية:

- عنصر المفاجأة.
- كونه الحل الناجع لمشكلة عصية تهدد أمن البلاد والعباد.
- كونه الحل الأمثل للحفاظ على وحدة المسلمين وغيرهم.
- الاستجابة الكبيرة والعظيمة من الجميع على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم ودياناتهم.
- تعزيز ثقة الأمة بحكمة قيادتها، وجدارتها بحمل المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقها.

لقد كان الواقع الذي يعيشه العراق قبل صدور فتوى الجهاد من المرجعية الدينية العليا ينبيء بحدوث كارثة إنسانية لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسانية، فقد اجتاحت جماعة همجية باسم الإسلام وقد سيطرت على بعض أجزاء العراق وكانت تعد العدة لاجتياح باقي أجزائه، فبادر سماحة السيد السيستاني رحمته الله بإصدار فتاواه التي سيبقى التاريخ ينحني لها إجلالاً وإكباراً لما حققته من نصر وعزة وشموخ لا للمسلمين فحسب بل لكل أبناء الشعب العراقي بأطيافه ودياناته المتنوعة، إنَّ هذا الموقف يذكرنا بما جرى في العراق في نهاية خلافة الإمام علي عليه السلام أي قبل تسلّم الإمام الحسن الإمامة، والقرار الذي اتخذته الإمام علي عليه السلام بقتال أولئك البغاة^(١)، وواصله بعده ولده الحسن المجتبي عليه السلام، وذلك حينما أرسل معاوية غارة همجية بربرية بقيادة سفيان بن عوف الغامدي إلى الأنبار، وقد أشار الإمام علي عليه السلام إلى ذلك وما تبعه من أحداث ذل وهوان بقوله: «وهذا أخو غامد (يعني سفيان ابن عوف) قد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينتزع حبلها وقلبها وقلائدها ورعتها (أي أقراطها) ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثمّ انصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم، ولا أريق لهم دم، فلو أنّ امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً، فيا عجباً عجباً والله يميم القلب و يجلب الهّم، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقّكم فقبّحاً لكم و ترحاً، حين صرتم غرضاً يرمى: يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله و ترضون»^(٢). ثمّ يؤنب الإمام عليه السلام من تخاذل من القوم عنه وماذا حل بهم إثر ذلك،

(١) ينظر، الإمامة والسياسة، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧١هـ)، تحقيق: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، د.ت. ص ١٣٠.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، جمعه وصححه الشريف الرضي، شرح:

فيقول: «ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قطّ في عقر دارهم إلّا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم، حتّى شنت عليكم الغارات، وملكتم عليكم الأوطان»^(١). وبعد ذلك جهز الإمام علي عليه السلام جيشاً لقتال معاوية واستئصال شره وإنقاذ العباد من فتنه وضلالاته ومؤامراته، ولكنّ اليد الأثيمة لعدو الله ابن ملجم سارعت باغتياله، وعندما تسلّم الإمامة الإمام الحسن عليه السلام واصل مشروع أبيه وحشد الجيوش ووجهها لقتال معاوية في معسكر النخيلة، ولكنّ الخبر التاريخي المؤلم يحدثنا أنّ المجتمع آنذاك لم يثمن وجود قائد حكيم كالإمام الحسن عليه السلام فقابلوا حكمته بالخيانة تارة، وبالتخلي عنه تارة أخرى، وبطعنه ثالثة، وبالتخاذل عنه والتسرّب إلى جيش العدو رابعة وغيرها وغيرها ممّا يطول بيانه، فكانت عاقبة أمرهم بسبب مخالفتهم لأوامر إمامهم وقائدهم أن رضخوا في الذل والهوان تحت سيطرة معاوية بن أبي سفيان الذي لم يتورع حتى عن إنكار نواياه الخبيثة ضد الإسلام فقال لهم بعد أن استحكم الأمر إليه، وامسك بزام الأمور، قام في الناس خطيباً يقول: «ماقاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ولكن إنّما قاتلتكم لأتأمر عليكم فقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»^(٢).

أمّا مجتمعنا العراقي المعاصر فقد أبلى بلاءً حسناً وكان بقمة الوعي والمسؤولية حينما زحف بكل أطيافه ومناطقه وفئاته العمرية هبة رجل واحد ذي عقيدة صلبة

محمد عبده، ج ١، ط ١، مطبعة النهضة، إيران - قم، ١٤١٢ هـ. ص ٦٨.

(١) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١ هـ)، ج ٥٩، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٤١٥ هـ. ص ١٥٠.

وإيمان راسخ مستجيبة لفتوى قيادتها الحكيمة ومرجعيتها الرشيدة، المتمثلة بزعيمها سماحة السيد علي السيستاني رحمته الله، مما جعل العدو المعتدي الغاشم يتقهقر أمام خطواته، ويجعل الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، حتى حققوا الانتصارات تلو الانتصارات، وهم الآن مستمرين بتقدمهم وصمودهم مادامت وراءهم قيادة حكيمة توجههم، وعقيدة راسخة تثبتهم وإرادة صلبة تتقدمهم.

والجدير بالذكر أن ما ذكرناه في النقطة الأولى حاضر هنا، وهو يحضر في قرار من قرارات سماحة السيد السيستاني رحمته الله، تسندها ركيزتان أساسيتان، الأولى علمه ومعرفته ودرايته بالأمور، والثاني التسديد والتوفيق الإلهي الذي لا يخفى على ذي لب في إصدار فتوى الجهاد من جوانب عدة، منها:

- توقيت الفتوى، فلو أصدرت بعد يوم واحد لكان العدو قد دمر البلاد وقتل العباد.
- الاستجابة الكبيرة التي لاقتها الفتوى من لدن الجميع وتفاعلهم معها.
- إصابتها الواقع كونها البديل الوحيد المناسب الذي كان حلاً ناجعاً للمعضل الذي وقع في المجتمع العراقي.
- وغيرها مما خفي علينا من الأسرار الخفية التي يظهرها لنا المستقبل.

وفي الختام نقول أن البحث وقف على نماذج محددة مراعاة للاختصار وبما يتناسب مع طبيعة حجم البحوث، ولأننا أردنا أن نبين فكرة رأيها ترتبط بالسياسة البناء التي انتهجها أهل البيت عليهم السلام، وقد أفاد منها علماءنا الأعلام بوصفهم ورثتهم بالعلم والفكر والموقف والعقيدة، فهم ينهلون من منبع عذب فرات رسمه لهم النبي الأكرم صلوات الله عليه إذا قال موصياً أمته: «إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي كتاب

الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١).

ونرجو أن نكون قد وفّقنا في إيصال فكرة بحثنا، والله تعالى هو المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب الأكوان، والصلاة والسلام على أفضل إنسان، محمد وآله أئمة الإنس والجان.

(١) الانتصار، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، إيران- قم المقدسة، ١٤١٥هـ، ص ٨٠.

الخاتمة

بعد هذه الجولة العلمية الممتعة التي قضيتها في رحاب الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ومواقفه التاريخية الملهمة، ومع سماحة السيد السيستاني دام ظله وقراراته السديدة والمصيرية، يمكن أن أثبت أهم النتائج التي استخلصتها من البحث فيما يأتي:

١. إن السيرة العطرة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت الطاهرين عليهم السلام هي سيرة معطاء زاخرة بالدروس والعبر التي ينبغي لكل قائد الاطلاع عليها ودراستها دراسة تحليلية واعية، للاستفادة من مضامينها، والسير بهديها.

٢. إن المواقف المشرفة والمشرقة التي بدت في سياسة سماحة السيد السيستاني دام ظله هي امتداد حقيقي لنهج الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام.

٣. إن المواقف المشرفة والمشرقة لسماحة السيد السيستاني دام ظله تعد دليلاً على صواب فكر أهل البيت عليهم السلام ونجاح سياستهم.

٤. إن القيادة مهما كانت واعية وحكيمة فهي لا تكفي لوحدها في إنجاح المشروع الإلهي من دون وجود قاعدة شعبية تستجيب لقيادتها، وتمثل لأوامرها وتؤمن بتوجيهاتها، وما جرى مع مجتمع الإمام الحسن عليه السلام بعدم استجابتهم لإمامهم خير دليل على ذلك، كذلك ما جرى مع مجتمعنا المعاصر باستجابته للسيد السيستاني دام ظله، مما يدعونا إلى ضرورة التمسك بهذه القيادة الربانية المستمدة من فكر أهل البيت عليهم السلام.

٥. إن العدوان الغاشم يكون ضعيفاً مادامت الأمة ملتفة حول قيادتها، مؤمنة بحكمتها وصواب رأيها، وأنه يكون قوياً ما دامت الأمة متخاذلة متراجعة متقاعسة خانعة.

المصادر

• القرآن الكريم.

١. الاحتجاج، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي (٥٤٨هـ)، تحقيق وتعليق: السيد محمد باقر الخراسان، دار النعمان للطباعة والنشر، العراق النجف الأشرف، ١٩٦٦م.
٢. أحكام القرآن، ابن العربي (٥٤٣هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: أبو إسحاق إبراهيم إطفيش، دار إحياء التراث العربي، لبنان-بيروت، ١٩٨٥م.
٣. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٤١٣هـ)، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليه السلام، ط ٢، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان-بيروت، ١٩٩٣م.
٤. الإسلام الشيعي والدولة، محمد رضا جليلي، ترجمة: د. علي الخطيب، ط ١، دار المحجة البيضاء، لبنان-بيروت، ١٩٩٧م.
٥. الأصول العامة للفقهاء المقارن، محمد تقي الحكيم، ط ١، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٣م.
٦. الأصول من الكافي، ثقة الإسلام أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي (٣٢٩هـ)، ط ٥، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مطبعة الحيدري دار الكتب الإسلامية، إيران -طهران، ١٣٦٣ش.
٧. أضواء على عقائد الشيعة الإمامية، الشيخ جعفر السبحاني، ط ١، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، إيران -قم المقدسة، ١٤٢١هـ.
٨. أعلام الهداية الإمام الحسن عليه السلام، تصحيح: ابن عاشور، ط ١، دار الأميرة، لبنان-بيروت، ٢٠٠٥م.
٩. أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، تحقيق وتخريج: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، لبنان-بيروت، د.ت.
١٠. الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، أبو جعفر محمد الحسن الطوسي ٤٦٠هـ، مطبعة الخيام، قم

المقدسة، ١٤٠٠هـ.

١١. الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧١هـ)، تحقيق: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، د.ت.

١٢. الإمام السيستاني أمة في رجل، حسين محمد علي الفاضلي، ط ١، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١م.

١٣. الانتصار، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي البغدادي (ت ٤٣٦هـ)، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، إيران - قم المقدسة، ١٤١٥هـ.

١٤. باب مدينة علم الفقه، علي محمد رضا كاشف الغطاء، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٥م.

١٥. بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي (ت ١١١١هـ)، تحقيق: محمد باقر البهبودي، ط ٢، مؤسسة الوفاء، لبنان - بيروت، ١٩٨٣م.

١٦. تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٤١٥هـ.

١٧. تثبيت الإمامة، قاسم بن إبراهيم البرسي (ت ٢٤٦هـ)، تحقيق: صالح الورداني، ط ١، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٩٩٨م.

١٨. ترجمة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الدمشقي الشافعي المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: محمد باقر المحمودي، ط ١، مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، لبنان - بيروت، ١٩٨٠م.

١٩. التفتيح في شرح العروة الوثقى (التقليد)، علي الغروي، ط ١، مؤسسة تراث الإمام الخوئي، إيران، ١٤١٣هـ.

٢٠. تفسير السمعاني، السمعاني (ت ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، ط ١، مطبعة دار الوطن، السعودية - الرياض، ١٩٩٧م.

٢١. الحياة السياسية لأئمة أهل البيت عليهم السلام، معهد الإمام الخميني للدراسات الإسلامية، د.ت.

٢٢. جواهر التاريخ، الشيخ علي الكوراني العاملي، ج ٣، ط ١، د.ت، ١٤٢٦هـ.

٢٣. مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تقديم وإشراف: كاظم المظفر، ط ٢، دار الكتاب للطباعة والنشر، إيران - قم، ١٩٦٥م.

٢٤. الروض النضير في معنى حديث الغدير، فارس حسون كريم، ط ١، مطبعة دانش، إيران - قم، ١٤١٩ هـ.
٢٥. زاد المسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي القرشي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧ م.
٢٦. صلح الحسن عليه السلام، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، د. ط، د. ت.
٢٧. مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط ١، دار القلم للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦ م.
٢٨. العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، علي بن يوسف الحلي (ت ٧٠٥ هـ)، ط ١، تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف السيد محمود المرعشي، مطبعة سيد الشهداء، إيران - قم المقدسة، ١٤٠٨ هـ.
٢٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق (٣٨١ هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مطبعة الأعلمي، لبنان - بيروت، ١٩٨٤ م.
٣٠. الغيبة، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: عباد الله الطهراني علي أحمد ناصح، مطبعة بهمن، مؤسسة المعارف الإسلامية، إيران - قم المقدسة، ط ١، ١٤١١ هـ.
٣١. الفصول العشرة، أبو عبد الله محمد بن النعمان بن المعلم العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ)، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ١٩٩٣ م.
٣٢. فقه الإمام الصادق، محمد جواد مغنية، دار القلم، بيروت - لبنان، ١٩٧٥ م.
٣٣. كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء (ت ١٢٢٨ هـ)، انتشارات مهدي، أصفهان، د. ت.
٣٤. الخلاف، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمته الله (ت ٤٦٠ هـ)، تحقيق: جماعة من المحققين، قم المقدسة، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧ هـ.
٣٥. مائة منقبة، محمد بن أحمد القمي (ت ٤١٢ هـ)، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي عليه السلام بإشراف السيد محمد باقر بن المرتضى الموحد الأبطحي، ط ١، مطبعة أمير، إيران - قم، ١٤٠٧ هـ.
٣٦. المرجعية الدينية في النجف الأشرف ومواقفها السياسية في العراق من ١٩٥٨ - ١٩٦٨ (تاريخ سياسي)، د. حيدر نزار السيد سلمان، ط ١، دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ٢٠١٠ م.
٣٧. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب (٥٨٨ هـ)، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف،

- مطبعة الحيدرية، العراق - النجف الأشرف، ١٩٥٦ م.
٣٨. منية الطالب في شرح المكاسب، موسى بن محمد النجفي الخونساري (ت ١٣٦٣ هـ)، ط ١، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، إيران - قم المقدسة، ١٤١٨ هـ.
٣٩. موسوعة أهل البيت عليه السلام، الشيخ هادي النجفي، ط ١، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان - بيروت، ٢٠٠٢ م.
٤٠. النصوص الصادرة عن ساحة السيد السيستاني رحمه الله في المسألة العراقية، إعداد: حامد الخفاف، ط ٥، دار المؤرخ العربي، لبنان - بيروت، ٢٠١٤ م.
٤١. نواذر المعجزات مناقب الأئمة الهداة عليه السلام، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (توفي في القرن الرابع الهجري)، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، ط ١، مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم - المقدسة إيران، ١٤١٠ هـ.
٤٢. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي، الحر العاملي، تصحيح محمد الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
٤٣. نهج البلاغة، خطب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، جمعه وصححه الشريف الرضي، شرح: محمد عبده، ط ١، مطبعة النهضة، إيران - قم، ١٤١٢ هـ.
٤٤. ينابيع المودة لذوي القربى، الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي (١٢٩٤ هـ)، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، ط ١، مطبعة دار الأسوة للطباعة والنشر، ١٤١٦ هـ.

الجوانب الفكرية

في كلمات الإمام الحسن عليه السلام

الباحث

مهنا مضر رؤوف

المقدمة

شغل الفكر المكانة المتقدمة على الصعيد الإنساني لما اختصَّ به الإنسان من هبة العقل و التزام التدبّر و التدبير بما فيه خير البشرية، فكان هو المعيار الأبرز في الاستدلال على أرجحية فردٍ معيّنٍ على من سواه و أفضلية مجموعةٍ مجتمعيّةٍ على أخرى، ولهذا كان طبيعياً أن يحتلّ الفكر المكانة المرموقة على امتداد الحواضر الإنسانية و بمختلف مدياتها الزمانية و المكانية و بغض النظر عن متبنياتها العقائدية.

غير أن مصطلح الفكر اعتراه كثيرٌ من التعميم الذي خلط بين نتائج المعتقدات الوضعية و العقائد السماوية، و لزم التفريق في ذلك بين ما كان سطحياً ألصق إصاقاً كحال الفلسفات المادّية و الآراء السفسطائية و حتى الفرضيات الظنية و ما كان جوهرياً بلغ مستوى الواقع و أصاب كبد الحقيقة متمثلاً بالفكر المعصوم لرسالة الأنبياء، و هو اختلاف بيّن فيما هو إنساني عمّا هو إلهي.

لهذا كانت الشرائع الإلهية هي السبّاقة في الدعوة الى إعمال العقل و اتخاذ التفكير آلةً له، سعيّاً الى الكمال الإنساني المنشود، و مصداق ذلك يتّضح عند الشريعة الخاتمة عبر ما جاء في القرآن الكريم في موارد عديدة، منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) و قوله تعالى: ﴿.. فَأَقْصِصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

(١) آل عمران: ١٩١.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

كما اهتمت السُّنَّة النبويَّة في بثيِّت هذا المبدأ واعتمدته وحثَّ عليه في نشر الدعوة وهداية العالمين كما جاء في خبر الحسن الصيقل، قال: «قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: تفكَّر ساعة خير من قيام ليلة؟ قال: نعم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تفكَّر ساعة خير من قيام ليلة؛ قلتُ: كيف يتفكَّر؟ قال: يمرَّ بالدار والخربة، فيقول: أين بانوك؟ أين ساكنوك؟ مالك لا تتكلَّمين!». ^(١)

و هذا الاهتمام المحفِّز هو الذي أنتج حقولاً معرفيةً في مختلف المجالات بالانفتاح عليها نظراً وعملاً، ولم يختص بالعلوم الدينية من فقهٍ وأصولٍ وتفسيرٍ وعلم حديثٍ ورجالٍ ونحوها، إنّما امتدَّت قناته الى العلوم الدنيوية كعلوم الفلك و الرياضيات والطبيعيات وأمثالها، وما ذلك إلاَّ للرؤية الشاملة التي أطلقتها شريعة الإسلام لتكون البيئة الخصبة التي تولد فيها المواهب البشرية فتنمو و تزدهر، و الحضارة الإسلامية شاهدٌ حيٌّ على ذلك كلّ به تركه العلماء المسلمون وغيرهم من إرثٍ معرفيٍّ غزيرٍ ما زال تأثيره قائماً.

ولما كانت شريعة الإسلام بشقيّها الكتابُ و السُّنَّة هي البيئة الصالحة لبزوغ فجر الفكر الإسلامي و انبثاقه، فإنَّ هذه المعادلة ظلَّت ساريةً في مؤسسة أهل البيت النبويّ التي تبنتها باعتبارها من واجباتها الأساسية لكونها الوريث الشرعي للخط الرسالي و نتاجه المعرفي، فأخذ أئمة البيت النبويّ على عاتقهم حمل لواء الفكر الإسلامي الى غايات مثلى.

و لهذا الاعتبار، يصبح من الواجب على الدّارسين و الباحثين في الميدان الفكريّ دراسة منزلة الإمام الحسن عليه السلام الفكرية و عمق تأثيره في هذا الميدان بما خلفه من الأثر، كونه أحد أركان أئمة البيت النبويّ و أحد حلقات سلسلته الذهبية، حيث تحمّل

(١) المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد البرقي، ج ١، كتاب ثواب الأعمال، ح ٥، ص ٢٦.

التكليف الشرعي نفسه الذي تحمّله جدّه المصطفى و أبوه المرتضى مع إدامته للزخم المعرفي، و تحت ظل مدرسة رصينة ما فتئت تصدح بذكر الله على الدوام: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(١). و أصحاب هذه المدرسة هم أهل العلم الذين أرجع الرسول ﷺ الأمة اليهم في قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، فاطلبوا العلم من مظانّه، و اقتبسوه من أهله..»^(٢).

و من هذا المنطلق، جاء هذا البحث ليُلقي ضوءاً على تراث الإمام المجتبي (عليه السلام) المعرفي، المبتوث في التاريخ بما حفظه من عيون كلماته المعروفة، و لينبّه الى أهميّة الجانب الفكري عند الإمام (عليه السلام) على نحوٍ موجز، و ليأتي مقسماً الى أربعة فصول عالج فيها كلُّ فصلٍ موضوعاً معيّناً من كلام الإمام و استخلص منه الدلالة الفكرية المناسبة.

(١) النور: ٣٦.

(٢) الأُمالي، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المجلس ١٧، ح ٣٨، ص ٤٨٨.

الفصل الأول

جانبُ الموروث الروائي فكرياً

القيمة الفكرية:

يقع الموروث الروائي للإمام الحسن عليه السلام ضمن الإرث الروائي لأهل البيت عليهم السلام، والذي يدخل في صُلب التشريع الإسلامي وفي مقام العدالة، عدلية الكتاب الكريم فهو وإيَّاه على حدٍ سواء بصريح حديث الثقلين: «.. أنا تاركٌ فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به.. وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي...»^(١) وهذا يعني بلوغ حديث الإمام مستوى رفيع من القداسة والاعتبار ليكون في ترتيبه: الركن الثاني الذي يعتمد عليه التشريع الإسلامي في التبليغ.

كما أنَّ له من الدلالات الشيء الكثير، منها على سبيل المثال لا الحصر: التنوع المعرفي الإثرائي في الحديث كالذي للكتاب، ويتبع ذلك لزومية الانقياد للحديث الصادر عن الإمام بمثل شمولية إطاعة السنّة النبويّة القولية والفعلية والتقريرية، وبمثل شمولية التمسك بالنص القرآني المطلقة، وتماثل في ذلك تراتبية النتائج الصادرة من إطاعة النص الإلهي من عدمه، كون تشخيصه للواقع في محيطه هو التشخيص الأمثل والأصدق المطابق للإرادة الإلهية وهو ما لا يمكن مضاهاته بأي تشخيص بشري آخر.

و هذا كلّهُ يُعزّز فهماً جديداً لفكرٍ عاصمٍ مهمّته هداية الناس، إذ إنّ معالجة الفكر

(١) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب، ح ٢٤٠٨، ص ٩٨٠.

بمثل هذه النوعية من الدقة اللفظية والمعنوية التي للحديث والمُعززة بالتكامل العملي والإثرائي من شأنه حلُّ أي قضية مستعصية أرقت وتورّق الفكر الإنساني ككل، لاسيما وأنّ الأشخاص المتصدّين فيها هم رجالٌ تم تربيتهم وإعدادهم إلهياً بلا فرقٍ فيهم بين معصومٍ وآخر فملاك الحجّة اللفظية والعملية عندهم سيان.

وهنا تبرز القيمة الفكرية في حديث الإمام الحسن (عليه السلام)، فإنّ وجود هذا التلاقي المستمر وغير المنقطع بين النص القرآني وكلام الإمام يعكس فكراً معصوماً يُغطي المجالات المتعلقة بشؤون الفرد أو المجتمع كافة، وبالنتيجة سيؤدي الى تحصين تامٍّ للأمة مع خطابٍ متجددٍ عابرٍ لحدود الزمان والمكان ضد أي حالة من التردّي أو التخلف الفكري.

القيمة النوعية العامة :

يُلاحظ في الموروث الحديثي للإمام الحسن (عليه السلام)، أنّه قد أُحيط بظروفٍ سياسيةٍ ضاغطةٍ، ومنظومةٍ دعائيةٍ معاديةٍ بالغة التشدّد؛ ما كانت لتفسح المجال لأيّ كلمة حرّة فيه أن ترى النور وتصل الى جمهور المتلقين من أبناء الأمة بشكلٍ مباشرٍ وسلس، فضلاً عن إبقائها لمنظومةٍ قيميةٍ مناوئةٍ بمثل وزن مدرسة آل البيت بما تتملكه من فكرٍ أصيلٍ وريادةٍ إسلاميةٍ، ومن جملة هذه الظروف: الطوق الثقافي الذي أحكمته سلطات زمانه لاسيما في فترة حكم معاوية بن أبي سفيان، مسبوقاً بمشروع تغييب الحديث النبوي الشريف في ما بات يُعرف بظاهرة منع تدوين الحديث.

وقد قامت سياسة الطوق الثقافي المفروضة من السلطات بمهام مزدوجةٍ ابتدأت بتشويش أذهان الناس عن طريق استقطاب وزرع كفاءاتٍ وهميةٍ لا تمتّ للواقع الإسلامي الأصيل بصلة، ووضعها موضع البديل أو المزاحم لمقام الأئمة الأطهار في التصديّ للشأن الإسلامي فكراً وعملاً وفي ممارسة الدور التنويري تجاه الأمة مع

التعظيم الشديد لذكر أهل البيت النبوي، مروراً بظاهرة اختلاق الأحاديث وتشويه الدين الحنيف بالدس والتحريف بالممارسات البعيدة عن روح الإسلام والتبرير المطلق للحاكم وابتداع البدع الفقهية والعقائدية، وانتهاء بالحرب العلنية المعادية لأهل البيت وثقافتهم ومحاولة إعدام موروثهم الفكري المدوّن وغير المدوّن سواء بإتلاف الكتب أو بالقضاء على حملة العلم.

و لقد طبق معاوية هذه السياسة بأعلى مستوى وبمنهجية واضحة المعالم، وخير شاهد على تشديده في هذا المنحى ما جاء من وصيته للمغيرة بن شعبة بعدما ولاه الكوفة: «.. وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك بما يرضيني ويسعد سلطاني، ويصلح به رعيتي، ولست تاركاً إيصاءك بخصلة: لا تتحم^(١) عن شتم عليّ وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه، والإدناء لهم، والاستماع منهم»^(٢).

ومما تقدم، يتّضح أنّ تلك الظروف حاولت بنحو استثنائي منع وصول أحاديث الإمام السبط عليه السلام إلى أسماع أهل القبلة فضلاً عن إتاحة الفرصة لتلقّف معارفه التوعوية. وهذا المعنى أشار إليه أيضاً بعض الباحثين في معرض تصديده لظاهرة معاداة السلطات الجائرة للرواية الحسينية عطفاً على مثيلتها الحسنية: «و الكلام يجري في مرويات الإمام الحسن عليه السلام، فإن الفترة الحرجة التي عاشها الإمام وهو في خضم صراعه مع معاوية، حتى أودت به محاولة الاغتيال والتصفية التي اتبعها معاوية مع معارضيه»^(٣).

(١) لا تتورع.

(٢) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ج ٥، أحداث سنة ٥١، ص ٢٥٣-

٢٥٤.

(٣) تفسير الإمام الحسين عليه السلام - الأثرى التطبيقي، السيد محمد علي الحلو، ص ١١ - ١٢.

على أنّ هذه الظروف إن كانت ساهمت في عرقلة انتشار حديث الإمام المجتبي (عليه السلام) الى الآفاق فإنها لم تفلح في تحقيق غايتها من محو أي أثر يمكن عدّه موروثاً روائياً فكرياً لمدرسة العترة، ولا أدلّ على ذلك من بلوغ الروايات الحسنية نفسها الى ذاكرة الأمة الثقافية، وهنا يتجلى المعنى العام للقيمة النوعية في حديث الإمام الحسن، إذ إنّ اجتياز مقدار لا بأس به من الروايات لتلك الظروف الشديدة حتى وصلت الى أيدي الأجيال التالية، يُفصح عن مقدار عمق وقوة مضمونها الفكري من جهة، ويثبت وجود غزارة روائية لدى الإمام أصالةً من جهة أخرى، ولولا ذاك ما كان لحديث الإمام أن يبقى له أثر وكان مصيره في التلاشي كمصير النصوص الفقيرة المضمون او الشحيحة العدد.

القيمة النوعية الخاصة:

إنّ حتمية الارتباط المصيري بين الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) والقرآن الكريم النظرة الواعية لنصوص روايات الإمام ومضمونها الفكري تُظهر تأثر هذه النصوص بمقام الإمام الربّاني وشخصيته العلمية، فهي انعكاسٌ صادقٌ لشخصيته، وفي ضوء ذلك، يمكن تشخيص السمات الأساسية التي امتاز بها النص الحسني وأهمها:

أولاً: صدق الحديث، وهي سمةٌ جوهريةٌ امتاز بها الرسول (صلى الله عليه وآله) حتى دُعي بالصادق الأمين، وصارت العنوان الأبرز لشريعته الجديدة والتي على إثرها سرعان ما اكتسبت مصداقيةً وانتشرت في الآفاق، لهذا جاءت شهادة القرآن بذلك لتصرّح بذلك ولتصيغه صياغةً تظهر ما بينهما من اتحاد النص السماوي والكلام الرسالي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١).

ثانياً: الوظيفة التنويرية، وهي من أكثر الأمور الملاحظة في كلمات الرسول (صلى الله عليه وآله)، لما تحمله كلماته من قيمةٍ دلاليةٍ دائمة، بمنطقٍ هادفٍ لا تمرّ مفردةٌ فيه إن كانت في مجلسٍ

تبليغي أو محضر اجتماعي أو موقف سياسي إلا واستثمرت في تنوير العامة والخاصة، توجيهاً وارشاداً وتعليماً ونصحاً وتحذيراً الى غيرها من الموارد في هذا المجال، لهذا كان ديدنُ كلامه ﷺ الإيضاح فعن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يُعيد الكلمة ثلاثاً لتُعقل عنه»^(١).

ثالثاً: متانة التركيب، تُعد سمة بارزة أيضاً تجري على لسانه ﷺ مجرى السرد القرآني، وتشمل هنا جملة أمور تزيد الحق وضوحاً، منها: وحدة اللغة بنوياً في الحرف والكلمة؛ واقع البلاغة والفصاحة، مطابقة المعنى واللفظ للموقف المناسب، الاختيار السليم في التعبير لظرفي الزمان والمكان، ليقع ذلك كله تحت مظلة الأسلوب الأدبي الرفيع وليخرج بحُلة من كلامٍ محكم التنسيق ذي قيمة فنية وجمالية لا يضاهيها الا البيان العالي للقرآن الكريم، فعن عائشة: «ما كان رسول الله ﷺ يسرُّ سرِّكم هذا، ولكنه كان يتكلَّم بكلامٍ بيِّن، فَصْلٍ، يحفظُهُ من جلس إليه»^(٢).

رابعاً: تنوع المواضيع، حيث يطرق الحديث عند الرسول ﷺ أبواباً كثيرة: تربية واجتماعية وإنسانية وتعليمية وسياسية وأخلاقية.. الخ مكّلة بعضها بعضاً؛ ولتجتمع فيها الشؤون الدينية والدنيوية من دون إغفال شأنٍ دون آخر مع مراعاة كل باب فيها التفاصيل المرتبطة به، وهذا التعدد في عرض المواضيع يُمثّل جانباً إثرائياً على المستوى المعرفي والنتاج الفكري للرسول الأكرم يصب في خدمة المصلحة العامة.

خامساً: الإنتاجية، فلكلام الرسول ﷺ معنى وغاية، وبما أنه يحمل فكراً لذا هو

(١) جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، كتاب المناقب، باب من باب: في كلام النبي ﷺ، ح ٣٦٤٠، ص ٥٧١.

(٢) الشّئائل المحمّدية والخصائل المصطفوية، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (صاحب السنن)، باب كيف كان كلام رسول الله ﷺ، ح ٢٢٤، ص ١٨٣.

خارج عن دائرة الحشو والاعتباط، وغايته إنتاج المنفعة العامة، ويتّضح هذا المعنى من خلال متابعة تنوّع المواضيع التي يطرحها الرسول في أحاديثه وربطها بنتائجها، حيث يضع النبي معالجات موضوعية تتناسب والمشاكل المطروحة لا تحتاج إلّا الى تطبيق المتلقي يماثل المطلوب في العرض القرآني نفسه، وكان من شأن ذلك الوضوح كما نُقل عن عائشة: «أنّ النبي ﷺ كان يُحدّث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه»^(١).

و بناء على ذلك يمكن القول بأن ما تتمّع به كلام الرسول ﷺ من سمات متوفّر حُكماً في كلام نجله الحسن (عليه السلام) لما استأهله خط الإمامة من لياقات الرّسول الأعظم ﷺ التبليغية حتى باتت مطبوعة به، وليغدو كلام الإمام بقيمة نوعية خاصة ومن سنخ كلام الرسول، فقد جاء عن النبي ﷺ في حق ابنه الحسن (عليه السلام) من حديث طويل: «وأمّا الحسن فإنه ابني وولدي، وبضعة مني، وقرّة عيني، وضيء قلبي، وثمره فؤادي، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأُمّة، أمره أمري، وقوله قولي، من تبعه فإنه مني، ومن عصاه فليس مني...»^(٢).

لهذا فإنّ الموقف الروائي للإمام الحسن جليّ لهذه الخصوصية، جامعٌ للسمات المتقدّمة، من جهة موافقة اللفظ للمضمون من غير انفصالٍ مع الواقع، ملتزمٌ بالإيضاح والمتانة والتنوّع والإنتاجية، وللدلالة على ذلك كلّ اكتنافه، بشكلٍ واضح، حديث الرّسول السابق، حتى صار تبني هذه الخصلة وردها الى منبعها الأصيل من الأولويات لدى متبوعي آثار الإمام الروائية، كما في وصف صاحب كشف الغمّة: «و كلامه ﷺ ينزع الى كلام أبيه وجده، ومحله من البلاغة لا ينبغي لأحدٍ من بعده، ومن رام حصره

(١) صحيح البخاريّ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البُخاريّ، كتاب المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، ح ٣٥٦٧، ص ٦٨٢ و ٦٨٣.

(٢) أمالي الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القميّ المعروف بـ (الصدوق)، المجلس ٢٤، ح ٢، ص ٩١ و ٩٢.

وعده كان كمن شرع في حصر قطع السحاب وعده..»^(١).

الرؤية الفكرية :

تتجلى الرؤية الفكرية في الموروث الروائي للإمام الحسن عليه السلام في شقين رئيسين: أولهما ما حملته كلماته نفسها من مضمونٍ فكري وتوعوي؛ وآخرهما مهمته عليه السلام في بناء الحركة الفكرية للأمة، ليمثل هذان الشقان، ومع ضم الميدانين النظري والعملي اليهما، وحدةً تكامليةً في النص الروائي الحسنِي.

فعلى صعيد الشق الأول، دعا الإمام عليه السلام في كلماته الى تفعيل أثر الفكر في الأمة وحثّ كل فردٍ فيها على التفكير، وتوعية الناس لأهميته في فتح قنوات المعرفة الراشدة، كما في الكلمة الآتية: «عليكم بالفكر، فإنه حياة قلب البصير، ومفاتيح أبواب الحكمة». ^(٢) وفي كلمة أخرى يوصي بإدامة التفكير المسبوق بتقوى الله: «أوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكير، فإنّ التفكير أبو كل خير وأمه». ^(٣)

و بهذا التوجيه يفتح الإمام طريقاً الى أهمية العقل وضرورة تفعيله كما في عدة كلمات: «لا أدب لمن لا عقل له... ورأس العقل معاشرّة الناس بالجميل، وبالعقل تُدرك الدّاران جميعاً، ومن حُرّم من العقل حرّمها جميعاً». ^(٤)

ورؤية الإمام عليه السلام للمعرفة الراشدة كما تقدم لا تكون إلاّ باتّباع الصّراط المستقيم وما ذلك إلاّ عن طريق المنهج الفكري لأهل البيت عليهم السلام، أولى الفكر والعقل، وفي ظل

(١) كشف الغمّة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الاربلي، ج ٢، ص ١٩٨.

(٢) أعلام الدّين في صفات المؤمنين، الحسن بن أبي الحسن الدّيلمِي، ص ٢٩٧.

(٣) تنبيه الخواطر ونزهة النّواظر المعروف بـ (مجموعة ورام)، أبو الحسين ورام بن أبي فراس المالكي الأشترِي، ج ١، باب الظن، ص ٥٢.

(٤) كشف الغمّة، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٩٤.

مدرستهم، باعتبار منهجهم الرابط الصحيح الذي يجمع تقوى الله مع حالة التفكير كما في إحدى كلماته المتقدمة، وهو ما صدح به (ع) في كثير من كلماته التي وجهها للأمة، والتي منها: «إذا طلبتم الحوائج فاطلبوها من أهلها، قيل: يا بن رسول الله ومن أهلها؟ قال: الذين قص الله في كتابه وذكرهم فقال: ﴿...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾»^(١). قال: هم أولو العقول»^(٢). ومنها: «إنّا نعلم المكنون المخزون المكتوم الذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل غير محمد وذريته»^(٣).

ومن هنا تكون الانطلاقة التوعوية في فكر الإمام، ليتفاعل كلا الشقين بشكل متكامل نظراً وعملاً، فبعد تقديم المدرسة الفكرية وعرض البرنامج ونشر الرسالة المعرفية بتفاصيلها تندفع الرؤية الفكرية عند الإمام (ع) الى شقها الثاني المتمثل بـ (الحركة الفكرية).

والحركة الفكرية هي الميدان العملي لفكر الإمام (ع)، وقد أولاه رعايته واهتمامه البالغين، وبالإمكان تتبع ذلك في سيرته (ع) وهذا التبع سيؤدي الى رسم مسارين اتبعهما الإمام الحسن (ع) في مسيرته الفكرية، الأول: اتجاها الى تعزيز فكر المؤسسة الإسلامية الأصيلة (مدرسة العترة) بتشجيع الرواية وحفظها بالتدوين؛ والثاني: اتجاها الى رعاية حملة الفكر عبر التربية الروحية والتعليمية والتوجيهية إضافة الى تحصينهم اقتصادياً وأمنياً.

ففي ما يتعلق بالإتجاه الأول، اهتم الإمام (ع) بالرواية والتدوين ودعا اليهما كما نقل البيهقي في تاريخه: «دعا الحسن بن علي بنه وبني أخيه، فقال: يا بني وبني أخي!

(١) الرعد: ١٩ والزمر: ٩.

(٢) أصول الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، كتاب العقل والجهل، ح ١٢، ص ١٦.

(٣) دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري، ص ٦٦.

إنكم صغار قوم، وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم يرويه أو يحفظه، فليكتبه وليجعله في بيته»^(١).

و كما كان الإمام عليه السلام يقوم بنشر الرواية لم يكن غريباً على الإمام أن يباشر الكتابة بنفسه، كما في فهرست ابن النديم من خبر محمد بن اسحاق: «.. ورأيت فيها بخطوط الإمامين الحسن والحسين..»^(٢)؛ أو كما جاء في وصف أحد الباحثين للمصاحف التي ضمتها خزانة كتب الصحن العلوي الشريف: «مصحفٌ قديمٌ جداً، مكتوبٌ على الرقِّ بالخط الكوفي، وتُنسب كتابته الى الإمام الحسن بن الإمام علي»^(٣).

كما لم يكتف الإمام بالدعوة الى تدوين العلوم والكتابة بخط يمينه، بل احتضن أصحاب الفكر وأرباب القلم الذين عملوا في مجال التأليف لاسيما في ميدان جمع الأحاديث عن النبي وآل بيته عليهم السلام تصدياً منه لحفظ الحديث النبوي والتراث الإسلامي بعد أن خيمت ظاهرة منع تدوين الحديث على الساحة الإسلامية حتى بداية العهد العلوي، واستمراراً منه للعهد العلوي في نشر العلوم، حتى عُرف عهده بذلك، ففي تعليق السيوطي على شرح تقريب النواوي حول مسألة التدوين ما هذا نصه: «اختلف السلف في كتابة الحديث، فكرهها طائفة وأباحها طائفة، منهم.. علي وابنه الحسن»^(٤). لذلك كان في معية الإمام الحسن عليه السلام من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من عُرف

(١) تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العبّاسي المعروف باليعقوبي، ج ٢، ص ١٣٦.

(٢) الفهرست، محمد بن اسحاق المعروف بـ (ابن النديم)، ص ٦١.

(٣) خزائن الكتب القديمة في العراق، كوركيس عوّاد، ص ١٣٣.

(٤) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي،

ج ٢، ص ٣٧.

بالتأليف، أمثال أبي رافع^(١) وأبي الأسود الدؤلي^(٢) وسليم بن قيس الهلالي^(٣) وغيرهم، كما اهتم الإمام بطبقة الرواة من أمثال: جابر بن عبد الله الأنصاري^(٤) وقيس بن سعد ابن عباد^(٥) وميمون بن مهران^(٦).

وهنا يتضح مساره الثاني في حركته الفكرية الذي تجسد بحفظه ورعايته لحملة الفكر من اصحابه وتلاميذه، وهو جهدٌ غاية في الأهمية لا يقل شأنًا عن بقية جهوده الأخرى، ولولا ذلك ما كان لحديثه أن يبقى فيبلغ ما بلغه، وهو عملٌ تصدّى فيه الإمام لحركة الوضع والتزييف التي طالما تلاعبت بعقول الأمة فما كان من الإمام إلا أن دَبَّ عن الرواة وأقرانهم أمنياً واقتصادياً في موارد أثبتتها التاريخ.

(١) مولى رسول الله ﷺ، لزم أمير المؤمنين ﷺ وصحب الحسن ﷺ - كما سيأتي - له كتاب السنن والأحكام والقضايا. (يُنظر ترجمته في رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الأسدي الكوفي، ص ٥-٦).

(٢) من أصحاب أمير المؤمنين والحسن والحسين والسجاد ﷺ، واضع علم النحو بتوجيه علي ﷺ. (يُنظر ترجمته في تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، حسن الصدر، ص ٤٦، والإصابة في تمييز الصحابة، لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني، ج ٥، ص ٢٦١).

(٣) صحب علياً والحسن والحسين والسجاد ﷺ، له كتاب عُرف بـ (كتاب سليم). (يُنظر ترجمته في اختيار معرفة الرجال المعروف بـ (رجال الكشي) لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، ص ٩٩-١٠٠).

(٤) من كبار صحابة الرسول ﷺ والمنقطعين إلى أهل بيته ﷺ إلى زمان الباقر ﷺ. (يُنظر ترجمته في رجال الكشي، ص ٤٧)، روى عن الإمام المجتبي ﷺ (يُنظر مسند الإمام المجتبي أبي محمد الحسن ابن علي ﷺ، لتعزيز الله العطاردي، ص ٧٤٩-٧٥٠).

(٥) من أصحاب الرسول ﷺ، لزم أمير المؤمنين والحسن ﷺ. (يُنظر معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، لأبي القاسم الموسوي الخوئي، ج ١٥، ص ٩٦)، روى عن الإمام المجتبي ﷺ (يُنظر مسند الإمام المجتبي، ص ٧٧٧-٧٧٨).

(٦) من أصحاب أمير المؤمنين والحسن ﷺ، روى عن الإمام المجتبي ﷺ (يُنظر معجم رجال الحديث، ج ٢٠، ص ١٢٤).

فأمنياً كان جواب الإمام الحُجر بعد انبرام الهدنة مع معاوية حاضراً في ذلك: «يا حجر! قد سمعتُ كلامك في مجلس معاوية، وليس كلُّ انسانٍ يحبُّ ما تحبُّ، ولا رأيهُ كرايكَ، وإنِّي لم أفعل ما فعلت إلا إبقاءً عليكم والله تعالى كلُّ يوم هو في شأن»^(١).

و اقتصادياً ما جاء في رجال النجاشي في ترجمة أبي رافع: «.. فلم يزل مع عليٍّ حتَّى استشهد عليٌّ عليه السلام، فرجع أبو رافع إلى المدينة مع الحسن عليه السلام ولا دار له بها ولا أرض، فقسَّم له الحسن دار عليٍّ عليه السلام بنصفين وأعطاه سنخ (سنح) أرض أقطعه إيّاها...»^(٢).

و مما تقدم يتضح أن للإمام جهوداً شاملةً متعدّدة الأشكال جمعت بين الدّعوة النظرية والعملية وتضافرت جميعها في الجانب الفكري آخذةً منحىً تكاملياً تعزيزياً اصطبغ به موروثة الروائي بأجمعه.

(١) مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمّد بن علي بن شهر آشوب السّروي المازندراني، ج ٤،

ص ٤١.

(٢) رجال النجاشي، مصدر سابق، ص ٥-٦.

الفصل الثاني

جانبٌ فكريّ متعدّد التراث

إنّ الفكر الشامل للإمام (عليه السلام) ومع الكيفية السالفة الذكر، ليس من طبيعته أن يقف محدوداً في الجانب التبليغي لشخصيته الرّسالية عند جانبٍ معرفيّ أو اثنين، يشهد بذلك إرثه الروائي الذي أفاد المجتمع الإنساني عموماً والإسلامي خصوصاً وتحديدًا فيما يتعلق بمتبنيات المجتمع الفكرية في العقيدة والتفسير والفقه، لذا بالإمكان متابعة جهوده في هذه الميادين مع بعض الشواهد على نحو الإجمال، كما يأتي:

١. التراث العقائدي:

و سيتم في هذا المورد التطرّق لأهم المفاصل العقائدية التي عرض لها الإمام في كلماته:

أ. التوحيد:

يتسع تراث الإمام (عليه السلام) العقائدي لجميع مفاصل العقيدة الإسلامية غير أنّه (عليه السلام) يبتدئ بتعريف الناس برّبهم على غرار قاعدة أمير المؤمنين (عليه السلام) العقائدية في مبتدأ خطبه وكلماته: «أَوَّلُ الدِّينِ معرفته...»^(١) والذي صار ذلك نهجاً ينتهجه أيُّ مبلغٍ واعٍ. فينطلق الإمام الحسن (عليه السلام) مفصّلاً في هذا المعنى لاستكمال اللازم العقائدي في توحيد الله سبحانه.

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ١، ص ٤٥.

فمن ذلك قوله ﷺ: «الحمد لله الذي لم يكن له أولٌ معلومٌ، ولا آخرٌ متناهٍ، ولا قبلٌ مدركٌ، ولا بعدٌ محدود، ولا أمدٌ بحثي، ولا شخصٌ فيتجزأ، ولا اختلافٌ صفةً فيتناهى، فلا تُدركُ العقولُ وأوهامها ولا الفكرُ وخطراتها ولا الأبوابُ وأذهانها صفةً فنقول: متى؟ ولا بُدئٌ ممّا؟ ولا ظاهرٌ على ما؟ ولا باطنٌ فيما؟ ولا تاركٌ فهلّا؟ خلق الخلق فكان بديئاً بديعاً، ابتداءً ما ابتدع، وابتدع ما ابتداءً، وفعل ما أراد، وأراد ما استزاد، ذلكم الله ربُّ العالمين»^(١).

و من كلمة له ﷺ في موقفٍ آخر: «الحمد لله الذي كان في أوليّته وحدانياً، وفي أزليّته متعظماً بإلهيّته، متكبراً بكبريائه وجبروته، ابتداءً ما ابتدع وأنشأ ما خلق، على غير مثالٍ كان سبق ممّا خلق..»^(٢).

وهذه العيّنة من كلمات الإمام التوحيدية، تُشخص القابلية المعرفية للإمام والتي لا يطيقها إلا من وسع قلبه لإدراك المعارف الإلهية وعرف ربّه حق معرفته، وهو ما سبق الرسول الخاتم وأهل بيته الناس إليه الى حيث المقام الذي لا يسع غيرهم إلا الأخذ فيه عنهم.

ب. النبوة:

وفي النبوة جاءت كلماته ﷺ موجّهة الى عظيم هذه المنزلة وجليل مقام صاحبها: النبي الأعظم ﷺ. وفي ذلك قوله ﷺ: «.. أنا ابن نبي الله، أنا ابن من جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، أنا ابن السراج المنير، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن خاتم النبيين، وسيد

(١) التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، باب التوحيد ونفي التشبيه، ح ٥، ص ٤٦-٤٧.

(٢) كفاية الأثر، أبو القاسم علي بن محمد الخزاز الرازي، باب ما روي عن الحسن بن علي ﷺ، ح ١، ص ٢٥٦.

المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين.. أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين»^(١).
وله (عليه السلام) أيضاً: «... وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد، فأنقذكم به من الضلالة، ورفعكم به من الجهالة، وأعزكم به بعد الدلة، وكثركم به بعد القلة...»^(٢).
وقد جاءت كلمة الإمام مرسخةً مقام النبوة في البناء العقائدي الإسلامي كثاني أساس بُنيت عليه العقيدة الإسلامية بعد أساس الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده؛ ومبيّنة دوره الفكري المجمل تاركةً التفصيل إلى سيرة الإمام نفسه كونه المرآة العاكسة للنهج النبوي.

ج. الإمامة:

أمّا الإمامة فقد كان في كلمات الإمام ما أكّد عليها، كونها مفصلاً عقائدياً دار عليها محور القيادة الإسلامية ولم تأخذ حيزها المناسب في الانتشار والفهم الصحيح بين المسلمين، فما كان من الإمام إلّا أن شرع في تبينه والتثقيف إليه.

و من كلمات الإمام في التثقيف للإمامة الإسلامية ومبدأ الموالاة: «... وقد تركت هذه الأمة أبي وبايعوا غيره، وقد سمعوا رسول الله ﷺ يقول: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا النبوة، وقد رأوا رسول الله نصب أبي يوم غدیر خم، وأمرهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب...»^(٣)

وجاء من كلمة للإمام في موقف آخر مُنبهاً على مكانة الإمامة وعلى أحقية علي (عليه السلام) بالإمامة وضرورة موالاته: «... فعليّ من رسول الله، ورسول الله منه، وقال له نبي الله ﷺ

(١) مقتل الحسين (عليه السلام)، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي، ج ١، ح ٨٧، ص ١٨٤.

(٢) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٩٣.

(٣) الأمالي، للطوسي، مصدر سابق، مجلس ٢٠، ح ٩، ص ٥٦٠.

حين قضى بينه وبين أخيه جعفر بن أبي طالب عليه السلام ومولاه زيد بن حارثة في ابنة حمزة: أما أنت يا علي فمني وأنا منك، وأنت ولي كل مؤمن بعدي»^(١).

و الى أحقية أهل البيت النبوي بالخلافة وارتباط الإمامة بهم أشار عليه السلام: «نحن نقول أهل البيت: إنَّ الأئمة منّا، وإنَّ الخلافة لا تصلح إلّا فينا وإنَّ الله جعلنا أهلها في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله...»^(٢).

وقد تعددت كلمات الإمام المذكرة بذلك ولم يدع عليه السلام مكاناً إلّا وذكر فيه وأرشد اليه من واقع مسؤوليته لكونه إمام المسلمين.

د. العقيدة المهدوية:

وفي العقيدة المهدوية، جاءت كلمات الإمام مفصحة عن ضرورة وجوده وحتمية ظهوره وأهميته في الأمة: «.. ذلك التاسع من ولد أخي الحسين، ابن سيّدة الإمام، يطيل الله عمره في غيبته، ثم يظهره بقدرته في صورة شاب دون أربعين سنة، ذلك ليعلم أنّ الله على كل شيء قدير»^(٣).

و الى دولة المهدي عليه السلام يشير الإمام عليه السلام رداً منه على بعض الأمويين وقد تغامزوا به: «قد رأيت تغامزكم، أما والله لا تملكون يوماً إلّا ملكنا يومين، ولا شهراً إلّا ملكنا شهرين، ولا سنةً إلّا ملكنا سنتين، وإنّا لنأكل في سلطانكم ونشرب ونلبس ونركب وننكح، وأنتم لا تركبون في سلطاننا ولا تشربون ولا تأكلون ولا تنكحون، فقال له رجل: فكيف يكون ذلك يا أبا محمد وأنتم أجود الناس وأرأفهم وأرحمهم تأمنون في

(١) الأمالي، للطوسي، مجلس ٢١، ح ١، ص ٥٦٢.

(٢) العدد القوية لدفع المخاوف اليومية، رضي الدين علي بن يوسف بن المطهر الحلي، ص ٣١.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (الصدوق)،

سلطان القوم ولا يأمنون في سلطانكم؟ فقال: لأنهم عادونا بكيد الشيطان وهو ضعيف وعاديناهم بكيد الله وكيد الله شديد»^(١).

هـ. العدل:

و من كلماته في مفصل العدل، هذه الكلمة المستفيضة في هذا المعنى: «... إن الله ﷻ لا يطاع باكره، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد من الملكة، ولكنه المالك لما ملكهم، والقادر على ما أقدرهم، فان ائتمروا بالطاعة لم يكن عنها صاداً مثبطاً، وان ائتمروا بالمعصية، فشاء أن يحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل، وان لم يفعل فليس هو حملهم عليها، ولا كلّفهم اياها جبراً»^(٢).

و. المعاد:

وله (عليه السلام) في المعاد، هذا العنوان الجامع والذي يسمى بالبعث أو اليوم الآخر أو يوم القيامة والذي يحمل مضامين الثواب والعقاب من حساب وجنة ونار، كلمات منها قوله (عليه السلام): «أما بعد: فإن القبور محلّتنا، والقيامة موعدنا، والله عارضنا، وأن علياً بابٌ من دخله كان آمناً، ومن خرج منه كان كافراً»^(٣).

وقوله (عليه السلام): «.. النَّاسُ طَالِبَانِ: طَالِبٌ يَطْلُبُ الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهَا فَهُوَ هَالِكٌ، وَطَالِبٌ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهَا فَهُوَ نَاجٍ فَائِزٌ...»^(٤).

٢. التراث التفسيري:

يمثل هذا التراث في كلمات الإمام الحسن (عليه السلام) أوضح مصداق لمقام الإمام كعدلٍ

(١) مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج ٤، ص ١١ و ١٢.

(٢) العدد القوية، ص ٣٤.

(٣) العدد القوية، ص ٣٨.

(٤) إرشاد القلوب، الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي، ج ١، ص ٦٦.

للكتاب الكريم، حيث كانت هذه العِدلية متجسّدةً على نحو التحقيق قولاً وعملاً، وفي ضوء ذلك، توزّع تراث الإمام برّمته بين القول والعمل، وما يهم البحث هنا هو كلمات الإمام المرتبطة بإيصال كتاب الله الى الناس فكراً، باعتباره من أهم المهام التبليغية له ﷺ كإمام هادٍ للأمة، وقد جاء نهجه في ذلك على نحوين: الأول في هداية الناس الى القرآن وتعريفهم به، ويتبع ذلك إرشادهم وتثقيفهم اليه، والثاني في كشف مضامينه ودلالاته (تفسيره).

فعلى المستوى الأول، جاءت كلماته ﷺ مُعرّفةً بالكتاب ومُفصّحةً عن مقامه التنويري، كقوله ﷺ: «إنّ هذا القرآن فيه مصابيح النور، وشفاء الصدور، فليجُل جالٍ بضوئه، وليلجم الصفةُ قلبه»^(١). أو قوله ﷺ: «إنّ هذا القرآن يجيء يوم القيامة قائداً وسائقا، يقودُ قوماً الى الجنة، أحلُّوا حلاله وحرّموا حرامه وآمنوا بمتشابهه، ويسوقُ قوماً الى النار ضيّعوا حدوده وأحكامه واستحلُّوا محارمه»^(٢).

وعلى المستوى الثاني، مارس الإمام مهمة التفسير بشكلٍ يتناغم مع مهمته التبليغية كإمام معصوم سيرته العملية قرآنٌ حيٌّ ناطقٌ بين الناس، وليكون مصداقاً لقوله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»^(٣). حيث يضع الإمام الأساس الفكري الحافظ لمكانة القرآن بين الناس؛ ذلك أنّ للقرآن شأنًا علويًا لا تناله العقول إلّا عقل المطهرين: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٤).

فلم يكن الإمام ليتصدى لمسؤولية تفسير كتاب الله ما لم تكن عنده مقومات الإمام

(١) العدد القوية، ص ٣٨.

(٢) إرشاد القلوب، ج ١، ص ١٦١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) الواقعة: ٧٩.

المطهر وهو قوله ﷺ: «نحن حزب الله الغالبون، وعتره رسوله الأقربون، وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ في أمته، والثاني كتاب الله، فيه تفصيل كل شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمعول علينا في تفسيره، لا نتظن تأويله، بل نتيقن حقائقه»^(١)

و من الطبيعي أن يمتاز الإمام عمن سواه بإشاعة ثقافة النص القرآني عن طريق إجابة السائلين من خلال الحلقات العلمية التي كان يقيمها في مسجد الرسول ﷺ مثلاً. ومن ذلك ما نقله الواحدي في تفسيره الوسيط عن رجل قال: «دخلت مسجد المدينة فإذا أنا برجل يحدث عن رسول الله ﷺ، والناس حوله فقلت: أخبرني عن ﴿.. شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾^(٢) قال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم عرفة، فجزته الى آخر يحدث عن رسول الله ﷺ فقلت: أخبرني عن ﴿.. شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾. قال: نعم، أما الشاهد فيوم الجمعة، وأما المشهود فيوم النحر، فجزتها الى غلام كأن وجهه الدينار وهو يحدث عن رسول الله ﷺ، فقلت: أخبرني عن ﴿.. شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ قال: نعم، أما الشاهد فمحمد ﷺ، وأما المشهود فيوم القيامة، أما سمعته يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣) وقال الله ﷻ: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾^(٤) فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، وسألت عن الثاني فقالوا: ابن عمر، وسألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي»^(٥).

(١) الأمالي، للطوسي، المجلس ٣٩، ح ١٢، ص ٦٩١.

(٢) البروج: ٣.

(٣) الأحزاب: ٤٥.

(٤) هود: ١٠٣.

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، ج ٤،

٣. التراث الفقهي؛

لا يختلف التراث الفقهي في كلمات الإمام (عليه السلام) عن بقية تراثه، فهو ينبع من المعين نفسه ليشكّل انعكاساً آخر لحضور الإمام التكاملي مع علم الرسول بالكتاب والشرعة السمحاء، فإن أُطلق على الإمام لقب الفقاهة فهو بالتأكيد لا يقترب من المفهوم المتداول من قريبٍ أو بعيد، ذلك أنّ فقاهة الإمام إحاطية لا اجتهدية؛ إحاطية بالمسألة محل الإبتلاء في أصولها وفروعها، أخذاً فيها مباشرة عن المشرّع الأول (عليه السلام) عبر تلقي العلم عن طريق التسلسل الهرمي للمعصومين، كما صرح الإمام الحسن (عليه السلام) بذلك: «إنّ الله تبارك وتعالى علّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحلال والحرام والتأويل وعلم رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً (عليه السلام) علمه كلّهُ»^(١).

وقد تبلور مثال الإمام الفقهي بامتزاج العلم بالعمل حتى بات المثال الذي يحتذيه جميع المسلمين، ففي جانبه العملي ما ذكره الإمام الصادق (عليه السلام) حيث قال: «حدّثني أبي، عن أبيه (عليه السلام) أنّ الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان أعبد الناس في زمانه وأزهدهم وأفضلهم وكان إذا حجّ حجّ ماشياً وربما مشى حافياً»^(٢)، أو في مثال آخر يتجلى فيه ارتباطه الصميمي ببارئته وهو ما نقله الصادق (عليه السلام) أيضاً عن أبيه عن جدّه حيث قال: «كان الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) يصليّ، فمرّ بين يديه رجلٌ فنهأه بعض جلسائه، فلما انصرف من صلاته قال له: لم نهيت الرّجل؟ قال: يا بن رسول الله حَظَرَ فيما بينك وبين المخراب، فقال: ويحك إنّ الله (صلى الله عليه وآله) أقرب إليّ من أن يحظُر فيما بيني وبينه أحد»^(٣).

وفي الجانب العلمي كان الإمام يحيب عن مسائل الناس صغيرها وكبيرها، ولم

(١) بصائر الدّرجات، أبو جعفر محمّد بن الحسن بن فروخ الصفار، ج ٦، باب ١٠، ح ٢، ص ٣٣١.

(٢) بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمّد باقر المجلسي، ج ٤٣، الباب ١٦، ح ١،

ص ٣٣١.

(٣) التوحيد، مصدر سابق، باب ٢٨، ح ٢٢، ص ١٧٩.

يكتف بذلك بل هياً كما فعل أبوه أمير المؤمنين كوكبةً من أصحابه ممن كانوا مؤهلين لاستيعاب مسائل الفقه والتصدي لتعليم الناس أمور دينهم، وهو ما يظهر اهتمام الأئمة بمقام المرجعية، كما أن الإمام تصدى للقضاء والفصل بين الناس منذ عهد أمير المؤمنين (ع) كجزء لا يتجزأ من منظومة الفقه، وارتباط ذلك بالسلم المجتمعي.

و من جملة ما أثر عنه (ع) في الفقه: التربية الفقهية بتعليم الفرد المسلم روح الفقه وممارستها كسجية من سجايه من أجل بناء الشخصية التقية لديه والتي طالما دعا الأئمة إليها في كلماتهم، كقوله (ع): «حق على كل من وقف بين يدي رب العرش أن يصفر لونه وترتعد مفاصله»^(١) وقوله (ع): «لا حياء لمن لا دين له»^(٢).

وفي مسائل الفقه العبادية، قوله (ع): «إذا أضرت النوافل بالفريضة فارفضوها»^(٣) ومن نصوص الأمر بالمعروف ما أجاب به رجلاً: «إياك أن تمدحني فأنا أعلم بنفسك أنك تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب، أو تغتاب عندي أحداً»^(٤)، ومن جملة مسائل القضاء ما كان في زمن أمير المؤمنين، من اعتراف قاتل بفعلته انقذاً منه لبريء، فقال (ع): «قولوا لأمر المؤمنين (ع): إن هذا إن كان ذبح ذاك فقد أحيا هذا وقد قال الله (ع): ﴿.. وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا..﴾»^(٥) يخلّى عنهما وتخرج دية المذبوح من بيت المال»^(٦) وبالمحصلة، استطاع الإمام الحسن (ع) أن يبرز بالكلمة والممارسة تراثاً فكرياً اتخذ

(١) مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ١٧.

(٢) كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٩٤.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، ص ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المائة: ٣٢.

(٦) فروع الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، ج ٧، كتاب الديات، باب نادر، ح ٢،

شكلاً تعدّدياً تمثّلت فيه أركان المعرفة الإسلامية من عقيدةٍ وتفسيرٍ وفقهٍ لما فيه خدمة المسلم المكلف علماً وعملاً.

الفصل الثالث

دراسة فكرية في الجانب الخطابي

قاعدة عريضة :

إنّ دراسة الواقع الخطابي في كلمة الإمام الحسن (عليه السلام) مع استخلاص الجوانب الفكرية منها تستلزم استحضار جميع الأدوات الفنية والمعرفية اللازمة، وذلك لاعتبارات عدّة، من أهمها اثنان: الخلفية الرسالية ذات المضمون العالي التي انطلق منها خطاب الإمام والقيمة الرفيعة التي حواها على المستويات التبليغية والأدبية والبلاغية والدينية والتربوية والاخلاقية والاجتماعية وغيرها، فقد امتاز خطابه (عليه السلام) بالصيغة التكاملية الثرة.

ولهذا، فإنّ القيمة المعرفية (الفكرية) ستكون غنيّة في كلمات الإمام في هذا الصعيد بالتأكيد، وستعكس واقع الحضور الفكري للإمام لدى الأُمَّة ومدى تأثيره العميق في وجدان أفرادها، وهذا الأمر يشجع على الإنطلاق نحو دراسة هذه الظاهرة السلوكية لدى الإمام توخيّاً لقيمتها الفكرية، وبما يرتبط بموضوع البحث إجمالاً في هذا الفصل.

و مما تقدم، يكون واضحاً وجود مرتكزين أساسيين لظهور القيمة الخطابية عند الإمام المجتبي (عليه السلام)، بل وعند باقي أئمة البيت النبوي (عليهم السلام). فلا يتمكن أيّ دارسٍ في هذا الميدان من إغفالهما، ألا وهما الأصل القرآني والمنبع النبوي.

فعلى مستوى الأصل القرآني ومن خلال فهم العلاقة الراسخة بين الكتاب والعترة يُمكن استيعاب وجود تلاقٍ دائم لبيان الإمام مع البيان القرآني، فالبيان القرآني وسيلة

سماوية رفيعة جاءت لمخاطبة الخلق والاحتجاج عليهم، بما تتسم من الآيات البلاغية الإعجازية وعلى جميع مستويات لغة الخطاب أسلوباً وفكراً؛ ولكونها منظومة شاملة وواسعة وبلحاظ حديث الثقلين كان لابد للخطاب القرآني من خطاب يساوقه ويعضده لكن بلسانٍ أرضيٍّ - بشري، له أن يحمل تلك الصفات الإعجازية التي للسان السماوي.

أمّا على مستوى المنبع النبوي وفهم ما له من أثر فكريٍّ، يمكن الرجوع الى ما رواه الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه الباقر عليه السلام من جوابه لأحدهم: «أيها الرجل تحتقر الكلام وتستصغره! اعلم أن الله جلّ وعزّ نفسه الى خلقه بالكلام والدلالات عليه والاعلام»^(١)

لذا فالكلام النبويّ هو المصدق الرئيس للسان البشري المعصوم، المتناغم مع الكلام الإلهي والذي تجلّى فيه التكامل البياني ما بين الخطاب السماوي والخطاب الأرضي المعصوم، لاسيما وأنه انبثق من أصدق لسان وأفصح، فقد كان عليه السلام: «أفصح الناس منطقاً وأحلامهم كلاماً.. وكان نزر الكلام سمح المقالة؛ إذا نطق ليس بمهذار، وكان كلامه كخرزات نُظمن»^(٢)

وقد استمر هذا النبع في البيان العلوي الذي كان مثلاً متطوراً وشاملاً في توجّهه الرسالي وبحكم ما رافقه من تطوراتٍ في الساحة الإسلامية، ولكونه من سنخ الكلام النبوي فقد حمل الكلام العلوي ذات القيمة الفكرية المتوخاة للنص القرآني والنص النبوي، وهو ما أشار اليه أحد المتخصصين في نهج البلاغة بالقول: «إن النصوص

(١) أصول الكافي، كتاب الروضة، حديث من وُلد في الإسلام، ح ١٢٨، ص ٧٤٥.

(٢) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة،

التي تنتظم في نهج البلاغة، بما تكوّن من خطاب متعدد الأبعاد، وبما تمثله من منظومة معرفية تتخذ من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة متكاً لها، من جهة، وهي تمارس، كذلك، مسؤولية الكشف عما تكتنّيه من إحاطة معرفية شاملة بالحياة البشرية من طرفيها، من جهة أخرى، فهي تستجيب بشكل جلي لطموحات الإنسان في التربية والأخلاق والسياسة والاقتصاد والإدارة والفلسفة، وأبعاد الحياة كافة التي تسهم في التطور الحضاري وتشد الرقي البشري؛ إذ تجد أن هناك تقسيمات للبشر سواء كان ذلك على مستوى الفكر والعلم والالتزام أو غيره»^(١)

و في هذا الخصوص، فإن أي دراسة موضوعية للخطابة الحسنية لا يمكن لها أن تقفز على حقيقة اتصالها بالخطابة العلوية لا كيانه منفصلاً عنه بل جزءاً مستمراً منه، لهذا يشقّ على أي قارئ متخصص أو غير متخصص أن يفرّق بين كلام كلاً الإمامين إلّا بعد معرفة اتصاله باسمه، وهو ما جاء عن النبي ﷺ بحق ابنه الحسن في خبر الأعرابي: «إن أحببت أخبرك عضو من أعضائي...»^(٢)

و مما تقدّم يتضح انطلاق الخطابة الحسنية من قاعدة عريضة ركيزتها: النص القرآني والنبوي بامتداده العلوي وبالمضمون الفكري ذاته، ولتحمل كلماته ذات الصفات والميزات شكلاً ومضموناً، لذا سيتم التطرق في الدراسة بالاختصار على البنية والغرض دون سواهما لضيق المجال.

(١) الخطاب في نهج البلاغة، حسين العمري، ص ١٢.

(٢) يُنظر تفصيل الخبر في بحار الأنوار، ج ٤٣، باب مكارم الإمام الحسن وعلمه وفضله وشرفه،

بُنية الخطابة :

تنطلق الخطابة الحسنية بشكلٍ عام نحو شريحة واسعة من المتلقين، مؤمَّنة نوعاً فريداً من التواصل الإنساني يعكس مكانة الإمام قائداً هادياً للأُمَّة، وعطفاً على ذلك، فإن الأداء الخطابي هنا يتميز مما سواه من عموم كلام المتحدثين والمخاطبين، وستتناول الدراسة هنا، على نحوٍ خاص، حُطْب الإمام الموجهة لجموع من الناس دون سائر كلمات الإمام القصيرة أو الطويلة التي كان يبثها في مجالس العلم والقضايا المجتمعية.

لهذا امتازت خطبه عليه السلام بطابعٍ ودِّيٍّ جامع، على غرار المنطق النبوي وتعامله مع الناس من موقع الهداية لا التسلُّط: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١) لذا تعامل الخطاب بإسلوب إخضاعٍ غير قسري من أجل عملية إقناع عقلي مشفوع بالسيرة العملية الصادقة التي مارسها الإمام في السر والعلن وعرفها منه المخالف قبل المؤلف، وتأتي كلماته متدفقة دون تكلُّفٍ وتعقيد لتحاكي أذهان العامة والخاصة كلُّ بحسبه وبشكل مبسَّط ينبض بالحياة مبتعداً عن الجمود.

مقومات بُنية الخطابة :

تستند البُنية الخطابية عند الإمام على جملة من المقومات التي شكَّلت السِّمة العامة لها والتي تميَّزت بها مما سواها من كلام المخلوقين، ويمكن إجمال هذه المقومات على النحو الآتي:

أ. التوجيه المعرفي:

يستخدم الإمام في خطبه منهجاً واضحاً في تهيئة المتلقي لجذب انتباهه نحو هدف

(١) آل عمران: ١٥٩.

الخطبة قبل الاسترسال فيها، بعرضٍ تقديميٍّ توجيهيٍّ يُخَصِّرُ به الإمام الأسماع والعقول لتقبُّل مبادئه وأفكاره، وقد نحى هذا التوجيه منحيين مزدوجين:

تمثِّل المنحى الأول: بتوجيه الأُمَّة الى التعريف بأهل البيت النبوي، خاصةً أن كلمات الإمام جاءت في مُدَّةٍ زمنيةٍ قلقيةٍ وحرَجَةٍ عاشها المجتمع الإسلامي وهو أحوج ما يكون للبحث عن الاستقرار والرجوع الفطري الى أَسْ الدين المتمثِّل بأهل البيت النبوي، فجاءت كلمات الإمام في هذا الشأن إمَّا مُعَرِّفَةً بهم لمن جهل حقَّهم أو مذكِّرةً بحقَّهم لمن عرفه أو أنكره، ولكل واحدةٍ منها نكتته البَيانية، الخارجة عن محل البحث.

بينما تمثِّل المنحى الثاني: بالتوجيه الى مقامهم ودورهم المعرفي والأساسي الذي لا غنى للأُمَّة عنه، لاسيما وأن كلمات الإمام تحمل في طياتها مضموناً فكرياً عميقاً لا يستقيم بيانه دون أن يستند الى قاعدةٍ معرفيةٍ تناسبه وتحتضنه، وفي ظل تيهانٍ معرفيٍّ عانت منه الأُمَّة متخبطَةً بين موجة البدع والغزو الثقافي عبر الإسرائيليات وظاهرة القصص.

و طالما حفلت خطب الإمام ومواقفه باستخدام هذه البواديء التقديمية في كِلا المنحيين مشيرةً اليه والى أهل بيته عليه السلام في عدَّة مناسبات، فمن أمثلة ما جاء في المنحى الأول، قوله عليه السلام: «أيها الناس: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمَّد النبي عليه السلام.... وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»^(١).

و مثله قوله عليه السلام: «أيها الناس: إنَّ أَكْبَسَ الكَيْسِ الثَّقَى، وأَحَقَّ الحَقِّ الفَجُورُ، وانكم لو طلبتم ما بينَ جَابَلَقَ وجَابِرَسَ^(٢) رجلاً جده رسولُ الله عليه السلام ما وجدتموه غيري

(١) الأمالي، للطوسي، المجلس ١٠، ح ٣٩، ص ٢٧٠.

(٢) جَابَلَقُ: مدينة بأقصى المغرب؛ جَابِرَسُ: مدينة بأقصى المشرق. (معجم البلدان، شهاب الدين

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرُّومي البغدادي، ج ٢، ص ٩٠-٩١).

وغير أخي الحسين، وقد علمتم أن الله هداكم بجدي محمد^(١).

و مثله ما جاء في المنحى الثاني، قوله ﷺ في خطبة له:

«أيها الناس: إعلموا عن ربكم ﷻ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»^(٢) فنحن الذرية من آدم، والأسرة من نوح، والصفوة من ابراهيم، والسلالة من اسماعيل، وآل من محمد ﷺ^(٣).
أو في أخرى:

«من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن رسول الله، أنا ابن البشير النذير، أنا ابن المصطفى بالرسالة، أنا ابن من صلّت عليه الملائكة، أنا ابن من شُرُفت به الأئمة، أنا ابن من كان جبريل السفير من الله اليه، أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين صلى الله عليه وآله أجمعين»^(٤).

ب. المصادقة:

تنطلق الخطابة عند الإمام ﷺ من شخصيته الصادقة التي هي عنده ﷺ من بدييات طبيعته السويّة كما أنّها من لوازم حجّية إمامته المفترضة الطاعة، فلم تكن لتطرأ على لسانه ﷺ كلمة في غير محلّها، أو عبارة زائدة، أو تعبيرٌ مبالغ فيه، وهذا ما ميّز كلام الإمام عمن سواه من عموم الخطباء وعرفه الناس عنه ﷺ واطمأنوا اليه، لذا كان وقع كلماته فيهم بليغاً، وتأثيره الفكري عميقاً؛ بغض النظر عن اتباعهم له من عدمه فتلك حالة تقصيرٍ للمتلقي لا المُلقّي.

(١) كشف الغمة، ج ٢، ص ١٩٣.

(٢) آل عمران: ٣٣ - ٣٤.

(٣) العدد القويّة، ح ٢١، ص ٣٢.

(٤) تحف العقول، ص ١٦٥.

فالمصادقية في كلام الإمام وخطاباته تعني حضور رابطٍ قويٍّ بين الموقف المتخذ وحقيقته وعلى نحوٍ ثابتٍ مستمر، مؤدِّياً فيه دور المبلِّغ عن الله الى الناس، وهو أمرٌ يستدعي الدقة في تعبير الإمام وامتناع ورود ظواهر مثل العشوائية والاعتباطية والارتجال السلبي في كلماته، وهذا ما يعكس فكراً خالصاً ولغةً صافيةً، وصولاً الى كلامٍ معصومٍ.

و بتتبع كلمات الإمام الثابتة عنه في هذا الصدد يتّضح هذا المعنى، فإنّها جميعاً منسجمةٌ مؤتلفةٌ على مصداقية واحدة لا يتخللها التضارب والتناقض، وهنا ميزة فكرية واضحة، فالإمام في كلماته لا يقف عند هذا الحد بل يعمل على أخذ مستمعيه الى ما وراء كلامه وملامسة الحقائق المقصودة، وهذا ما يتجلى في حالة حرصه على جميع الناس وبذل النصح لهم، كقوله (عليه السلام) من خطبة له: «أيّها الناس: إنه من نصح الله وأخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم، ووفقه الله للرشاد، وسدّده للحسن، فإنّ جار الله آمنٌ محفوظ وعدوّه خائف مخذول، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر، واخشوا الله بالتقوى، وتقرّبوا الى الله بالطاعة، فانه قريب مجيب»^(١).

وقوله (عليه السلام) في أخرى: «أما بعد: فوالله إنّي لأرجو أن أكون قد أصبحتُ بحمد الله ومنّه - وأنا أنصح خلق الله لخلقهِ، وما أصبحتُ محتملاً على مسلم ضغيئةً، ولا مُريداً له بسوءٍ ولا غائلةً، ألا وإنّ ما تكرهون في الجماعة، خيرٌ لكم ممّا تحبون في الفرقة، ألا وإنّي ناظرٌ لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تُخالفوا أمري، ولا تردّوا عليّ رأيي»^(٢).

ويظهر الحرص والنصح بشكل أوضح في قضية الهدنة مع معاوية، ليتطابق الواقع

(١) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٢) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب ب (الشيخ المفيد)، ج ٢، باب الإمام الحسن (عليه السلام)، ص ١١.

مع حقيقته مرةً أخرى، كما في خطاب الإمام مع المعترضين: «أنتم شيعتنا وأهل مودتنا، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أربض وأنصب، ما كان معاوية بأشد مني بأساً ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة، ولكني أرى غير ما رأيتم، وما أردت بما فعلت إلا حقن الدماء فارضوا بقضاء الله، وسلّموا لأمره، والزمو بيوتكم وأمسكوا»^(١).

ج. وضوح الغرض:

وهو واحدٌ من المقوّمات البارزة في خطابة الإمام الحسن (عليه السلام)، كما أنه انعكاس مكمل لمقوم المصادقية، فإن التزام الإمام بمعيار كشف الحقيقة وربط واقع الأمة بها، يتطلب الوصول الى الغرض بشكلٍ مباشرٍ وواضح، ومادام ذلك يسير عنده (عليه السلام) سيراً فعلياً فإن الهدف البياني بطبيعة الحال سيكون معلناً وواضحاً.

ويقدّم الإمام في كلماته الخطابية أغراضاً فرعية تتضافر فيما بينها تهيئةً لغرضٍ رئيسٍ واحدٍ أو أكثر، ويمكن استعراض العديد من العينات من خطابات الإمام فضلاً عن كلماته الأخرى لتلمّس وجود هذا المقوّم بالكيفية المذكورة، غير أنه يكفي هنا الاستدلال بالمقطع الآتي من الخطبة التي ألقاها الإمام ردّاً على عمرو بن العاص في محضر معاوية:

«.. والله إنك لتعلم أنّ علياً لم يرتب في الدين، ولا يشكّ في الله ساعة ولا طرفة عين

قط»^(٢).

ففي هذه الفقرة، يُصرّح الإمام عن واحدٍ من أغراض خطبته دون مواردٍ وبصورةٍ مباشرة، مُعرّياً فيه مدعى عمرو الذي حاول الاحتيال بالكذب العلني وهو ديدن معظم منتحلي منبر الخطابة من قدماء ومعاصرين، الذين يميلون الى إخفاء مقاصدهم

(١) تنزيه الأنبياء، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي المعروف ب (الشريف المرتضى)،

ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٦-٢٠٧.

بالغموض والمواربة، الممتنعين في نهج الإمام وأخلاقياته، ثم ينتقل الإمام الى الغرض الواضح التالي:

«.. فَإِيَّاكَ وَالتَّهْجَمَ عَلَيَّ، فَإِنِّي مَنْ قَدْ عَرَفْتُ، لَسْتُ بِضَعِيفِ الْعَمَزَةِ، وَلَا هَشِّ الْمَشَاشَةِ، وَلَا مَرِيءِ الْمَأْكَلَةِ، وَإِنِّي مِنْ قَرِيشٍ كَوَاسِطَةِ الْقِلَادَةِ...»^(١)

في هذه الفقرة، يعرض الإمام غرضاً فرعياً آخر، يتمحور حول أحقية أهل البيت النبوي ومظلوميتهم، ويحمل الكلام بين طياته الإلماع الى الحق الإلهي المذكور في كتابه بكل الآيات الضامنة لارتباطهم به سبحانه وإرجاع الناس اليهم وتجريم مناوئتهم، وصولاً الى ما قد يكون واحداً من الأغراض الرئيسة في الخطبة:

«.. فَإِيَّاكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ رَجَسٌ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ الطَّهَارَةِ، أَذْهَبَ اللَّهُ عَنَّا الرَّجَسَ وَطَهَّرَنَا تَطْهِيراً»^(٢)

في هذه الفقرة، تأتي -أشبه ما يكون- بثمرة الخطبة أو إحدى ثمراتها، فإنّ الخطبة باعتبارها خطبةً سياسيةً بامتياز دارت حول أحقية البيت النبوي بالقيادة السياسية بعد إذعان المسلمين جميعاً، أحبوا أم كرهوا، لأحقّيتهم في القيادة الدينية، لذا فإن الإمام يستخدم في هذه الفقرة المقام الديني الفاصل بينهم وبين شائئهم، مذكراً تضميناً بتفريط الأئمة بقيادتهم، وفداحة ما ارتكبه عدوهم.

إنّ هذه الميزة في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام)، بجميع فقراته وعباراته المنسجمة وتركيبته المترابطة على النحو المذكور من وضوح الغرض، تُعطي زخماً وقوةً لمضمونه يسرّعان من عملية الإقناع والمحاججة، وبما يُعزز من وحدة الخطاب وتكامله فكرياً.

(١) شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) المصدر السابق.

أنماط الخطاب:

يمثل وجود أنماط الخطاب عند الإمام المجتبي ﷺ صورةً تكامليةً يمكن التعرف منها على الإثراء الفكري المتنوع الذي تمتع به، فتضمّن خطابه ﷺ خطاب اجتماعي وسياسي وعسكري ومعرفي وأخلاقي الى غير ذلك من الأنماط، يكشف مساحةً فكريةً واسعةً توفّرت عند الإمام، وسيتم الاقتصار على أنماط مختارة في هذه العجالة كعيّنة تفيد البحث:

١. الخطاب الاجتماعي:

يسجّل هذا النمط الخطابي رقماً هاماً في سلسلة البيان الراشد من الإمام الى رعيته، يعرض فيه رؤيته الاجتماعية خالصةً ومعبرةً عن فكره البناء في مجتمعه باعتباره الحافظ والضامن لنواة المجتمع ككل فرداً أو جماعة، ومن أمثلة هذا الخطاب الخطبة التالية:

«إعلموا أنّ العقل حرّز، والحلم زينة، والوفاء مروّة، والعجلة سفه، والسفه ضعف، ومجالسة أهل الزنا شين، ومخالطة أهل الفسوق ريبة، ومن استخفّ بإخوانه فسدت مروّته، وما يهلك إلا المرتابون، وينجو المهتدون الذين لم يتهموا الله في آجالهم طرفة عين، ولا في أرزاقهم، فمروّتهم كاملة وحيائهم كامل، يصبرون حتّى يأتي الله لهم برزق، ولا يبيعون شيئاً من دينهم ومروّاتهم بشيء من الدنيا، ولا يطلبون شيئاً منها بمعاصي الله، ومن عقل المرء ومروّته أنّه يسرع الى قضاء حوائج اخوانه وان لم ينزلوها به»^(١).

٢. الخطاب التربوي:

يُقَدّم الإمام في هذا النمط مادّة دسمة تحاكي المعرفة التربوية التي يتمتع بها الإمام

(١) إرشاد القلوب، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٢.

قائداً ومريباً. ويحتل هذا النمط في خطب المعصومين مساحةً واسعةً لمدخلية الموضوع التربوي في حياة عامة الرعية؛ كما أنه موضوع ذو تماسٍ مباشرٍ مع المعصوم حيث يدخل في صلب مشروع الهداية العامة الذي تبناه الرسل والأنبياء وأوصياؤهم، والخطبة التالية مثالٌ غنيٌّ في ذلك:

«إعلموا أن الله لم يخلقكم عبثاً، وليس بتارككم سُدىً، كتب آجالكم وقسم بينكم معائشكم ليعرف كل ذي لب منزلته، وأن ما قدّر له أصابه وما صرف عنه فلن يصيبه، قد كفاكم مؤونة الدنيا وفرغكم لعبادته، وحثكم على الشكر وافترض عليكم الذكر، وأوصاكم بالتقوى، وجعل التقوى منتهى رضاه والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة وشرف كل عمل، بالتقوى فاز من فاز من المتقين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾^(١)»^(٢)

٣. الخطاب العسكري:

هنا نمطٌ آخر يختلف بجزئية عن الأنماط الأخرى وهي عنصر الاقتضاب والإيجاز، يشير الى أن كلمات الإمام لا تسير كلها على نسقٍ واحدٍ من الإطالة دون ملاحظة ظرف الخطبة وتفاعل جمهور المتلقين فتدخل سلبية الرتبة، إنما الكلمة عنده (عليه السلام) فاعلة متفاعلة، حيث يستخدم الإمام كلمات موجزة ودقيقة في نفس الوقت لتحرك في السامع إيقاعاً خاصاً ينسجم معه المتلقي وتدب في نفسه الحماسة والتحفز الى حيث يُعبّئ الإمام، ومثال ذلك قوله (عليه السلام):

«أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وسمّاه كرهاً. ثم قال لأهل الجهاد من

(١) النبأ: ٣١.

(٢) تحف العقول، ص ١٦٤ - ١٦٥.

المؤمنين: ﴿.. وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١). فلستم أيها الناس نائلين ما تُحِبُّونَ، إِلَّا بالصبر على ما تكرهون، إنه بلغني أن معاوية بلغه أننا كنّا أزمعنا على المسير اليه، فتحرك لذلك، فاخرجوا-رحمكم الله-، الى معسكركم بالنخيلة (حتى ننظر وننظروا ونرى وتروا) «^(٢).

و بالنتيجة، استطاع الإمام الحسن (عليه السلام) أن يُقدِّم في الجانب الخطابي فكر الكلمة؛ والذي عكس فيه من زاوية لغوية بيانية فنية علو البلاغة والفصاحة النبوية-العلوية المستمدة من روح الكتاب الكريم ببلاغته وفصاحته، وهو ما أتاح مساحة معرفية لأي متلق طلباً للاستنارة والارتباط بالخط الرسالي.

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم القرشي الأموي الأصفهاني، ص ٦٩.

الفصل الرابع

صلح الامام - نتائج فكرية

إشكالية فكرية :

بالرجوع الى المصادر التاريخية التي تناولت موضوع صلح الإمام الحسن (عليه السلام) مع معاوية، خرجت هناك كتابات وتحليلات بانطباع عام اهتم بتعليل الصلح والظروف التي دعت الى الركون إليه لاسيما من جانب الإمام (عليه السلام). وتركزت هذه التحليلات، بالاعتماد على بعض المرويات التي لا تخلو من عدّة إشكاليات^(١)، وبمنظرة سائدة مفادها: إضطرارية الإمام الى الصلح إمّا بفعل ضعف معسكره أو الضغوط الداخلية أو خوفاً على حياته أو لهذه الأسباب مجتمعة.

و باعتماد هذه النظرة، تبرز إشكالية للصلح من الناحية الفكرية، تمس بدورها وضع الإمام ومقامه الفكري بما لا يتناسب مع حقيقته وكمالاته الرسالية، ولو على مستوى النظر والتفكير، فإنّ القول باضطرارية الإمام للصلح ومصادرة فرضية إرادته وتخطيطه المسبقين، يُقلّص كثيراً من مساحة الإمام الفكرية وحيويّته القيادية في الأمة، كما أنّه لا يعكس صورة دقيقة لمجريات الأمور وتفاصيلها.

في حين أنّ هناك نظرة أخرى، لم تأخذ حقّها من التحريّ والتتبّع، يمكن لها أن تقدّم إجابة أكثر عمقاً لموضوع الصلح، بما يفتح الباب واسعاً لتلقي فيوضات الإمام المعرفية ونكاته الفكرية، ولها أن تسهّل على المتمسكين بهدي النبوة استخلاص نتائج الصلح

(١) يُنظر كتاب الإمام الحسن في مواجهة الانشقاق الأمويّ، سامي البدري، ص ١١٥ وما بعدها.

والاستفادة منها.

نظرة متأملة:

من خلال ما سبق تناوله من مواضيع البحث، يمكن استخلاص حقيقة مفادها أنّ أي فعل يصدر عن الإمام لا يأتي اعتباطاً إنما عن إرادة واعية، وأبسط مثال على ذلك، ما جاء في حديث الثقلين المشفوع بها يُخلفه الإمام وراءه في الأمة من منظومة عمل متكاملة لا تغادر صغيرة أو كبيرة دون استيعابها بأنماط السنة المعروفة: القولية والفعلية والتقريبية، إنطلاقاً من واقع وظيفته التبليغية.

و بموازاة ذلك، يردف كل فعل صادر عنه ﷺ فكرة عالية المستوى في موضوعها وغايتها، بمعنى، أنّ هناك ارتباطاً منطقياً دائماً بين قرار الفعل وغايته في الفعل الصادر عن الإمام، ليغدو كل عمل ناتج عن ذلك بقيمة فكرية ناضجة وتامة. وهذا الأمر بطبيعة الحال، يُعطي أنموذجاً حياً للإنسان الكامل والفكر الكامل.

لذا، واعتماداً على ما رسمته هذه الصورة، وبالرجوع الى ما تقدّم عرضه من جوانب فكرية تخلّلت كلمات الإمام الحسن ﷺ، ومع حتمية وجود جانب فكري رافق كل قضية من قضايا الإمام ومنها قضية الصلح، يُصبح من الضروري تبني رؤية أخرى تحفظ لفكر الإمام مكانته التي امتاز بها، مع نتائج واضحة يمكن استخلاصها من هذه الرؤية، عرض لبعضها الإمام وترك البعض الآخر للأجيال اللاحقة لتعمل فكرها وتشير إليه وتلمس نتائجه.

و من هنا، فإنّ الصلح عند الإمام جاء فعلاً واعياً إنّ على مستوى الأهداف أو النتائج، كأنّه قد أعدّ سلفاً. وكان ثمرة هذا الفعل الجوهرية هي: قلب المعادلة الفكرية من معسكر المعادين لخط الإسلام المحمّدي بزعامة معاوية الى مصلحة منبعه الأصل

بقيادة أهل البيت عليهم السلام، بما رافق ذلك من إرهاباتٍ وتحدياتٍ أضفت لقضية الصلح آفاقاً أخرى.

وترسّخ هذه النظرة ما صرّح به الإمام الحسن عليه السلام، وقد سُئل عليه السلام بعد الصلح إن كان يريد الخلافة، فأجاب مُبيناً مقدرته السابقة للصلح وناشياً عزمه نقضه: «قد كانت جماجم العرب في يدي، يُحاربون من حاربت ويُسلمون من سالت تركتها ابتغاء وجه الله وحقن دماء أمة محمد، ثم أثيرها بأتياس أهل الحجاز!»^(١) وفي هذه الكلمة إشارة واضحة على أنّ المبادر لاقتناص ثمرة الصلح هو الإمام نفسه، وقد كشف في كلمة أخرى عن قصده من هذا الصلح في جوابه لأبي سعيد: «... يا أبا سعيد، علّة مصالحتي لمعاوية علّة مصالحة رسول الله صلى الله عليه وآله لبني ضمرة وبني أشجع ولأهل مكة حين انصرف من الحديبية، أولئك كفارٌ بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفارٌ بالتأويل»^(٢).

و يدعم ذلك ما جاء في كلمات المعصومين التي أشادت بتخطيط الإمام الحسن عليه السلام وعمله، فقد جاءت كلماتهم موفقةً ما بين حجم التحدي وعظمة الفعل، وكاشفةً عن موفقية عمل الإمام وملائمته لسقف النتائج المرتفع، فعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ ابني هذا سيّدٌ، ولعلّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٣)؛ وعن الإمام الباقر عليه السلام: «و الله للذي صنعه الحسن بن علي عليه السلام كان خيراً لهذه الأمة ممّا طلعت عليه الشمس»^(٤)؛ وهو مثله قول الصادق عليه السلام بحق جدّه أمير المؤمنين: «لسيرة عليّ عليه السلام في أهل البصرة كانت خيراً لشيعة عليّ عليه السلام ممّا طلعت عليه الشمس، إنّهُ علم أنّ للقوم دولة فلو

(١) علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ المعروف بـ (الصدوق)، ج ١، باب ١٥٩، تتمّة ح ٢، ص ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ح ٢، ص ٢٠٨.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب ٩، ح ٢٧٠٤، ص ٥١٦.

(٤) أصول الكافي، الروضة، ح ٥٠٦، ص ٨٢٧.

سباهم لسبب شيعته...»^(١).

و بشيء من التأمل في النصوص الواردة أعلاه مع استذكار أحد المهام الرئيسة الملقاة على كاهل الإمام كونه هادياً للناس، كقول الرسول ﷺ لعليّ عليه السلام حين بعثه لليمن: «... يا علي، لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه، وإني لله لأن يهدي الله على يدك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»^(٢)، يمكن التعرف أكثر على ذلك الجانب الفكري عند الإمام عليه السلام في استداره المنفعة للصالح العام، لكونها هدفاً حيواً يستحق التضحية من أجله وهي ميزة عند الإمام قدّمها فوق كل اعتبار، وقد أعرب عنها مراراً لا سيما في وصيته لأخيه الحسين عليه السلام: «... وبالله أقسم عليك أن تُهريقَ في أمري حِجْمةً دم»^(٣).

الرابط الفكري بين الصلحين:

من خلال حديث الإمام الحسن عليه السلام المتقدم عن ارتباط صلحه بصلح جدّه المصطفى ﷺ في الحديبية، يمكن الالتفات الى وجه الشبه بين الصلحين في الأسباب والنتائج بالنقاط العامة، وهو ما يدعو الى عقد صورةٍ من صور المقارنة بينهما مع أخذ الناحية الفكرية بعين الاعتبار، في السبب والنتيجة.

سبب فكري مشترك:

فعلى مستوى السبب الفكري في صلح الحديبية، جاءت الدعوة الإسلامية، لكونها نظاماً رسالياً سماوياً بمنظومة عملٍ ثوريةٍ متحرّرة من قيود الجاهلية وحاملةً مضموناً إنسانياً شاملاً مع قيمٍ فكريةٍ عالية، في مسارين: داخليّ: تعمل فيه لاستقطاب البيئة

(١) فروع الكافي، ج ٥، كتاب الجهاد، الباب ١٠، ح ٤، ص ٢١.

(٢) تهذيب الأحكام، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، ج ٦، باب ٦٢ (الدعوة الى الإسلام)،

ح ٢، ص ١١١.

(٣) الإرشاد، مصدر سابق، ص ١٧.

العربية نحو الدين الجديد؛ وخارجي: تُحقّق فيه عنوان الهداية العامة لجميع البشر.

و قد قابل ذلك ردّة فعل معادية وعنيفة من قبل قوى الجاهلية المتزمتة التي لا تؤمن بهذا التغيير القادم، وهو الأمر الذي أدّى سريعاً للاصطدام بين هاتين الجبهتين المتضادتين، مخلّفاً تشويشاً وتعتيماً إعلاميين هائلين حشّدت له جبهة الرفض، فكان الأنسب للدعوة الجديدة امتصاص زخم الدعاية المضادة وإرجاع الصراع الى دائرته الفكرية سعياً منها لتحقيق المسارين المطلوبين فيما بعد، دون الانغماس في النزاع المسلّح الذي كانت مضطرةً إليه، وهذا ما تمّ تحقيقه على يدي الرّسول الاعظم (عليه السلام) في الانفتاح على الآخر من بوابة الصلح رغم امتلاكه أسباب النصر.

أمّا بالنسبة للسبب الفكري لصلح الإمام الحسن (عليه السلام)، فلا اختلاف فيه مع ذلك السبب، إلّا من ناحية المسمّى، وهو قوله (عليه السلام) المتقدّم: «.. أولئك كفارٌ بالتنزيل، ومعاوية وأصحابه كفارٌ بالتأويل...». فإنّ النزاع الحاصل نتيجة إثارة الحروب والقتال التي دبّرها أعداء علي (عليه السلام) قد أفرزت شقاقاً على المستوى الفكري، كان أخطره أن يتحوّل الى انشقاقٍ عقائدي بين أبناء الأُمّة لا يبعد أن يرتدّ بالعرب الى جاهليتهم الأولى، وهنا يرجع الدين الى المربع الأول وتذهب معه جهود وتضحيات الرّسول ووصيّهِ أدراج الرياح.

فما كان من الإمام الحسن (عليه السلام) إلّا أخذ المبادرة والتّصدي لهذا الخطر وتفكيك الحملة الإعلامية المعادية التي أججها معاوية ضد علي (عليه السلام) وحزبه، خصوصاً بعد إلصاق اسمه بمقتل عثمان، بحملةٍ أخرى معاكسة تحترق صفوف الشّاميين، القسم المضلّل من المسلمين، وتبثّ فيهم التساؤلات عن قبول الحسن (عليه السلام) للصلح وهو بعد في أوج قوّته، وما كان ذلك ليصير إلّا بالانفتاح عليهم بواسطة الصلح، وهو عين ما فعله الرّسول مع عوام العرب ومضللّيهم بواسطة صلح الحديبية.

نتائج فكرية مشتركة :

و على مستوى النتيجة الكلية، أثمر الصّلاحان نتائج تمهيدية أسست لقطف ثمار نتائج دائميّة، ففي صلح الحديبية، جاءت النتائج الفكرية الممهّدة عبر تثبيت حقوق للدين الجديد ما كان ليكسبها بالسيف فقط، منها ما كشفتها شروط الصلح لا سيّما الشرط المتعلق بعدم استكراه المسلمين على ترك دينهم، وحقّهم في عبادة الله بمكة بحريّة وعلانية^(١).

و هذا ما مهّد لجني ثمار النتيجة الدائمة ببلوغ الفتح الداخلي بدخول العرب للإسلام إثر الاحتكاك المتواصل والتعرّف على طبيعة ومبادئ الدعوة المحمدية عن كثب، تبعه التقدّم نحو أصحاب الفكر الآخر من يهودٍ ونصارى، والتأثير عليهم ثقافياً عن طريق تعاليم الكتاب وعلم الرسول، ثم التفرغ والانطلاق نحو الفتح الخارجي من غير العرب، وهو ما تحقق فيما بعد.

و قد انطبق هذا الناتج الفكري أيضاً على صلح الإمام الحسن عليه السلام، فقد أسس الجانب الإجرائي في شروط الصلح لنتائج مهمة كانت قد أخفّتها أو موّهت عليها السياسة الإعلامية للسلطة فيما بعد إلّا أنّها ظلّت موجودة لمن تأملها، وأبرز هذه الشروط تأثيراً هو ما اشترطه الإمام عليه السلام من رفع شتم أمير المؤمنين عليه السلام^(٢) وأن لا يُذكر إلّا بخير^(٣)، وأمان الناس^(٤) وأمان أصحاب علي عليه السلام وشيعته^(٥). وهو ما أكّد تمهيد

(١) يُنظر تفسير القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي، ج ٢، ص ٣١١.

(٢) يُنظر الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بـ (ابن الأثير)، ج ٣، حوادث سنة ٤١، ص ٢٧٢.

(٣) يُنظر مقاتل الطالبيين، ص ٧٥.

(٤) يُنظر شرح نهج البلاغة، ج ١٦، ص ٢٠٣.

(٥) يُنظر مقاتل الطالبيين، ص ٧٥.

الإمام (عليه السلام) للانفتاح الفكري إن لم يكن لنشر فكر أهل البيت (عليهم السلام) فللحفاظ عليه في أقل تقدير وهو ما تحقق.

فقد سار ذلك كما دبر الإمام وحقّق نتائج مهمة منها: ما أدركه المعسكر الشامي كما المنصفون لقضية الشتم ورفعته، من أنّ هذا الفعل هو إجراءً سلطويّاً لا ينمّ عن دين أو خلق، فلو كان الشتم عملاً عقائدياً صائباً ما كان لمعاوية أن يرفعه وهو خليفة الرسول المفترض؛ ومنها أنّ وجود مناخٍ من الحرية والأمان وعدم التعرض للشيعة فسخ المجال للتواصل الاجتماعي والفكري عبر السفر أو التجارة واختراق أسوار دمشق من الداخل فكرياً وكشف خواء الإعلام الأمويّ من الداخل، وهو ما لم يُطقه معاوية كما سيأتي.

تفصيل في النتائج:

يتّضح مما تقدّم أن هناك سبباً فكرياً عاماً من وراء صلح الإمام الحسن (عليه السلام) من دون إغفال أسبابٍ أخرى للصلح لم يتم التطرّق لها تقييداً ببحث النتائج الفكرية المتعلقة بالموضوع، وأن النتائج الأولى قدّمت لنتائج مفصلية كان لها تأثير فكري واضح على الساحة الإسلامية، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

١. تعريف المسلمين جميعاً لا سيما في الشام من هو علي الذي وُجّهوا لمحاربته ومن هم أهل بيته، وما هو موقعهم من الرسالة والرسول من أجل موالاتهم؛ فإن لم يكن، فللاحتجاج عليهم بعد المعرفة وترك المجال لهم في الاختيار، فما كان الإمام الحسن ليقاتل بقية أهل الشام ممن لم يحضر قتال عليّ في صفين وما تلاها وفيهم من لا يعرفه، وقد تقدّم قوله (عليه السلام) لعلي (عليه السلام): «.. يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه..».

٢. نشر التراث المحمديّ الأصيل عن طريق أهل البيت (عليهم السلام) بفسح المجال لأصحاب عليّ لتأدية رسالتهم في بثّ علوم أهل البيت (عليهم السلام) وأخبارهم من قلب

الشام، ومن شواهد ذلك، رجالٌ أمثال: يعلى بن مرة الثقفي وزيد بن وهب الجهني وعبد الرحمن بن أبي ليلى^(١).

٣. إسقاط قناع الإسلام الأمويِّ وهالته الإعلامية بعد الذي عبَّأ وحُشد له، وفضح أَلأعيه أمام الأمة بكشف حُجب التضليل عن عوام الناس وتعريفهم الحقائق، فقد: «.. كان الفتح المبين في الشام بظهور بطلان معاوية وكذب إعلامه وظهور ظلامه علي وحقانيته واختلاط العراقيين بالشاميين في الشام وموسم الحج ليشهدوا حقائق غيِّبها الإعلام القرشي عنهم»^(٢).

وقد تمَّ كلُّ ذلك انطلاقاً من مسؤولية الإمام لهداية الناس واستنقاذهم من براثن الجهل والتضليل، ليُترجم فعله ﷺ حرصاً منه على حاضر الأمة ومستقبلها، قام به ﷺ من موقف القدرة والإرادة لا عن موقف ضعف واضطرار.

ما وراء النتائج:

إن لنتائج صلح الإمام المعلنة آثاراً يُمكن استنباطها بقليلٍ من إدامة التأمل الذي طالما دعا إليه الإمام في كلماته، فإن القول باضطرار الإمام للصلح ما كان ليحقق نتائج بالعمق التي وصل إليها؛ ولا كانت أحاديث المعصومين لتدعمها بالمدح والإشادة، وهذا يعني: أنَّ الروايات التي أفادت نقض معاوية للصلح قد جرى استقطاعها ومزامنتها توقيع الاتفاق، لإظهار دهاء معاوية المتغلب على حساب فكر الإمام الإسلامي الأصيل، فلا بد إذن من القول: إنَّ الإمام قد استطاع أخذ فترته الزمنية الكافية واستغلالها من جميع النواحي وبأكمل وجه.

ولاستشفاف ما وراء النتائج لا بد من التعرّف الى:

(١) يُنظر كتاب الإمام الحسن في مواجهة الانشقاق الأمويّ، ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٧.

«ان معاوية بعد ان بايعه أهل الشام بادر يطلب الصلح من الإمام الحسن الذي بايعه أهل العراق حاكماً خلفاً لأبيه علي وهو ان يبقى الحسن (عليه السلام) على البلاد التي بايعه أهلها وهو النصف الشرقي للبلاد الاسلامية، وان يبقى معاوية على النصف الغربي من البلاد الإسلامية حيث بايعه أهلها على الحكم»^(١).

و بطبيعة الحال ما كان معاوية يُقدِّم على خطوة طلب الصلح لو كان على دراية بضعف جيش الإمام المفترض؛ كما أن ابتداءه بطلب الصلح لا يدع له المجال لاشتراط السيادة المطلقة على البلاد الاسلامية وتنازل الإمام عن حقه مباشرة حتى لو فُرض علمه بوضع جيش الإمام الداخلي المهزوز كما تفترضه الروايات المشكوك في صحتها متقدمة الذكر.

فمن المعقول، أن ينصاع لتنفيذ شروط الصلح ابتداءً بانتظار الاطمئنان الى قوّته وهو ما طال لعشر سنوات، ولم يدر في خلد معاوية أن يباغته الإمام بالتنازل المشروط عن ما تحت يده فما كان منه إلا الموافقة المفتوحة وبأي شكل يفرضه الإمام، ومن هنا انتقلت ميزة الأسبقية من معاوية الى الإمام الحسن الذي استطاع بأريحية تامّة أن يستغلها مستفيداً من تعلق معاوية المحموم بحبال السلطة؛ وحافظ على الإسلام الأصيل وحماء من نفس المصير الذي خافه علي (عليه السلام) واضطره الى التنازل عن حقه في السلطة السياسية، فتمكّن الإمام، في النهاية، من منع تقسيم البلاد وتفرّق المجتمع الإسلامي.

و من جانبٍ فكريٍّ، استطاع الإمام نقل الحديث النبويّ والعلويّ الى الأمة بعمل حلقة وصلٍ بين زماني الإمام علي والإمام السبط الشهيد، ويمكن تأريخياً ملاحظة أن الإمام قد هيأ لأصداً كربلاء بسعيه (عليه السلام) للفتح الشاميّ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك: ما جرى في موقعة السبايا من تمويه السلطات بأنهم سبايا خوارج، وضجيج الناس

(١) يُنظر كتاب الإمام الحسن في مواجهة الانشقاق الأمويّ، ص ٣٣.

في مجلس يزيد بالبكاء بعد أن أَمَاطَ الإمام السَّجَّادُ (ع) لهم الحقائق المَغَيَّبةَ حتى اضطَرَّ يزيد، وهو في أوجِّ طغيانه، الى مَمَالَأَتِهِمْ^(١). وهذا كاشفٌ عن تأثير انفتاح سنوات ما بعد الصلح، الذي أسَّس لقاعدة تشييعٍ فطري بين الشاميين تجلَّى في معرفتهم لأهل البيت.

و في آخر مثالٍ أُشِرَّ الى تحقُّق الفتح الحسني ونجاحه: إدراك معاوية هذه النتائج أخيراً حتى ضاق ذرعاً بها وسعيه لاغتيال الإمام الى أن تمَّ له ذلك، ثم إعلانه نقض العهد للتخلُّص من تبعاته، تعبيراً منه عن العجز المطلق إزاء تفكير الإمام وتديره المُحَكِّمِينَ، فما قابل الفكر إلا بالقهر، وهذه نتيجةٌ تؤكِّد علوَّ كعب الإمام في الجانب الفكري، وأن فكره المرتبط بالسَّاء لا يموت بفعل طغيان بل يظل يؤتي ثمره في كلِّ حين.

(١) يُنظر: مقتل الحسين (ع) ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء المشتهر ب (مقتل أبي مخنف)، للوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي الغامدي المعروف ب (أبي مخنف)، في رجوع السبائا الى المدينة، ص ٢١٨.

خلاصة البحث

قدّمت كلمات الإمام الحسن السبط (عليه السلام) الفكر الإسلامي الرصين بشقيه الكتاب والسنة النبوية، في صورة متنوعة متكاملة. وقد التفتت في هذه الصورة جوانب فكرية متعدّدة وزاخرة، انعكست إيجاباً على ميادين إنسانية عامّة ومتنوّعة، مشكّلة روافد عديدة مدّت حياة المسلمين بزادهم المعرفي، وموجهة نحو التمسك بمنهج الشريعة السمحاء، ليُنهل منها لما فيه خير الدنيا والآخرة.

وكان أن ظهرت هذه الجوانب، في البحث، في الموروث الروائي للإمام (عليه السلام) والذي كان مرآة عاكسة كشفت الصلة الوثيقة للإمام مع بعده الفكري، حيث ضمّ الموروث قيمة فكرية نوعية وبرؤية واضحة تمثّلت خطاباً فورياً صدح به الإمام داعياً الناس جميعاً الى مشروع الفكر والتفكير، وقد سلّط فيه الأضواء على هذا البعد المهم والمجهول من حياة الإنسان العاقل.

كما أظهر البحث في كلمات الإمام جانباً آخر غطّى مساحة واسعة من مهام الإمام على مستوى: التراث العقائدي والتفسييري والفقهية، كعيّنة مجملية من مهامه (عليه السلام) التي مسّت بشكل أكثر قرباً شؤون المجتمع الإسلامي وعملت على تلبية حاجاته ومعالجة مشاكله ومتطلباته الفكرية الضرورية لتحسينه من خطري الجهل والظلم.

ولأهمية ما حققته كلمات الإمام (عليه السلام) في جوانبها الفكرية المتعددة، اهتم البحث بتقديم دراسة مختصرة تناولت الجانب الخطابي في كلماته (عليه السلام). والتي خرجت بمحصلة تأكّد فيها عمق المستوى المعرفي في مساحة تفكير الإمام وشدة امتزاج الفكر الشامل

والرفيع مع كلماته ﷺ، توجيهاً ومصادقيةً ووضوحاً وبأنماطٍ خطابيةٍ متعددة.

و في النهاية، ختم البحث توثيق العناوين السابقة بنحوٍ تطبيقي على مخرجات صلح الإمام الحسن ﷺ ودلالاته، حيث تمّ استخلاص النتائج الفكرية العملية من خلال ما أفرزته كلماته ﷺ في هذا الموضوع المفصلي: فكراً وسلوكاً نجانبنا لتحقيق غايةٍ مثلى حافظ بها الإمام على الفكر كله بل على الأمة جمعاء.

المصادر

القرآن الكريم.

- ١ لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٢. اختيار معرفة الرجال المعروف بـ (رجال الكشي)، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠هـ)، تحقيق جواد القيومي الإصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم-إيران، ط١، ١٤٢٧هـ.
٣. الإرشاد في معرفة حُجج الله على العباد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بـ (الشيخ المفيد)، (ت ٤١٣هـ)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
٤. إرشاد القلوب، الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي، (من أعلام القرن الثامن الهجري)، تحقيق هاشم الميلاني، دار الأسوة، طهران-إيران، ط٢، ١٤٢٤هـ.
٥. الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق طه محمد الزيني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة-مصر، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ٦ لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٧. أعلام الدين في صفات المؤمنين، الحسن بن أبي الحسن الديلمي، (من أعلام القرن الثامن الهجري)، تحقيق مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- ٨ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية- مؤسسة البعثة، دار الثقافة، قم-إيران، ط١، ١٤١٤هـ.
٩. أمالي الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي المعروف بـ (الصدوق)، (ت ٣٨١هـ)، تقديم حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٠. الإمام الحسن عليه السلام في مواجهة الانشقاق الأموي، سامي البدري، دار الفقه للطباعة والنشر، قم-إيران، ط١، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

١١. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، محمد باقر المجلسي، (ت ١١١٠هـ)، مؤسسة الوفاء، بيروت-لبنان، ط ٣، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
١٢. بصائر الدّرجات، أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، (ت ٢٩٠هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
١٣. تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، حسن الصدر، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، بغداد-العراق، ط ١، ١٣٧٠هـ-١٩٥١م.
١٤. تاريخ الرسل والملوك المعروف بـ (تاريخ الطبري)، (ت ٣١٠هـ)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٢، بلا.
١٥. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، (ت ٢٩٢هـ)، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.
١٦. نُحْفُ العقول عن آل الرسول ﷺ، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحرّاني، (من أعلام القرن الرابع الهجري)، تقديم وتعليق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط ٧، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
١٧. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، (ت ٩١١هـ)، تحقيق أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر، بيروت-لبنان، ط ٢، ١٤١٥هـ.
١٨. تفسير الإمام الحسين الأثري التطبيقي، محمد علي الحلو، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة، ط ١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٩. تفسير القمّي، أبو الحسن علي بن إبراهيم القمّي، (من أعلام القرنين الثالث والرابع الهجريين)، تصحيح وتعليق وتقديم طيّب الموسوي الجزائري، مطبعة النجف، ط ١، ١٣٨٧هـ.
٢٠. تنزيه الأنبياء، أبو القاسم علي بن الحسين الموسوي المعروف بـ (الشريف المرتضى)، (ت ٤٣٦هـ)، انتشارات الشريف الرضي، قم-إيران، ط ١، ١٣٧٦هـ ش.
٢١. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بـ (مجموعة ورام)، أبو الحسين ورام بن أبي فراس المالكي الأشتر، (ت ٦٠٥هـ)، مكتبة الفقيه، قم-إيران، ط ١، ١٣٧٦هـ.
٢٢. تهذيب الأحكام-في شرح المقنعة للشيخ المفيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠هـ)، ضبط وتصحيح وتخريج وتعليق محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٢٣. التوحيد، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الصدوق)، (ت ٣٨١هـ)،

- تصحيح وتعليق هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم-إيران، ط ١٠، ١٤٣٠هـ.
٢٤. جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، (ت ٢٧٩هـ)، بيت الأفكار الدولية، الرياض-السعودية، بلا.
٢٥. خزائن الكتب القديمة في العراق، كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، ط ٢، ١٩٨٦م.
٢٦. الخطاب في نهج البلاغة-بُنيته وأنباطه ومستوياته (دراسة تحليلية)، حسين العمري، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١، ٢٠١٠م.
٢٧. دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (الإمامي)، (من علماء القرن الرابع الهجري)، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط ٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
٢٨. رجال النجاشي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الأسدي الكوفي، (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق موسى الشيرازي النجاشي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم-إيران، ط ٦، ١٤١٨هـ.
٢٩. شرح نهج البلاغة، أبو حامد عز الدين بن أبي الحديد، (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
٣٠. الشّائل المحمدية والخصائل المصطفوية، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (صاحب السنن)، (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق سيد بن عباس الجلبي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة-السعودية، ط ١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٣١. صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، (ت ٢٥٦هـ)، إعتناء أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض-السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٣٢. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت ٢٦١هـ)، إعتناء أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الرياض-السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٣٣. العدد القويّ لدفع المخاوف اليومية، رضي الدين علي بن يوسف بن المطهر الحلي، (من أعلام القرن الثامن الهجري)، تحقيق مهدي الرجائي، نشر مكتبة آية الله المرعشي العامة، قم-إيران، ط ١، ١٤٠٨هـ.
٣٤. علل الشرائع، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المعروف بـ (الصدوق)، (ت ٣٨١هـ)، دار المرتضى، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
٣٥. فروغ الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني، (ت ٣٢٩هـ)، منشورات الفجر، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

٣٦. الفهرست، محمد بن اسحاق المعروف بـ (ابن النديم)، (ت ٤٣٨هـ)، دار المعرفة، بيروت-لبنان، بلا.
٣٧. الكامل في التاريخ، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري الشيباني المعروف بـ (ابن الأثير)، (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٣٨. كشف الغمّة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الإربلي، (ت ٦٩٣هـ)، دار الأضواء، بيروت-لبنان، ط ٢، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٣٩. كفاية الأثر في النصوص على الأئمة الاثني عشر، أبو القاسم علي بن محمد بن علي الخزّاز القمّي الرازي، (من أعلام القرن الرابع الهجري)، تحقيق محمد كاظم الموسوي-عقيل الربيعي، مركز نور الأنوار في إحياء بحار الأنوار، قم-إيران، ط ١، ١٤٣٠هـ.
٤٠. كمال الدين وتأمّل النعمة، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (الصّدوق)، (ت ٣٨١هـ)، تصحيح وتقديم وتعليق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت-لبنان، ط ١، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
٤١. المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٧٤ / ٢٨٠هـ)، إعتناء وتصحيح وتعليق جلال الدّين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، قم-إيران، ط ٢، بلا.
٤٢. مسند الإمام المجتبي أبي محمد الحسن بن علي عليه السلام، جمع وترتيب عزيز الله العطاردي، عطارد، إيران، ط ١، ١٤١٥هـ.
٤٣. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي، دار صادر، بيروت-لبنان، ط ١، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
٤٤. معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرّواة، أبو القاسم الموسوي الخوئي، مؤسّسة الإمام الخوئي الإسلامية، ط ٥، بلا.
٤٥. مقاتل الطالبين، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم القرشي الأموي الأصفهاني، (ت ٣٥٦هـ)، شرح وتحقيق أحمد صقر، منشورات الشريف الرضي، قم-إيران، ط ٢، ١٤١٦هـ.
٤٦. مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموقّق بن أحمد المكيّ الخوارزمي، (ت ٥٦٨هـ)، تحقيق محمد السهاوي، دار أنوار الهدى، قم-إيران، ط ١، ١٤١٨هـ.
٤٧. مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء المشتهر بـ (مقتل أبي مخنف)، لوط بن

يحيى بن سعيد بن مخنف بن سالم الأزدي الغامدي المعروف بـ (أبي مخنف)، (١٥٧هـ)، مكتبة الألفين، الكويت، ط٢، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٤٨. مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب، (ت ٥٨٨هـ)، دار الأضواء، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٤٩. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج ٤، ط ١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

المحتويات

المحتويات

٩	أروع البلاغة في عبارة واحدة للإمام المجتبى / عباس اسماعيل سيلان
٤٧	الخطاب الحسيني الشريف قراءة استنطاقية ... / د. عهود عبد الواحد العكيلي
١٠٥	المُضمّنات التّداويّة وأثرها في فهم الخطاب وتفسيره ... محمد منصور حسين البياتي
١٤١	مَوْضُوعِيَّةُ الْمَنْظُومَةِ الْخُطَابِيَّةِ عِنْدَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ (ع) / د. رحيم كريم علي الشّريفّي
١٧٧	الفكر العسكري للإمام الحسن بن علي (ع) / اعداد الدكتور عماد علوّ الربيعي
٢٣٥	الإعلام وأثره في إنكسار جيش ... / الباحث كريم جهاد الحساني
٢٨١	آليات الحجاج اللغوية ... / د. عبد الإله عبد الوهاب هادي العرداوي
٣١٣	الصلح الحسيني بين الحفاظ ... / م. علاء ابراهيم رزوقي الموسوي
٣٥٩	الشاهد القرآني في خطب الإمام الحسن (ع) / أ.م. د. فضيلة عبوسي محسن العامري
٣٨٥	أبعاد التفسير عند الإمام المجتبى (ع) / أ.م. د. علي مجيد البديري
٤١١	الحِكْمَةُ الْقِيَادِيَّةُ عِنْدَ... / الباحث م. حيدر محمد هناء حميد الشلاه
٤٥١	الجوانب الفكرية في كلمات الإمام الحسن عليه السلام / مهتد مضر رؤوف

